

الدكتور عبد الرحيم محمود

الرعاية لحقوق الله

لأبي عبد الله الحارث المحاسبى



دار المعارف

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَ لَنَا دِينَنَا وَخَلَقَ لَنَا

الدكتور عبد الحليم محمود

الترغيب بالحقوق والله

لأنى عبد الله الحارث المحاسبى

الطبعة الثانية



دار المعارف

مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن الحارث بن أسد المحاسبى بسنده أن رسول الله ﷺ ، قال : « أنقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » .
ولقد وضع المحاسبى هدفاً له في الحياة يسعى إلى تحقيقه ، هو « حسن الخلق » . لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ، ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه . أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية على أساس من القرآن والسنة لا ينجيد عنه .
وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً ومقالاً : « إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعي الله ؟ ومن استغنى بشيء دون الله ، جهل قدر الله » .
ولم يجهل المحاسبى قدر الله ، فلم يستغن بشيء دون سبحانه .
وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبى أخذ في نشر حسن الخلق فيه بسمته . واتباعه للسنة .
وبدروسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب وبكثبه التي تبين حسن الخلق : وسائل وغايات ، والتي لا يزال لها إلى الآن أريج عطري يتجدد على مر الزمن . فيهدى الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

~ ~ ~

ولكن من هو المحاسبى ؟ ومالنا نتعجل . فتحدث عن المحاسبى في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟

إنه الحارث بن أسد المحاسبى ، وكنيته : أبو عبد الله .
ولقد نشأ بالبصرة . واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين جازم . ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة . واستقر به المقام فيها .

متى ولد؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده إذ أن الكتب القديمة التي تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن الملايسات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد السابع من القرن الثاني الهجري . أما وفاته فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة . وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ؛ وقد يمكننا أن نقول : « استنجا » إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم . ويروى المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً ؛ ذلك أن والده كان يقول بالقدر : أى أنه كان قدرياً يدين بمذهب المعتزلة ، فلم يستغ المحاسبي أن يشترك في الميراث ، توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين . وما من شك في أن المحاسبي امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ .

هذه الحادثة ترشد إلى أمور :

الأمر الأول : هو أن أسرة المحاسبي كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثاني : هو أن والد المحاسبي كان من الذين اشتركوا في الثقافة الدينية ، والجدل الكلامي ، وساهم في ذلك بنصيب وحدد المعسكر الذي يقف جندياً في جيشه . وما من ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا في صف المعتزلة ، وما كان الذي يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار ، وأن الطريق التقليدي الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذي ترشد إليه الحادثة : هو ورع المحاسبي الذي حمله على أن يزهد في الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

وبناً آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبي . يقول الجنيد : كنت كثيراً أقول للحارث : عزلتى أنسى .

فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ! ؟ لو أن نصف الخلق تقريبوا منى ما وجدت بهم أنساً . ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عني ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي ، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبي ، ومواقف المحاسبي منها ، وحديث تلاميذه عنه - وإن كان نادراً - كل

ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .
وما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية قوية ، وبياناً
عابراً عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله : كان الحارث المحاسبى يحىء
إلى منزلنا ، ليقول : اخرج معى نصحر . (نذهب إلى الصحراء) فأقول له :
تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى ، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول
« اخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معى ، فكأن الطريق فارغ من كل شىء ، لا نرى شيئاً
نكرهه » .

فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى :
سلى .
فأقول له : ما عندى سؤال أسأله .
فيقول : سلى عما يقع فى نفسك .
فتتال على السؤالات ، فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت .
ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً .
ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات ورؤية الشهوات » ،
وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم نشيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة
محاولاً السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً .
أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف : فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة
عنه ، وهى طريقة حية : إنها استجابة لما يجب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه .
ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق فإن بعضها كان إسهاماً فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال ،
وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه المحاسبى للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع .

• • •

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى فتحدثنا عن المحاسبى فى القمة ولم نتدرج معه تدرجاً .
طبيعياً .
ولنعد إلى المحاسبى أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكرة نسبياً .
وكانت بغداد حينئذ تخرج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق
الإقامة سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ ، بما لهم من مال وثراء ، وبما لديهم من ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعرًا أو غير شاعر - في صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .
وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية .

وثقافة إسلامية بحتة ، مجاهد في أن تفوز في قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهي .
وجاء المحاسبي بغداد متعلماً ، ومتثقفاً ، أو مستريداً من العلم والثقافة : يتغنى السير على السنين المستقيم ؟

وأخذ في الدرس في جهد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبت الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ، أن تستأثر به وحدها ولكل منها مغرباتها ، ولكل منها منطقها .
ووقف المحاسبي مستوعباً ، متأملاً ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك ما لا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

يبد أن المحاسبي ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخاً زمنياً ، فإنه ترك لنا أثراً نفسياً ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصره ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المتقذ من الضلال » راسماً للإمام الغزالي تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل راسماً له الطريق في حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن ، وكتاب : « المتقذ من الضلال » يجعلنا نستتبع أن التشابه قوى بين المحاسبي ، والغزالي في حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة للمحاسبي ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المتقذ من الضلال صلة وثيقة نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول ، وقد كتبه المحاسبي مقدمه لكتابه : « الوصايا » الذي طبع أخيراً بالقاهرة ، يقول المحاسبي - في مفتتح كتابه ، الوصايا - بعد مقدمة موجزة :

و أما بعد : فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية والله أعلم بسائرهما .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وأتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لى . ورأيت اختلافهم مجراً عميقاً قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصاة قليلة ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فيمن تبعهم ، وأن المالك من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأمر الآخرة لقاءه عسير ووجوده عزيز . ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمه ، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياء ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتزم بعلمه التنظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه . ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف ، فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً .

فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت النظر ، فتبين لى ، فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه . وإجماع الأمة : أن اتباع الهوى يعمى عن الرشاد ، ويضل عن الحق ، ويظلل المكث فى العمى !!

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى . ووقفت عند اختلاف الأمة مراتداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية والفرقة المالكة ، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان . والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة : فى التمسك بتقوى الله .

وأداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسي برسوله ﷺ ، فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره . وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسيين برسوله ﷺ ، المؤثرين الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .
فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم والموصوفين ، أفقوا آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً كما قال رسول الله ﷺ :
« بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء » .

وهم : المنفردون بدينهم .
فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئني ، على اضطراب من عمري ، لاختلاف الأمة ، فأنكشت في طلب عالم ، لم أجد لي من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن في النصح .
فقيض لي الرؤوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإثار الآخرة على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصيح الأمة لا يرجون أحداً في معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته .
يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .
يحبون الله تعالى ، إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابته وسنته ، فقهاء في دينه ، علماء بما يجب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء . ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسنين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين في مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات . تاركين للشهوات ، مجتريين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين في الحلال . مشفقين من الحساب ، وجليلين من المعاد ، مشغولين بشأنهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم . لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة وجزيل الثواب ، وأليم العقاب . ذلك أورثهم الحزن الدائم ، وآلهم المضي ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .
ولقد وصفوا للآداب صفات وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع : بحر لا ينجو من الغرق فيه شبيهى ، ولا يقوم بمحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم واتضح لى نصحتهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ، والمهادون لمن استرشد لهم ، فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .
فتتح الله لى علماً انفتح لى برهانه وأثار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته . ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بمحدوده واجباً على .

فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى وتقلبت فيه بأحوالى .
وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بخدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك وأنى لا أدرك شكره أبداً .
ووجد المحاسنى نفسه حيثئذ فى معسكر أهل السنة على وجه العموم ، وفى تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسنى . ذا طبيعة سلبية ، فكان لا بد من أن يدخل المعركة . ودخل المعركة فى قوة قوية مسلحاً بالعلم والتقوى .
ومن أجل ذلك كان ذا أثر مزدوج .
لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة وأثر باعتباره عالماً باحثاً .
وأثره كعالم ، كان يظهر فى دروسه ومناقشاته ، ويظهر فى كتبه .

كتبه :

أما كتبه فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف . حسياً روى السبكى فى : « طبقات الشافعية » والمناوى فى « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب - في أغلبها الأعم - إنما هي في هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها في أغلبها في علم التصوف والسلوك .
يقول التميمي - كما جاء في الكواكب الدرية - عن المحاسبي :
« هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث والكلام » .
ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها ، بيد أن مسحته الظاهرة ونزعتة الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه ، إنما كانت في التصوف والكلام .
أما كتبه في الكلام ، فإنها قد فقدت ، ولقد رأينا قطعة لا بأس بها من كتبه في الكلام الذي فقد والذي كان عنوانه : « فهم القرآن » .
ومنهجه في الكتاب ، يفهم من عنوانه ، إنه كان يرجع إلى القرآن في الرد ويتخذ منه مرشداً وهادياً .
ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدائها : هو حملة الإمام أحمد بن حنبل عليها .
يقول الخطيب البغدادي ، في كتابه « تاريخ بغداد » (جزء ٨ ص ١١٤) .
« وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره في الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .
ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه : « المنقذ من الضلال » ويفصل الرأي فيها ويحسم المسألة بحل موقف فيقول :
لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي - رحمهما الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة .
فقال الحارث :
« الرد على البدعة فرض » .
فقال ، أحمد :
نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولاً ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟
وما ذكره أحمد : حق ، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية ، ولقد أصاب الإمام التوفيق في رأيه .
وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومها يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : أحمد والمحاسبي متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف في رأى يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام فقلّ تداول الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل بعضها لا يزال موجوداً ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً .

على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل والنحل ، وهو الرأى السلفى ، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان ، وإنما كان إنكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين ، وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو في الوقت نفسه انتصار للإمام أحمد بن حنبل وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته ، رضى الله عنها .

* * *

أما كتبه في أدب النفس وتركبتها وفي الإنابة إلى الله والرجوع إليه وفي الرعاية لحقوق الله وفي التصوف على وجه العموم : فقد بقى منها كثير عرفنا عنه جملة صالحة لاتزال مخطوطة ، وطبع البعض في أوربا والقاهرة ، وسوريا .
ونتحدث هنا في إيجاز عن بعض هذه المؤلفات ، ثم نفصل القول في كتاب الرعاية .

١ - كتاب الوهم :

أول ما طبع للمحاسبي : « كتاب الوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧م وقد عني الدكتور اح. أربرى ، وكتب مقدمته الدكتور أحمد أمين ، وفي المقدمة يقول عن الكتاب :
« نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه وبعبارة أخرى خياله - في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من : سعادة وشقاء ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القيادة فتخيل ما تخيل وصور ما صور فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها وفصل مواقفها وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها في نفوس القارئ والسامعين أكبر الأثر وأبلغه » .

٢- رسالة المسترشدين .

وطبع له في حلب رسالة المسترشدين « حقه ونخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غده » وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبي الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره ومنهاج ذوى الألباب - كما تحدده الرسالة - إنما هو رعاية صدور الشريعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وما اجتمع المهتمون من الأئمة وهذا هو الصراط المستقيم الذى دعا إليه عباده وقال جل وعز :
(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ » والرسالة إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله السالكين إليه .

٣- كتاب الوصايا :

وطبع له فى القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » ، تحقيق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا . والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا أو النصائح الدينية والنفعات القلمية لنفع جميع البرية » ، وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب متين الحدة ، وهو أقل تعمقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤- كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبي ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعائة وستين صحيفة من القطع الكبير . وهو على كل حال أهم كتبه فى نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبي إلا كتاباً واحداً : فإنه يكون « الرعاية » وهو بالنسبة للمحاسبي ، كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى .

ويبدأ المحاسبي ، كتاب « الرعاية » بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبتك به لعل الله عز وجل أن يفتحك بفهم ما أجبتك عنه : من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها ، فإن الله تبارك وتعالى ، أخبرنا في كتابه : أنه من استمع كما يجب الله ويرضى ، كان له فيما يستمع إليه ذكرى ، يعنى : اتعاطاً . ثم يذكر المحاسبي الآيات الدالة على هذا الأحاديث .

ويرى القارئ في هذا النص الذى نقلناه من الصحيفة الأولى للكتاب أمرين : الأمر الأول : أن المحاسبي ، يفترض مخاطباً يخاطبه ، أو سائلاً يسأله والمحاسبي يجيبه . والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق : أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف . وما من شك في أن بعض الأسئلة التى أوردها المحاسبي قد سئلها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض كتب المحاسبي ألف استجابة لأسئلة .

يبد أن كتاب « الرعاية » يظهر فيه - فى وضوح - من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد الظن بأنه ألف استجابة - مجرد استجابة - لأسئلة وقتية .

أما الأمر الثانى الذى يتبينه الإنسان من النص ، فهو أن المحاسبي يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه فى آرائه ، إنه يقول :

« فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا فى كتابه ... » .

وهذا التعبير ، أو ما فى معناه : سار فى جميع أجزاء الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة .

وقد كان المحاسبي من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ، وتلقى عنه أعلام السنة . وبعد أن قدم المحاسبي ، ضرورة حسن الاستماع ، بدأ فى شرح معنى : الرعاية لحقوق الله ، وهى أمر عظيم أصبح عامة الناس - كما يقول المحاسبي - له مضيعين : وما من شك فى أن : « كل ما أمر الله عز وجل بالقيام به ، قد أمر برعايته » « وكل حق أوجبه الله جل وعز على عباده فى خاصة أنفسهم ، أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه والقيام به ، وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت : « التقوى » فإن المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى إنما هى : اتقاء الشرك فادونه من ذنب ، من كل ما نهى الله عنه . واتقاء تضييع واجب

مما افترضه الله . والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر والانتفاء عما نهى الله عنه .
ومن أجل ذلك تحدث المحاسبي عن التقوى بعد شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبياناً لها ، وبين جزاء المتقين وأنهم : (في مقام أمين) ، ويقال لهم عن الجنة : (ادخلوها بسلام آمنين) .

والناس دائماً يريدون الأمور محدودة مرسومة ، فيسألون عن الخطوة الأولى التي يخطوها من يريد أن يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدء في الإعداد للمقام بين يديه سبحانه ؟ .
« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام : تقوى الله عز وجل ، في السر والعلانية ، ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور » .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها وبها تركوا أعمالهم لأن الله عز وجل لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغترّاً مخدوعاً بعبادته :

فكم من متكشف في لباسه ، متذلل في نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير ؟ ومن مصلٍ وصائم وغاز وحاجٍ وباك وداع ومظهر للزهادة في الدنيا ، والرفض لها ، على غير صدق ولا إخلاص ولا صلاح حقيقى ؟ .

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ويعرض أيامه التي خلت من عمره في عبادته وينظر : هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن ؟؟ ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ في إصلاح أمره .

على أن التقوى وإن كانت أول منازل السالكين ، فإنها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ حينما يعلم الإنسان أنه عبد مربوب « لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذى لإصلاح لها في غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربوبة متعبدة ، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه » .

والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل .

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبي كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبي إلا لهذه المحاسبة . وقد روى عن النبي ﷺ :

« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » . وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه . ولقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتنبهوا للعرض الأكبر » .

وكتب إلى أبي موسى : « حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة » هذا الذى قلناه لأن يعتبره المحاسبي كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ في وصف :

« منازل التوابين » ويبين فيه اختلاف الفطر والجبالات . فمن الناس من نشأ على الخير ، فرعاية حقوق الله عز وجل عليه أهمل ، ومنهم تأثب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن جهالة ، وإنه ليدخل في نطاق قوله تعالى :

(والذين اعتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) .

أما الثالث : فإنه المصير على ذنبه المقيم على سيئاته إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى . ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار ؟ أما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار فهو الخوف والرجاء ، يقول تعالى :

(وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى) .

فأخبر عز وجل أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى . ولقد وصف الله أوليائه بأنهم يدعونه رغباً ورهباً . أى راجين خائفين : وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة ، والله سبحانه قد خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لرجبها ، وبما يعين على ذلك وقد أمرنا الله به : أن تفكر في المعاد وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب طاعته .

وحقاً إن الفكر في ذلك ثقل على النفس بيد أنه مما يخففه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع في الدنيا والآخرة . ذلك أن في نعيم الطاعة في الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعدلها لذة المعاصى .

ولن يتذكر متذكر أو يفكر في المعاد والنجاة مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها إنما هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل » .

واجتماع المم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح في ميادين اللعب واللهو يقول ابن مسعود رضي الله عنه : « طوي لمن يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه » . على أن المصيرين في منازل شتى : ففهم من كثرت ذنوبه ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض ذنوبه وهو مصيرٌ على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إيمان الفكر بالتخويف كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التدأوى ، وإيمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه بالتوبة الخالصة النصوح التي يوقن فيها أنها كانت بمنة ربه وتفضله سبحانه لا بقوته هو ، فيستأهل بذلك الزيادة من الله عز وجل ، لأنه يقول :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وفي التفسير : لأزيدنكم من طاعتي . على أنه إذا سحت نفسه بالتوبة فتأب فإنه يجب أن يستمر في تيقظه وحذره ، فإن الاهتمام والحذر إن ألزمها قلبه يوقظاه فيما يستقبل من عمره ، ، فإذا استمر على توبته دخل تحت قوله تعالى :

(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) .

وبما لا مارة فيه : أنه لابد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله ، عز وجل بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها ووجوبها وفيم هي ؟

وأياها بدأ الله عز وجل به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل به ، فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه إذ عنه تكون أعمال الجوارح . وجمل حقوق الله عز وجل في القلب ثلاث : اعتقاد الإيمان وبجانبية الكفر ، واعتقاد السنة وبجانبية البدعة ، واعتقاد الطاعة وبجانبية الإصرار على ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن . وجمل حقوق الله عز وجل في الجوارح : القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك لابد من مراعاة حقوق الله عز وجل عند خطرات القلب الداعية إلى كلٍ خير وشر .

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(إن النفس لأماراة بالسوء) .

وقد تكون خيراً .

ومهما يكن من شيء فإنه إذا عرضت الخطرات عَرَضَها على الكتاب والسنة : فما وافق قلبه وما خالف رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل قد أمر بها وندب إليها أو أذن فيها بأسبابها ، وعلاها ، ووقتها ، وإرادتها فيها ، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر . كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التتره عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والغرة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز وجل يتمنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ، ونحو ذلك من الخطرات وإلى القدر^(١) بتتريه الله عز وجل وإلى رأى جهنم^(٢) بنى التشبيه وإلى التشبيه بنى رأى جهنم ، وإلى الاعتزال بتثيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتثريه الإيمان من نقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة بحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة فكذلك أهل السنة لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون .

ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده بالسنة في عبادة ولا غيرها ، لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ورضاءهم وبقيتهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد ، والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين ، وبحريم الدواء ، وترك الغنى أن المعاصي لم تكن ، وبلاشتغال بالله عز وجل بترك الفرائض وترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ، ويحتجون في ذلك بآثار مثل قوله ﷺ : « المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار والكتاب والمقاييس ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أي أن الإنسان حراً يأق ومما يدع من الأفعال وليس مجبوراً من الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهنم في الصفات ، هو : أن الصفات عين الذات .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر .
ورأى جهنم ، والرفض . والاعتزال ، ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم .
لقد تعمدا نقل هذا النص السابق بطوله لأنه يدل على اتجاه المحاسبي في الجانب العقدي ،
أي إنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة في عصره ، وهو نص غاية في الأهمية من الناحية
الصوفية ومن الناحية الكلامية .

أما من الناحية الصوفية فإن المحاسبي يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التزهد
عن الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية وكذلك الأمر في كل خطرة تدعو إلى نوع من
الزهد والرضا والتوكل الذي يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم وبقينهم ، أي تخالف السنة .
ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين .
وإنه لمن الانحراف الشيطاني - فيما يرى - أن يمتنع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد
أو الخروج في السفر بلا زاد تحت تعلقة التوكل ، أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء
ويمتنع عن الدعاء وكل ذلك تحت تعلقة الرضا .
إلى آخر ما ذكره المحاسبي من ذلك .

أما من الناحية الكلامية فإن هذا النص يبين أن المحاسبي لا يتسبب إلى المعتزلة ولا إلى
الجهمية ، ولا يقول بالتشبيه ولا بالتعطيل ، ولا بوجود تحقق الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة
وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذي جاء في صورة عابرة يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا
على الكتب التي فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب إجماله ؛ إذ هو واضح كل الوضوح في بيان
موقف المحاسبي من الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة في التصوف .
ثم بعد هذا يأخذ المحاسبي في شرح ما يتدنى به الإنسان من أداء القروض وترتيب ذلك ، فإذا
عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد ، بدأ بأوجبهما ، مثال ذلك ، في الوالدين : فإن العبد
يبدأ بحاجة والدته لأن برها مقدم في سنة النبي ﷺ ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة
المالية وعليه دين حل موعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته ، بدأ بما يفوت وقته قبل

الآخر، كالرجل يريد الحج في وقت فيه سعة من الأيام فيأمره والداه أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعها .

وإذا كان في فرض فَعَرَضَ له فرض دونه : لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان في الحج المفروض محرماً به فكتب إليه والداه بالحضور فليتمه ولا يخرج منه .
وإذا كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه ، قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة ، وكما إذا أمره والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر التغير لظهور المشركين على المسلمين وليس في وجوههم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من أجلها .
وكذلك الفضل والتطوع يبدأ بالأفضل فالأفضل .
على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله عز وجل فيه :

(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فبما تركت) .
قال الله عز وجل مجيئاً :

(كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .
قال عبد الرحمن بن يزيد لرجل يعظه : يا فلان هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟
قال : لا .

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها الموت ؟
فقال : لا ما سخت نفسي بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعجب ؟
فقال : لا .

قال : فهل تأمن بغتة الموت ؟
فقال : لا .

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل ...
والعاقل هو الذى يتوب قبل الموت - أى على الفور - توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا ، بأن لو قيل له : إنك تموت الساعة فإنه لا يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه فيسأل النظرة من أجله .
ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز في الحوض على الذكر والفكر حينما قال في خطبته :

« ألا ترون أنكم تتقبلون في أسلاك المالكين ، ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو رافحاً إلى الله عز وجل ، تضعونه في صدع الأرض ثم في بطن صدع ، قد تومد التراب وخلف الأحياب ، وقطع الأسباب موجه للحساب غنى عما خلف ، فقير إلى ما قدم » .

ثم يبدأ المحاسبي شرح وتحليل الرذائل النفسية ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التي تحبط الأعمال وتنفى الإخلاص .

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسبي في الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلغله في النفوس ، وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة لأن يعصف بها الرياء فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبي حوالي خمس وعشرين ومائة صفحة ، أي ما يزيد قليلاً على ربع الكتاب ووضع تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

ويبدأ المحاسبي كتاب الرياء على الصورة العادية في كتاب الرعاية ، كله سؤال السائل وإجابة المؤلف .

قلت : قد وصفت لي مراقبة الله - عز وجل - وذكر الرعاية لحقوق الله عز وجل ووجوه طلبها .

والأول من الواجب والفضل فما تخاف على إن قت لذلك ؟
قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ويذهب بإحلاوته من قلبك .
قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتعبني ثم يحبط ويبطل عملي وما ذاك المعنى ؟ . اهـ .
وما يحبط عمل المتقي : أن يحب ، أن يحمده ويوقر بسبب عبادته ، ولا بد من الإخلاص التام حتى يصل الإنسان إلى منزلة خاصة ومامن شك في أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين ولكن الجميع مطالبون به ، وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وقد سأل رجل رسول الله ﷺ :

فقال يا رسول الله . فيم النجاة ؟

فقال : « ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته في أعماله فأخبره بترك الرياء .

لا غنى للعبد إذن عن تركه ، فإذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فإنه : « إرادة العبد العباد بطاعة ربه » .

يقول تعالى :

« مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .
وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان وروى عن مجاهد في تفسير هذه الآية قالاً : « هم المرءون » .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم في التحذير من الرياء لا يكاد يحصى .

ومن أشد ما يروى في ذلك حديث رسول الله ﷺ عن أبي هريرة - فيما رواه مسلم - سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وقرأت فيك القرآن .

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال فما عملت فيها ؟

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك .

قال : كذبت ولكنك فعلت : ليقال جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

وفي رواية : أن النبي ﷺ خط على فخذ أبي هريرة وقال : « يا أبا هريرة ، أولئك أول خلق الله عز وجل تسعرون نار جهنم يوم القيامة » فذلك أعظم الرياء عند الله عز وجل .
وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة فإن من أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً ، وذلك أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء .

يقول تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .
ويقول عليه السلام في حديث قدسي عن الله عز وجل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل
له عملاً وأشرك معي شريكاً ودعت نصيبي لشريكى » .
ومن أخس أنواع الرياء : أن يتظاهر الإنسان بالعبادة طمعاً فيما في أيدي الناس ، وجباً في أن
يبروه بما يظهر من طاعة ربه .

لا بد إذن من المجاهدة والمكابدة والتيقظ لمداخل الشيطان والنفس الأمارة ، وليس ذلك
بسهل في مبدأ الأمر ، والناس في هذا متفاوتون ، ولكن الله سبحانه وعده بأن يعين الذى يبدأ
مخلصاً في السير إليه حيث قال سبحانه :
(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ...) .

ثم يأخذ المحاسبي في وصف ألوان من الرياء عديدة تأتى على شكل خطرات تتردد في النفس ،
ليكون الإنسان منها على حذر ، ويبين المراءاة في القروض والمراءاة في السنن .
ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق المردولة المذمومة ، ومن هذه الأخلاق
التي تنشأ عن الرياء مثل المباهاة بالعلم والعمل والتفاخر بالدين والدنيا وحب القلبة .
أما علامة المرائى : فهي حب الحمد والثناء وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل
والمنح .

ومن أجل كل ذلك لابد من إخلاص النية ، ولابد أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف
الله من عباده مادحاً لهم فقال عز وجل :

(يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً
وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً
قطريراً ، فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) .
أما من تحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة يريد بذلك وجه الله ، وحضهم على الاقتداء
به ، فليس من الرياء في شيء ، ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها .
وقد ختم المحاسبي كتاب الرياء بقوله : « وقد روى أن ابن السماك قال للجارية له : مالى إذا
أتيت بغداد فتفتحت لى الحكمة ؟ قالت له جاريته : يشحذ لسانك الطمع » .

وصدقت : إن العبد يكثر الكلام بالخير عند الغنى ما لم يتكلم به عند الفقر . يبيح الطمع على
ذلك أو تعظيمه للدنيا ، وكذلك يظهر الخشوع وغيره من الطاعات .

ويبدأ المحاسبي بعد ذلك في : « كتاب الإخوان ومعرفة النفس » ولا يقصد المحاسبي أن يتكلم في هذا الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها ، أو عن النفس من ناحية التصور الفلسفي لها : جوهرًا ، كانت أم عرضًا ، وقديمة أم حديثة ، كلا ، وإنما يريد أن يتحدث في الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله والتقوى ، فقد يترك الإنسان الرياء فترة من الزمن عازمًا على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزيمته ويتكثف في طريقه .

ولأجل ألا يحصل ذلك لابد من قطع كل سبب يكون عنه الزلل والفتنة ؛ فإذا مازل مع ذلك فلا بد من المسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية وتتمكن في القلب حلاوة الشهوة . وقد يكون من أسباب الزلل : مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم - بسبب مجالستهم - من الزلل ، ومثل صاحب السوء ، كمثله صاحب الكبر - يعني الحداد - إن لم يحرقك بشره - يبقى بك من ربحه .

ولقد قال سهدنا عمر : احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ، ولا أمين إلا من خشي الله ، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفًا ، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير فذلك حسن .

يقول إبراهيم التيمي :

« إن الرجل ليأقن القوم وهم يخوضون في الباطل ، فيصرفهم إلى الذكر فيكون له أجره وأجرهم » .

وبعد هذا الكتاب ، كتاب آخر يرتبط به ارتباطًا وثيقًا ، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتابًا واحدًا ، ويكوّنًا بذلك وحدة متحدة ، ذلك هو : « كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ودعائها إلى هواها » ونكتفي في هذا بما ذكرناه سابقًا .

ومن الرذائل الخبيثة في النفس : « العجب » فبسيه هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون ، واقتخر المفتخرون ، واختال المختالون .

ولقد روى عن رسول الله ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » .

وقد يكون العجب بالدين :

والعجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم ، والرأى الصواب ، والرأى الخطأ .

فالعلم : ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .

وأما الرأي الصواب : فما استنبط قياساً ، على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبهاً بها حكمه مثل حكمه .

وأما الرأي الخطأ : فإكان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة ، وإنما هو : تأويل بغير الحق وانتحال له على سبيل الجهل من قبل هوى النفس مع اعتراض من الظن أنه حق .

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأي الصواب ، فعنى واحد : لأنه كله مئته من الله عز وجل ، ونعمة منه .

فجملة العجب بالدين : حمد النفس على ما عملت أو علمت ، ونسيان النعم من الله عز وجل عليك بذلك ، فحمد النفس ونسيان المنعم هو العجب بالدين .

أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة - مالا أو قوة أو علماً أو سداداً في الرأي أو طاعة وعبادة - فن الله : فإنه بذلك ينفي العجب عن نفسه ، يقول تعالى :

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبداً) .

ويستفيض بالحديث عن العجب بالدنيا وأعمال الطاعة وبالعلم والنفس وبالحسب ، مع أن الله تعالى يقول :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

ومع قول رسول الله ﷺ لابنته ولعمته : « يا فاطمة بنت محمد ويا صفية بنت عبد المطلب : عمة رسول الله ﷺ ، اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً » . ويتحدث المحاسبي عن العجب بكثرة العدد ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين : نحن أكثر أموالاً وأولاداً .

ثم يأخذ المحاسبي في : « كتاب الكبر » والكبر : من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يقول تعالى :

(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) .

وما ألحد كثير من الملحدين أو انحرف كثير من المنحرفين إلا بسبب الكبر : إن الله يصرفهم عن رؤية آياته ، والاعتبار بها بسبب كبرهم ..

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) .

وإن الله سبحانه وتعالى : « يطبع على كل قلب متكبر جبار » .

وقد ينشأ الكبر عن العجب في الدين بالعلم والعمل ، فإذا كان من قبل العلم فإن العالم إذا أعجب بعلمه أخرجه عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد فيتكبر على العوام ، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل منه .

وذلك الذى خافه عمر - رضى الله عنه - على العلماء حين قال : « تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبايرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم » ، أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به .

ومن العباد قوم ضلال قد جمعوا إلى الضلال الكبر لا يرون أن أحداً يقول الحق على الله عز وجل غيرهم ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ، وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل يرى في الآخرة ، والذين يغلطون الموازين ، ومنهم الرافضة والمرجئة والحرورية ، والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ﷺ ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك رضى الله عنها .

ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم ، فكل هذه الفرق آفة جائرة عن الطريق ، لا يرون أحداً يقول بالحق وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلاً بالله عز وجل . وتكبراً على عباده كما روى العباس رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « يكون قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن فنأقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ ثم التفت النبي - ﷺ - إلى أصحابه فقال : أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » .

وقد يكون الكبر عن الرياء .

ويجب على كل إنسان : أن يعلم ، أن أصل ابن آدم : من التراب الذى يُوطأ بالأقدام إنه من حمأ مسنون ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(قتل الإنسان ما أكفره : من أى شيء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره) .

ثم إن الله تعالى لا يحب المستكبرين ، ويقول ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

ثم يتحدث المحاسبى عن : « الغرة بالله عز وجل » وَيُمَيِّزُ بين الغرة والرجاء فبعض المغترين يظن أن الغرة منه رجاء فيقيم على معاصي الله عز وجل ، ويظن ذلك حسن الظن منه ، وليس ذلك يحسن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة .

وقيل للحسن : إن قومًا يقولون : نرجو الله عز وجل ، ويضيعون العمل فقال : هيات هيات تلك أمانهم يترجعون فيها من رجا شيئًا طلبه ، ومن خاف شيئًا هرب منه . ويتحدث المحاسبي في : « كتاب الغرة » عن غرة أهل النسك ، وغرة الفقهاء وغرة الوعاظ ، وغرة المتكلمين .

ثم يأخذ في شرح الحسد : أسبابه ومضاره ، وما من ريب في أن جملة الحسد المحرم : أن يكره الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويحب زوالها عنه . وأما المنافسة في خيري الدنيا والآخرة ، وأن يحب ما يرى بغيره من النعم أن يكون له مثل غبطة منه دون أن يكره لغيره ما يرى به من النعم فهذا لا بأس به بل إنه مما يحسن ، ومن هناك قوله عليه السلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل ما لا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » ذلك الذي هو المنافسة في الخير .

ويختتم المحاسبي : « كتاب الرعاية » بـ « كتاب تأدية المريد » يذكر فيه حيرة المريد في ساعات الليل والنهار : إنه يرسم فيه للمستور الذي يسير عليه المسلم في حياته حينما يعزم على أن يأخذ السمى الإسلامى الصحيح .

وفيه يقول المحاسبي : فتعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى ، ومن العمى بعد البصر ، ومن الإعراض عن الله تعالى بعد الإقبال إليه ، ونسأله السلامة والعون على ما يجب ويرضى ...

أثر المحاسبي وكتابه « الرعاية » في الفكر الإسلامى :

إن تأثير المحاسبي في الأجيال التالية له لا ينكر . إنه من الواضح أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق به - كان الإمام الغزالي .

إن الإمام الغزالي يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي ، قال ذلك في كتابه « المنقذ من الضلال » .

ولقد قرأ أيضًا سيرة الحارث المحاسبي ، ويتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل ، ثم إنه نقل عنه في كتابه « الإحياء » كثيرًا من الآراء والنصوص .

وفي كتاب « الإحياء » يقول عنه الإمام الغزالي دون تحفظ ولا استثناء هذا التقدير المائل : « المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة ، وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأعواد العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » اهـ .

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالي كان له أثر كبير في كتاب « الإحياء » ، الذى تضمن تقريباً كتاب « الرعاية » .

وكلمة الشيخ الكوثرى رحمه الله سبق أن ذكرناها في المقدمة التى كتبناها لكتاب « الرعاية » .
إذ يقول : « لقد ثبتن الإمام الغزالي كتاب الرعاية في كتابه الإحياء » .
ولكن أثر المحاسبى كان أيضاً كبيراً قبل الإمام الغزالي ، يقول السبكي عنه : « عالم العارفين في زمانه وأستاذ السائرين الجامع بين علمى الباطن والظاهر » .
يقول الشعرانى عنه : « إنه أستاذ أكثر البغداديين » .

لقد كان رحمة الله عليه أستاذ أكثر البغداديين وعلم العارفين في زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالي وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير قرناً فقرناً ، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً فقرناً حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان المناوى صاحب التأليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن المحاسبى في كتابه « الكواكب الدرية » يقول : المحاسبى البصرى : علم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين في أوانه ، عالم سار بنا فضله ، وصوفى طار نبه ، برع في عدة فنون ، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون وأحيا القلوب بوعظه ، وشف الأسماع بلرر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله محبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة ، وكان في علم الأصول راسخاً راجحاً ، وعن الخوض في الفضول جانحاً ، وللمخالفين الزائفين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مريئاً وناصحاً .

قال التيمى : هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام .
وقال غيره : له المصنفات النافعة الجمّة بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف ، وناهيك برعايته . وكتبه في هذه العلوم أصول لمن صنف فيها .

قال في الإحياء : المحاسبى خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه .
على أن التقدير الذى نحب أن نسجله هنا : هو ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب « الرعاية » في كتابه « مصطلحات التصوف » :

إن المحاسبى : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً .

عبد الحليم محمود

السَّعَايَةُ لِحَقُوقِ اللَّهِ
لِلْحَارِثِ الْحَاسِبِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على محمد وآله وسلم ، وبالله أستعين ، الحمد لله حق. حمده .

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله :

الحمد لله قبل كل مقال ، وأمام كل رغبة وسؤال ، فكل أمرهم ذى بال لم يُبدَأ فيه بحمد الله وذكره فهو أقطع من القول ، غير ذى اتصال ، وكذلك يروى عن النبي ﷺ .
فالحمد لله الأول القديم ، الذى لم يزل ، ولا يستحق هذا الوصف غيره ، ولا يليق بسواه ، لأنه لم يزل واحداً لا شيء معه ، ثم ابتداء خلق الأشياء لا من شيء كان معه قديماً ، فاختزع الأشياء وأنشأها وقدرها كما أراد ، فليس له شريك فى الملك ، وكل شيء له مملوك ، بدأنا منه بالنعيم تفضلاً ، وبالأذى التى لا تحصى كرمًا وجودًا ، فله الحمد كما هو أهله ، وكما ينبغى لكرم وجهه وعزّ جلاله ، وإياه نستهدى ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، وصلّى الله على محمد نبيه ، وعلى آله وسلم .

ثم على أثر ذلك فإني قد فهمتُ جميع ما سألتَ عنه . وقد أحبيتُ قبل جوابي إياك عما سألتَ عنه ، أن أحضرك على حسن الاستماع ، لتدرك به الفهمَ عن الله عز وجل ، فى كل ما دعاك إليه . فقدّمَ حسنَ الاستماع منك لما أجبتُك به ، لعل الله عز وجل ، أن ينفعك بهمهم ما أجبتك عنه : من الرعاية لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا فى كتابه : أنه من استمع كما يحب الله ويرضى ، كان له فيها يستمع إليه ذكرى يعنى اتعاطاً ، وإذا سمى الله ، عز وجل ، لأحد من خلقه شيئاً فهو كما سمى ، وهو واصل إليه كما أخبر .

قال الله ، تبارك وتعالى : (إِنْ فِى ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ^(١)) .

ف قيل فى التفسير : له عقل « أو ألقى السمع وهو شهيد » قال مجاهد : شاهد القلب لا يحدث

نفسه بشيء ، وليس بغائب القلب

فن استمع إلى كتاب الله عز وجل ، أو إلى حكمة ، أو إلى علم ، أو إلى موعظة لا يحدث نفسه بشيء غير ما يستمع إليه ، قد أشهد قلبه ما يستمع إليه ، يريد الله عز وجل بذلك ، كان له فيه ذكرى ، لأن الله تبارك اسمه ، قال ذلك ، وهو كما قال عز وجل . وبذلك وصف المؤمنين وأمرهم به ، فقال ، عز وجل :

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُو الْأَلْبَابِ ^(١)) .

وقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ^(٢)) ..

وإن كان ذلك في الصلاة ، أو الخطبة ، فهو أدب لكل مستمع إلى خير .
ووصف الله تعالى مؤمنى الجن بذلك حين سمعوا النبي ﷺ ، يقرأ بنخلة ، وقيل بعكاظ فقال تعالى : (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ^(٣)) .

فأمر بالاستماع لكتابه ، مع ترك الكلام ، بحضور العقل ، لينال عبادته بذلك الفهم عنه وذم من خالف ذلك فقال عز وجل :

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ^(٤)) .

فدح الناشت له ، لأن يستمع عنه كلامه مع حضور العقل . وأمر عز وجل عبادته بذلك أدباً لهم ، لأن ينالوا بذلك الفهم عنه . وروى عن وهب بن منبه ، أنه قال : من أدب الاستماع : سكون الجوارح ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل ؛ وذلك هو الاستماع ، كما يحب الله تعالى : أن يكف العبد جوارحه أن يشغلها فيشتغل قلبه عما يستمع ، ويغض طرفه لئلا يلهو قلبه بما يرى ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم ، لأن أول ما أدب الله به عز وجل عبادته المؤمنين : أن يقدموا الإرادة والعزم على طلب الفهم عنه ، ثم يستمعوا بإحضار عقولهم ^(٥) ، ونياتهم في ذلك أن يفهموا عنه فيعملوا له بما يفهمون عنه .

(١) : ٣٩ : ١٨

(٢) : ٧ : ٢٠٤

(٣) : ٤٦ : ٢٩

(٤) : ١٧ : ٤٧

(٥) في رواية أخرى : فلوهم .

حدثنا الغلابي قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول العلم حسن الاستماع ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، وضرب بعض الحكماء مثلاً لذلك كله فقال :
إن الباذر خرج يبذره ، وملأ منه كفه فبذر ، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط الطير عليه فاخطفه ، ووقع منه شيء على صفا ، يعني حجرًا أملس عليه تراب يسير ، وندى قليل ، فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم يجد مساعاً ينفذ فيه فيس ، ووقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك نابت ، فنبت البذر فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به .. ووقع منه شيء على أرض طيبة ليس على ظهر الطريق ، ولا على صفا ، ولا فيها شوك ، فنبت ونما وصالح .

فمثل الباذر : كمثل الحكيم ؛ ومثل البذر : كمثل صواب الكلام ، يتكلم به الحكيم ؛ ومثل ما وقع على ظهر الطريق : مثل الرجل يستمع الكلام وهو لا يريد أن يستمعه ، فلا يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه ، ومثل الذي وقع على الصفا : مثل الرجل يستمع الكلام فيستمعه ويستحسنه ، ثم يقضى إلى قلب ليس فيه عزم على العمل ، فينفسخ من قلبه ، ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك : مثل الرجل يستمع إلى الكلام وهو ينوى أن يعمل به ، فإذا اعترضت له الشهوات عند مواقع الأعمال خنقه ، فأفسدته فترك استعمال ما نوى أن يعمل به ، ومثل الذي وقع في أرض طيبة ليس على ظهر طريق ، ولا فيها شوك ولا على صفا : مثل الرجل يستمع إلى الكلام وهو ينوى أن يعمل به فيفهمه ، ثم يصبر على العمل به عند مواقع الأعمال ، ويجانب الشهوات . قال أبو عبد الله : فلقد ضرب هذا المثل ، فما غادر ما يجب الله ، عز وجل ، أن يدل عليه ، مما أَدَبَ الله عز وجل به عباده ، لأنه أدبهم بالاستماع والإنصات والنية على الطاعة ، والصبر عليها ، عند مواقع الأعمال ومجانبة الشهوات ، والأهواء المزيلة عن الطاعة والمفسدة لها ، وإن أدوها بجوارحهم ^(١) .

فاستمع لما أجبك به ، على ما صفت من الاستماع ، فإنك إذا استمعت كذلك تفعلك الله تعالى بما أجبك به ، لأن العبد إذا استمع كما يجب الله عز وجل ، أفهمه الله تبارك وتعالى

(١) في هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى وقعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

كما يجب ؛ لأنه عالم بما يستمع به المستمعون ، مطلع على إرادتهم ومهمهم ، ناظر إلى جوارحهم ،
 ألم تسمعه تعالى يعيب من لا يريد الفهم عنه ، فإنه بذلك عالم منهم ، إذ يقول جل وعز :
 (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ^(١)) .
 فالله جل وعز مطلع عليك ، يرى هممك وما تريد ، فألزم قلبك ما يحب الله تبارك وتعالى ،
 عند نظرك إلى ما كتبتك لك ، واستماعك إلى ما أجبتك عنه يورثك ذلك القيام لله عز وجل بحقه
 بإذنه وتوقيه ولطفه إن شاء الله .

باب الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها

فأما ما سألت عنه من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها ، فإنك سألت عن أمر عظيم أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين ، وهو الأمر الذى تولى الله عليه أنبياءه وأحباؤه لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته .

وبذلك جاء الحديث عن النبي ﷺ ، رواه عنه محمد بن على بن حسين بن فاطمة ابنة النبي ﷺ ، أنه قال لهم الملك العظيم ، فى الوقت الذى أُمِنُوا فيه من كل ما كانوا يخافون ، وحَلُّوا فى كل ما كانوا يأملون ، وفيما لم تبلغه آمالهم : فى المقعد الصدق الذى وعدهم فيه بأن يريهم وجهه ، ويلغهم غاية الكرامة من رؤيته ورضوانه ؛ فقال لهم فى ذلك المقعد الذى ليس فوقه منزلة ، ولا بعده غاية كرامة :

« مرحباً بعبادى وزوارى وخيرى من خلقى ؛ الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتى ، وخافونى بالغيب » لأنهم حفظوا ما استرعاهم واستودعهم ، وكلُّ ما أمر الله عز وجل بالقيام به ، قد أمر برعايته ، ألا ترى إلى قول النبي ﷺ :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب الله تعالى عليهم فى أنفسهم ، وفيمن استرعوه ؛ فالإمام راع على الناس ، يجب عليه حفظ ما استرعى من أمورهم ، وكذلك الخاصة والعامة ، ألا ترى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول :

لو أن سحلة^(١) ضاعت بشاطئ القرات لحثيت أن يسألنى الله عز وجل عنها .

وكل حق أوجبه الله جل وعز على عباده فى خاصة أنفسهم أو فيما أوجب لبعضهم على بعض ، فقد أمرهم بحفظه والقيام به ؛ وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم ، والقيام به .

ولقد ذم الله جل وعز ، قوماً من بنى إسرائيل ، ابتدعوا رهبانية لم يؤمروا بها ، فلم يرعوها حق رعايتها ، فقال تعالى :

(١) السحلة : الشاة .

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ^(١)) .

وقد اختلف في هذا الحرف فقال مجاهد :

(مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) .

عليهم أى : كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقال أبو أمامة وغيره : ما كتبناها عليهم ، أى : لم نكتبها عليهم ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فعابهم الله عز وجل بتركها وهذا أولى التفسيرين بالحق إن شاء الله ، وعليه أكثر علماء الأمة فقال الله عز وجل :

(فَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) .

فقدمهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يَقْتَرِضْ ، ولم يوجب عليهم !! فكيف بمن ضُيعَ رعاية حقوقه الواجبة ، التى أوجب فى تضييعها غضبه وعقابه ؛ وجعل القيام بها مفتاحاً لكل خير فى الدنيا والآخرة ، وهى التقوى ، ولأهلها أعد الجنة ولأهلها جعل الأمن فى الآخرة ، وإياهم وعد قبول الأعمال ، وإياهم سمى بالولاية ، ورفع عنهم الخوف والحزن فى يوم المخافة والأحزان ، إلا تارات^(٢) أهوال نعم الخلائق ، ولهم جعل النصر فى الدنيا والمعونة على طاعته ؛ ولهم جعل المخرج من كل ماضق على العباد ، ولهم ضمن الرزق من غير الوجه التى يحتسبونها .
فقال تبارك وتعالى : (وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٣)) .

فهل ترى فيها موضعاً لغير متق ؟ !

(١) ٢٧٠٥٧ .

(٢) جمع تارة . معنى مرة

(٣) ١٣٢٠٣ .

باب معرفة التقوى وما هي

والتقوى التي أعد الله عز وجل ، الجنة لأهلها : اتقاء الشرك فادونه ، من ذنب ، من كل ما نهى الله عنه ؛ أو تضييع واجب مما افترضه الله .
قال تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ^(١)) .
وهي وصية الله عز وجل في الأولين والآخرين .
قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ^(٢)) .

وقد روى في الحديث : إن المنادى ينادى يوم القيامة :
(يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) . فترفع الخلائق رءوسهم يقولون نحن عباد الله عز وجل .

ثم ينادى الثانية : (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) ، فينكس الكفار رءوسهم ، ويبقى الموحلون رافعى رءوسهم .

ثم ينادى الثالثة : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) ، فينكس أهل الكبائر رءوسهم ، ويبقى أهل التقوى رافعى رءوسهم ، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ، لأنه أكرم الأكرمين لا يجذل وليه ولا يسلمه عند الملكة .

قال تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ^(٣)) .

لأن التقوى : إنما كان أصلها الخوف والحذر من الله جل وعز .

وكذلك يقول الله عز وجل : (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ^(٤)) .

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ) .

(١) ٤ : ١٣١

(٢) ١٠ : ٦٢ ، ٦٣

(٣) ٤٤ : ٥١

(٤) ٥٥ : ٤٦

فأخبر العليمُ أن الخوفَ كان قبل التقوى .
والعرب مجمعة في لغتها على أنه إذا أمر بعضها بعضاً بالاتقاء من شيء قال : احذر السبع ،
احذر الجدار ، احذر البئر ، أى احذر ، فتجنب ما أحذرك .
فلما كان أصل التقوى لله تعالى : الخوف منه ، وعدهم الأمن عوضاً مما أخافوا أنفسهم به من
عقابه فقال جل وعز : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ^(١)) .
وقال : (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ ^(٢)) .
وقال تعالى : (أَقِمْنَ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(٣)) .
وبذلك جاء الخبر : أنه يقول جل وعز يوم القيامة : « وعزّي وجلالي لا أجمع اليوم لعبدي
أمين ، ولا أجمع عليه خوفين ، فمن خافني في الدنيا أمنتّه اليوم ، ومن أمنتني في الدنيا أخفّته
اليوم » فما ظنك بالله عز وجل يقولها ؟
وقلبك لا يخلو في ذلك الوقت أن يكون أحد قلبي : إما قلباً كان في الدنيا لله تعالى خائفاً ،
فاستطار فرحاً لما سمع الله ، عز وجل ، يقولها غبطةً وسروراً ، لِمَا رأى من عواقب الصبر ،
وما حلّ في قلبه من الأمن ، وما سمع من الخصوصية له من الله جل وعز بالأمن والرضاء على
رعوس أهل الجمع ، وإما قلباً كان في الدنيا غافلاً مغترّاً آمناً ، فاستطار قرعاً ورعباً ، وغلبت
عليه الندامة ، والحسرة ، حين رأى سوء عواقب غفلته واغتراره ، ولزم قلبه اليقين بأن غضب
الله عز وجل قد حل به ، وأنه لن ينجو من عذاب الله جل وعز ، بضغفه ، وما خصه الله تبارك
اسمه به من الشقاء ، والعداوة : من النداء بالحية له على رعوس أهل الجمع .
يا أخي فلن أحذرك ونفسي مقاماً عنت في الوجوه ، وخشعت فيه الأصوات ، وذللّ فيه
الجبّارون ، وتضعضع فيه المتكبرون ، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة ، والخضوع
لرب العالمين ؛ وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في الهية ، ولا مشارك في حكمه ،
جمعهم بعد طول البلي للفصل والقضاء ، في يوم آلى فيه على نفسه : ألا يترك فيه عبداً أمره في
الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله في سره وعلايته !!
فانظر بأى بدن تقف بين يديه ، وأعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً ؛ فإنه لا يصلّق
إلا الصادقين ، ولا يكذب إلا الكاذبين .

باب معرفة ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين الله تعالى

فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام تقوى الله عز وجل ، في السر والعلانية ، ليؤمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين ، حين ينجز لهم ما وعدهم : من الأمن والقيطة والسرور . وما تركهم اللطيف في الدنيا ، مع ما يعطيهم في الآخرة ، حتى أنار لهم قلوبهم ، وأعز لهم أنفسهم ، وأغناهم به عن خلقه ، ونعمهم بطاعته ، فألزم قلوبهم مع الخوف منه حسن الظن به ، والأنس إلى رجائه ؛ ثم علا ذلك بالشوق إليه جل وعز ، وإلى جنته ، فقلهم من المكابدة إلى النعم بطاعته والسرور بها ، وقنعهم من الدنيا باليسير منها : فطيب فيها عيشهم ، وأحسن فيها نصرهم ومعونتهم وذلك الذي وعدهم ، فقال : عز وجل :

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

فهل على من كان الله عز وجل ، معه بالنصر والمعونة ضيمٌ أو خذلان ؟ فهم أعز الخلائق أنفساً ، وأنورهم قلوباً ، وأغناهم به غنى ، وأطيبهم عيشاً ؛ حزنهم فيما يسر به الناس ، وسرورهم فيما يحزن له الناس ، وطلبهم لما يهرب منه الناس ، وهرهم مما يرغب فيه غيرهم من أهل الغفلة والغرة ، يستأنسون إذا استوحش الناس ؛ إذ كان أنسهم بالله ، جل وعز وحده استكمالاً لمناجاته ، فعنده يضعون بثوبهم ، وإليه يضرعون في حوائجهم ، قد اتخذوه حرزاً وجنةً وكهفاً ؛ وثقوا به دون خلقه ، وانقطعوا إليه عز وجل ، عن كل قاطع يقطعهم عنه ، فاستوحشوا حين استأنس الناس استيحاشاً من الخلائق واستئناساً برهم .

فهذه موارث التقوى ، لأنها أساس العمل ، وأصل الطاعة ، وهي أول منزلة العابدين وأعلها لأن النوافل بعدها ، ولا تقبل نافلة إلا بها ومعها ، وهي التي أصبح عامة القراء لها مضيعين ، وقد أمر الله جل ثناؤه ، في كتابه في آيات كثيرة بها ، وعظم قدرها وقدر القائمين بها ، وبينها النبي ﷺ بسسته ، وعظم قدرها ، والعلماء من بعده إلى عصرنا هذا .

فأما تفسير ما أمر الله جل وعز به في كتابه : فإنه حدثنا سنيد بن داود عن حجاج عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله تعالى :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى (١)) .

قال : البر : ما أمرتم به ، والتقوى : ما نهيتم عنه .

وحدثنا الوليد بن شجاع عن ضمرة عن رجاء بن أبي سلمة عن يونس بن عبيد عن الحسن

قال : ما عبد الله العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم عنه .

حدثنا الوليد ، قال : حدثنا عمر بن حفص بن ثابت الأنصاري عن سفيان الثوري عن رجل

عن الحسن قال : (إن الله مع الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

قال : اتقوا الله جل ثناؤه فيما نهاهم عنه ، وأحسنوا فيما افترض عليهم .

وحدثنا سنيد بن داود قال : حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢)) .

قال : من الذنوب ، فأوجب الرحمة بترك الذنوب .

وحدثنا أبو النصر عن شعبة عن منصور عن إبراهيم أو مجاهد في قوله تعالى :

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ (٣)) .

قال يريد أن يذنب ، أو يهيم فيخاف ربه فيدعه .

وحدثنا سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى :

(وَمَا تُحْفِي الصُّدُورُ (٤)) .

قال تحدث به النفس .

وحدثنا عبيد الله بن موسى ، قال : أخبرنا هشام بن عروة أظنه ذكره عن أبيه .

قال : لما ولي أبو بكر الصديق ، رضوان الله عليه حمد الله فأنشئ عليه ثم قال : أيها الناس ،

قد وليتكم ولست بخيركم ، ولكن نزل القرآن وسمي النبي ﷺ ، وعلمنا فعلمنا ؛ واعلموا أن

أكيس الكيس : التقى ، وأن أحقق الحق : الفجور ؛ وأن أقوى القوى الضعيف حتى آخذ له

بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ؛ أيها الناس إنما أنا متبع ولست مبتدعاً

فلذا أحسنت فأعينوني ، وإن زُغتُ فقوموني .

(١) ٥ : ٢ .

(٢) ٣٦ : ٤٥ .

(٣) ٥٥ : ٤٦ .

(٤) ٤٠ : ١٩ .

باب شرح التقوى

قلت : فما التقوى ؟ .

قال : الحذر بالمجانبة لما كره الله ، عز وجل .

قلت : الحذر من ماذا ؟ .

قال : الحذر من الله عز وجل .

قلت : في ماذا ؟

قال : في خَصْلَتَيْن : تضييع واجب حقه ، وركوب ما حُرِّم ونهى عنه في السر والعلانية ، وتجمع ذلك خَصْلَتَان : القيام بما أوجب الله عز وجل لله ، وترك ما نهى الله عز وجل عنه لله تبارك وتعالى .

وكذلك يروى : أن الفتنة لما وقعت قال طلق بن حبيب : اتقوها بالتقوى فقال له بكر بن عبد الله المزني : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى : أن تعمل بطاعة الله عز وجل ، على نور من الله عز وجل ، ترجو ثواب الله عز وجل .

والتقوى : ترك معاصي الله على نور من الله ، مخافة عقاب الله عز وجل .

والتقوى : حقيقتها في الجوارح : القيام بالحق وترك المعاصي .

والتقوى : حقيقتها في الضمير : إرادة الديان في الفرض ، وإخلاص العمل له في النفل : بالبراء والأحزان والصلاة والصيام ، وجميع أعمال الطاعات مما ندب الله عز وجل إليها عباده ، ولم يفترضها عليهم ؛ رافة بهم ورحمة لهم .

ولا يقبل مأنذب إليه إلا بالتقوى ، حتى تخلص له الإرادة به .

ومن التقوى كان الورع ؛ لأنه لما اتقى الله عز وجل تورع .

قلت : ما الورع ؟

قال : مجانبة ما كره الله جل وعز ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : ورعوا اللص ولا تراعه :

يقول : اطروده وجنبوه رحاكم ، ولا ترصدوه حتى يقع ، ومنه قول العرب : ورع الإبل ، أي جنبها .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها ، وبها تزكو أعمالهم ؛ لأن الله جل وعز ، لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه ، فوالله ما رضى كثير من المتقين بها لله تعالى ، وحدها ، حتى أعطوه المجهود من القلوب والأبدان ، وبذلوا له المهج من الدماء والأموال !! فانظر رحمك الله أين أنت منهم ؟

ولقد خشيتُ أن تكون عامة أهل زماننا من العابدين مخدوعين ، مغترين ، فكم من متعسف في لباسه متدلل في نفسه آخذ من حطام الدنيا اليسير ، ومن مصلٍّ وصائم ، وغارٍ وحاج ، وباكٍ وداع ، ومظهر للزهادة في الدنيا والرفض لها على غير صدق من الضمير لرب العالمين عز وجل ، يتصنع للعباد بما يظهر من الطاعات ، ويُرى أنه من المخلصين وجوارحه مع ذلك منتشرة : من عين تنظر إلى ما كره الله ، ولسانٍ يتكلم بما لا يجب الله جل وعز عند غضبه وعند أنسه بالناس ومحادثته بالغيبة وغيرها .

باب في تعريف المغتر نفسه وطول غرته

قلت : فكيف لهذا المغتر بظاهر طاعته ، أن يعرف نفسه وطولَ غرته ، في أيام الدنيا ، بقراءته ؟ .

قال : يرجع هذا القارئ المتكشف إلى نفسه ، ثم يعرض أيامه التي خلت من عمره في تقشفه وترهده ، هل أتى عليه يوم منها ، طلعت عليه فيه الشمس ثم غابت عنه ، حفظ فيه جارحة من جوارحه مماكره الله عز وجل ونهى عنه ، وقام بها فيما أوجب الله عز وجل وافترضه عليه . فلو فعل ذلك فاعترضها جارحة جارحة هل يعرف يوماً إلى الليل ، حفظ فيه لسانه ، فلم يتكلم بكلمة تسخط الله جل وعز ، ولم يسكت عن كلمة أوجها عليه ربه حتى أمسى ، لخشيت ألا يجد ذلك اليومَ فيما مضى من أيام قراءته دون أيام جهالته . وكذلك بصره وسمعه وخطاه ، وجميع جوارحه .

ولو وجد من نفسه أنه حفظ الله عز وجل ، جوارحه أيام قراءته ، أو يوماً خلا منها ثم رجع إلى قلبه ، فتذكر : هل يعرف يوماً من أيام قراءته مع حفظه لجوارحه هل تفقد فيه قلبه فعلم أنه قد كان حذراً من اطلاع الله عز وجل على ما يضر فيه وكان عقله حارساً لهواه في يومه ذلك ، فلم تخطر خطرة يكرهها الله عز وجل ، من الرياء والتصنع ، بعمله إلا عرفها وكرهها ، وسلم من جميع خطرات هواه ، أو عدوّه في يومه ذلك ، حتى عرف أنه قد أخلص يوماً إلى الليل ، يتفقد ذلك من غير غفلة ولا غرة ، لخشيت ألا يجد ذلك .

ولقد خشيت أن لو وجد ذلك ألا يكون سليم مما سوى ذلك مماكره الله عز وجل ، في ضميره ، من العجب والكبر والحسد والشامة وسوء الظن وغيره ، لأن عامة قراء زماننا معتزون مخدوعون ، نعد أنفسنا المتكشفين المنتسكين ، ولعلنا عند الله من الفاجرين الفاسقين !!! وكيف نأمن أن نكون كذلك ، ونحن لا يأتي علينا يوم إلا جددنا فيه ذنباً ، لم تكن من قبل نضيفها إلى ما خلا من الذنوب بالأمس ، من ذنوب الجوارح ، وذنوب الضمير . من الكبر والحسد والشامة وسوء الظن والعجب والرياء وغير ذلك ، فكل يوم من أعمارنا نكتسب فيه ذنباً جديدة يجوارحنا وقلوبنا ، نضمها إلى الذنوب التي كانت بالأمس جمعاً جمعاً .

فلن نخلو من إحدى منزلتين : أن نكون عند الله عز وجل ، من أهل العفو والتجاوز والصفح ، فكل يوم نزداد بتجديد الذنوب مع تجديد الأيام والليالي طولَ مقام بين يدي الله عز وجل ، وكثرة سؤال ودوام خطر وكثرة تعب غير موصوف : أو أن نكون من أهل العداوة والغضب ، فكلّ يوم نزداد فيه بتجديد الذنوب زيادة في العذاب بالتضعيف والذل والهوان ؛ فلا تخلو ذنوبنا من أن نزداد بها كثرة سؤال أو شدة عذاب ، لأن أول ذنب اكتسبناه عند البلوغ والإدراك استوجبنا به العذاب ، ثم كلُّ ذنب بعده زيادة في العذاب بالتضعيف إلا أن يعفو الرحيم الجواد الكريم ، وإن يعف فأول ذنب أذنبناه عند البلوغ ، وجب علينا التوقيف عليه بين يدي الله عز وجل ، والسؤال عنه ، ثم كلُّ ذنب بعده نزداد به توقفاً عليه وكثرة سؤال عنه .
يا أخى فلتكن التقوى من بالك ؛ فإنها رأس مالك ، والنوافل بعد ذلك ربحك ، وليس بتاجر عاقل ولا حصيفٍ لبيب من يعدّ له ربحاً دون أن يكل رأس ماله .

باب في أول ما يجب على العبد معرفته والفكر فيه

قلت : فما أول ما تأمرني : أن أبتدئ به ؟

قال : أن تعلم أنك عبد مريبوب ، لا نجاة لك إلا بتقوى سيدك جل وعز ومولاه ، ولا هلكة عليك بعدها ؛ فتذكر وتفكر لأي شيء خُلقت ؟ ولم وضعت في هذه الدار الفانية ؟ فتعلم أنك لم تُخلَق عبداً ، ولم تترك سدى ، وإنما خلقت ووضعت في هذه الدار للبلوى والاختبار ، لتطيع الله عز وجل ، أو تعصى فتقتل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد .

فإذا علمت أنك عبد مريبوب ، ثم عقلت لِمَ خلقت ؟ ولماذا عُرِضت ؟ وإلى أي شيء لا محالة مصيرك إلى عذاب الأبد ، أو الثواب ؛ ونعيم الأبد ؟ كان ذلك أول ما يجب عليك أن تبدأ به ؛ لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره وهو أول الرعاية أن تعلم أنها مربية متعبدة ؛ فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمريبوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه ، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه عز وجل ؛ العلمُ ثم العملُ بأمره ونهيه ، في مواضعه وعمله وأسبابه ، ولن يجد ذلك إلا في كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ ؛ لأن الطاعة : سبيل النجاة ، والعلم : هو الدليل على السبيل ؛ فأصل الطاعة : الورع ، وأصل الورع : التقى ، وأصل التقوى : محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس ، الخوف والرجاء .

والدليل على محاسبة النفس : العلمُ بما تعبد الله عز وجل به خلقه في قلوبهم وجوارحهم ، وكذلك أهل الدنيا : لا يعالجون الأعمال ، ولا يتكلفون التجارات ، إلا ببصر قد تقدم منهم ، وعلم بما يعملون ، وبما يتعاونون ويبيعون .

باب في محاسبة النفس في مستقبل الأعمال

قلت : وما المحاسبة ؟

قال : النظر والتثبت بالتمييز لما كره الله عز وجل ، مما أحب ، ثم هي على وجهين : أحدهما في مستقبل الأعمال ، والآخر في مستديرها ، فأما المحاسبة في مستقبل الأعمال ، فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة .

فأما ما دل عليها من الكتاب فقوله عز وجل : (وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(١)) .
أى : اتقوا الله عز وجل ، في أداء فرائضه واجتناب نهيه ، وكذا فسرهُ المفسرون في غير موضع من كتاب الله عز وجل .

وقوله : (يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ^(٢)) .

وقوله جل وعز : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ ^(٣)) .

وذلك تحذير منه لنا ، وتنبيه على ذكر الله عز وجل ، وإطلاعه على ما في قلوبنا .

وقوله : (إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ^(٤)) .

وقوله تعالى : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ^(٥)) .

وقال تعالى : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ^(٦)) .

ووصف ضمير الصادقين ، فقال جل وعز :

(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ^(٧)) .

قيل في التفسير : لا نريد منكم مكافأة ولا ثناء .

وقال جل وعز : (فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ^(٨)) .

قيل في التفسير : الذى لا يشوبه شىء .

(٥) ٣٠ : ٣٩ .

(٦) ٦ : ٥٢ .

(٧) ٧٦ : ٩ .

(٨) ٣٩ : ٢ ، ٣ .

(١) ٢ : ١٣٠ .

(٢) ٢٣٥ : ٢ .

(٣) ١٦ : ٥٠ .

(٤) ٤ : ٩٤ وفى قراءة أخرى (فتبينوا)

وقال تعالى : (الَّذِينَ يُتَّقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثِيَّتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ^(١)) .
 قال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت ، فإن كانت لله جل وعز ،
 أمضاها ، وقال الحسن : رحم الله عبداً وقف عنده فليس يعمل عبد حتى ييم ، فإن كان له
 مضى ، وإن كان عليه تأخر .
 وقال في حديث سعد ، حين أوصاه سلمان الفارسي فقال : اتق الله عند همك إذا هممت ،
 وعند حكمتك إذا حكمت ، قال الحسن : رحم الله القوم كانوا فقهاء ، علموا أنه لا يكون عمل
 حتى يكون بدؤه همماً ، وكذلك المؤمن هو الوقاف .
 وقال محمد بن علي رضي الله عنه : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه لله جل وعز ، ليس
 كخطاب ليل .
 والآي في ذلك كثير ، فوصف الله جل وعز محاسبتهم لأنفسهم ، في أعمال جوارحهم وضمان
 قلوبهم بالإخلاص له .
 وأما السنة التي دلت على ذلك فإن النبي ﷺ ، قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ
 ما نوى » رواه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
 وقال ابن مسعود : من هاجر يبتغي شيئاً فهو له .
 وقال النبي ﷺ : « من غزا لا ينوي إلا عقلاً فله ما نوى » رواه عنه عبادة بن الصامت .
 وسأله رجل أن يوصيه ويعظه ، فقال : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً
 فامض به ، وإن كان غيماً فانت عنه » رواه طاوس .
 وقال لقمان : إن المؤمن أبصر العاقبة ، فأمن الندامة .
 وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعجل بقضاء الشهوة حتى
 تنظر في العاقبة ، فإنه كان يقال : إن مكث الندامة في القلب بارتكاب الشهوة أكثر مكثاً من
 دوام الفرج في القلب بانقضاء الشهوة .
 وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد
 الموت » ، وقوله : « دان نفسه » يعني حاسب نفسه ، وهي المحاسبة في لغة العرب .
 ودل على ذلك قول الله جل وعز : (يُكَذِّبُونَ الَّذِينَ ^(٢)) .

(١) ٢ : ٢٦٧٥ .

(٢) ٨٣ : ١١ .

أى يوم الحساب وقوله تعالى : (أَتِنَا لَمَدِينُونَ ^(١)) ؟ .
 أى : للحاسبون وكذلك تقول العرب : كما تدين تدان ؟ أى : يحسب ذلك لك ، وكذلك جاء
 الخبر عن النبي ﷺ : « البر لا يئلى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام ، فكن كما شئت كما تدين
 تدان » أى يحسب لك ذلك . وقال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ،
 وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبى موسى : حاسب نفسك فى الرخاء
 قبل حساب الشدة .

وقال عمر لكعب : كيف تجدنا فى كتاب الله عز وجل ؟ فقال : ويل لديان الأرض من ديان
 السماء ، فضربه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه ، قال : فقال له كعب : والله يا أمير المؤمنين
 إنها إلى جنبها فى التوراة وما بينها حرف : إلا من حاسب نفسه ، حدثنا بذلك يعقوب بن
 إبراهيم ، قال : حدثني أبى عن الزهرى عن سالم بن عبد الله : أن عمر قال لكعب ؛ والحديث
 فى ذلك كثير .

فهذه المحاسبة فى مستقبل الأعمال ، وهى : النظر بالتبث قبل الزلل ، ليصير ما يضره
 مما ينفعه ، فيترك ما يضره على علم ، ويعمل بما ينفعه على علم ، فن اتق العجلة وثبت قبل
 فعله ، واستدل بالعلم أبصر ما يضره فما ينفعه قبل العمل بها .
 والمحاسبة الثانية فى مستدبر الأعمال - وهو فعل ماض - نطق بها الكتاب والسنة وقالت بها
 علماء الأمة :

فأما الكتاب فقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُمْ لَغَد ^(٢)) .
 قال قتادة وابن جريج : ما قدمت لغد : ليوم القيامة ، ولم يقل فى هذا الموضع ما تقدم ،
 وكذا فسر العلماء : إنما هو النظر لما مضى ، ليتوبوا من ذنوبهم التى مضت فيما مضى من
 أعمالهم ^(٣) .

وقال جل وعلا : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ^(٤)) .
 فأمرهم جل وعلا ، أن يستدبروا أعمالهم التى مضت ، بالتندم على ذنوبهم ، والتوبة إلى ربهم .
 وقال النبي ﷺ : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

(٣) فى رواية أخرى . أعارهم .

(٤) ٣١ - ٢٤ .

(١) ٥٣ - ٣٧ .

(٢) ١٨ : ٥٩ .

وقال الله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ ^(١)) .

قال مجاهد : الغضب ^(٢) ، تذكروا : فإذا هم مبصرون .
وقال عبد الله بن كثير : أهل الشرك لا يبصرون كما يبصر الذين آمنوا ، ولا يرفعون ، ولا يحجزهم الإيمان .

قال مجاهد : وإخوانهم من الشياطين يمدونهم في الغي .
وروى عن عمر رضى الله عنه : أنه كان يضرب قدمه - حدثنا بذلك كثير بن هشام عن جعفر بن ميمون - بالدرّة إذا جته الليل ، ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟
وروى عن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبته شريكه .

وليس لهذا معنى إلا في مستدبر الأعمال ، لأن الشريكين لا يتحاسبان في بداءة اشتراكهما حتى يعملوا عملاً يجب فيه النظر والمحاسبة .

وروى أبو داود الطيالسي عن عبد العزيز الماجشوني عن هشام بن عروة عن عائشة رضى الله عنها ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، قال لها ، عند الموت : ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر ، قال : ثم قال لها : كيف قلت ؟ قالت : قلت ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر ، فقال : لا . ما أحد من الناس أعز عليّ من عمر . فتدبر كلمة قالها ، ثم أبدلها بكلمة غيرها .
وكذلك حديث أبي طلحة حين شغله الطير في صلاته فتدبر شغله ، فجعل حائطه صديقة الله عز وجل ، ندماً ورجاء العوض لما فاته .

وكذلك حديث عبد الله بن سلام ، حين حمل حزمة من حطب ، فقيل له : يا أبا يوسف ، قد كان في بيتك وغلمانك من يكفونك . فقال : أردت أن أجرب قلبي هل ينكره ؟
وقد روى المختار بن فلفل عن الحسن في تفسير المحاسبة في مستقبل الأعمال ومستدبرها : أنه قال : إن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخلوا هذا الأمر عن غير محاسبة ، ثم فسّر المحاسبة ، فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه ، فيقول : والله إنك

(١) ٧ : ٢٠١

(٢) طائف الشيطان : هو الغضب في رأى مجاهد .

لتعجبنى ، وإنك لمن حاجتى ، ولكن هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك فهذا فى مستقبل العمل .
ثم قال : ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه ، فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر
بهذا ، والله لا أعود لهذا إن شاء الله أبداً ، فهذا فى مستدبر الأعمال .
وكذلك أهل الدنيا فى صناعاتهم وأعمالهم : إذا أراد أحدهم أن يبتدئ العمل رَوَاهُ فى نفسه ،
وقدره ومثله فى وهمه ؛ وصوره فى العاقبة : كيف يكون إذا فرغ منه ؟ فإذا تمثّل فى وهمه على
ما يريد من الإحكام والتمام ابتداءً فيه ، حتى إذا فرغ منه اعترضه خشية أن يكون كان منه زلل
أو نسيان فأخطأ فيه وقرط فى إحكامه ، فإن رأى تفريطاً أتم ما بقى منه وأصلح ما فسد منه .
فعمال الله عزّ وجلّ ، أولى بذلك أن يثبتوا قبل أعمالهم ، ويمثلوها فى أوهامهم كيف تكون بعد
فراغهم منها ، فلا فراغ لهم من جميعها إلا عند موتهم .

وكذلك روى عن الحسن أنه قال : ما جعل الله عزّ وجلّ ، لعمل المؤمن أجلاً دون الموت ،
ثم قرأ : (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ^(١)) يعنى الموت .

وقيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا !! فقال : ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله عزّ
وجلّ ، وكذلك المستأجرون من أهل الدنيا : إنما فراغهم من أعمالهم إذا أتموها ، وإنما يحكمونها
ويستعرضونها بعد فراغهم منها قبل أن يعرضوها على من استأجرهم ، لتكون على ما أراد وأحب ،
وكذلك عمال الله جلّ وعزّ يثبتون فى أول أعمالهم ، ويعترضونها بعد فراغهم منها : كيف تكون إذا
عرضت على خالقهم ؟ هل هى كما يرضى بها عنهم ؟ وهل أتموها كما أمرهم ؟

فشتان بينهما : هذا مخلوق استأجر مخلوقاً بقليل فإنّ مكثراً ممزوج بالغموم ، ولا يخلو - وإن
ناله - من همّ يعترض ، أو حزن يعترى ، أو مصيبة فاجعة ، أو سقم نازل ، أو موت فاجئ ،
وفيه الحساب حتى يتتبع عليهم جميع ما عملوا واكتسبوا ، فيحاسبون عليه ، والذي عمل له
الصادقون ملك عظيمٌ وعدهم على أعمالهم الأجر الكبير ، الباقي الذى لا ينفد ، ولا يعترض فيه
غمٌ ، ولا يعترى فيه حزن ، ولا يحل بالعمال فيه سقمٌ ، ولا ينجم عيشهم بالموت ، ولا يتتبع عليهم
فيه بالحساب .

فعجب ! كيف خفّ على العمال للدنيا التثبّت قبل أعمالهم ؟ والنظر فى أعمالهم بعد الفراغ منها
للقليل اليسير المنعص المكثّر بالأحزان والأسقام ! ثم ينجم فراغهم بالموت ! ثم يتتبع الله عليهم

ذلك بالحساب من بعد الموت ، في يوم الشدائد والأهوال ! ويسألون عن أعمالهم : كيف كان اكتسابهم وإنفاقهم وإمساكهم ؟ وكيف كانت طاعتهم فيها لرهم جل وعلا ؟ .
وعجب ! كيف لا يخف على المؤمن التثبت قبل فعله ؟ والنظر فيه بعد فراغه منه للثواب العظيم ، والنعيم السليم ، والعيش المقيم ، ورضى الملك الكريم ، من غير أن يتقصوا من أرزاقهم ، ولا آجالهم ؛ ولا يفوتهم ما قُدِّر لهم .
فعجب لذلك . ثم عجب لولا متابعة الهوى ، ونسيان نظر الملك الأعلى ، وقلة التفكير في يوم الفصل والجزاء .

فبالتحذير من ذلك اليوم ، ختم الله عز وجل كتابه فيما يروى عن البراء بن عازب أنه قال :
آخر آية نزلت من كتاب الله عز وجل :

(وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ^(١)) .

وإن كانوا قد اختلفوا في آخر آية نزلت آخر القرآن فإن هذه الآية عظة وعبرة .

وقال الحسن لثابت في مرضه مرضها أوصني ، فقال : أوصيك بيوم .

(تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

قال : فقال الحسن : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

آية من كتاب الله جل وعز ، كأنى ما سمعت بها إلا الساعة يسترجع على غفلته ونسيانه .

وفيما يحكى عن الله عز وجل ، أنه قال لموسى : « يا موسى صرّح الكتاب إليك بما أنت صائر

إليه » فكيف ترقد العيون على هذا ؟ أم كيف يجد قوم لاذة العيش ، لولا التماذى في الغفلة ،

والتتابع في القسوة ؟ من دون هذا يجزع الصديقون ، فقد صرّح الكتاب بما إليه المصير ، فقال :

(وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) .

وقال تعالى : (قَوْمَكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢)) .

فقد سترت الغفلة بيننا وبين أعمال الآخرة ، وصلبت القسوة قلوبنا على وعيد الله عز وجل ،

وعمى الرين ^(٣) بصائرنا عن ثواب الله جل وعز ، وعقابه وأمره وأحكامه ، وذلك أننا عطلنا قلوبنا

من فكر الآخرة فغلبت عليها فكر الدنيا فشتغلنا ، فنسينا أنفسنا ؛ لأننا نسينا النظر لها .

(١) : ٢ : ٢٨١ .

(٢) : ١٥ : ٩٢ و ٩٣ .

(٣) الدنس : يقال ران ذنبه على قلبه ، أى علب ، قال الحس . الرين : هو الذنب على الذب حتى يسود القلب .

وكذلك قال الله عز وجل : (نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ)^(١) .

فسره المفسرون : أنساهم النظر لها .

فأول البلية تعطيل القلوب من فكر الآخرة وذكرها ، وعن ذلك يكون السهو ثم النسيان ثم الغفلة ثم التضييع لأمر الله عز وجل ، ثم موارد السوء من الرين والقسوة اللذين يجبان عن الآخرة ، فنعوذ بالله من موارد السوء على أعمال السوء .

وإنما قدمت إليك هذا الكلام قبل إجابتي إياك عن سؤالك عن رعاية الأعمال لله عز وجل ، واختلاف الناس في طلبها على قدر ضعفهم وقوتهم ، لينفصح لفهم الإجابة صدرك ، وليرق ويخشع للقيام بالرعاية قلبك ، وليعنتك على الترغيب في طلبها .

باب الرعاية

وإني أرجع إليك بجواب مسألتك عن الرعاية لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، واختلاف الناس في طلبها على قدر ضعفهم وقوتهم ، لتنظر في أى حال أنت منها ، فتعمل على حسب ذلك إن شاء الله .

باب منازل التوابين

اعلم أن الناس مختلفون في ذلك على ثلاث منازل ، لا رابع لها :
فمنهم من نشأ على الخير لا صبوة له إلا الزلة عند الشهوة ، كالزلة التي لم يَرَّ من مثلها النبيون والصدِّيقون ، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات ، ولم يَغْتَدِرِ اللذاتِ من الحرام ، ولم تَعْتَبِهُ الذنوبُ ، ولم يعلُ قلبه الرِّينُ^(١) ، ولم تغلب عليه القسوةُ .
فرعاية حقوق الله عز وجل ، والقيام بها على هذا أسهل ، والمحنةُ عليه أخف ، ودواعي النفس له أقل وأضعف ، لأن قلبه طاهر ، والله عز وجل عليه مقبل ، وله محب ومتولٍّ ، والولى لا يخذل وليه ، والحبيب لا يُسلم إلى الهلكة حبيبه .
وقد جاء في الحديث : يَعْجَبُ رَبُّكَ للشاب ليست به صبوة ، أى يسرَّ به ويعظم قدره عنده لأن العجب على وجهين :

أحدهما : المحبة بتعظيم قدر الطاعة ، والسخط بتعظيم قدر الذنب في الجرة .
والوجه الثاني : الاستكثار للشيء ، وإنما يعجب استكثاراً للشيء ، الجاهل الذى لم يكن يعرف الشيء ، فلما رآه استكثره وتعجب منه ، وجل الله جلّ جلاله عن هذا الوصف . وإن كان قد قرأ بعض القراء : (بل عجب^(٢)) فليس هو على الاستكثار لما لا يُعلم ومعنى قوله يعجبُ

(١) الرين : الدنس .

(٢) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهى . (بل عجب ويسخرون) .

ربك للشباب ليست له صبوة : أى أن الله عز وجل يحب له ، راضٍ عنه ، عظيم قدره عنده . وروى فى بعض الحديث عن شريح : أن للشباب الناشئ على عبادة ربه ومحبة أجر سبعين صديقاً .

وروى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبي ﷺ ، أن الله عز وجل يقول : « أيها الشاب الباذل شبابه لى ، التارك شهوته من أجل ، أنت عندى ك بعض ملائكتى » فن أظهر من هذا قلباً ؟ أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ؟ ونشأ على طاعة ربه وعبادته ، واعتاد القيام بحقه ، ورعاية حقوق الله عز وجل عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها ، وتركه الركون إلى أضدادها ، قليل مكابדתه ومجاهدته ، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله . وآخر نائب من بعد صبوته ، وراجع إلى الله سبحانه عن جهالته ، ونادم على ما سلف من ذنوبه فى أيامه ، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شىء من فرضه ، ولا معاودة شىء مما سلف من ذنوبه ، والنفس منه تنازعه إلى عادتها ، لترده برغبتها إلى لذتها ، وهو يقمعه ويجاهدها ، ويخوفها عواقب ما كان منها ، وعدوه بذكرها ما فاتها ، ويدعوها إلى ما تركت من شهواتها ، وهو يذكرها قبيح ما كان منها ، ويعظم منه الله عز وجل ، عليها بنقلتها عما يسخط به ربها عليها ، فالبت إلا قليلاً - إن صدق الله عز وجل فى مجاهدته ، وأمسك نفسه عن الشهوات التى تنقص عزمه - حتى يمد الله عز وجل بمعونته ، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه فقال عز وجل : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ^(١)) .

وقال عز وجل : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا . وَإِذَا لَاقِيَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا . وَلَهْدِيَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) .

فوعدهم الله تبارك وتعالى أن يجمعهم على الطريق المستقيم ، ويريهم الحق نهاراً سرمداً ، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه ، فكيف بمن يتقرب إليه ؟ ويتحجب إلى من يتبعص إليه ، فكيف بمن يتحجب إليه ؟

وكذا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ ، أنه قال : يقول الله عز وجل : « يا ابن آدم إن تقربت إلى قتراً تقربت إليك شبراً ، وإن تقربت إلى شبراً تقربت إليك ذراعاً ، وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً ، وإن أتيتنى سعياً أتيتك هرولة » .

(١) وفى هذا المعنى قوله تعالى : (والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبيلاً) .

وإنما هذا على حُسن المعونة ، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق ، والاكتناف بالعصمة فلم يلبث هذا التائب إلا يسيراً حتى يقبل الله عز وجل عليه بمعونة فيغلب له هوى نفسه ، ويقوى منه ضعفه ، ويميت منه دواعي شهواته ، فيقهر العقلُ منه الهوى ، ويغلب العلمُ منه الجهل ، ويسكن قلبه الخوفُ والهمُّ ويواصل فيه الأحران بعد طول لهوه ، واتصال أفراده بالدنيا ؛ كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه هاج خوفه ، وغلب همُّه وطال حزنه ؛ فإذا غفل عن الذكر وسهى عن الفكر ، نازعته نفسه فقال إلى بعض الزلل الذي لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهولهم ، ثم يرجع إلى الله عز وجل بقلب طاهر من الرين والدنس ، قد فطمه عن عادته ، وأعقبه بالخوف من الأمن والإصرار ، وبالرجاء الصادق من الغرة والتسويق ، فهو من سالف ذنوبه هاربٌ لرحمة ربه عز وجل بهر به طالبٌ حتى يلقاه آمناً من عذابه .

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخله ذنبه الجنة . قيل : يا رسول الله وكيف يُدخله ذنبُه الجنة ؟ قال : لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة » .

وقيل لسعيد بن جبير : من أعبد الناس ؟ قال : رجل أصاب من الذنوب فإذا ذكرها اجتهد ، وروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « خياركم كل مفتن تواب » بخبرك : أن خيار أمته لم يعرفوا من الزلل ، وأن علمهم بالله عز وجل - لن يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإنابة .

والثالث مصر على ذنبه ، مقيم على سيئاته - يغلبه الهوى وضعف الخوف ، مقر مع ذلك بأن الله عز وجل معاداً يبعثه فيه وهو لا يتغشاه به ، ومقاماً يوقفه فيه ويسأله عما كان منه ، وثواباً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما ، ثم يحل فيه مخلداً إلا ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد في العذاب الأليم .

فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زایل به الجحْد ، وصدق به الرب عز وجل ، والقلب بالشهوات مشغول عن الفكر ، والرین له مانع عن الذكر إلا الخطوة تهيج من الإيمان بذكر المعاد ، ثم لا تجد موضعاً تستقر فيه ، لما غلب على قلبه من القسوة ، وتتابع فيه من الغفلة ؛ فقلبه هائج باشتغال الدنيا لا يلزمه ذكرُ التخويف ، ولا يتفرغ للفكر ولا يجد حلاوة الذكر ، وكيف يكون للذكر فيه مستقر ، والأشغال تنازعه والغفلات تغلب عليه ؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه ، فيتوب إلى ربه من ذنبه فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى .

باب ما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار

قلت : فما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار ، قال الذى يحل به إصرار قلبه ، ويتحول به عن خطاياها وذنوبه : الخوف والرجاء لربه ؛ لأن الله عز وجل نهاه عما يهوى قلبه وتشتبهه نفسه ، فجعله الله عز وجل للطبع موافقاً خفيفاً وفى المباشرة لذيذاً .

وكذا روى عن المصطفى ﷺ أنه قال : « حُفَّت النار بالشهوات » فأخبر : أن العمل الذى يدخل به عاملة النار : شهى فى النفوس .

وقال ابن مسعود رحمه الله فى هذا الحديث : ومن اطلع الحجاب واقع ما وراءه أى من عمِل بالشهوات المحرمات واقع النار ، ومن لم يطلع الحجاب كان بينه وبين النار حاجز وساتر فلم يدخله ، ومن لم يطلع حجاب النار فأواها الجنة برحمة الله عز وجل .

وكذلك يقول الله عز وجل :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (١) من ذلك قول النبي ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى خلق النار ، فقال لجبريل اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ؛ فحفها بالشهوات ، ثم قال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها فقال : وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها . وخلق الجنة فقال لجبريل : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ؛ فحفها بالمكاره ثم قال : اذهب فانظر إليها ، فذهب فنظر إليها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد » .

فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتبهه نفسه مما كرهه ربه جلّ وعزّ ، فقد احتجب عن النار واستوجب الحلول فى جوار الله .

والأعمال التى أمر الله عز وجل بها وتندب إليها أكثرها مُمَلَّة للقلب ، متعب للجوارح ، أو مُشغَل عن أضداده من اللذات ؛ وذلك كرهه فى الطبع ثقيل على النفس .

وكذلك يقول الله جلّ وعزّ :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ (١)) .

وقال عزّ وجلّ : (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (٢)) .

وقال الصادق المصدوق عليه السلام : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » .

فأخبر أن الحجاب الذي حُفَّت به الجنة : هو الفعل الذي هو كرهه في النفس ثم أخبر أنه من حمل نفسه على ذلك المكروه ، حتى يؤدي حقوق الله عزّ وجلّ عليه ، دخل الجنة برحمة الله جلّ وعزّ .

وقال عبد الله بن مسعود : ومن اطلع الحجاب واقع ما وراءه أى : من يحمل المكاره في طاعة الله عزّ وجلّ واقع الجنة ، أى : دخلها .

والله العليم الكريم أعلم بخلقهم وبما يصلحهم ، فعلم من هذا العبد من قبل أن يخلقه أنه إذا طبعه على حبّ ما وافقه وبغض ما خالفه ، ثم علم ما يوافقه مما يخالفه ، فهاجت لذلك شهواته ، ونازعته إلى ذلك نفسه ، ولا سيّما من خاض في استعمال الشهوات عمره ، لن يدع ما تشتهى نفسه إلا أن يخلق له عذاباً أليماً ، ثم يتهدده به ولن يتحمل ما يكرهه إلا أن يخلق له نعيماً مقيماً ، ثم يرجيه ذلك النعيم ويعدّه إياه ، فخلقها جميعاً لعلمه بخلقهم ، وما أراد من كرامة أوليائه وهوان أعدائه ، وعلم أن هذا العبد الضعيف الجاهل إذا غيب عنه الثواب والعقاب ، وصارا مذكورين في الخبر لا بالعيان ، لم يسمح قلبه بترك الشهوات وتحمل المكاره إلا بتخوف لما خوف ورجاء لما رجى ، فتخوف عباده وتهلدهم ، ورجاهم ووعدهم ليخوفوا أنفسهم ويرجوها فيخافوه ويرجوه .

وكذلك وصف الله الذين فهموا ذلك عنه وخافوه ، فقال . عزّ وجلّ :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٣)) .

فأخبر عزّ وجلّ أنه لما خاف ربّه نهى نفسه عن الهوى .

وقال : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٤)) .

وقال جلّ وعلا : (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (٥)) .

فأخبر أن ما غاب عنهم من العقاب هم له خائفون ، ولما رجّاهم من الغيب هم له راجون ،

(٤) ١٣ : ٢١ .

(٥) ٢١ : ٤٩ .

(١) ٢ : ٢١٦ .

(٢) ٤ : ١٩ .

(٣) ٧٩ : ٤٠ .

وأنهم لما خافوا ورجوا هربوا وطلبوا ، وإنما جعل الجزاء من العقاب والثواب والرهبة والرغبة من الله تعالى ، ليدلوا للمجازي عز وجل ، فيعبده بالخضوع له والذلة ليورثهم في الآخرة النعيم والعز ، فأخير : أنهم لما رغبوا ورهبوا خضعوا له وذلوا وكذلك أهل الدنيا : من خاف منهم ذلًا لمن يخافه حتى يعفو عنه ومن طمع منهم ذلًا لمن يرجوه حتى ينال منه ما يأمل وسارع في محبته .

وكذلك وصف الله عز وجل أوليائه فقال :

(يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ^(١)) .

قال الحسن : هو الخوف الدائم . وقال مجاهد : الذل في القلب يعني ذل الخوف إلا أنهم لما رجوا ما غاب عنهم من الثواب تحملوا المكروه فوصفهم جل وعز في كتابه فقال :

(إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ^(٢)) .

وقال عز وجل :

(قَمَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ^(٣)) .

وقال عز وجل : (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ^(٤)) .

قيل في التفسير : ثواب الله .

فلما خافوا هربوا وجانبوا ما نهاهم عنه كما وصفهم فقال : (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ

وَعِيَدِي ^(٥)) .

وقال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ^(٦)) .

وقال تعالى : (وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ^(٧)) .

(٥) : ١٤ : ١٤ .

(٦) : ٧٩ : ٤٠ .

(٧) : ١٣ : ٢١ .

(١) : ٢١ : ٩٠ .

(٢) : ٢ : ٢١٨ .

(٣) : ١٨ : ١١٠ .

(٤) : ٢٩ : ٥ .

باب ما ينال به خوف وعيد الله عز وجل

قلت : فبم ينال الخوف والرجاء ؟

قال : تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد .

قلت : فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد ؟

قال : بالتخويف لشدة العذاب والترجي لعظيم الثواب .

قلت : وبم ينال التخويف ؟ قال : بالذكر والفكر في العاقبة ، لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوفه ورجاه لن يخاف ولم يرج إلا بالذكر والفكر ، لأن الغيب لا يرى بالعين ، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين فإذا احتجب العبد بالخلة عن الآخرة ، واحتجب عنها بأشغال الدنيا لم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه ، وأما خوف يتنصص عليه تعجيل لذته مما كره إلهه عز وجل ورجاء يتحمل به ما كرهته نفسه فيما أحبه ربه فلا ، ما دام مؤثرا الهوى نفسه ، وإنما يحتلب ذلك الخوف والرجاء - بمنة الله عز وجل - بالذكر والفكر والتنبيه والتذكر لشدة غضب الله وأليم عذابه وليوم المعاد .

وقد أخبر الله أن أوليائه اجتلبوها بذلك ، وقال : (لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُسُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُنْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ^(١)) .

إلى قوله جلّ وعزّ : (وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) .

وقرأ النبي ﷺ هذه الآية في جوف الليل فقال : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبيلته فلم يتفكر فيها ، وصلى وبكى عامة ليله ، فقليل له في ذلك ، فقال : أنزلت على هذه الآيات ، فأخبر الله تعالى : أنهم لما تفكروا وتذكروا عظم عليهم خزي دخول النار فحافوا النار ، ثم ناجوه

(١) ٣ : ١٩١ - ١٩٤ والتكلمة : (ربنا إنما سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك) .

بأن يفكهم من النار ومن خزي يوم الحساب ، لأنهم لما رجوا النجاة بمثته أقبلوا إليه بالتضرع أن ينجيهم من خزي ذلك اليوم .

فالذي ينال به الخوف ، معرفة عظيم قدر العذاب ، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب التخويف ، والتخويف ينال بالفكر في المعاد ، والفكر ينال بالذكر ، والذكر بالتيقُّظ من العقلة ، لأن الله جلَّ وعزَّ إنما خَوَّفَنَا بالعقاب لنَخَوْفَ أنفسنا ، ورجَّأنا لترجِّها ، والتخويف تكلف من العبد بمئة الله عزَّ وجلَّ وبفضله عليه ، والخوف هائج منه لا يملكه ، يكون عن التخويف يسجده الله من القلب المحوِّف لنفسه كما أمره الله ، وقد يُخَطِّرُ اللهُ جلَّ وعزَّ الخوفَ بقلب العبد المؤمن من غير تكلف ، إذا أراد أن يتفضل عليه بذلك ، وإن لم يخطره بباله لم يكن العبد عنده معذوراً بتركه التكلف للتخويف ، كما أمره أن يحوِّف نفسه ، لأنه أمره بالفكرة في المعاد ، وذلك هو التخويف والترجي ، وتهلده وأوعده ليتفكر في ذلك فيخافه ويرجوه .

باب ما يحل به المصّر إصراره ووصف ثقل الفكرة على القلب

فإذا أراد هذا العبد المصّر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه ، ويبيعه على التوبة من ذنوبه ، فليُغْنِ بطلب الخوف بالتخويف بالفكر في المعاد ، وهجوم الموت وعظيم حقّ الله عزّ وجلّ وواجب طاعته ، ودوام تضييعه لأمره وركوبه لنبيه .

قلت : الفكرة أجدها على قلبي ثقيلة فنّ أين ثقلت على العباد ؟
قال : ثقلت الفكرة على العباد لثلاث خلال ، فقد تجتمع على بعضهم فتثقل عليه الفكرة ، وقد يُثقلها على بعضهم الخلّة من هذه الخلال الثلاث أو الخللان .

فأحداها : قطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بالذكر في الآخرة ، لأنه إذا تفكر سجن عقله عن الدنيا فقطعه عن راحته بالفكر في الدنيا والنظر في أمورها .

والخلّة الثانية : أن الفكر في المعاد وشدائده تلذيع للنفس وغمّ لها حين تذكر المعاد والحساب وما لها وما عليها ، لأن الموحّد المقر إذا تفكّر في ذلك هاج منه الغمّ والحزن لإيمانه بذلك ، فيثقل الفكر على النفس من أجل ذلك ، لأنه يثقل عليها ما أهاج عليها الغموم والأحزان .

والخلّة الثالثة : أن النفس والعدو قد علما أن المريد إذا أراد الفكر في معاده ، أنه إنما يطلب بالفكر خوفاً يقطعه عن كل لذة لا تُقرب إلى ربّه ، ويحمّله على كل مكروه يتحمّله فيما أوجب عليه ربّه ، فالنفس يثقل عليها الفكر إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها أيام حياتها ، ويحمّلها على ما تكره ويثقل عليها ، وقد علم العدو أنه إنما يطالب ما يبطل عنه مكائده ، ويدحض حجّته ، ويخالف محبته ، فلهذه الخلال الثلاث ثقلت على المريدين الفكرة .

باب ما تخفف به الفكرة على القلب

قلت : فما الذى يخففها ؟ قال : العناية ، قلت : فما تورث العناية ؟ قال : عظيم المعرفة بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع فى الدنيا والآخرة ، وبِعَظِيم قدر ضرر الغفلة عن الفكر فى المعاد ؛ قلت : فإن اعترضته هذه الثلاث الحلال عند ذكره عظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع ، فبم يدفعهن عند ذلك إذا ثقلت - باعتراضهن - الفكرة عليه ؟ قال : يرجع العبد إلى نفسه فى هذه الثلاث الحلال ، إذا اعترضت عند إرادته الفكرة ، أو عرض بعضها دون بعض ؛ لأن كل خلة منها فيها عبرة يذكر شكلها من شدائد الآخرة ، بل أعظم وأطم ، فيرجع إلى نفسه بالعتاب لها وبالتوبيخ فى ذلك فيقول لها : أتجزعين أن أسجن عقلك عن النظر فى الدنيا ؟ فكيف بسجنك فى النار أبداً ؟ فتحملى هذا الثقل القليل للنجاة من السجن الطويل ، أتجزعين من سجن عقلك فىك عن النظر فى الدنيا لنجاتك وفوزك فى المعاد ؟ ولا تجزعين إن تركت الفكرة التى تمجرك عن المعاصى التى تورثك السجن وتكبك فى النار أبداً ؟ فن السجن فى النار فاجزعى ! فتحملى هذا القليل الفانى للنجاة الدائمة ، وأما جزعك من تلذيع ذكر العقاب ، فكيف جزعك من مواقته ؛ فالفكرة فيه أيسر من مباشرته ، فتحملى تلذيع ذكره للنجاة من الخلود فيه ؛ وأما فرارك من النظر فيها ينجيك من عذاب الله عز وجل كراهية أن ينقص عليك لذاتك فى دنياك فكيف بالتغيبص عليك لذات الآخرة ، وحرمان ما فيها من نعيمها ؟ مع أن الله جلّ وعزّ ليس بتاركك إن صدقته مع ما تالين من نعيم الآخرة ، حتى ينعمك بطاعته فى الدنيا ؛ ففى نعيم الطاعة فى الدنيا والظفر بنعيم الآخرة عوض من تنغيص لذات الدنيا ، وليس لذات الدنيا بنعيم لو تعقلين بل شغل قلب لا يتقضى وهم لا ينفد وحرص لا راحة معه ، مع ظلمة القلب إذا سلبت بمعصية الله عز وجل نور الطاعة والتنعيم بها ؛ فالذل والهَم فى لذاتك بالدنيا ، والعز والغناء والنعيم فى الاستبدال بها التنعيم بطاعة ربك جلّ وعزّ ؛ لأن اللذة لله عز وجلّ ، أَلذَّ عند المريد ، وأبقى فى القلب لذّة من اللذة بمواقمة ما كرهه الله عز وجلّ ، لأن العبد يُصيب اللذة ساعة أو أقل من ساعة ، ثم يعقبه الندم الطويل ، وإذا تركها لله عز وجلّ ، ثم ذكر أنه تركها لطلب رضاها فكلما ذكرها فأمل ورجى أن يكون قد رضى عنه بتركها له ، وجد سرور ذلك ولذته ، فيبقى ذلك السرور فى قلبه حتى يموت .

قلتُ : قد تخف على الفكرة ولا أعرف طريقها ، فما الذى يفتحها ؟ قال اجتماع الهمم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل .

وقد وصف الله عز وجل المستمعين لما يجب باجتماع الهمم ، فقال عز من قائل :
(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ^(١)) .

قال المفسرون : حاضر ليس بغائب .

فحضور العقل باجتماع الهمم ؛ لأن العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد بتفريق الهمم في الدنيا ، فإذا اجتمع الهمم حضر العقل ولم يعزب عن الفكر فيما أحب الله عز وجل .
وكذلك روى عن أبي العالية قيل له : ما يفتح على الفكر ؟ قال : اجتماع الهمم ، لأن العبد إذا اجتمع همه تفكر ، وإذا تفكر نظر ، وإذا نظر أبصر .

باب ما ينال به اجتماع الهم

قلت : فاجتماع الهم بم ينال ؟ قال : بخلتين :
 إحداهما : قطع شغل الجوارح عن كل شيء سوى ما يريد أن يتفكر فيه ؛ لأن النظر بالعين
 يلهي القلب ويشغله ، واستماع الأذن كذلك ، ومس اليد كذلك ، إلا نظراً أو استماعاً يستعين به
 على ما يريد أن يتفكر فيه كالرجل يعطك فتستمع له لتفهم ما يقول أو تنظر إليه ، أو القراءة في
 المصحف ، أو الصحف فيها العلم .

وقد وصف الله عز وجل بذلك من فهم عنه فقال :
 (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ^(١)) .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنها حدث القوم ما حدقوك بأبصارهم ، وكذلك أن تنظر
 إلى الأشياء لتعتبر بها ، فأما ما سوى ذلك فلا تشغل جوارحك بشيء من أمر الدنيا ، فإذا أردت
 أن تفكر خالياً كنت أو مستمعاً أو معتبراً ، فاقطع شغل جوارحك بالدنيا ، فإن ذلك يغلق عنك
 الفكر .

ومن ذلك قوله عز وجل : (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَلَإِذْ هُمْ نَجْوَى ^(٢)) .
 ووصف الله مؤمنى الجن فقال : (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ^(٣)) .
 فلدحهم بذلك إذ تناهوا عما يشغلهم عن فهم كتابه من رسول الله ﷺ .
 وقال عز وجل : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ^(٤)) .
 فأمر تبارك وتعالى بترك الكلام لينال به فهم كتابه .

وروى عن حمزة بن عبد الله بن مسعود أنه قال : طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم
 ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه ، فإذا قطع العبد شغل جوارحه بالأشياء يغير ما يتفكر فيه ،
 حضر عقله فلم يشغله بشيء مما ظهر .

(٣) : ٤٦ : ٢٩ .

(٤) : ٧ : ٢٠٤ .

(١) : ٣٩ : ١٨ .

(٢) : ١٧ : ٤٧ .

والثانية : أن يمنع قلبه أن ينظر ويتفكر في شيء من أمور الدنيا سوى ما يريد أن يتفكر فيه ، وكذا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ ، أنه قال : « من كل قلب ابن آدم في كل وإد شعبة ، فمن اتبع قلبه تلك الشعب لم يبال الله في أي أوديته هلك ووقع » وقوله عز وجل : (أُولَئِكَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) .

فهو : ألا يتفكر في غير ما يستمع ، وروى ذلك عن مجاهد وغيره . فإذا قطع العبد شغل جوارحه من الظاهر ، وقطع فضول الفكر من الباطن ، ومنع قلبه من الفكر إلا فيما يريد أن يتفكر فيه ، اجتمع همه وحضر عقله ، وكذلك رأينا أهل الدنيا : إذا أراد أخذ منهم أن يُحكم شيئاً من أمر دنياه من تقدير عمل يعمل أو حساب يريد أن يُحكمه ، منع سمعه وبصره أن يشتغل بشيء غير ذلك ، ومنع قلبه أن ينظر في غير ذلك ، كراهية ألا يُحكم حسابه إن شغل قلبه بالفكر في غير ذلك ، أو نظرت العين أو استمعت الأذن إلى شيء غير ذلك مال إليه العقل فاختلط عليه حسابه ، فإذا قطع العبد شغل جوارحه عن الدنيا في وقت فكرته ، ومنع قلبه من النظر في شيء من الدنيا اجتمع همه ، فإذا اجتمع همه ثم تفكر بالتوكل على الرحمن جلّ وعزّ لا على عقله ، فتحت له الفكرة بمئة الله عز وجل ، لأن العبد قد يغفل عند ذلك إذا اجتمع همه واتكل على عقله لما يعرف من فطنته ، وقد يوسوس له العدو أن الفكرة إنما كانت تستغلق عنك باشتغالك ، فأما إذا أحضرت همك فإنها تستفتح لك الفكرة ، فيتكل على عقله وينسى ربه تعالى فأخاف ألا يفتح له ما يريد من خير .

ومن ذلك حديث سليمان النبي ﷺ ، في الولد : أنه قال : « لأطوفن الليلة بمائة امرأة فتحمل كل امرأة بغلام ، ثم ليقاتلن فرساناً في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله . فقال النبي ﷺ : « فاحملت منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق غلام » قال النبي ﷺ : « لو قال : إن شاء الله لكان كما قال » .

فإذا تفكر في المعاد بتخويف نفسه عظم قدر العذاب عنده ، فإذا عظم قدر العذاب عنده حاج في قلبه الخوف حتى لا يملكه ، فامثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في جنب الغليان ، كالموقد يوقد تحت القدر المملوءة ، فكلم أدام الوقود اشتد الغليان . فكذلك العبد : كلما أدام الفكر بالتخويف في ذكر العقاب وكثرة الأهوال وعظيم السؤال مع المعرفة بعظيم حق الله جلّ وعزّ وواجب طاعته وأنه لعامة ذلك مضيق حاج الخوف ؛ فإذا حاج الخوف قذف القلب بالإصرار على الذنوب ، وسخا عنها نفساً فندم وتاب وخشع وأناب ، وكذلك الوقود كلما اشتد دوام الوقود

اشتدّ الغليان . فإذا اشتدّ الغليان قذفت القدر ببعض ما فيها ، فمن أدمن الفكر بالتخويف لنفسه فيما تهدده ربّه وتوعده به هاج خوفه ، فأطفا نار^(١) شهواته التي أصر عليها ، فسحا يترك الإصرار . نفساً ، وأقلع عن الذنوب وخاف عاقبتها ولاسيا إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل ، فيتفكر في وعده ووعيده . وأهوال القيامة وشدائدها ؛ وتلك أنجع الفكرة إذا كانت بتلاوة كتاب الله عز وجل .

باب وصف منازل المصرّين وبم يقوى العزم على التوبة وترك الإصرار

قلت : فهل يستوى المصرّون في ذلك ؟

قال : لا .. المصرّون في منازل شتى : فمنهم من كثرت ذنوبه ، وعظمت جليته ، وطالت غفلته واحتجابه بها عن الآخرة ، فإذا أعمل قلبه في الفكرة بالتخويف لما خوّفه ربه عزّ وجلّ ، لم يبيّج منه الخوف سريعاً لطول غفلته وغلظ القسوة فيه .

ومنهم من قلت ذنوبه ، ولم تطل به الغفلة ، ولا احتجابه بها عن الآخرة .
ومنهم تائب من بعض ذنوبه ، وهو مصرّ على آخر من ذنوبه ، وهم في مطالبة الخوف متفاوتون .

قلت : ففصّل لي بين مطالبة من عظم بلاؤه ، واشتدّ مرض قلبه ، وبين غيره من المذنبين .
قال : إن للعدو خدعاً من الدعاء عند مطالبة الخوف ، لمن عظم ذنبه ، وطالت غفلته . وغلظت القسوة فيه ؛ فإذا أعمل قلبه بالفكر بالتخويف لما خوّفه ربه جلّ وعزّ ، لم يبيّج منه الخوف سريعاً لطول غفلته ، وغلظ القسوة في قلبه ، لأنه قد أعضل داؤه فلا ينجع الدواء فيه وكذلك أهل الدنيا في أمراض أبدانهم : إذا طال السقم بأحدهم وأعضل داؤه لم ينجع الدواء فيه إلاّ بطيئاً ؛ وكذلك من طال مرض قلبه وأعضل داؤه لم ينجع التخويف فيه سريعاً ، فللعدو وللنفس تشبيط منها بالدعاء عند طلب الخوف ، فإذا لم ينجع التخويف فيه سريعاً ، دعت نفسه وعدوه إلى الملل والسآمة والانصراف عن الفكر ، وأنه ليس بمقامك ، ولا يبيّج الخوف من مثلك ، إنما تُعنى نفسك ، فيترك الفكر والطلب ، ويعتقد المني والتسويق إلا أن يكون ليبيّاً فطناً ، فإن كان ليبيّاً فطناً رجع إليهما بالزجر لهما عن دعائهما . وإن عظيم ما يطالب من النجاة ، وعظيم ما قد حلّ به من البلاء المُسلم له إلى عذاب الله عزّ وجلّ ، إلا أن يعفو الكريم : يزيلان السآمة والملل في طلب الخوف ، ويبعثان على الدوام بالفكر بالتخويف ، وإنما هذا مقام مثلي ، لأنه إنما خوّف العاصين من عباده ليخافوه ، وتهدّد بالتخويف من عظم ذنبه وطالت غفلته ، ليتيقظ من رقدته ويفيق من سكرته ؛ ولكن دأى قد أعضل ، وسقم قلبي قد طال . فاللوام

بالفكر بالتخويف أولى بي إذا أعضل دالى وطالت غفلتى ، فإن أدمن على ذلك هاج الخوف بإذن ربى .

ولذلك أمثال من الدنيا كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ؛ وكالثوب إذا كثر وسخه لم يتق إلا بإدامة غسله ؛ فإذا أدمن المصر الفكر بالتخويف سخت نفسه بالتوبة ، وكذلك الثائب من بعض ذنوبه المقيم على بعضها قد يكون بعض ما هو مقيم عليه قد غلب على قلبه حبه ، وطالت به غفلته ، ودامت له عادته ؛ ومطالبة الخوف فى عاقبة ذنبه ذلك عسيرة ، وهو دون المصر على أكثر ذنوبه ، إلا أنه محتاج أيضاً إلى الدوام على الفكر ، ودفع خدع النفس والعدو بمثل ذلك ، حتى تسخو نفسه بالتوبة ويندم على جملة ما عمل من الذنوب ، وينوى ألا يعود وقد أشجع حيثئذ ، فيها الخوف .

قلت : فالندم على جملتها يجزيه دون معرفتها بأعيانها .

قال : لا ، لأن كثيراً من الذنوب يسترها الهوى ، ويحول بين العبد وبينها النسيان ، وللعفو والنفس خدع عند ذلك ، إذا علما أنه قد غلبها ، وصار إلى الندم ؛ واعتقاد التوبة من ذنوبه أرياه أنه لا ذنوب له إلا الذنوب التى يذكرها فى هذا المقام ، وقد تكون له ذنوب أخر كثيرة ، كانت فى أحواله فيما مضى من عمره ، من كلام لا يظنه ذنباً أو عمل لا يعدّه خطأ ، أو مظلمة لا يرى أنها مظلمة لغلبة الهوى ، وقد يخيل إليه أنه قد تاب من جميع ذنوبه وهو مصر على أكثرها أو بعضها وهو لا يعلم ؛ لأنه فى وقت الخوف أطوع ما كان لرّبه جلّ وعز ، وليس له جارحة تتحرك بما يكره مولاه ؛ وهذا لا يكاد يعرف جميع ذنوبه تلك الساعة . فإن كان عاقلاً متيقظاً علم أن له ذنوباً كانت فى أحواله فيما مضى من عمره كثيرة ، ومثله فيما كان فيه من الغفلة يُعمى عليه أكثر ذنوبه من كلام يتكلم به لا يظنه محرماً عليه ، أو عقدي ضمير بالسوء لم يكن يراه فيه مخطئاً ، بل قد يسمع به فيتعجب ممن يأتبه ، وهو يفعله ولا يعرفه .

قلت : فبم يعرفها ؟

قال : يعرفها بتذكر ساعاته فيما مضى من أيامه فإنه لا يعرفها إلا بذلك ، ويتذكر أحواله فى ساعاته فيما مضى من عمره : كيف كان فيها ؟ من حقّ ضيعه ، أو ذنب قد ركبه ، فيعرض أيامه الخالية فى عمره وأحواله فى أيامه ، وحركاته وسكونه وضميره فى أحواله ، فيذكر غضبه ورضاه : كيف كان فيه ؟ ومحبه وبغضه واكتسابه وإنفاقه وإمساكه ، وردّ ما كان عليه وأخذ ما كان له عند غيره كيف كان ، أخذ بالحق أم بغيره ؟ ومنطقه ولحظه واستماعه وخطاه برجله ، وبطشه

بيده ، ومظالم العباد عنده في أموالهم وأعراضهم ، وحقوق من يجب له عليه الحق من أقربائه وغيرهم ، فيتذكر تذكر من يريد الطهارة قبل لقاء الله عز وجل ، ويتذكر مظالم العباد عنده تذكر من أوقف نفسه للقصاص قبل القصاص بين يدي الله عز وجل ، فإذا تذكر كيف كان منذ أصبح إلى أن أمسى في جميع هذه الأحوال ؟ وكيف كان إذا أمسى إلى أن أصبح ؟ فعرض كل جارحة على حيالها في عمل ليله ونهاره ، وكيف كان قلبه في أعماله الصالحة ، ما كان يريد بها ، وعلى ما كان يكور ، وما الذي كان يبعثه على الأعمال ، وكيف كانت عقود ضميره من الحسد على الدين وغيره ، وجميع أعمال قلبه ؟ ذكر حقوقاً كثيرة لله عز وجل ضيعها ، كلما ذكر حقاً قد ضيعه هاج الندم من قلبه ، لما مضى من تفريطه في حقوق ربه ، وأعطى العزم أن يقوم به لله عز وجل فيما يستقبل من عمره ، وكلما مرت بذنوب قد اكتسبها هاج حزنه وندمه ، وخاف أن يكون قد نظر إليه الله جلّ وعزّ بمقت وغضب ، فألى على نفسه ألا يقبله بعدها ، ولا يرحمه أبداً ؛ فأعطى العزم ألا يعود إلى ذنب أبداً ، واتصل الرجاء بالخوف ، وامتنع منه الإياس ، ورجع إلى نفسه بذكر الرجاء ، أنه لو كان أوجب ألا يرحمني أبداً لما أحتاج قلبي بالرجاء ، ولا تسخى قلبي بالتوبة ، فالرجاء والخوف هاتجان في قلبي ، وهو يستشف حقوق ربه حقاً حقاً ، وهو يتذكر ذنوبه ذنباً ذنباً ، فإذا كثرت ذكر التضييع لحقوق الله عز وجل في قلبه ، وكثر ذكر عدد الذنوب التي كانت منه فلم يذكر يوماً من أيامه طلعت فيه الشمس ثم غابت ، حفظ الله تعالى فيه جارحة من جوارحه لا يعرف أنه حفظ لسانه في يوم من أيامه إلى أن أمسى ، فلم يتكلم بكلمة يتخوف سخط الله عز وجل فيها ، ولا سلم سمعه وبصره وخطاه ، ولا تفقد فيه قلبه يوماً إلى الليل في طاعة ربه ، فلم تخطر خطرة رياء ولا عجب ولا كبر ولا حسد إلا كرهها وسلم منها ، فأخلص طاعة ربه يوماً من أيامه فيها خلا من عمره ، فإذا نظر إلى كثرة تضييع حقوق الله جلّ وعز ودوام ترك الرعاية لها وعظيم الذنوب . وكثرة المظالم للناس عنده في أعراضهم وأموالهم ، وترك الإخلاص في القليل الذي كان يعمل به ، خاف أن يكون الخير مُجَبَّطاً ، وتضييع حقوق الله تعالى وعظيم الذنوب قد سقط بهما من عين الله جلّ وعزّ ، وكاد يخامر الإياس عقله ؛ لأنه كان يظن أنه مطيعاً لله عز وجل ، فكلم فتش نفسه وتذكر أحواله ، علم أنه قد كان حربً بدينه وهو لا يعلم ، فثله كمثله رجل كان له مال عظيم في صندوق مقفل فسرق ما في الصندوق وأقفله كما كان ، فهو قوي القلب مسرور بما يرى أنه في الصندوق ، فلما فتح الصندوق فلم ير المال ، علم أنه قد كان حربً وهو لا يشعر ، فانكسر قلبه وأيقن بفقره ، فكذلك هذا المفتش لنفسه المتفقد ليعيه . وكذلك لما أيقن بالافتقاد ، ثم فرغ قلبه

إلى ذكر ذى الجود والكرم ، وأبأدى الله السابقة فيمن كان أعظم منه ذنباً وأطول غفلة كالسحرة وغيرهم ، ثم رأى آثار الجود والتفضل عنده إذ نظر إلى نفسه قد هاج الخوف منها ، وتذكرت ما مضى من الذنوب ، لتطهر من أذناسها قبل لقاء ربها عز وجل ، هاج الرجاء أن يكون في سابق علمه وقدره ولياً لربه عز وجل ، وأن ذلك الوقت تاريخ حكم ولايته ، وخاتمة من أسعده ، ليظهره قبل لقائه ، ويزينه للعرض عليه ، فيعطى الله عز وجل العزم بالتوبة عند كل ذنب يذكره ، وتضييع حق يعرفه ، وأدى المظالم إلى أهلها وتذلل لهم في عاجل الدنيا لرجاء التعزز في الآخرة بالسلامة من الخصوم بين يدي الله عز وجل حتى إذا أعطى العزم ألا يعود في ذنوبه ، وأن يقوم بجميع حقوق الله جل وعز ، وما كان عليه منها أداه كصلاة ضيعها في جهالته ، وصيام أورحم قطعها ؛ لأن كثيراً من القراء يكثر الدهر الطويل في قراءته ، وعليه صلوات قد ضيعها في جهالته ، لا يذكر أن عليه قضاءها ، كمتهاون في جنابة أو سكر أو تخفيف لا تجزئه الصلاة به ، أو تقصير في وضوء لا تجزئه بذلك الصلاة ، فتنسى قراءته ذكر ما كان في جهالته ، فإذا عزم العبد القيام بجميع حقوق الله جل وعز بعد معرفته بذلك ، فعند ذلك للعدو وللنفس خدع يريانه أنه إنما يتال القيام بما عزم عليه بعقله وقوته ، وأنه بعد عزمه لن يغلب ، وينسى التوكل على ربه جل وعز ، فلا يؤمن عليه من ذلك الخذلان .

ومن ذلك حديث سليمان عليه السلام ، أنه لم يُعطَ ما أراد بقصد عزمه إذ أغفل التوكل على ربه عز وجل ، بتركه الاستثناء ، كما قال المصطفى ﷺ ، وكما أنزل الله على النبي ﷺ يعاتب أصحابه في يوم حنين حين قال منهم من قال : لن نُغَلَبَ اليوم من قلة ، فأُنزل تبارك وتعالى في ذلك يعاتبهم - وهم خير عصابة على الأرض ، بل لا عصابة تعبد الله غيرهم ومن تبعهم ، غضاب لله ، ينصرون دين الله ، مستجمعون لقتال أعداء الله - بما أغفلوا التوكل عليه . فقال جل وعز : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوتُكُمْ ^(١)) . الآية .
والأحاديث كثيرة في ذلك .

فإن كان عبداً عاقلاً رجع حيثنذ إلى ضعف نفسه ، وإلى ذكر قوة ربه ، فرغب إليه في المعونة من عنده على أداء حقوقه ورعايتها ، وناجاه بقلب راغب راهب : إني أنسى إن لم تذكرني ،

(١) ومنه قوله تعالى لنبيه ﷺ (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله وأذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن ينسيني ربى فأقرب من هذا رشداً) .

وأعجز وأضعف إن لم تقوّى ، وأجزع إن لم تصبّرى ؛ وإن لم ينج ربّه بذلك كان ذلك عقدهُ في طلب المعونة : فعزم وتوكّل واستغاث واستعان ، وتبرّأ من الحول والقوة إلا برّه تبارك وتعالى ، وقطع رجاءه من نفسه ، ووجه رجاءه كله إلى خالقه ومولاه ؛ فإنه سيجد الله تبارك وتعالى قريباً مجيباً ، متفضلاً متحنّناً متعطفاً : وكذلك أمر من أناب إليه وعزم على طاعته فقال لنبه ﷺ (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) .

ووصف عبده الصالح شعيماً عليه السلام ، بالنية بترك ما يكره ، وبالعجل بما يجب وبالتوكّل مع ذلك بطلب التوفيق من ربّه فقال :
(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ^(١)) .

وعند هذه الحال للنفس والشيطان خدع من خطرات العجب باستعظام هذا المقام ، فيدعوانه إلى أن يضيف ذلك إلى نفسه ، وأنه إنما وصل إلى ذلك بعقله وفطنته وعمله ، وفقهه وحزمه ، وقوته ، فرحاً منه بقوته على ذلك ، فذلك لنفسه حمد مع نسيان منّة ربّه بذلك وتفضله عليه ؛ فإن غفل وسها فأضاف ذلك إلى نفسه : أنه هو الذى وصل إلى ذلك ، وحمد عقله وفطنته ، وتخلّصه وطلبه ، ونسى نعمة ربّه ، استحقّ عند ذلك أن يوكل إلى نفسه كالذى يروى عن ابن عباس : « أن داود عليه السلام إنما أصاب الذنب بإعجاب أعجبه من نفسه ، فوكله إلى نفسه بالإعجاب ، وسنأتى على ذكر العجب في غير هذا الموضع ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

فإذا نبه الله عزّ وجلّ وأيقظه ، علم أن ذلك كان بمّة الله جلّ وعزّ عليه ، وأن نفسه من ذلك بريئة ، وإنما عزم على خلاف محبّتها وأنها لم تنقد له إلاً مجبورة ، ولم تنقد حتى احتاج إلى أن يتكلف الخوف ، فكيف يكون منها هذه الأحوال ، وهو خلاف محبّتها ، ولم تنقد له إلاً بغير وكرامية ؟ فكيف يكون منها ما تأباه ولا تريده ، وهى التى كانت مهلكته من قبيل هواها ؟ وأن الذى أدخلها في خلاف محبّتها إلّهُها وخالفها جلّ وعلا ، فخلص له الحمد ، ووجب له الشكر ، وأمكنته الثقة وحسن الظن فيما يستقبل ، لما يرى من أثر المنّ والتفضل والاستراحة إلى المتفضل بذلك ، ولزوم القلب الإياس منها ؛ ووجب الذمّ لها وحذرهما واتهمها وترك الطمأنينة إليها ؛ لأنه قد رأى ما قد مضى من أفاعيلها ، ما استحقّ ذلك عنده بعد ما عرفها ، وأراه ربه ، جلّ وعزّ من

آثار تفضله ما استحقَّ الرجاء والشكر وحسن الظنَّ به ، حين خلص عزم التوبة في قلبه ، بعد
الاعتراض لذنوبه فيما مضى من عمره ، وأزال العجب عن قلبه ، وألزم قلبه حسن الظنَّ بربه ،
فهو حيثُ تائب مقلع ، منيب خاشع مقر معترف أن توبته كانت بمَنَّة الله ربِّه ، لا بقوته ،
فيستأهل بذلك الزيادة من الله عزَّ وجلَّ ، لأنه يقول : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^(١)) .
وفي التفسير : لأزيدنكم من طاعتي .

باب ما يجب أن يلزم القلب عند معرفة النفس ومعرفة الحلال التي يكون عنها نقص العزم عن الطاعة والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة

قلت : وما الذى هو أولى به بعد ذلك أن يلزمه قلبه ؟ قال : يعلم أن الله عز وجل محناً
فما يستقبل من عمره ، وأن عدوه لم يمت ، وأن طبعه قائم لم يتقلب ولم يحل ، وأن الدنيا بزينة
ومكروها لم تفن ، وأنه لن ينال القيام برعاية حقوق الله عز وجل ، مع هذه الأسباب المزلّة
المفتنة إلا بالتيقظ من الغفلة ، والذكر من النسيان ؛ وأن ذلك لا يحتلب إلا بالاهتمام والحذر .

قلت : الاهتمام بماذا ؟

قال : الاهتمام بالوفاء بعزمه ، والحذر لنقض عزمه

قلت : وما الذى ينقض عزمه فيكون له حذراً فيلزم قلبه الحذر له ؟

قال : أن يلزم قلبه الحذر لست خلال ، وبهين ينقض عزمه ، وهى التى تريله عن الوفاء بعزمه
لربه جلّ وعزّ ، ويتركهن يكون الوفاء بعزمه لربه جلّ وعزّ :

فأحداها : أن يحذر أن يعود إلى ذنب قد عزم على تركه حذراً أن تغلبه نفسه بهواها عند غفلته
ونسيانه ، فيعود فيها لما هاج من شهوة لذته ؛ لأن العبد قد يترك لله جلّ وعزّ ما تشتهى نفسه ، ثم
ترده إلى معاودتها ورغبته فيها ، ألم تسمع قول وهب : طوبى لمن لم تغلبه شهوته ، ولم ترده
رغبته !

والثانية : أن يكون ذنب قد مضى من عمره ستره الهوى والشهوة فى حال توبته ، فيعرفه
فيما يستقبل فيعطى الندم عليه والعزم ألا يعود فيه ، فيحذر أن تعود النفس إلى عاداتها ، ومطالبة
هواها ولذتها فى وقت غفلته ، وليس عنده معرفة به ، فيركن إليها ؛ فإنما يرتقب متى تعرض
نفسه ، بالطلب لعاداتها ، فيعرفه إذا كان ذاكرةً مثبتاً .

والثالثة : أن يعرض له ذنب لم يكن فيما مضى من عمره ، لأن النفس إذا مُنبت أبواً من
الشهوات طلبت شهواتٍ أُخر تستريح إليها ، عوضاً مما فُطِمت عنه من الشهوات واللذات .

والرابعة : حقَّ الله عزَّ وجلَّ ، مما أوجب العملَ به ، قد كان مضيئاً له فأعطاه العزمَ أن يقوم لله تعالى به ، فيحذر أن يضيعه فيما يستقبل من عمره ، لاستقبال مكروه من تعب ، أو مشغل عن راحة الدنيا ، أو واضع من قدره عند المخلوقين ، كطلب الحلال وغيره ، أو استدلال منهم له ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقيام بحقوق الله عزَّ وجلَّ ، فيما يخالف أهواء العباد .
والخامسة : أن يكون حقاً لله عزَّ وجلَّ ، قد ضيعه فيما مضى من عمره ، سترته كراهية النفس للقيام به ، وهواها للراحة في تركه ، فلم يعرفه في حال توبته ، فيحذر أن تعود النفس إلى عاداتها من تضييع حق ربها ، فيقدِّم الحذرَ ليفطن له إن عرَّضَ .

والسادسة : أن يتلى ويمتحن بحق لم يتل به من قبل ، ولم يجب عليه ، كالعيال وغيرهم ، فيضيع ما وجب عليه من ذلك ، فيكون في ذلك سخط ربه جلَّ وعزَّ .
فإذا ألزم قلبه الحذرَ لهذه الحلال الست والاهتمام بتركهن تيقظ فبالاهتمام والحذر يحتلب التيقظ ، وبالتيقظ يُجْتَلَب الذكر ، وبالذكر يحتلب الثبت ، وبالتثبت يحتلب التفقد ، وبالتفقد بالعلم يتبين له ماكره الله عزَّ وجلَّ مما أحبَّ ، وبالتبين مع الخوف يميز ماكره ربه جلَّ وعزَّ مما أحبَّ ، وبالمميز مع الخوف يكون متقياً موفياً بعزمه .
قلت : فبالاهتمام والحذر إن ألزمها قلبه يوقظاه فيما يستقبل من عمره .
قال : نعم .

قلت : فما الدليل على ذلك ؟

قال : الدليل على ذلك أن العبد قد ينام الليالي الكثيرة ، فلا يستيقظ إلا وقت صلاة الفجر أو بعده ، حتى إذا عرضت له حاجة من حوائج الدنيا يهتم بأن ينالها ، ويحذر أن تفوته إن لم يدلج لها ، فإذا نام مهتماً بالقيام وقد ألزم قلبه الحذرَ من أن يذهب به النوم فيفوته البكور تيقظ في الليل مراراً لغير الوقت الذي كان يتنبه له ، يحركه الاهتمام والحذرُ اللذان نام وهما في قلبه فإذا كان الاهتمام والحذرُ لأمر الدنيا يوقظان عقله ، وينبهانه بعد ما نام وذهب عقله ، فهذا أولى أن يوقظاه لأمر الآخرة وهو يقظان لم ينم ولم يذهب عقله بنوم ؛ وشتان بين المطلوبين ؛ هذا يطلب قليلاً فانياً مكثراً بالغوم والأمراض والأسقام ، ومن بعده ينخم له بالموت ، ومن بعد الموت ينظر فيه بعد ما ذهب لذته ومنفعته ، وبقي السؤال بين يدى الله عزَّ وجلَّ عنه ، حتى يُسأل عنه : ماذا صنع فيه ؟ ثم العقوبُ أو العذاب عليه ، ومع هذه الأسباب المكثرة في الدنيا والآخرة لن ينال من ذلك إلا ما قدر له ، وهذا يهتم لطلب باقٍ كثير لا يفنى ، مع نعيم مقيم وعيش سليم ، قد أزيلت عنه

الأمراض والأسقام ورفعت عنه المموم والغموم والأحزان ، ولا ينجم بموت أبدك ولا حساب ولا تبعه فيه عليه ، والمولى راض عنه ، وهو مسرور بما يتقلب فيه من نعم الآخرة ، باقى فيه أبدك ، ولا يشاء شيئاً إلا بلغت فيه مشيئته ، فى حياة ليس فيها موت ، ونعيم لا يخاف فيه أبدك له فوّاتاً ، مجاور للملك القدوس الأعلى فى داره ، لا يخاف سخطه بعد رضاه ، ثم ما رضى له بذلك حتى أكمل ذلك له بغاية الكرامة ، وقرّبه إليه فى الزيارة ، وأنجز له ما وعده من الرؤية والنظر إلى وجهه الكريم عز وجل ، إذ يقول ، جلّ من قائل :

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فى مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ^(١)) .

وأعظم به من مجلس ، وأكرم به من زائر ومزور ، وناظر ومنظور إليه ، ومقبل ومقبل عليه ، متردّد فيما بين نعيمه ولذاته ، والنظر إلى وجهه جلّ وعزّ ، فشتان : ما بين المهمتين ، وشتان بين الغائيتين .

فإذا كان هذا النائم يوقظه اهتمامه لهذا الفانى المنعّص المكدر بعد ذهاب عقله ، فالحم لله للباقي الهنىء السليم ، والحنن من فوته مع الحلول فى العذاب الأليم : أولى أن ييقظ له العقل ، ولم يذهب بنوم فإذا اهتم وحنن ييقظ وإذا تيقظ ذكر ، فإذا ذكر تثبّت ، فإذا تثبّت تفقّد ، فإذا تفقّد نظر ، وإذا نظر بالنور وهو العلم أبصر ، وإذا أبصر تبين .

قلت : يتثبت عند ماذا ؟

قال يتثبت عند دعاء النفس والعدو ، لينظر ماذا يدعوان إليه أهو مماكره الله جلّ وعزّ ، أم أحبه ؟ لئلا يخفى عليه واحدة من هذه الحلال الست إذا اعترضت له فى بلاء النفس بالمنازعة إليها ، فإن عرض له ذنب مما كان عزم على تركه لله عز وجل ، خوفاً نفسه أن يرجع فيما كان تركه لله عز وجل ، فيسميه الله عز وجل غادراً مُخْلَقاً ؛ ويحضرها على ترك الذنب الذى عرض له ، ليعلمه الله جلّ وعزّ بالوفاء بالعهد والتمام على العزم ، فيحقّ له حكم الصادقين الموفين بعهودهم ، الماضين على عزمهم ؛ فإن استصعبت نفسه عند ذلك أهاج ذكر الخوف فى عاقبة المعاد : أن يوافيه وهو مخلف كذّاب ، غير تائب لم يَفِ بعزمه ، وعاد إلى ما يسخط ربّه ، فيخوفاً نفسه الحكم عليه بذلك بين يدي الله جلّ وعزّ ، والنظر إليه بالملت فى مقامه ذلك ، فلم يلبث أن تغلب

(١) ٥٤ : ٥٤ ، ٥٥ : يقول سبحانه وتعالى : (وجوه يومئذ ماضرة . إلى ربها ناظرة) وكما فى حديث رؤية الله تعالى كما يرى القمر ليلة الايام بدون شك بروايات صحيحة .

مرارة ذكر العقاب ، وخوف المقت في العاجل ، حلاوة دواعي النفس إلى راحتها وشهوتها ، وقد يفعل ذلك العبد في خوف سوء عاقبته ، أمر الدنيا : يعرض له أحب الطعام إليه ، فإذا ذكر فيه ضرراً من حرارة أو برودة أو غير ذلك امتنع منه ، فإن جاشت ودعته نفسه إلى أكله ، ذكرها سوء عاقبته وهيجان الوجع بعد ما تمضى لذته وحلاوته ، يطفى ذكر مرارة سوء عاقبة ذلك الطعام حلاوة تعجيل لذته ، فيتركه من أجل سوء عاقبة أيام قليلة لسقم فان مقدور واقع به إن كان قلتر أكل ذلك الطعام أو تركه ، وإن لم يقدر له لم يقع به أكله أو تركه ؛ فهذا الذي غرض له الذنب ، فذكر سوء العاقبة في الآخرة ، أولى أن تطفى ذكر مرارة سوء العاقبة حلاوة لذة الشهوة ، لأنه يخاف عاقبة دائمة في ضرر عظيم ، لا يقوى عليه بدنه ، ولا يقوم له صبره ، إن لم يحق له لينج منه إلا أن يعقوب عنه ربه عز وجل ، لأن ضرر الدنيا قد يصرف بمحذر وغير محذر ، ولا يصرف ضرر الآخرة إلا بالمحذر .

فإذا كان سوء عاقبة يوم أو يومين ، يطفى حلاوة تعجيل أحب الطعام إليه فسوء عاقبة عذاب الأبد مع الحياء من الله ونظره إليه ، أولى أن يطفى حلاوة شهوة الذنب .

وإن عرض له ذنب مما كان قد ستره الهوى والشهوة فلم يعرفه في حال توبته ، عزم على تركه وحمد الله جلّ وعزّ إذ قطنه له قبل أن يتوفاه عليه ، وإذا عرض له ذنب لم يكن أذنبه من قبل خوف نفسه سوء الخاتمة إن واقعه ، أن يختم له بخاتمة الأشقياء في آخر عمره ، ولم يأمن أن يكون أخر له ، ليختم له بخاتمة الشقوة والهلكة ، وإذا عرض له حق لله جلّ وعزّ ، مما قد كان ضيعه ، فتأب منه وعزم على القيام به ، خوفاً نفسه أن يعود إلى التضييع له ، فيخلف وعده ويتقصّ عزمه على القيام به ، فيكون اسمه عند الله عز وجل مخلفاً غداراً ، ورجى نفسه على القيام به النظر من الله عز وجل بالرضا عنه ، وأن يسميه الله عز وجل موفياً ، ويحكم له بالصدق ، لأنه يسمع الله جلّ وعزّ ، سمى بالكذب والخلف ، وأوجب العقوبة لمن عاهده وعزم على طاعته فلم يف بها له فقال تبارك وتعالى :

(وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ^(١)) .

وفي التفسير عن مجاهد : أنها رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا : لن آتانا الله من فضله لنصدقن ، وقال معبد بن ثابت : هو شيء قالوه في أنفسهم ، ألم تسمع قوله تعالى :

(يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) ؟

قال الله تبارك وتعالى : (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) . إلى قوله تعالى : (وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ^(١)) .

فسمّاهم الله عزّ وجلّ ، إذ لم يفوا بعزمهم مخلفين للوعد كاذبين له ، فسمّاهم الله عزّ وجلّ بذلك ، وألزم قلوبهم النفاق حتى يموتوا على ذلك ، فعاقبهم بعقوبة لا يفلحون بعدها أبداً ، ولا يصلون إلى التوبة مما يسخط ربهم عزّ وجلّ ، وقد يخلف العبد الوعد فلا يعاقب إذا كان الله عزّ وجلّ يريد أن يسعده في آخر عمره ، لأنه يعاقب من يشاء ويعفو عن من يشاء ، فيخوف نفسه العقوبة ، وإن كان قد عاهد من قبل فأخلف رجي نفسه التوبة والإقالة ، فعاد العزم على الوفاء ، وذكر نفسه ما سمى الله عزّ وجلّ ، من أوفى بعهده وهو قوله ، جلّ ثناؤه : (رِجَالٌ صدّقوا ما عاهدوا الله عليه فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) الآية .

وروى في تفسير ذلك أثران :

أما أحدهما فما رواه أنس بن مالك ، أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك غاب عن قتال بدر فقال : « أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لم أشهده !! لأن كان لرسول الله ﷺ قتال مع قريش بعد هذا اليوم ليرين الله عزّ وجلّ ، ما أصنع » وهاب أن يقول غير ذلك ؛ فلما كان يوم أحد وانهمز الناس ، فقال سعد بن معاذ : فاستقبلته ، فقال يا سعد إلى أين ؟ وهاهنا لريح الجنة !! إني لأجد ريحها دون أحد !! فتقدم فقاتل حتى قُتل ، وأصيب به بضعة وثمانون جراحة : من ضربة بسيف وطعنة برمح حورية بسهم ؛ فا عرّفته أخته إلا بشيابه فتزلت : (رِجَالٌ صدّقوا ما عاهدوا الله عليه فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ) .

يعنى عهده أى مات على ذلك . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ^(٢)) .

أى صادق قائم بالحق لله عزّ وجلّ ، وينتظر يوماً فيه لقاءه يموت على صدقه والوفاء بعهده . ومّر النبي ﷺ بمصعب بن عمير ، وهو قاتل منجفع على وجهه ، فقراً . (رِجَالٌ صدّقوا ما عاهدوا الله عليه) .

(١) ٩ . ٧٦ . ٧٧ وتكلمة الآية : (ما عاقبهم معاقاً و قلوبهم إلى يوم يلقونه ما أنظروا الله ما وعدوه وما كانوا يكذبون)

(٢) ٣٣ : ٢٣ وتكلمة الآية (وما بدلوا تبديلاً) .

فيذكر نفسه ما قال الله عز وجل: ما سمى به من كذبه ولم يف بعزمه ، وما سمى به من صدقه وأوفى بعزمه .

وإن تقاعست النفس وثقل عليها القيام بذلك الحق ، ذكرها ثواب الله جل وعز وما يأمل من نعيم الآخرة إن قام بذلك الحق ، ورجاها رضا الله عز وجل ، والسرور والأمن في يوم الخوف والأحزان ، ودوام النعيم الذي لا ينقطع في جوار الله عز وجل ، والنظر إلى وجهه الكريم الأعلى ، ليطفى بذكر حلاوة الثواب مرارة القيام بذلك الحق ، ويخفف على النفس ما ثقل عليها من القيام بذلك الحق لذكر حلاوة الثواب ؛ وذلك معروف في أهل الدنيا ، لم ير عامل من عمال الدنيا ولا غيره ، ولا تاجر من تجار الدنيا يخف عليه التعب والمؤونة إلا لما يرجو من الأجر ؛ فالبئس وغيره لذته في التعب وغمه في الراحة لحلاوة الأجر ، وإن التعب له لمؤم مؤذ ، وإن الراحة له لموافقة ، ولكن اختار النصب على الراحة لما يأمل من الأجر ، فإن كان أجره قليلا والمستأجر موفيا مليا ، فإذا ذكر قلة الأجر استقل العمل ، وإذا ذكر أن المستأجر له ملي لن يظلمه خف عليه العمل ، وإذا كان الأجر كثيرا والمستأجر له لا يأمن من ظلمه ، فكلما ذكر ما يخاف من ظلمه استقل العمل ، وإذا ذكر كثرة الأجر خف عليه العمل ، فإذا كثر الأجر وكان المستأجر ماليا موفيا خف عليه العمل ، ولم يجد على قلبه ثقله له ، وعمله بنشاط له وخفة ، فلا مستأجر أملا من الله عز وجل ، ولا أجر أكثر من الجنة .

وكذلك التجار من أهل الدنيا : لا يقطعهم عن سفرهم ، لما يأملون من الأرباح ، الحر ولا البرد ولا الأمطار ولا الخوف من اللصوص ولا السباع ، لحلاوة ما يأملون من الربح ؛ فالعامل لله عز وجل ، والتاجر له أولى أن يخف عليه العمل إذا ذكر الربح الذي لا ينقطع ولا تنغيص فيه ، ولا تصريد من المريح الذي لا يظلم مثقال ذرة ، بل يضاعف ويعطى الكثير باليسير من العمل ، وتجار الآخرة لا يريحون كما يريح تجار الدنيا ولا عاها ، لأن تجار الدنيا إنما يريحون من جنس الدنيا وجوهرها ، والله عز وجل ، لا يريح عمال الدين من جنس الدنيا ولا من جوهرها ، ولا يرضى لهم بريح الدراهم والدنانير ؛ لأن ذلك من جنس الدنيا وجوهرها ، ولكن يريحهم قصور الياقوت والزمرد والدر في الدار التي لا تنفى ، تربتها المسك والزعفران ، مع زوال الهموم عن قلوبهم ، فلا يخطر أبدا بقلوبهم الأحزان ولا تحل في قلوبهم أبدا ، والفرح والسرور لا يرحان من قلوبهم أبدا ، فإذا تذكر هذا العبد حلاوة هذا الأجر مع تذكر نظر الجواد الكريم إليه ، وهو مجاهد لنفسه مكابد هواه ، فأمل أن ينظر إليه على تلك الحال فيرضى عنه ، فيوجب له

الخلود في داره والأمن من عذابه ، خَفَّ عليه القيامُ بذلك الحقَّ ؛ وإن عرض له حقٌّ لربه جلَّ وعلا ، مما كان قد ضيَّعه سترته كراهةُ النفس للقيام به وهوى الراحة في تركه ، فلم يعرفه في حال توبته ، فعرفه حين عرض له حمد الله جلَّ وعزَّ ، إذا فطنه له قبل أن يموت وهو مضيق للقيام بحق ربه جلَّ وعزَّ ، فيحل بذلك عليه غضبه وعقابه ، وإن عرض له حق ابتلى به في آخر عمره ، ووجب عليه مما لم يكن أوجبه الله عزَّ وجلَّ عليه قبلُ فنقل على نفسه القيام به حض نفسه على القيام به ، رجاء أن يكون إنما ذخره له . فلم يوجب عليه إلا في آخر عمره ، ليستوجب بذلك رضا الله عزَّ وجلَّ ، وليختم له بخاتمة السعداء ، فإن نكلت النفس عن القيام به خوفاً خاتمة الشقاء بتضييعه ، وأن يكون إنما أخر لذلك ، ألم تسمع قول المطرف : إن الحسنه أثقل ما يكون عليك وأنت تعملها ؛ فإذا فرغت منها ذهب ثقلها ويبقى سرورها ، فكيف بك إذا قرأتها بين يدي الله عزَّ وجلَّ ، ورأيت ثوابها ؟ فتذكر رضاه عنه بالقيام به ، وذكر ثوابه ، وخوف غضبه على تضييعه ، يخفَّ عليه القيام به .

فإذا تطهر من هذه الخلال الست بالتوبة ، فقد صحت توبته ، وسأوى الذي لم يكن له صبوة في رعاية حقوق الله عزَّ وجلَّ ، فيما يستقبل من عمره ، وسأوى التائب من قبله الذي لم تستصعب عليه نفسه عند التوبة ، ولم تحتج إلى طلب الخوف بالتخويف ، ولم ينم عليه شيء من ذنوبه ، ولم يأمن أن يكون الله قد أحصى عليه ما قد نسيه ، كالسحرة ، وأصحاب محمد ﷺ وغيرهم ممن أتهم من الله عزَّ وجلَّ ، برفع الامتحان عنهم والتكليف لطلب التوبة ، فبهت عقولهم حجته ، وأزعجها إليه توقيفه وتفضله ، إلا أنها وإن لم يكن معها امتحان التكليف للطلب ، فقد نهت عقولهم على المعرفة بالله عزَّ وجلَّ ، وعظيم قدر ثوابه وعقابه ، وعظيم حقه عليهم ، وواجب طاعته ، ولم يتألكوا مع هذه المعرفة أن رفضوا كل قاطع يقطعهم عن الله عزَّ وجلَّ ، وأقبلوا بعقولهم على ربهم ، قد استفرغوها في الإقبال عليه والإنابة إليه .

فقد ساءى هذا التائب من قبله الذي قلَّت كلفته ، ولم تنم عليه ذنوبه عند توبته ، وسأوى من لم تكن له صبوة ، لأنه قد تطهر كما تطهر مما يكره الله عزَّ وجلَّ .
وعليهم جميعاً حسن القيام بحق الله عزَّ وجلَّ فيما بقى من أعمارهم .

باب معرفة حقوق الله بأسبابها وعللها وإرادتها وترتيبها في القيام بها ، والرعاية لها

ولابد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله عز وجل ، بأسبابها ، وأوقاتها ، وعللها ، وإرادتها ، ووجوبها ، وفيم هي ، وأياها بدأ الله عز وجل به خلقه^(١) ، وأياها أوجب أن يبدأ به الأول فالأول ، لا يقدم ما أخر الله عز وجل منها ، ولا يؤخر ما قدّم الله عز وجل منها . كما قال أئيربكر لعمر رضى الله عنهما في وصيته : واعلم أن لله عز وجل ، حقاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وحقاً بالليل لا يقبله بالنهار .

فأما أوقاتها : فكاللحج في وقته ، وكالصلوات في أوقاتها .
وأما أسبابها فكوجود السبيل للحج ، لأن الله أوجب على عباده أداء حقه ، فالأمر قبل الأداء ، والأمر قبل الوقت إعلام للعبد ، كيف يؤدي حق الله عز وجل إذا جاء الوقت : فنها ما وقته واحد ، ومنها ما له وقتان ، وكثير منها أداؤه على وجهين : أحدهما وقت موسع مخير فيه ، إن شاء يعجله وإن شاء يؤخره ، كالظهر إلى آخر وقتها ، وكالعصر وغير ذلك ، والوقت الآخر هو الذي ألزم فيه الفرض ، وإن فات فقد خرج وضُيع .

وأما إرادتها : فإخلاص النية لله عز وجل بالقيام بها .
وأما ما أوجبها أولاً فأولاً : فإنما يستدل على ذلك بالكتاب والسنة ، مع الثبوت قبل الفعل على قدر الوجوب في أداء أى الحقوق أعظم في وجوبها وأياها قد حضر وقته ، وأياها لم يحضر وقته ، وأياها يترك لما هو أوجب منه .

وأما فيما هي : ففي أعمال القلوب والجوارح .
فأما بأياها بدأ الله عز وجل : فأول ما بدأ الله عز وجل به خلقه من إيجاب الرعاية فيه لحقه فبدأهم ، بأن تعبدهم برعاية حقوقه في قلوبهم ، في جعل عقودها وهمومها : من تديتها ، ومحابها ومكارهاها ، وعند منازعة خطراتها التي هي بدء دواعي كل خير وشر ، ثم جوارحهم من الأسماع

(١) وأياها بدأ الله خلقه لقوله

والأبصار ، والألسن ، والأيدى والأرجل والمآكل والمشام والمباشرة بالأبدان : من الأخذ للفعل والترك .

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل به : فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه ، فإنه أول عامل منه ، وعنه تكون أعمال الجوارح ، فيوقفه حيث أوقفه الله عز وجل ، من الرعاية لحقوقه ، فيوقفه على جمل رعاية حقوق الله عز وجل ، في عقود ضميره ، حتى يقوم بها لله عز وجل ، كما أمره وتعبده وهي ثلاث خلال :

اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر .

واعتقاد السنّة ومجانبة البدعة .

واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على كل ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن .

وجملُ حقوق الله عز وجل في الجوارح : القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات : وهو السكون ، عما كره الله عز وجل ، ثم رعاية حقوق الله عز وجل عند خطرات القلوب الداعية إلى كل خير وشر .

باب رعاية حقوق الله تعالى عند الخطرات في اعتقاد القلوب

قلت : وكيف يرى حقوق الله عز وجل . عند الخطرات ، وبم يستدل على ذلك ؟
والخطرات ما هي ؟

قال : يرعاها بالتثبت بالاستدلال بالعلم عند دواعي القلوب ، وهي الخطرات ، لأن
الخطرات هي دواعي القلوب إلى كل خير وشر .

قلت : الخطرات من أين بدؤها ، ومن أي الوجوه هي ؟ أمن وجه واحد أم من وجوه
شتى ؟

قال : بدؤها من هوى النفس ، أو من العقل بعد تنبيه الله عز وجل له ، أو من العدو ؛ وهي
على ثلاثة معان :

الأولى : تنبيه من الرحمن ، وكذلك يروى عن غير واحد ، يروى عن النبي ﷺ أنه قال :
« من يُرد الله به خيراً يجعل له واعظاً من قلبه » ، وروى الثواس ابن سمعان ، عن النبي ﷺ أنه
ضرب مثلاً فقال : مثل صراطٍ وعليه ستور ودواعٍ من أسفل الصراط ، ودواعٍ من أعلاه ،
فالدواعي من أعلاه واعظ الله عز وجل في قلب كل مسلم .

فثبت بقول النبي ﷺ : أن الله يعظ عبده فيخطر بباله ذكره ليتعظ بذلك ، وذلك : أن الله
عز وجل يخطر ببال المؤمن ، لينبهه بذلك ويعظه ؛ فنه ما يخطر بباله بإحداث الخاطر ، فينشئه في
قلبه ، ومنه ما يأمر الملك أن يخطر ببال العبد ليتعظ بذلك ، وينبهه له ؛ وإياه عنى عبد الله بن
مسعود بقوله : « لمة من الملك » ، وقد قيل في بعض الحديث عن عبد الله : « لمة من الملك »
يعنى : الله تبارك وتعالى .

والثانية : تسويل وأمر من النفس ، وكذلك قال الله عز وجل فيما يصف قول نبيه ﷺ
إسرائيل ، إذ يقول لبيته : (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) .
وقال جل وعلا ، في قصة ابني آدم : (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ) .
وقال تعالى : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) .

والثالثة : تَزِينُ ونَزْعُ ووسوسة من الشيطان .

وكذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يفزع إليه بالاستجارة به من خطرات الشيطان وقال

تعالى :

(وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) .

وقال جلّ وعزّ (يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ^(١)) .

وقال عزّ وجلّ : فَمَا وَصَفَ بِهِ آدَمَ وَحَوَاءَ عَلَيْهَا السَّلَامَ : (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ^(٢)) .

وقال جلّ وعزّ : (وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٣)) .

فعلى العبد التثبت بالعلم الدالّ على الخطرات حتى يستدلّ فيعلم : من أى الوجوه الخطرة حين تعرض ، فيجعل الكتاب والسنة دليلاً ، فإن لم يتثبت بعقله ، ويجعل العلم دليلاً ، لم يبصر ما يضره بما ينفعه ، وقد قال بعض الحكماء : إن أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعجل بفعل الشهوة حتى تنظر في العاقبة .

قلت : وما التثبت ؟

قال : حبس النفس قبل الفعل وترك العجلة ، وهو الصبر قبل الفعل .

قلت : فإن جاشت النفس إلى العجلة بالفعل ، فما الذى يحبسها ؟

قال : يذكرها نظر الله عزّ وجلّ إليها ، ويحرفها نزول نغمته ، فإن أبت عاتبها فقال لها : إن الله عزّ وجلّ يرأك فلا تعجلى وقفى ، فإنك موقوفة غداً على فعلك ولا يدع الاستعانة بالله عزّ وجلّ ، أن يقوى ضعفه ويقهر له هواه ، لأنه من ثقل عليه توقيف الله عزّ وجلّ غداً على فعله خفّ عليه في الدنيا أن يقف ويتثبت قبل فعله : خوفاً وحياءً من توقيف الله عزّ وجلّ غداً على فعله .

فبالعلم والتثبت ، يبصر الضرر والنفع من دواعى القلوب بالخطرات ، وإلا لم يؤمن عليه أن يقبل خطرة من نزغات الشيطان ، أو تسويل النفس يحسبها تنبيهاً من الرحمن جلّ وعزّ ، أو ينفي خطرة من التنبيه على الخير يحسبها من تسويل النفس أو من تزيين الشيطان ، فلن يميز بين ذلك ولا يعرفه إلا بالعلم والتثبت بالعقل ؛ ومثل ذلك : كمن هو فى ظلمة شديدة فى الطريق

مخوف من الآبار والزلازل في المطر الوابل ، فلن ينفعه بصره بغير سراج ولن ينفعه السراج إن لم يكن له بصر صحيح ، ولن ينفعه البصر والسراج إن لم يرم بصره حيث يضع قدمه ويتثبت ، فإن نظر إلى السماء أو التفت ، ونظره صحيح وسراجه يزهر ، كان كمن لا بصر له ولا سراج معه ، وإن هو رمى بطرفه نحو الأرض ولا سراج معه ، كان كمن لا بصر له ؛ فمثل البصر الصحيح : كمثل العقل ، ومثل السراج : كمثل العلم ، ومثل النظر بالتثبت : مثل التثبت بالعقل والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسنة ؛ وليس في أكثر ذلك طول مكث لمن علم أنه يُراد منه أن يكون حذراً ، فإذا سنحت الخطرة بالاعتراض عرفها في مثل لمح البصر ، للعلم المتأصل في قلبه إذ يقظ الحذر لذلك ، حتى يأتي الشيء ، الذي يلتبس عليه ويشبهه ، فعند ذلك يمكث حتى يُعلم ، فإن لم يكن له علم فعلية الممكث ، وإن طال ذلك حتى يعلم : أيرضى الله عز وجل ، قبول ما عرض من دواعي قلبه ، أو يسخطه ؛ لا يسعه إلا ذلك ^(١) .

(١) وفي ذلك يقول الله عز وجل : (أو من كان ميتاً فأحييناه وحملناه له نوره) يحشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ .

باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله عز وجل في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف

والراعون لحقوق الله عز وجل ، في منازل شتى ، وقد ينتقل كل راع منهم في تلك المنازل على قدر قوته وضعفه ، فأول منزلة من الرعاية ، وأهلها أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عز وجل : الرعاية عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل ، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه ، إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ، وبتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من الغنى وغيره ، إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد أمرها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ، ووقتها وإرادتها فيها ؛ فإنه قد يقبل الخطرة ، يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ؛ وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والفرّة ، وإلى المنافسة بالحسد وإلى الغضب لله عز وجل ، بتمنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ؛ ونحو ذلك من الخطرات ، وإلى القدر^(١) بتتريه الله عز وجل ، وإلى رأى جهنم^(٢) : بنى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنى رأى جهنم ، وإلى الاعتزال بتثيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتتريه الإيمان من نقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها سنة ؛ ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون ؛ ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها ؛ لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أى أن الإنسان حراً يأتى وفقاً يَدْعُ من الأفعال وليس مجبوراً من الله على

عمل من الأفعال

(٢) رأى جهنم في الصفات وهو أن الصفات عين الذات .

وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ؛ كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال ، وبترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد والخروج في السفر بالآزاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين ، وبتحريم الدواء والدعاء ، وترك الغنى أن المعاصي لم تكن ، وبلاشتغال بالله عز وجل ، بترك الفرائض ، وبترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما في ضمائر الخلق ، وما يُسرون ويكتمون ؛ ويحتجون في ذلك بآثار : مثل قوله ﷺ : « المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تتجج بالآثار ، والكتاب ، والمقاييس ؛ ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر ورأى جهنم ، والرفض والاعتزال ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل ، من الأعمال والسنن ، إلا بشاهد العلم ؛ لأن الله عز وجل ، أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه ، ولا تخاطر خطرة فينفيا ، أو يحجب قلبه عنها إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد نهي عنها وذمها بسببها ، وعللها وأوقاتها ؛ فإنه قد تخاطر بقلب العبد الخطرة داعية إلى خير فينفيه ، وهو يحسب أنها شر ، وقد تدعو إلى سئة فينفيا ، وهو يحسب أنها بدعة ، يزينها له عدوؤه ؛ ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا خطرت بها خطرة تبعثهم على اعتقاد السئة نفوها وحسبوها بدعة ، ولن يدع العدو أن يدعو العبد المريد ، إلى نفي خطرات التنبيه على الخير والشر لئلا يقبلها ، لأن على العباد وإن أرادوا الله عز وجل ، أن يصيبوا الحق بذلك .

وقد ذم الله عز وجل ، قوماً ولم يعذرهم ، بأن رأوا أن الشر خير والخير شر فقال جل وعز : (وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (١) .

وقال عز وجل : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) (٢) .

وقال حذيفة رضي الله عنه لرجل سأل عن الرجل : يقاتل يريد وجه الله عز وجل ، فيقتل . ولم يوفق للحق ، فقال : ليدخل النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا ، ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل ، فأصاب الحق فهو في سبيل الله .

ومن لم يوفق للحقّ ، لم يوفق للخير ، وكذلك الذى يننى خطرات من الخير يحسبها سواءً . ولا يميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة ، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين ، أنها مما أحبّ الله عزّ وجلّ من عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها ، وإن تبين له بشاهد العلم أنها مما كرهه الله عزّ وجلّ أو ذمه فى كتاب الله عزّ وجلّ ، أو فى سنة النبي ﷺ ، أو اجتمعت^(١) عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه عنها ، فإن لم يتبين له عند إحدى الخطرتين ما هو ، أهى مما أحبّ الله عزّ وجلّ ، أو مما كرهه الله تعالى ؟ وقف وثبت ابتداءً أو يشهد العلم له بأحد الأمرين فيقبل أو ينفى ، وهو فى فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه ، أو بسؤال العلماء ، إن كان مما لا يبلغه علمه ، فإنه إن لم يفعل ذلك لم آمنّ عليه أن يضلّ بغير دليل ، فيعتقد الشرّ ويحسب أنه خير أو يننى الخير ويحسب أنه شرّ ، ويعرف الشرّ ثم يعتقدّه ، أو يعرف الخير ثم يجانبه ، ولوثبت ذلك لم آمنّ ذلك عليه أيضًا ، فإذا فعل ذلك فقد رعى حقوق الله عزّ وجلّ فى جوارحه ، فلا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه ، فيعتقد المهمّ بها ، ولا يأذن للسانه أن ينطق بها ، حتى يتبين له فى العلم بالكتاب والسنة ، أو فى إجماع الأمة أن الله عزّ وجلّ ، أمر بها أو ندب إليها وأباحها ، وكذلك الداعى إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات فيعتقد المهمّ إلى الإصغاء إلى ذلك الصوت ، إلى أن يتبين له فى العلم أن الله عزّ وجلّ ، قد أذن فى ذلك أو ندب إليه أو أباحه .

الأتى إلى ما جاء فى الحديث عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه مرّ بزمارة راعٍ ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، حتى قيل له : إن الصوت قد انقطع . فنع سمعه ، فلم يأذن له إلى ما كرهه الله عزّ وجلّ .

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة ، لم يُعقد المهمّ بها ، ولم يدع بصره يتردد فى النظر إليها إن كانت نظرة فجأة ، حتى يعلم أن الله عزّ وجلّ ، قد أمر بها أو ندب إليها أو أباحها ؛ وكذلك يداه : لا يعقد المهمّ ببطشها وحركاتها ، بل لا يخلّى بينها وبين البطش ، وكذلك الرجلان لا يخلّى بينهما وبين المشى حتى يعلم أن الله عزّ وجلّ ، قد أمر بها أو ندب إليها أو أباحها ، فى كتاب أو سنة أو فى إجماع الأمة .

قلت : فإذا رعت حق الله عزّ وجلّ . عند الخطرات التى تدعو إلى عقد ضمير القلوب ،

(١) أجمعت العلماء على أنها مما يكرهه الله عزّ وجلّ .

والخطرات التي تدعو إلى الهَمِّ بمركات الجوارح وسكونها ، فما تخاف علىَّ بعد ذلك ؟ وهل يجب علىَّ غير ذلك ؟

قال : نعم ، إن الله عزَّ وجلَّ ، أوجب فرائضه في كتابه نصًّا في التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض ، يحتاج إلى التفسير بما في سنة النبي ﷺ ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض ، إذا اجتمع الفرضان ، وفرض فرضًا له وقت يفوت ، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدَّى كان العبد عاصيًّا لربه ، وفرض فرضًا له وقتان ، فن أدَّاه في أول وقته كان ذلك أفضل عليه ، وإن أدَّاه في الوقت الثاني لم يكن مأزورًا ، وأوجب الله عزَّ وجلَّ ، ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه ناقله مما يتقرب به إليه ، فعليك وعلى العباد ألا يؤخروا من فرضه ما أوجب أن يُبدَأَ به ، ولا يقدِّموا ما أمر أن يؤخَّرَ بعد غيره من الفرض ، ولا يتركوا فرضًا لطلب قرينة بناقله ولا غيرها .

باب شرح ما يبتدأ به من أداء الفروض وترتيبها في الأداء والوجوب

قلت : بَيِّنْ لي كيف ذلك كله ، ما الذي أبدأ به من الفروض إذا حلت جميعاً ؟ وما الذي أخره منها ؛ وما الذي له وقت يفوت ، والذي لا يفوت وقته ؟

قال : إذا أوجب عليك فرضين ، فأبدأ بأوجبهما عليك في الكتاب والسنة ، وإن حضر وقتها جميعاً كحاجة الوالدة والوالد : فأبدأ بحاجة الوالدة ؛ وإنما هذا مثال في الوالدين ويطول تفسير شيء من ذلك ، فهذا مثال لما أشبهه من ذلك ، فليبدأ العبد بحاجة والدته ، لأن برّها مقدّم في سنة النبي ﷺ واجتماع العلماء على تقديمها في البر والطاعة على الوالد ، وكذلك إن لم يكن له والدة ولا والد ، وكانت له قرابة فأصابتهم خلة أو حاجة مما يلزم فيه صلتهم . ولم تقدر أن توسعهم فأبدأ بالأقرب فالأقرب ؛ وبذلك جاءت السنة في الوالدين والقرابة ، حين سئل النبي ﷺ . فقال له السائل : « يا رسول الله من أبر ؟ قال : أمّك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أباك ، قال : ثم من ؟ قال : أدناك فأدناك » .

وكذلك كل ذي رحم محرم تبدأ به قبل من ليس بمحرم ، فإن استوتوا في القرابة فأبدأ بأحوجهم ، إلا أن تكون واسعاً لهم أجمعين فتعّمهم بالبر والصلة ؛ وكذلك إن كان عليه نذر : إن قدم من سفره سالماً ، أو برئ من مرضه أن يبدأ من أول يوم يفعل الله ذلك به فيصوم شهراً ، فبرئ من مرضه أو قدم من سفره في أول يوم من رمضان ، كان صوم رمضان واجباً وتأخير صيام النذر ، وكذلك إن وافق يوم قدومه أو برؤه يوم عيد لم يصم ، لأن اتباع السنة في الإفطار أولى به ، وكذلك لو ملك العبد ما يحج به وليس له ما يخلف لوالديه أو أحدهما أو أهله وولده ، إذا كانوا لا يقدرّون على ما يقوتهم ، أقام وآثر الإنفاق عليهم على الحج ، وكان هذا أوجبّ عليه في السنة وعند علماء الأمة ، وكذلك الميعاد يكون على العبد فيحضر وقت الجمعة ، أو آخر وقت صلاة من الصلوات الخمس فليبدأ بصلاة التي يخاف فواتها قبل الميعاد ، وإن ضيعة فليس بمضيع له ؛ لأنه بدأ بما هو أوجب منه ، لأن المسلمين قد أجمعوا على أنهم إنما يتواعدون على غير ترك الصلاة المفترضة ، وإن لم يتكلموا به ، فذلك عقد قلوبهم ، أو يحضر الجمعة في آخر وقتها ،

أو آخر وقت صلاة من الصلوات الخمس ، ويريد الوالدان حاجة ليس في تركها عطيتها إلا أنها تَرَفَّقُ بهما ويسخطان من تركها ، فليبدأ بالجمعة والصلاة المفروضة ، إذا كانت الجمعة يعلم أنها فاتتة ، أو كطلوع الشمس لصلاة الغداة ، أو كغروبها للعصر ؛ وكذلك كل فرض : لا يجوز له أن يضيقه لطاعتها وبرهما إلا أن يخاف عطيتها ، فقد اختلف في بعض الفروض عند ذلك . ألا ترى أن النبي ﷺ يقول : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وكذلك يفرض له الحج ، وعنده ما يحج به ، وعليه دين يخرج عليه صاحبه ويحبسه فلا يخرج ، فليؤد إليه حقه ، وإن كان له غير ذلك من العروض والعقارات فليبعه وليخرج به ، وكذلك يكون عليه الدين يخرج عليه صاحبه ، فيخاف أن يجوع والده وعياله ، فليبدأ بقضاء الدين ، ويحسن التوكل على الله عز وجل في عياله ، وليس بمضيق لهم ولكن مؤثراً واجباً على واجب هو أوجب منه ؛ لأن الله عز وجل أمر أن يؤدوا الحقوق إلى أهلها ، وقال النبي ﷺ « مظل الغنى ظلم » .

وكذلك لو نهاه والداه عن قضاء دينه لم يكن له طاعتها ، إذا كان صاحبها قد خرج عليه ، أو رد مظلمة قد خرج عليه في حبسها .

فإن بدأ بغير هذا الذي كتبت له من هذه الأشياء أو ما أشبهها ، فقد خرج وضيع ، لأنه قدم ما أخر الله عز وجل ، وأخر ما قدم الله ؛ ولا يتقرب إلى الله تعالى بخلاف ما أمر به .

وكذلك إن وجب عليه فرض قد حضر وقته بدأ به قبل ما لم يحضر وقته من الفروض ، وذلك كالرجل يريد الحج في وقت فيه سعة من الأيام ، فيأمره والداه أن يقيم إلى آخر الوقت للحج ، أو كصلاة قبل أن يأتي الوقت المضيق عليه أن يحوزه ، فليطعمها ويبدأ بحاجتها حتى يأتي الوقت المضيق عليه فوته ، كذلك جنازة القرابة تحضر يخاف فواتها فليبدأ بها ، وكذلك الميعاد يكون عليه قبل أن يخاف فوات الحج ، أو الصلاة فليبدأ بميعاده .

وكذلك يكون عليه الميعادان ، أحدهما لوقت معلوم من النهار ، والآخر لا وقت له معلوم من النهار أو من الأيام ، كقوله آتيك اليوم أو الليلة أو آتيك ولا يذكر وقتاً ، فليبدأ بالذي له الوقت المعلوم .

وكذلك تفوته الصلاة المفروضة بنسيان أو نوم أو تفریط ، ويحضر وقت صلاة أخرى ، فليبدأ بالفاتتة إلا أن يخاف فوات الداخلة فيبدأ بالداخلة ولا يضيقها كما ضيق الأخرى ، وفي ذلك

اختلاف ، إذا خاف فواتها وما لم يخف فوات الداخلة ، فجتمع عليه أن يبدأ بالأولى ، وكذلك أن يُعَدَّ ميعادًا وعليه ميعاد آخر قبله وهو ناس للأول ثم يذكره ، فليبدأ بالأول ويؤخر الآخر ، لأن الله عز وجل ، فرض فرائضه ، فبدأ بالغداة قبل الظهر ، والظهر قبل العصر ، وكثير من فرائضه كذلك ومن ذلك قول أبي بكر رضى الله عنه في وصيته لعمر رضى الله عنه : اعلم أن لله عز وجل عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل . فأوصاه أن يقدم ما قدم الله عز وجل من الفروض ، ويؤخر ما أخر الله منها ، وذلك على ما وصفت لك .

وإذا كان في فرض فحضر فرضاً دونه ، فليتم ما هو فيه ولا يقطعه ، وذلك كالجمعة يدخل مع الإمام فيها ، أو صلاة الغداة في آخر وقتها ، فيُدعى لجنائز قرابة فلا يقطعها لذلك ، ولتم ما بقى منها ونحو ذلك ، وكذلك إذا كان في الحج المفروض مُحَرَّمًا به ، فكتب إليه والداه ألا تقيم ساعة ، فليتمه ولا يخرج منه .

وقد يعرضُ الواجبُ فيؤدِّيهِ بالاستعانة بالمعاصي ، كاكسَاب الحرام والشبهة المجمع على تركها ، يريد بذلك غداء عياله ، وأداء ما وجب عليه من حقهم ، وكذلك الوالدان . يهجرهما أو أحدهما ، إذا أذبا أهله أو ظلمها ، يريد بذلك أداء حق أهله ، ولعله يتأول فيقول : امرأتى أسيرة في يدى وقد أوصيت بها ، وكذلك أهله : يضرها أو يضيعها ، أو يشتتها بغير حق ، يريد بذلك رضا والديه ، فعلية ألا يفعل شيئاً من ذلك ، فإن فعل فقد قام بواجب بمعصية الله عز وجل ، وهو حقيق ألا يتقبل منه ذلك . وأن يغضب الله عز وجل عليه ، وكذلك يضرب ولده لأهله ، يريد أداء ما وجب عليه لها ، وكذلك يأمر بالمعروف لقراءة أو غيرهم ، بالقذف والشم والضرب الذى لا يحل له ، يظن أن ذلك غضبٌ لله عز وجل ، وكذلك يطع والديه في قطع رَحِم ، وكذلك في النظافة والطهارة للصلاة يصيبه القدر ، أو يخاف أن يكون أصابه فيضجر ، فيشتم الوالدين أو الأهل أو الخادم ، أو يضرها بما لا يحل به ، يظن أن ذلك غضبٌ للدين . وإن كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه قطعاً بعد ما يحل فيه كالصلاة يدخل فيها في أول وقتها أو وسطه ، ثم يذكر أن عليه صلاة فاتتة فليقطعها ، وقد رأى بعضهم إتمامها ، ولا يحتسب بها ، وشبهها بالحج الفاسد يمضى فيه ثم يقضيه من عام قابل وذلك لا يشبه الحج ؛ لأن الحج لا يمكنه في عامه أن يعيده والإحرام لازم له ليس كعقد الصلاة ؛ وكذلك إن كان جالساً لميعاد ثم ذكر أن عليه صلاة فاتتة ، فإنه يترك الميعاد ويبدأ بالصلاة الفاتتة . إذا خشى فوت الصلاة الداخلة قبل أن يقضى الفاتتة ، كالعصر تفوته فخشى أن تغيب الشمس ، وأشباه ذلك ،

وكذلك إن حُرِّج عليه والداه ألا يخرج عن بلدهم ، فيحضر النفي لظهور المشركين على المسلمين ، وليس في وجوههم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج . وترك المَقَام ؛ وكذلك الصلاة يدخل فيها في أول وقتها ، فيرى رجلاً قد أضجع للقتل ظلمًا ، أو امرأة مستكرهة ، وهو يقوى على أن يغير ذلك ، فليغير ذلك وليقطع الصلاة ما لم يخف فواتها ، وقد اختلف العلماء إذا خاف فواتها^(١) ، وكذلك إن أصبح صائمًا من نذر واجب ، فتبين له أنه يوم عيد أفطر ؛ وكذلك إن كانت امرأة صائمة من نذر فحاضت أو دخلت في صلاة مفترضة فحاضت ، قطعت الصلاة وأفطرت .

وقد يطلب العبدُ الورعَ والنوافل ، فيضيع . الفريضة وهي لم يتمها ، وقد يطلب العبد الورع بتضييع الواجب بترك المال وهو حلال ، غلطًا ، خشية ألا يحل له أخذه ، والصناعة والتجارة والميراث الحلال ، يريد بذلك السلامة فيضيع العيال ، فيجيعهم ويعرهم ، ويسخط عليه الوالدان ، ويضيعهما ، وهو يقدر على المال أو العمل الحلال ؛ وكذلك يدع الحج مخافة أن يكون خالط ما له حرام من غير أن يعرف شيئًا بعينه فيه ؛ وكذلك أن يخرج من البلدة يخاف ألا يسلم فيها فيسخط عليه والداه ويضيع عياله .

وقد يضيع الفرض للوسوسة تعرض من الشيطان ، فيدع الفرض إرادة أن يؤديه على ما أمر ، ومخافة ألا يجزيه أداءه إلا بذلك ، بحسب أن ذلك عليه هو الواجب ، فيكثر الوضوء ويطيله ، حتى يذهب وقت الصلاة كطلوع الشمس لصلاة الفجر ، أو كفوت الجمعة ، وكذلك في الغسل من الجنابة ، أو يشتغل بالاستبراء ، ويرى أن ذلك واجب عليه ، وأنه لا يجزيه إلا ذلك ويتشاغل بذلك حتى تخرج أوقات الصلوات ، فيضيع الفرض بطلب إقامة الفرض غلطًا ووسواسًا ، وكذلك يتشاغل بإعادة التكبير ، أو يقطع الصلاة قبل أن تتم ، يعيدها مرارًا ، أو يضيّق الصدر منه على التكبير حتى تذهب أوقات الصلاة ، أو يؤخر أوقات الصلاة كالعصر وغيرها . ويسفر بالفجر يريد بذلك القدوة بمن تأول غلطًا ، حتى يذهب وقتها الذي جعل النبي ﷺ آخر وقتها .

وقد يعرض للرجل الواجب في الكتاب أو في السنّة ، وقد رخص له في تركه من أجل علة عرضت ، لا يجوز أن يأتيه من أجلها ، فيأتيه يريد بذلك أداء الواجب ، ويضيع ما هو أولى به ،

(١) والصحيح أنه يقطعها للإيقاظ ثم يقضيها لأن حقوق الله مبنية على التسامح .

كالدار الغصب فيها وليمة أو قرابة فيدخلها بغير إذن ربها يريد بذلك البر، أو يسكنها يريد بذلك بر القرابة، أو الوليمة فيها المنكر، فيأتيها إرادة واجب حق المسلمين، ولعله أن يتأول في ذلك : يقول لا أدع حقاً لباطل، فيترك ما هو أولى به ويأتي ما كره له، وإنما أمر بأداء الحق بالحق، فأما بتضييع ما أوجب الله عز وجل عليه فلا يجوز له ذلك.

وقد تعرض للعلة التي لا يجوز أداء الفرض بمثلها لولا العذر الذي رخص له من أجله، كالبول الذي يستمر به نزوله، والدم أو البطن؛ فيدع الصلاة حتى يخرج وقتها يريد بذلك أداء الفرض بالطهارة، فيدع الفرض ويضييعه؛ وعلماء الأمة مجمعة على الرخصة له بأن يتوضأ لكل صلاة ويصلي وإن سال، وأمر النبي ﷺ، المستحاضة بذلك، وكذلك فعل عمر رضي الله عنه، حين طعن: صلى وجرحه يشغب دماً؛ أو يمرض فلا يمكنه الصلاة قائماً ولا يمكنه قاعداً وزيد بن ثابت استمر به البول، فكان يتوضأ ويرسل البول؛ أو لا يمكنه أن يسجد على الأرض فيدع الصلاة انتظاراً للعافية حتى يخرج وقتها، أو رجاء أن يخف ما به، وكذلك الصداق وغيره حتى يمكنه الصلاة، والأمة مجمعة أن عليه أن يصلي كما أمكنه، وقد جحشت ساق النبي ﷺ فصلى جالساً، ومرض ﷺ فصلى جالساً يوم توفى وأبو بكر إلى جنبه.

وقد يعرض للعبد الفرض فيقوم به فيضييع ما هو أوجب منه، كالصوم في السفر أو الصوم في المرض، حتى لا يقدر أن يصلي إلا قاعداً أو مضطجعا، ولو أفطر لأمكنه أن يصلي قائماً، وقد يصوم في السفر أو في المرض حتى يضجر ويخرج إلى ما لا يحل له من الكلام وغيره.

وقد يجب على العبد الفرض، فيؤديه لإرادة الدنيا، يرى أن ذلك يجزيه، وأن ذلك أولى به جهلاً وغلطاً، كالزكاة تجب عليه فيعطيه فقيراً قد لزمه ذمامه لا بد له من مكافأته فينبى ماله بحق الله جل وعز، كاليد اصطنعها إليه، أو عمل له عملاً على غير أجره مساة، كالرجل يخدمه أو يقوم بجوانحه، أو المرأة الفقيرة ترضع له أو تخدم أهله أو تلطفهم بالبر، فقد ألزم نفسه مكافأته، فيعطيه الزكاة لتسقط عنه مكافأته، ولعله يترك من هو أولى منه أن يعطيه، أو الرجل يخاف لسانه إن لم يعطه أو يرجو حمده فيعطيه فيكثر له، ويمنع من هو أحوج منه والله عز وجل، يقول:

(يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١) ...).

وقال جل وعز وعلا: (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ (٢)).

وكذلك الوصية يوصى بها إليه في وجوه اللبر ، مثل ابن السبيل والفقير أو غيرها ؛ فيخص بها إلى ذوى الأيادي عنده ، ومن لزمه ذمامه ، ومن يخاف لسانه ، أو يرجو مكافأته أو حمده ، ويدع من هو أولى به ، فيدع أن يضعه كما أمر به صاحبه ، أو يغش الميت في وصيته ويعمل في منفعة نفسه فيما أوصى إليه به .

وقد يجب عليه الشيء فيؤديه ، ورغبته أن يزداد لنفسه بعد أداء ما وجب عليه ، فيرى أن الازدياد من ذلك هو الواجب ، فيضيق كثيراً مما يجب عليه لذلك ، ويعتدل بالفرض وقد أدى الفرض ، وإنما يعمل في رغبة الدنيا ، كالعيال يكتسب لهم ما يغذوهم حتى يكون عنده ما يكفيه الأيام والشهور والسنين ، فإذا عرضت له حاجة قرابة ، أو جار يستيقن فقره وجوعه ، أو غريب منقطع به ، أو جنازة قرابة ، قال : الفرض وأداء الواجب أولى به ، يعني الاشتغال بالاكسباب للعيال ، أو إمساك ما عنده من مواصاة من يجب عليه ، ويقول : قال النبي ﷺ : « ابداً بمن تعول » ، ويرى أن ذلك أولى به ، فقد قام بما زعم أنه يجب عليه ، إذ كان عنده ما يكفيهم ؛ وإنما يعتدل من أجل البخل أو الكسل ؛ أو يكون جاهلاً وغالطاً ومع ذلك إن الاكسباب على العيال مختلف في وجوبه .

وقد يطلب العبد التطوع بتضييع الواجب ، وأولى به أداء الواجب ، وإن فاته التطوع كطلب الحديث وتضييع العيال والقرابة ، فينفق في طلبه ويضيع عياله وقرابته ، وهم فقراء لا غنى بهم عنه ، أو يعصى الوالدين في الخروج من بلدهما ، أو يعرض بهما حاجة في بلدهما به ، فيدع حاجتهما فيسخطهما ، ويغذو أو يروح في طلب الحديث ، أو يصحب في طلبه من قد أمر بمجانبته والإنكار عليه ، أو من يعلم أنه لا يسلم معه في دينه من الغيبة وغيرها ، أو كخروجه إلى الحج تطوعاً ، أو الغزو بتضييع عياله أو بسخط الوالدين ، أو المبيت على الذكر بعصيان الوالدين ، وكإعطاء الغزاة والحجاج المال ، والإنفاق على الإخوان أو الجيران ، أو الصلقة بتضييع حق من يلزمه جقه ، فإن لم يكن يملك إلا ذلك فقد ضيع واجباً من حق الله عز وجل ، وإن كان يملك سوى ما ينفق في ذلك ، فقد ترك ما هو أولى به وأنفق فيما لا يجب عليه وترك ما يجب عليه ، وكرهه أداء المظلمة تكون عليه ومظلمة الدين عليه ولا يقضيه من قد ضيق عليه فيه ، وإنفاقه في طلب الحديث وسائر التطوع .

وقد يطلب العبد النوافل والقرية إلى الله عز وجل ، بالاستعانة ؛ بما لا يحل ، كاكسابه المال بالولاية والظلم والحيانة والرشوة ، كالمباينة بالتجارات بما لا يحل له من الربا وما نهى عنه من

المبايعة ، وكالصناعة التي تكره كالتصاوير للصور أو كعمل الآنية من الذهب والقضة لمن يأكل ويشرب فيها ، أو صنعة الملاحى وبيع السلاح والثياب السواد من القلائس وغيرها ، وبيع الحرير من الرجال ويغزو بما يصيب من ذلك ويحج ، ويعول القرابة ويتفضل على الإخوان ، يريد بذلك التطوع ، ويحتج في ذلك فيقول : أعول به عيالا صغارا وقرابة مساكين وأوجهه الله عز وجل ، في سبيل الخير ، وقد عصى الله عز وجل ، بما يكتسب من ذلك ، فأبر من ذلك ترك ذلك ، كما قال أبو الدرداء رحمه الله ، فيمن كسب مالا من غير حله ، وأنفقه في غير حله ^(١) ، فأبر من ذلك ألا يسلب اليتيم ويكسو الأرملة .

وإتيان السلطان الجائر وتعظيمه بما لا يحل ، وتصديقه على الكذب ومحالسته على المنكر ، يريد بذلك فيما يزعم أن يدرا عن مظلوم أو يرد مظلمة ، أو يأخذ لمسكين أو في وجه البر ، أو يحتسب ويطلب القضاء ، أو يلى المظالم يريد بذلك التطوع والقرية وهو لا يسلم من جميع ذلك ، فإن كانت نيته بما يقول صادقا فقد غلط وجهل ، يتقرب إلى الله عز وجل بما يباعده منه ، وإن كانت نيته الاستكثار من الدنيا أو الرفعة بها ، فقد جمع كذبا وغلطا ؛ أو كمن له ضيعة فيأتي السلطان ويعظمهم أو يداهم في المنكر ، وكذلك يؤانس أهل البدع ويعظمهم ممن له الجاه عند السلطان أو له المال الكثير ، يريد بذلك أن يستعين به على دفع مظلمة لغيره أو عوناً لضعيف ، أو يأخذ من الدراهم للفقراء .

وكذلك يحب في الله عز وجل الإخوان ، فيغضب لغضبهم بغير حق : فيصارم من صارموا ويعادى من عادوا ، ويغتاب من يغتابون يريد بذلك فيما يحل إليه القيام بالحب في الله عز وجل ، وقد عصى الله عز وجل وهو لا يشعر .

وكذلك يصوم تطوعا في الحر وغيره ، حتى يضجر ويخرج منه إلى والديه وأهله أو خادمه ومن عامله مالا يحل له ، وإذا أفطر لم يفعل من ذلك شيئا ، وكذلك قد يقطعه هذا الصوم عن طلب المعاش الذى لابد له منه ، وقد اختلفوا في وجوب طلب المعاش ، وقد كثرت هذه الفرقة من القراء بطلب التواضع فيما تزعم بترك الواجب .

وكذلك يتجوع ويقل الطعام ، يترهد زعم بذلك ، فيخرجه ذلك إلى مالا يحل له من الفسج والعجز ، ويقطعه عن معاشه وعما هو أولى به من الطاعات التي ندب الله عز وجل إليها ، ولم

(١) ومنه : « ليتنا لم ترن ولم تصدق » .

يفرضها عليهم ، أو يترك الاكتساب لأهله وولده ووالديه فيجوعون ، ويعرون ، يريد بذلك التوكل على الله عز وجل - والاكتساب يمكنه - غلطاً وجهلاً ، فيطلب الفضل بترك ما هو أولى به ، وقد يسخط عليه والداه لذلك ولا يبالي بسخطها .

قلت : فهل يُخَافُ علىّ في النوافل ، من غير تضييع الواجب ، الغلط ؟
قال : نعم ، إلا أنك لا تخرج في غلطك في النوافل إلى مأثم ، إلا أنك تغبن وتتقص .
قلت : فلا غنى بي عن معرفة ذلك فيّته لى .

قال : قد يُخدع المرید أيضاً في البرّ الذي هو نافلة فيزيله العدو ، أو هوى النفس عن الفضل إلى النقص ، فتستريح النفس إلى ما بينها ، ويزيله العدو عن فضل ما بينها نفاسة عليه بالفضل . وقد يعرض له أمران : أحدهما أفضل من الآخر ، وقتها واحد ، ويزيله العدو والهوى عن أفضلها إلى أدناها ، كعبادة أخ مريض وزيارة أخ صحيح ، وحالها سواء في الحب والطاعة ، فيبدأ بالزيارة ويدع العبادة ، والعبادة أفضل ؛ لأنها زيارة وعبادة ، أو كالأخ المستقل بنفسه بوجود القوت وآخر محتاج ، فيبدأ بالمستقل ويدع المحتاج ، وكزيارة أخوين أحدهما أنفع له في دينه والآخر أقل منفعة وإن كان قد يسلم معها جميعاً ، فيصده العدو عن المنفعة حسداً منه ، والنفس تصده عن إتيانه خشية أن يستفيد ما ينقص عليها لذتها ، ويحملها على ما يثقل عليها من طاعة الله عز وجل ، أو ينهبه على شيء قد أغفله فيذكره إياه مما يثقل على النفس وفيه الفضل ، وكالدعاء للإخوان من الأغنياء على ألوان الأطعمة ، يريد بذلك البرّ والأجر ، وصلة الإخوان الفقراء ، ووضعه ما ينفع على الأغنياء فيهم أولى وأفضل ، وكجنازة الغنى والفقير فيؤثر الذهاب مع جنازة الغنى لأياها تقدمت ، يريد أن يكافئ على أيادي الدنيا بالطاعة ، ويرى أن ذلك أفضل ، أو مداراة له أو مخافة لسانه ، ويرى أن ذلك أولى به ؛ والله أحق أن يؤثر ، فليأت الفقير إن كان أقرب جواراً ، وكان أفضل في الدين ، أو ليس معها من يقوم بها ، ورباً أثر الذهاب مع جنازة الغنى بعد علمه أن الفقير أفضل لأثرة هواه ، فقد ضيع ما هو أولى به على تعهد منه .

وقد يعرض له مجلسان لمحدثين أحدهما يحدث من الحديث بما هو أنفع في دينه وإتيانه أسلم من الخوض معه ، فيأتى الذى هو أقل منفعة وأقل سلامة له ، وأولى به طلب المنفعة والسلامة . وكذلك طلب الحديث الذى قد سمعه مرة أو مراراً ، يريد بذلك ليعرف الإسناد من وجوه عدة ، ويعرض له جنازة ، أو عبادة مريض ، أو ذهاب في حاجة مع أخ مكروب أو مضطرب أو ضعيف غريب ؛ فيذهب إلى الحديث وذهابه إلى ذلك الحديث فضل ، وأولى به إتيان الجنازة أو

عيادة المريض ، أو زيارة أخ يستفيد منه مايزداد به خيرًا ، أو إغاثة الملهوف لأنه إنما يطلب العلم لمثل هذه الخصال ، فإذا تركها في ماذا يستعمل العلم ؟ وليس يذهب إلى حديث هو به جاهل ، وقد سمعه مرة أو مرارًا ، إلا أن يكون فيه زيادة علم يستفيدة فهو يخاف فوته ، فإن كان يستفيد بذهابه علمًا يناله عن ردىء أو يدلّه على هدى فليذهب حيثنذ فإن الذهاب إلى العلم أفضل . وقد يعرض الحديث الذى هو به جاهل وإليه محتاج : من فرض يؤديه ، أو حرام يعرفه به ، أو سنة أو خير ينتفع به فيما يستقبل من عمره فيعرض له الحديث مع الإخوان والجلوس في المسجد ، أو زيارة قرابة لا يخاف أن يكون في ترك زيارتهم حرجٌ ، لقلة طول المكث عنهم ، فيدع الحديث ويذهب إلى ذلك كله ، ويقول حتى نعمل بما نعلم ، ويقول قد ذهب حلاوة الحديث وهذا غلط ، وأولى به أن يتعلم مايجهل ومايعلم به أداء فرائضه ، وتحريم ربّه جلّ وعلا ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الصلاة تعرض له في موضعين :

أحدهما : تلهي النفس بالنظر والاستماع إلى كلام يكون فيه .

والآخر : تسكن فيه الجوارح وينقطع فيه اللهو ، ويمكن فيه الفهم فيصده النفس والعدو عن ذلك إلى ما هو أخف ، فيصلى حيث يلهو ويسهو إما بغلط ، يرى أن ذلك الموضع أفضل ، أو يؤثر هواه .

وقد يكون قد تعود الصوم ولم يضعفه ضعفًا ينقطع به عن البرّ ، فتخيل إليه النفس والعدو ، أن الإفطار أفضل له لبقوى على المعونة للضعفاء والإخوان ، أو الصلاة أو طلب المعاش ، فيفطر من غير أن يعرف ضعفًا قاطعًا إلّا كما يضعف القوى على الصوم ضعفًا لا يقطعه ، ولعله يكون في إفطاره أضعف بدنًا .

وكذلك يصوم فيضعف ، فينقطع عن إتيان الجنّازة وعن طلب العلوم ، وعن عيادة المرضى أو عن الصلاة ، فلا يكاد يأتي براءً بالنهار ، فالإفطار أولى به ، إلا أن يكون قد ينقطع عن بعض ويأتي بعضًا ، فالصوم حيثنذ أولى ؛ لأن الصائم لا يخلو من الضعف ، وقد ينقطع أيضًا عن مثل ذلك البعض وهو مفطر ، فالإفطار خدعة إلا أن يكون ما ينقطع به عنه أفضل من الصوم ، ويكون لا ينقطع عن مثله في الإفطار .

وقد يعرض له الفضلان : أحدهما له وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته . وتكون النفس قد سخت بإتيان أحدهما أن يبدأ به أيها كان ، وإتيان الآخر بعد فيصده النفس والعدو بإتيان

ملا يفوت وقته عما يفوت وقته ، كالجنازة تعرض وعبادة المريض الذى لا يخاف عليه عجلة الموت لظاهر العادة ، وكذلك المجلس من العلم لا غنى به عنه ، والجلوس للذكر والحديث مع الإخوان الذين لا يفوت لقاءهم متى أراد ، فيدع العلم ومجلس معهم ؛ وكذلك البكور إلى الجمعة ، وزيارة الأخ الذى لا يفوت زيارته ، أو عبادة المريض الذى لا يخاف عليه ويمكنه إتيانه بعد الجمعة ، فإن خاف الموت أن يعاجله ، أو كان لا يمكنه إتيانه بعد الجمعة فعبادته أفضل ، إذا كان أخاً أو جاراً يلزمه حقّه ، وإلا فلا يدع البكور لأن ذلك يفوته إلى الجمعة الأخرى إن عاش ؛ أو كالجلوس فى المسجد حتى تطلع الشمس ، ويعرض له زيارة ، أو عبادة لا يفوت وقتها ، فيبدأ بالزيارة والعبادة ويدع الجلوس الذى يفوت وقته ، وقد يمكنه بعد طلوع الشمس أن يزور ويعود ، إلا أن يكون له شغل هو أولى به بعد طلوع الشمس لا يتفرغ لذلك ، فلينظر حيثئذ من يزور ومن يعود فى الفضل والمنفعة فى الدّين والسلامة ؟ فإن كان كذلك فوقها حيثئذ واحد فليبدأ بالزيارة والعبادة إن كان فيها المنفعة والسلامة أو الفضل لمن يعود ، وكذلك يؤثر الزيارة على عبادة من هو أولى به ، وذلك أنه يخاف فوته فأولى به العبادة له .

وقد يدخل فى البر له الفضل العظيم ، فتدعوه نفسه وعدوه إلى فضل هو أدنى منه ، كالمصلّى تدعوه نفسه وعدوه إلى سرعة القراءة لفضل كثرة الدرس ، فيصده عن الفهم ، لثقل الفهم على النفس وراحته إلى الفكر فى الدنيا وحديث النفس بأمرها ، والفهم أولى به لركة قلبه وهيجان خوفه .

وكذلك قد يصلى وهو نشط قوى فتدعوه نفسه إلى النوم ، فتقول له : إنه أقوى لك على البر غداً ، فيقطع الصلاة وليس به ضعف ، ولا يعرف من نفسه بالنهار ضعفاً قاطعاً ؛ فإن عرف ضعفاً قاطعاً فلينظر حيثئذ : إن كان يقطعه ذلك الضعف عما هو أفضل من الصلاة ، صلى بقدر ما لا يضعف بالنهار ذلك الضعف ، وإن كان عما دون الصلاة أتم الصلاة ولم يقطعها ؛ وكذلك المجلس : قد يكون فيه مما يستفيد فيه ما ينفعه ، فتذكر النفس برّاً هو أدنى منه ، فيقوم إليه ويقطع ما هو فيه .

وكذلك يفطر لسرور أخ له لعله لا يغم إن لم يفطر ، ولم يكلف الطعام من أجله ؛ فإن كان تكلفه من أجله ، أو علم أنه يغم وهو أخ مستحق للأخوة سرّه وأفطر ؛ وإن كان غير ذلك من الإخوان لم يفطر إلا أن يكون تكلف ذلك من أجله وحده ، أو يحلف عليه فيفطر حيثئذ ، للحديث ، لأمر النبي ﷺ أن يبرّ القسم .

قال البراء بن عازب : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نبر القسم .

وكذلك يدع العمل من الصوم والصلاة وغيرهما ، فيقطعه بعدما يدخل فيه ، خشية ألا يسلم من الرياء والتصنع ، وقد أراد الله عز وجل به ؛ فذلك غلط ، إنما عليه المجاهدة بالإياء والكراهة ، ولو أطلع في ذلك نفسه لما بقي كثير عمل إلا عرض له في ذلك الرياء وغيره ، فلم يؤمر الناس بذلك ، أو يقطع العمل في العلانية ليعمله في السر ، وقد جرب من النفس الخدعة إذا صار إلى السر ترك العمل وكسل عنه ، فإن كان قد عوده الله عز وجل ، القوة على ذلك فليأته سرًا فهو أحرز وأفضل .

وقد يقطع العمل خشية أن يقال هو مرء ، كالرجل يصلي في المسجد وحده والناس حوله جلوس ، أو يذكر الله عز وجل وهم يخوضون ، أو يصمت وهم فيما لا يحل ، أو يعرض عليه الطعام وهو صائم وهم مفطرون ، أو يبيت مع قوم وقد عوده الله القيام من الليل ، فيدع ذلك كله خشية أن يقولوا : مرء ، فذلك غلط ، وترك فضل عظيم وعقده في الترك رياء منه ؛ لأنه يجب أن يدوم حمدهم وينظروا إليه بعين الإخلاص لا بالرياء ، وقد أساء بهم الظن أيضًا . وقد يقطع العمل خشية سوء الظن وإشفاقًا فيما يرى عليهم ، فقد خدعته نفسه لتستريح ، وقد أساء بهم الظن .

وقد يكون في الفرض خلف الإمام أو يصلي وحده ، فيقرأ الإمام وهو يتفكر في غير ما يقرأ الإمام من أمر الآخرة ، فقد ترك ما هو أولى به ، وأفضل له أن يفهم ما يقرأ إمامه أو يقرأ ما يقرؤه هو وحده ؛ وقد عد ذلك عامر بن عبد قيس رحمه الله من الوسوس ، إذا تفكر في الآخرة في الصلاة في غير ما هو فيه من الصلاة .

وقد يدع العمل وهو نشط لا يرى من نفسه فترة ولا ضعفًا ، فتدعوه نفسه إلى الترك وتقول : المداومة على القليل أفضل فذلك خدعة من النفس ، وسكون إلى الراحة فليغتم ما عرض له من البر كما جاء الحديث .

« إذا فتح الله لك بابًا من الخير فانتبهه فإنك لا تدري متى يغلق عنك » .

إلا أن يجد من نفسه ضعفًا ، فإن تركه كراهة الفترة ورجاء المداومة فهو حينئذ أفضل وكذلك

جاء الحديث عن النبي ﷺ :

« إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ، مداوم عليه صاحبه وإن قل » وقال داود عليه السلام :

« داوم وأنت الجواد السابق » .

وقال النبي ﷺ : « إن الله لا يمل حتى تملوا » وقال : القصد والدوام .

وقال سلمان : شر السير الجفجفة لا تبغض إلى نفسك عبادة الله عز وجل .

وقد يكون في البر ويعرض له فضول من المباح ، كالرجل يكون ذاكرًا لله عز وجل بلسانه بقراءة قرآن أو تسييح ، فتدعوه نفسه إلى كلام الفضول استراحة منها إلى محادثة الناس والخوض فيما لا يعنيه ، فيترك الذكر ويخوض في الفضول ، والرجل الجالس في المسجد أو في ذكر الله عز وجل مع غيره ، فيعرض له النظر إلى ما يشتهى من المباح أو السمع ، فيقطع ما كان فيه وينظر ويسمع ، أو يقوم إلى ما يريد أن ينظر إليه أو يسمعه ، وقد آثرهواه في هذا الموضع ، على طاعة الله عز وجل غلطًا منه .

وقد يكون في الصلاة فيذكر صاحبًا يستريح إلى حديثه ، ولا يأمل عنده منفعة إلا أنه لا يخوض معه في الحرام ، فيقطع الصلاة ويذهب إليه خدعة من النفس وهربًا من العمل . وقد يكون العبد في عمل من أعمال البر ، أو يكون قد نوى الدخول فيه فتدعوه نفسه إلى قطع ذلك ، لشهوة معصية عرضت ؛ كالرجل يكون ذاكرًا بلسانه ، أو يكون صائمًا على عزم يريد به السلامة ، فيعرض ذكر الغيبة فيمن هو مقتناظ عليه ، أو فيما يعجب منه أو يعجب منه غيره ، فيخرج من الطاعة إلى المعصية ؛ وكذلك يعرض له الاستهزاء بغيره والحديث بالكذب لمزاح أوجد ؛ وكذلك قد يكون في ذكر أو صلاة ، فيستمع إلى ما لا يحل له ، أو ينظر إلى ما لا يحل ، فيقطع ما هو فيه ويصير إلى المعصية ، أو يمكث فيما هو فيه ويخلط الطاعة في المعصية . وكذلك قد يكون متذكرًا في الآخرة فيعرض له نية في معصية أو تمنُّ لها ، أو فكرة فيها ، فيفكر أو يتمنى ، أو يشغل قلبه بالنية فيها ، ويدع ما كان فيه من ذكر الآخرة . وكذلك يكون في الفرض فيخرج منه إلى معصية أو مباح فيعصى معصيتين : بقطعه للفرض وإتيانه المعصية . وهذا شرُّ أحوال العبد ، فالعبد المرید المعنى بنفسه ، المؤتمُّ بكتاب ربه عز وجل وسنة نبيه ﷺ : همته : محاسبة نفسه ليميز بين خطراته ، أيها الله عز وجل رضى ، أو أيها الله عز وجل سخط ؟

قلت : أجمل لى في علل ذلك كله الجملة مختصرة لأفهمه .

قال : إذا عرض له أمر مما أمر الله عز وجل به أو ندب إليه نظر في ذلك حتى يؤديه كما أحب الله عز وجل وأوجب ، فإذا عرض لك أمران واجبان فأبدأ بأوجبهما ، وإن عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت ، والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته فيقدم ما قدَّم الله ويؤخر ما أخر

الله عز وجل ؛ وإن كان في فرض فعرض له فرض دونه لم يخرج إليه فيكون عاصياً بتركه ما أوجب الله عز وجل عليه بعدما دخل فيه ؛ وإن عرض له فرض أوجب مما هو فيه قطعه ولا يمكث فيما هو دخل فيه ، فيكون عاصياً لله ثم كما كتبت لك باباً باباً ، وكذلك لا يدع القرض للناقلة ، وكذلك يعمل في الناقلة الأفضل فالأفضل على ما كتبت لك .

قلت : فإن عرض أمران واجبان أو فضلان ، فلم يتبين أيهما أوجب أو أفضل ، قال ينظر أيهما أخف على قلبه ، فإن كان أخف من قبل الهوى أتى الذي ثقل ، لأنه لا يؤمن عليه أن يعمل الذي خف عليه لهوى نفسه لا لربه عز وجل ؛ وإن كان أخف عليه لأنه أسلم أو القلب فيه أزيد عملاً - وما أقل ذلك إلا من قلوب الصادقين الأقوياء - أتى الذي هو أخف : لأنه لأن يعبد الله عز وجل ، بنشاط الطاعة ، أفضل من أن يعبد بكره ومكابدة ، ولا يؤمن عليه أيضاً الملال والشغل عن الله عز وجل فيه ، وأيضاً : إذا هو أقل سلامة وأقل زيادة في القلب لم يؤمن عليه ألا يسلم فيه ، وإن سلم لم يزد في قلبه كما يزداد في الذي قد نشط له القلب وفرغ له ، وإن لم يتبين له لم خف عليه أو لم ثقل ، فأحب إلى أن يأتي الذي هو أثقل ، لأنه لم يتبين له أن الخفة إنما كانت من قوة قلبه وطلبه السلامة والزيادة في العمل فهو إلى الهوى أقرب منه للخشية ، لما جرب العمال من أنفسهم ، ولما طبعوا عليه من خفة ما وافق شهواتهم من الدنيا ، وثقل ما نافر هواهم من عمل الآخرة .

ولقوله عز وجل :

(فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا^(١)) ، (وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ^(٢)) الآية .

فرجنا الخيرة في المكروه وخوفنا الشر في المحبوب ، ولو شاء جل ثناؤه لقال : عسى أن تحبوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو شر لكم ، ولكن نهينا لما هو أغلب علينا ولما بنانا عليه وطبعنا ، وهو أعلم بنا ، فن أجّل ذلك اخترنا للعامل أن يجانب ما خف عليه تحزراً وخوفاً لما خوفنا ربنا جلّ وعلا ، فإن استويا في الخفة فلم يقدر أن يعرف أخفها أو استويا في الثقل فلم يقدر أن يعلم أيهما أثقل ، فإنه لا يؤمن أن يكون له في أحدهما هوى غامض يبيح عند مباشرته أو يعرفه بعد تقضيه وفراغه منه ، فليعرض نفسه حيث يشاء على الموت ، أيها يحب أن يأتيه الموت وهو عليه ،

فإن النفس المؤمنة وإن كانت غافلة عاصية ، لا تتمنى لقاء الله عز وجل ، ولا تحبّه ، إلا على الخير الصافي الذى ترجو أن ينجىها من عذاب الله عز وجل ويدخلها جنته ، لأنه لا هوى لها عند الموت فى الدنيا ، إنما هواها فى الدنيا مادامت حيّة ، فإن وجد نفسه تجزع أن يأتيا الموت وهى عاملة بأحدهما ولا تجزع أن يأتيا عند الآخر ، فلينظر : لم جزعت ؟ فإنه لا يكاد يخفى عليه حيث إذا ردّ عليها فقال : لم خف عليك الموت عندها وجزعت من نزوله ، وأنت بهذا عاملة ، فإنها ، إن شاء الله ، سترجع إليه ، فقول : لكذا وكذا فليأت حيث يشاء الذى لا يكره الموت من أجله .
 ألم تسمع قوله عز وجل : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ) .
 فقال الله عز وجل (قَتَلُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ^(١)) .
 أى من كان منكم على أمر يثق به لم يبال أن يأتيه الموت وهو عليه ، فقال عز وجل إن كنتم أوليائي :

(قَتَلُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ) .
 ثم قال جلّ ثناؤه : (وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَلَّمَتْ أَيْلِيهِمْ) .
 أى لما عرفوا مما عندهم مما لا يرضى الله عز وجل به ، وما أسلفوه من الذنوب غير تائبين منه ، فهم عليه بعد .

وقال ابن عباس : لو تمّنوا الموت لما تواروا ، وقال ابن جريج فى قوله تعالى :
 (بِمَا قَلَّمَتْ أَيْلِيهِمْ) :
 لما عرفوا أن محمداً ﷺ حق فكنموه وكذبوا بالحق ؛ قال قتادة : لأنه تلا عليهم : (ثُمَّ تَرْدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ^(٢)) .
 وقال : إن الله عز وجل ، أذلّ ابن آدم بالموت ، رفعه إلى النبي ﷺ ، فالؤمن أولى أن يجزع مما يكرهه الله عز وجل ، أن يأتيه الموت عليه .

وقال بعض العلماء : انظر كل أمر تكره أن يأتيك الموت عليه فاتركه ، فإن لم يدرك لم جزعت نفسه فليأت ما لم تجزع النفس ، لأنها لم تجزع إلا ليلية ، وإن سترها الهوى عنه ، وما يكاد يكون ذلك ، وإن لم تبال على أيها أتاه الموت فليبدأ بأيها شاء ، فإنه قد وزن العمل قبل أن يوزن ، وعرضه قبل أن يعرض ، وقتش من نفسه قبل أن يقتش ، والموت معيار العابدين فيما يشكّل عليهم

١٠٥

من همومهم في أعمالهم ، ويبيّن الاستعداد له كلما خفي عليهم من قصد ضمايرهم وأهوائهم في أعمال جوارحهم ، لأنهم لا يستعدون لمن يعلم السر ، ولا يخفى عليه غوامض الصدور ، إلا بما لا خدعة فيه ولا التباس .

قلت : أجمل لي جملة الأولى فالأولى مما هو أوجب وأفضل بعد تفسيرك هذا ، لأحفظه مختصراً مع ما عرفتني مفسراً .

قال : إذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ بأوجبها قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب .

أو عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته ، بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر .

فإن كان في فرض فعرض له فرض دونه لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه .
فإن كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه قطع ما هو فيه ودخل في أوجبها .
وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من أجلها .
وكذلك الفضل والتطوع : يبدأ بالأفضل فالأفضل ، كما كتبت له وعلى قدر الأوقات .

باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله تعالى

قلت : فأهل الرعاية لحقوق الله عز وجل ، والقائمون بها في منزلة واحدة أو في منازل شتى ؟ .
 قال : في منازل شتى ، وهى سبع منازل :
 فأول منازل الرعاية : في حقوق الله عز وجل عند الخطرات على العلل والأسباب ، والأوقات والإرادات ، والوجوب على ما ذكرت لك .
 ثم أهل المنزلة الثانية : الذين أغفلوا الرعاية : عند الخطرات في أعمال القلوب مما ليس للبدن فيه عمل ، حتى جالت قلوبهم بالفكر فيما كره الله عز وجل ، ثم تيقظوا قبل أن يعتقدها بقلوبهم ، ففزعوا وصرفوا قلوبهم عن ذلك .
 وأهل المنزلة الثالثة : الذين أغفلوا الرعاية والمراقبة عند الخطرات وعند الفكر في أعمال قلوبهم ، حتى اعتقدوا ما كره الله عز وجل ، من أعمال قلوبهم مما لا عمل للبدن فيه ، مثل العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن وما أشبه ذلك والبدعة ؛ ثم تيقظوا وفزعوا ، وذكروا الله عز وجل ، فندموا وخطوا ما عقلموا عليه من ذلك بالتوبة إلى الله عز وجل .
 وأهل المنزلة الرابعة : الذين أغفلوا المراقبة لله عز وجل ، والرعاية لحقه ، حتى همؤا وعزموا أن يأتوا ما كره الله عز وجل بمجوارحهم ، ثم تيقظوا ورهبوا ، فندموا على ما أضمرؤا ، وخطوا ما عليه عقلموا بضماير قلوبهم .
 وأهل المنزلة الخامسة : الذين أغفلوا مراقبة الله عز وجل وتقواه ، حتى ابتدؤوا بالعمل بمجوارحهم بما كره الله عز وجل ، من لحظة بعين ، أو إصغاء بأذن ، أو مد يد ، أو خطوة برجل ، ثم تيقظوا وفزعوا ، وخافوا الله عز وجل ، قبل أن يتمؤوا ما كره الله عز وجل من العمل : كالعين يلحظ بها ، ثم يذكر اطلاع الله عز وجل عليه وأن الله يسأله عنها أو يخاف أن يغضب عليه ، فيصرف بصره قبل أن يستتم من النظر ما أراد وأحب ، وكذلك يصغى بسمعه ليستمع إلى ما يكره الله عز وجل ، ثم يذكر الله عز وجل ، فيصرف سمعه عن ذلك ، ويترك ما أحببت نفسه خوفاً من الله عز وجل ، من قبل أن يستتمه ؛ وكذلك يبتدئ بالقول باللسان ، ثم يذكر الله عز وجل ، فيقطع كلامه ولا يتم ما أراد منه ؛ وكذلك يمد اليد ، ثم يذكر الله عز وجل ، فيكفها عما كره الله

عز وجل ، قبل أن يستتم ما أراد ، وكذلك بخطو بالقلم ثم يذكر الله عز وجل ، فيقف ويترك المشى إلى ماكره الله عز وجل ، قبل أن ينال تمام ما أراد من ذلك ، لعلمه بعلم الله عز وجل ، ونظره إليه ، فإن ذلك عليه محصى لأنه قد سمعه يقول :

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ^(١)) .

بحذرهم اطلاعه ، ويبعثهم على الحياء منه والهيبه ، والإجلال له والرهبة منه ، ثم قال : (إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) .

روى عن الحسن أنه قال في تفسير ذلك : حين تبدأ في العمل يراك الله عز وجل ، فأخبرنا أنه يعلم ما نعمل ، ويرانا حين نبتدئ فيه وقبل ذلك ، ولكن أراد أن يستحي منه لعلمه بذلك ، فلا تفيض فيما كره ، فإن أفاض فيه ثم ذكر اطلاعه ترك ما هو فيه قبل أن تستتم خوفاً منه وحياء وإجلالا له عز وجل ، ليس كمثله شيء ، ولا نظير له ولا شبيه .

وأهل المنزلة السادسة : الذين أغفلوا مراقبة الله عز وجل . وتقواه ، حتى استتموا ماكره الله عز وجل ، من العمل وفرغوا منه ؛ ثم فرغوا وندموا ، فتأبوا إلى الله عز وجل ، وأقلعوا ولم يصبروا على شيء مماكره الله بعد ما تيقظوا ، فعلموا أنهم أسخطوا الله عز وجل ، بما قد فعلوا وتعرضوا .

وأهل المنزلة السابعة : الذين أغفلوا رعاية حقوق الله عز وجل ، حتى فرغوا من الأعمال التي يكرهاها الله عز وجل ؛ ثم فرغوا عند بعضها فأقلعوا عن بعضها وأقاموا على بعضها ولم تسخ أنفسهم بالتوبة ؛ وقد يفزعون من العمل الواحد فيدعون بعضه خوفاً من الله عز وجل ، ولا تطيب أنفسهم بالتوبة من بعضه ، كالرجل يأق العمل من أعمال السلطان من الجباية والكتابة وغير ذلك ، فيظلم فيه ثم يفزع وينوى ألا يظلم أحداً ، ولا تطيب نفسه بترك ديوانه ولا ولايته ؛ أو كالرجل يشرب المسكر مع الفجور ، أو ضرب العيدان والغناء ، أو يشرب بضرب العود والغناء ولا فجور فيه ، ثم يفزع من ذلك فيندم على الضرب بالعود والغناء ، ولا يندم على شرب المسكر ولا يصبر عنه ، ولا يقوى على تركه ؛ ولعله يتأول في استحلاله ، وكذلك يشربه فيترك الصلاة ، فيندم على ترك الصلاة ، وينوى ألا يشربه إلا في وقت لاندركه فيه الصلاة ؛ أو يشرب فيسكر منه فينوى أن يشربه ولا يكثر منه ، وشربه عنده حرام ، ولكن لا يقوى على أن يعزم على تركه كله ؛ وكذلك يغضب فيغتاب من يغضب عليه ويكذب عليه ، ثم يندم فينوى ألا يكذب عليه ، ويستعظم

الكذب ولا تطيب نفسه بأن يقلع عما يعلم منه من الذنوب ، لأنها وإن كانت غيبية ، فقد قال حقاً ولم يقل كذباً ، فلا تطيب نفسه من التوبة من الغيبة له ، ويعزم ألا يكذب عليه ولا على أحد ، وكذلك يغتابه ويقذفه ثم يندم على القذف أو ذكّر والديه ولا يندم على الغيبة ؛ وكذلك يصارمه . ويقع فيه فيتوب عن أن يذكره بسوء ، ولا يقوى على أن يترك مصارمته حقاً وأنف أن يبدأه بالصلح والكلام والسلام وكذلك يعمل من التجارة بما لا يحلّ له ، كالربا والكذب في المراجعة ، أو في مدح سلعته ، أو ذم سلعة غيره ، فيتوب من الربا والكذب ولا يتوب من المدح والذم ، فقد راقب الله عز وجل ، ورعى حقوقه في التوبة في بعض ما يكره الله عز وجل ، وضئع الرعاية في بعض ما كره الله عز وجل ، حتى أقام عليه ولم يقلع عنه .

باب بيان منازل المصيرين المقيمين على الذنوب وذكر ما يبعثهم على التوبة ، وقطع التسويف

قلت فامنزلة من لم تطب نفسه أن يقلع عنه ولا يتوب ، وغلبته نفسه ؟
قال : أولئك في ثلاث منازل :

فأهل المنزلة الأولى : مقيمون على الذنوب ، طالبون للتوبة على غير حقائقها ولا استتمام طلبها ، يبكون ويتضرعون ، ويتفكرون في الوعيد والعذاب ، رجاء أن تسخو نفوسهم بالتوبة ويأتون مواضع الذكر ، فيتفكرون فيما يسمعون أو لا يأتون مواضع الذكر ، ولكن يتفكرون فيكون ويتضرعون ، فيملّون ولا يدمنون على التخويف لأنفسهم ، إلى وقت هيجان الخوف المنقّص لهم لذات ذنوبهم ، فلا يدمنون على ذكر إدماناً يبلغون به من الخوف ما يبعثهم على التوبة ، وتسخو أنفسهم بترك المعصية لأن النفس والعلو إذا أدمن العبد في طلب الخوف ، دعواه إلى الملل والسامة والإعراض عن الفكرة ، فتستقل النفس ذلك ، لما غمّها من الخوف ، ولما تخاف من تنقيص لذتها عليها ؛ فإن كان عبداً عاقلاً عازماً لم يمل وأدمن الفكر حتى يقوى منه الخوف ويترك ماكره الله عز وجل ؛ ويقطع التسويف للتوبة .

وأهل المنزلة الثانية : ليسوا بأصحاب فكرة لطلب الخوف ، ولا تسخو نفوسهم بذلك ، إلا أنهم يكرهون ما هم فيه ويفتخرون لذلك ؛ ويسألون الله عز وجل الثقلة ، ولا ينوون المقام على الذنوب حتى يموتوا ، ولكن يسوّفون التوبة ويضربون لها الآجال ، كرجل يقول : حتى أتخذ معاشاً يقيمى ويكفنى من غلة ، أو مالا للتجارة ، أو كرجل يقول : حتى يموت عيالى لعلمهم إن يموتوا فأتارك ما أنا فيه ، لأنى لا أقوى على التوبة مع العيال ، أو حتى يموت والدى ، أو حتى أخرج من هذه البلدة ، لأنى لا أسلم فيها ولا أقوى على ترك مخالطة الناس ، ولا ترك الاكتساب فيما لا يحل ؛ فهذه الفرقة تقيم على المعاصى وتسوّف التوبة ، ولا توجه لطلب الخوف ولا تقوى عليه :

وأهل المنزلة الثالثة : أهل العمى والجهل والشroud على الله عز وجل ، مقيمون على الذنوب ، مغتبطون بما هم فيه من لذاتهم ، لا يحدّثون أنفسهم بالتوبة ولا يسوّفونها ؛ ففهم شبيهة باليائس أن

يتوب ، لما هو فيه من غلبة المعاصي ومن سوء الغداء ؛ ولعل كل ما هو فيه خبيث حرام ، أو لما جنى من الجنائيات التي لا يقوى على الخروج منها ، كغضب الأموال وما أشبه ذلك ؛ ومنهم من يخجل إليه أن ذنبه ليس بعظيم ، وأنه أمر هين لأنه خير ، فيما يرى ، ممن هو أعظم ذنباً منه ، فلا يحدّثون أنفسهم بالتوبة ، ولا يضرّون لها أجلاً بالتسوية ؛ فهؤلاء شرار المسلمين وفساق الموحّدين .

قلت : فأهل المترتين الأولين قبل هؤلاء : الذين يقيمون على بعض ويقلقون عن بعض ، والذين يقيمون على الكل ، وكلاهما يجب التوبة ويسوّفها ، فهما أقرب إلى التوبة ، ومطالبها عليهم أيسر من هذه الفرقة الثالثة ، فيمّ يقطعان جميع التسوية .
قال : الذى يقطعان بإذن الله التسوية به خطئان .

إحداهما : خوف المعالجة بالموت أن يكون أجل الله عز وجل في روحه قبل الأجل الذى أجل هو لولته ، فيموت بحسره لم يبلغ أمله ، ولم يتب من ذنبه ؛ فلا إلى الله عز وجل تاب ، ولا بلغ من لذته ما أراد ، فمات بغصة الدنيا والآخرة .

والحالة الثانية : خوف أن يضرب الله عز وجل ، قلبه بعقوبة مانعة له من التوبة : من القسوة : والرّين أو الطبع أو المرض أو الإقفال ، ويكون أجله مع ذلك مؤخراً ، فيطول عمره بالسكرة والحيرة ، فيكون إنما يُملّى له ليزداد إثمًا ؛ فإذا خاف ذلك بادر بالتوبة خوفاً أن يبادر بالموت ، فيموت مصراً على ما كرهه الله عز وجل ، ويبادر بالتوبة خوفاً أن تحل عقوبة الله عز وجل بقلبه ، فيبقى في الدنيا حيران يزدد إثمًا ؛ فإذا لم يأمن من معالجة بغتة الموت ، أو معالجة العقوبة بالقسوة ، خشى أن يؤخرها ساعة فتقع بإحدى هاتين الخطئتين ، فالخوف لها قاطع للتسوية ؛ لأنه إذا قوى الخوف من المعالجة ضعف التسوية ، وإنما يقوى التسوية إذا ضعف الخوف ، وضعف التسوية إذا قوى الخوف ، والتسوية قاطع عن العمل .

ألم تسمع قول شداد بن أوس رضى الله عنه : أنذرکم سوف .

وقيل لرجل من عبد القيس عند الموت : أوصنا ، فقال : أنذرکم سوف .

وروى ابن المبارك : حدثنا أن عامة دعاء أهل النار : يا آف للتسوية .

ومع ذلك فإن المسوف للتوبة لن يعرى من ثلاث خلال : أن يقطعه الموت عن الأجل الذى أجله للتوبة ، أو يبلغ إلى الأجل الذى أجله للتوبة ، فيبقى مقيماً على معصية ربّه جل وعز ، فقد جمع غدرًا وخلفًا ، وكذباً لربّه فيما وعده وأعطاه ، وفى معصيته التى كان عليها مقيماً ، فوعده ربّه

إن بلغه ذلك الأجل ليتوبن إليه ، فبلغه فلم يُقْلَع عن ذنبه ، فازداد غدرًا وخلفًا لما وعد ربّه جل وعلا ؛ لأنه وعد ربّه إن بلغ الوقت الذى أجل توبته إليه ليتزعم عن ذنبه إليه ولا يعود إلى ماكره الله ، وأخلف الوعد وأصر على الذنب .

والحلّة الثالثة : أن يبلغ إلى الوقت الذى سوف إليه التوبة ، فيمنّ عليه بالتوبة فيتوب إلى مولاه عز وجل ، فهذا خير أحواله فلن ينفلك وإن تاب إلى ربه من ضرر التسويف ؛ إذ لا نجاة له من الله عز وجل ، أن يقفّه ويسأله عن ذنبه وإصراره عليه أيام تسويفه ، وإن لقيه تائبًا مغفورًا له فلا بد أن يسأله عن تلك الأيام التى كان فيها مذنبًا مصرًا ، إلى أن بلغ وقت التوبة الذى سوف التوبة إليه ، فكأنه عبد قتل له : تب إلى الله عز وجل ، واترك المعاصي ، فقال : أنا تائب لا محالة وتارك لذاتى ، إلا أنى مقيم على الذنب إلى وقت كذا وكذا ، ليكون أيام تأخيرى للتوبة إلى ذلك الوقت علىّ فيه المسألة والتوقيف من الله عز وجل ، فهذا مثله : أن لو قال هذا ما كان إلا كمنهائه فى تأخير التوبة ، لأنه إن كانت نفسه قد سحت صادقة ، بترك لذاتها إذا جاء الأجل الذى أجله للتوبة ، فكيف لا يدع لذته من الآن فلا يكون عليه السؤال فى أيام تأجيل التوبة ، إذ هو تارك للذة عاجلا أو آجلا ، منقّص على نفسه لذتها ، فتركها بزوال السؤال عنه أولى من تركها باكتساب كثرة السؤال ، فإذا كان تاركًا لذته لا محالة ، فليربح زوال السؤال عنه من الله عز وجل أيام الإصرار ، فليربح نفسه على ذلك إن كان الأمر على ما ذكرت ؛ وكيف له بهذه الحال ؛ أخاف أن يكون أحد الحالين الآخرين أغلب عليه ، فأحد الأحوال الثلاثة لا يقيم معها عاقل على التسويف ، إذا وبخ نفسه عليها بما ذكرت لك من سؤال الله عز وجل ، إياه عن أيام الإصرار ، فكيف إذا خاف الحالين الآخرين ؛ فهذه الأحوال ما يقيم معها عاقل على الإصرار إذا خافها ، فإذا عقل ذلك استعدّ بالتوبة إلى ربه مخافة أن ييغته الموت على ذنبه ، لأن ليس عنده أمان من الموت أن يأتيه بغتة وهو مقيم على ما يسخط الله عز وجل عليه ، فيلقاه وهو غضبان عليه ؛ فليس يقيم على ذلك عاقل إذا خاف معالجة الموت إذ لا أمان عنده منه ، وإذا يخاف فى مجيئه بغتة لقاء الله عز وجل ، وهو عليه غضبان ، فلا يرضى بهذه الحال عاقل مشفق على بدنه من عذاب الله عز وجل .

ألم تسمع قول عبد الرحمن بن يزيد حين قال لرجل وعظه ، فقال له : يا فلان ، هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟
قال : لا .

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال نرضى فيها الموت ؟

فقال : لا ، ما سخت نفسى بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دارٌ فيها مستعجب ؟

قال : لا .

قال : فهل تأمن بغتة الموت ؟

قال : لا .

قال : ما رأيت مثل هذه الحال رضى بها عاقل ؛ وصدق رحمه الله ، وكيف يكون عاقلاً عن الله عز وجل ، من يقيم على ما يغضب الله عز وجل عليه ، ولا يأمن الموت أن يفجأه على غفلة ، ثم لا مرجع له إلى الدنيا ، فيعتب ربه جل وعز ، ويترضى مولاه !! وقد أخبرنا الله عز وجل ، نصيحاً لنا وتحذيراً بندم التاديب عند الموت ، لئلا نكون نحن التاديبين على ما فرطنا ، المسائلين عند الموت المرجع للإنابة والتوبة ، والرجوع عما كره الله عز وجل ، فلا نجاب إلى ذلك ففترك بحسراتنا ، ولا يقبل منا الندم ، فلا يجاب منا النداء .

قال الله عز وجل :

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) .

قال الله عز وجل : (كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ^(١)) .

وفي التفسير عن مجاهد : البرزخ حاجز بين الدنيا والآخرة ، محتبس فيه الميت إلى يوم البعث

والنشور .

فأخبرنا الله عز وجل أنه لا ينفعه سؤال الرجعة ، وأنه محتبس في البرزخ حتى يبعث منه إلى الملكة ، يحضرنا تبارك وتعالى أن نغتر بالدنيا ولا نستعد للقاءه ، فيأتينا الموت بغتة فننادى بالحسرة ، فلا نقال العثرة ولا نتمكن الرجعة ، وينهنا على أن نتوب ما دامت التوبة مقبولة ، والعثرة مقالة ، والدعاء مجاباً ، لنكون للقاءه جلّ وعلا مستعدين ، ولنزول الموت مراقبين .

باب الاستعداد للموت وقصر الأمل

قلت : أخبرني عن الاستعداد ما هو ؟ قال : الاستعداد على وجهين : أحدهما : واجب وهو الذي تأسّف ، عليه النادمون عند الموت ، وهو أن يتوب العبد توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا ، بأن لو قيل له : إنك تموت الساعة ما وَجَدَ عنده ذنبًا يحتاج إلى التوبة منه فيسأل النظرة من أجله ، فإن كان يجد عنده ذنبًا يحتاج إلى التوبة منه فلم يستعدّ للقاء ربه عزّ وجلّ ، لأنه لا يؤامر في إخراج روحه والموت يأتيه بغتة ، فإن جاءه الموت وذلك الذنب عنده لم يأمن أن يغضب الله عزّ وجلّ عليه ، وكيف يكون مستعدًا للقاء الله عزّ وجلّ ، من هو مقيم على ما يغضب الله عزّ وجلّ ، ولا يأمن أن يأتيه الموت أغفل ما كان ، والموت آتية لا محالة ، فللخوف من لقاء الله عزّ وجلّ على ما يكره ، بادر الخائفون بالتوبة قبل أن يسبقهم الموت إلى أرواحهم ، فيحال بينهم وبين التوبة والإنابة إلى ربهم ، ويندموا ندماً لا يُقبل ولا تُقال عثراتهم ، فلذلك بادروا بالتوبة حذرًا وإشفاقًا من بغتة الموت على غرة ، فهذا هو الاستعداد الذي أوجبه الله عزّ وجلّ على خلقه .

والوجه الثاني : من الاستعداد هو نافلة كبذل المجهود من القلب والبدن ، وبذل ما تملك من الدنيا إلا ما كان أولى به حبسه ، حتى لو قيل له إنك تموت غداً ما كان عنده مستراد في عمله . كما روى عن منصور بن زاذان : أنه كان يجتهد اجتهدًا لو قيل له : إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في عمله . فهذا الاستعداد يستحق الله عزّ وجلّ من خلقه أكثر منه لأن حقه لا يؤدى ونعمته لا تكافأ ، وعظمته لا عدل لها ، ولن يبعثك على الاستعداد للموت وقطع التسويف مثل قصر الأمل .

قلت : بم يُنال قصر الأمل ؟ .

قال : بخوف المعالجة ببغته الموت على غفلة ، لأن روح العبد عارية ، لا يدري متى يُرسل المعير له فيأخذ عاريته ؟ فإذا خاف المعالجة انقطع في الدنيا أمله ، وانتظر وبادر فيها أجله وكان مرتقبًا لتزول الموت .

قلت : بم ينال خوف المعالجة ؟

قال : بعظيم المعرفة بإبهام الأجل ، وأن المؤجل لا يناظره ولا يؤامره ، ولا يؤذنه إذا أراد إخراج روحه من بدنه بالاعتبار بالأموات قبله .

قلت : فبِمَ تنال هذه المعرفة وهذه العبرة ؟

قال : بإدمان الذكر والفكر في إبهام الأجل ونزول الموت حين حلوله ، وانقطاع العمر وذكر الأموات الذين أتاهم الموت بغتة .

قلت : كيف إبهام الأجل حتى أتفكر فيه بمعرفة لتعظيم معرفتي بذلك ؟

قال : أما تعلم أن الموت ليس له وقت عند العبد معلوم ، فيُخَافُ في ذلك الوقت ويؤمن في سائر الأوقات ، ليس ينزل بالعباد في الشتاء دون الصيف فيخاف من الشتاء ويؤمن في الصيف ، أو يحل بالعباد في الصيف فيؤمن في الشتاء ، أو في شهر في السنة معلوم فيؤمن في سائرها ، أو بالليل فيؤمن بالنهار ، أو بالنهار فيؤمن بالليل ، أو بالغداة فيؤمن بالعشي ، أو بالعشي فيؤمن بالغداة ، أو في ساعة دون ساعة ؟ وليس له وقت من العمر معلوم فيأخذ أبناء عشرين فيأمنه أبناء دون ذلك ، أو يأخذ أبناء ثلاثين فيأمنه أبناء عشرين ، وليس له علة معلومة دون علة كالحمي أو البطن ، أو الهدم أو الغرق ، أو بعض الأسباب التي يكون فيها التلف ؛ فحق على العاقل العالم بأمر الله عز وجل ، إن كان الموت ليس له وقت معلوم من العمر ، ألا يأمنه في وقت من الأوقات ، وإذا كان ليس لتزوله وقت معلوم من العمر ، ألا يأمنه ألا يأتيه في صغر أو كبر ، أو شباب أو هرم ، وإذا لم تكن له علة معلومة ، ألا يأمنه في صحة ولا سقم ، ولا في حضرة ولا في سفر ولا في مصر ولا في بلد ، ولا في بر ولا في بحر ، فمن ذكر الموت بفراغ قلبه من كل شيء إلا من ذكره ، إذا لا وقت له ولا علة ، ولا عمر معلوم مع ذكره عظيم ما يأتي به الموت من البشري بعذاب الله ، أو برحمة الله عز وجل ، مع الاعتبار بالذين مضوا قبله ، ممن هم فوقه ودونه ، وأشكاله وأمثاله ، عظمت معرفته بالموت وفجأة الموت ، وأنه نازل به كما نزل بمن مضى قبله لا محالة ، فإذا عظمت معرفته بذلك قصر أمله ، فإذا قصر أمله حذر قلبه من الموت ، فإذا حذر قلبه من الموت ارتقب الموت ، فإذا كان للموت مرتقبًا سارع إلى الاستعداد له ، والاستباق إلى الخيرات قبل أن يسبقه إلى روحه مالكتها .

وكذلك يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه قال : من ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ؛ وروى عن علي أيضًا ، أنه قال : إنما يهلك اثنتان : الهوى وطول الأمل ، فأما الهوى فيصعد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة .

وصدق رحمة الله عليه ، ولو أن غائبين عنك ترى أن أحدهما قادم سريعاً في يومك أو ليلتك أو من غدك ؛ والآخر ترى أنه يقدم إلى شهر أو إلى حول ، لاستعددت للذي ترى أنه عليك قادم سريعاً ، إن كان أوصاك بوصية بادرت إلى إنفاذها قبل أن يفجأك بقدمه ، فتلحقك ملامته أو عقوبته ، وتهيئ له مع ذلك البر واللفظ ، وإن كانت إليه منك ذنوب أو إساءة ، أجلت الفكر ورؤيت : كيف تعتذر إليه لتخرج من سخطه أو من ملامته ، أولئلا تنقص منزلتك عنده ؟

ومما يدل على ذلك : ما روى عن كعب بن مالك رضى الله عنه حين خلف غزوة تبوك ، أنه قال : لما قيل : إن النبي ﷺ ، قد أظل قافلاً جعلت أفكر وأستعين على ذلك كل ذي رأى من أهلى ، كيف أعتذر إليه لأخرج من سخطه ؟ وكذلك من غلب على قلبه أن الموت قادم عليه سريعاً ، ثم علم أن الخبر يأتيه يقيناً عند الموت بهلاكه أو نجاته ، بادر إلى أن يرضى الله عز وجل ويعتبه بالاعتذار إليه بما يقبله ، والطهارة لقلبه وبدنه من المعاصي ليلقاه طاهراً ، وقد يفعل ذلك أهل الغائب بغائبهم : تكنس له الدار والبيوت ويتزين له ؛ ليعلم أنهم قد أعظموا قدره وتأهبوا لقدمه ، وكذلك المقصر أمله متطهر مستعد مترين ، ليعلم الله عز وجل أنه قد أعظم قدر لقاء ربه وتزين وتطهر للقائه لئلا يسخط عليه ، وأن يقبله ويرضى عنه .

ومما يهيج العبد على ذكر تخويف مسارعة الموت ، ما أخبرتك من زوال الأوقات التي لا يجوز فيها الأمن له .

وكذلك يروى عن لقمان عليه السلام ، أنه قال لابنه : « يا بني أمر لا تدري متى يلقاك فاستعد له قبل أن يفجأك » .

وكذلك قال بعض الحكماء : كربٌ بيد سواك لا تدري متى يغشاك .
وقال لقمان لابنه : يا بني لا تؤخر التوبة فإن ملك الموت يأتي بغتة .
وقد روى عن بعضهم : أنه بات فلم يزل متلفئاً يميناً وشمالاً حتى أصبح فقيل له في ذلك ، فقال : كنت أنتظر من أى شئ يخبئى ملك الموت .

وقيل للربيع ابن خيثم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحنا ضعفاء مذنبين : نأكل أرزاقنا ونتنظر آجالنا .

وقال رجل لسعيد بن أبي السائب : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أتوقع الموت على غير عُدَّة .

باب ما يهيج على معرفة كراهية الموت وكربه

وأما ما يهيج على معرفة كراهيته وكربه ، وما يتغشاه من هوله : فإن ابن آدم إنما يألم من كل موضع من جسده ، إن أصابته شوكة فما فوقها وجد الألم بروحه ، ولولا ذلك ما وجد ألمًا ، ألا تراه إذا خرج الروحُ منه ، لو حرق بالنار ما وجد لذلك ألمًا ؟ فإذا كان البدن إنما يألم بالروح ، فما ظنك بالروح إذا كان هو المجذوب من كل عرق ومفصل ، وأصل كل شعرة وبشرة ، من أعلاه وأسفله وجميع بدنه .

فلا تسأل عن ألمه وكربه ووجعه ، وقد يروى أن الموت أشدُّ من ضرب السيوف ونشر المناشير وقرص المقاريض ، لأن ضرب السيوف ونشر المناشير إنما يؤلم البدن بالروح ، فإذا كان الروح هو المباشر بالأخذ والجذب ، فذلك أشدُّ ألمًا ووجعًا ، وإنما صار المضروب بالسيف وغيره يستغيث ويصيح ، لأن القوى بعد فيه باقية واللسان مطلق ، وإنما انقطع صوت الميت لأن الكرب قد تبالغ فيه وتساعد ، وغلب على كل موضع ، فهذا كلُّ قوة وكسر كل جراحة ، وتغشى العقل وقُلصُ اللسان وأبكمه ، فإن فضلت فيه فضلة قوة ، سمعت له خوارًا لجذب روحه وأنيبًا وغرغرة بروحه في حلقه ، قد تغَيَّرَ لذلك لونه حتى ظهر منه أصل طبعه الذي منه خلق وعليه طبع فرأيت كالتراب على وجهه ، قد تغيَّرَ لذلك لونه ويجذب كل عرق منه على حياله ، حتى ترتفع الحلقتان إلى أعالي الجفون ، ويقُلصُ اللسان إلى أصله وجفت الشفتان وقُلصتا وارتفعت الأنتيان إلى الخاليتين ، ومن المرأة الثديان حتى لا يبقى إلا أقلهما وجفت الأعصاب وييسر .

فلا تسأل عن بدن مجدل تجذب عروقه وأعضاؤه وبشرته ، ثم يموت عضوًا عضوًا على حياله ، فتخضر أنامله ثم تبرد قدامه ، ثم تبرد ساقاه ، ثم فخذه بسكرات وكرب يتغشاه ، وكرب من بعد كرب ، وسكرة من بعد سكرة مع كل جذبة ، حتى بلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك تنقطع المعرفة عن الدنيا وأهلها ، ويزول عنه قبول التوبة ، حين تحضره الحسرة والندامة . وكذلك يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « تقبل توبته ما لم يغرغر » . وقال مجاهد في قوله عز وجل :

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ^(١)) .

قال : إذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه مَلَكِ الموت .

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكرهه حين تبالغ فيه الكرب . واجتمعت السكرات وبين ذلك ما روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ، في بعض الحديث ، « أن نقرأ من بنى إسرائيل مروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله عز وجل ، أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ، فدعوا الله عز وجل ، فإذا هم برجل خلاسى بين عينيه أثر السجود ، قد خرج من قبر من تلك القبور ، فقال : يا قوم ماذا أردتم مني ؟ !! لقد ذقتُ الموت منذ خمسين عاماً ما سكنت مرارة الموت من قلبي !! » .

وروى مكحول عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن ألم شعرة من شعر الميت وضع على أهل السموات والأرض لامتوا » لأن في كل شعرة الموت ، ولا يقع الموت بشيء إلا مات .

ويروى : لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت .

وقد يروى أن الله عز وجل ، قال لإبراهيم ﷺ ، لما مات : « يا خليلي مُت يا خليلي مت يا خليلي مت ، قال : يا خليلي كيف وجدت الموت ؟ قال : يا خليلي كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب ، قال : أما إنا قد هَوَّناه عليك » .

وروى عن موسى ﷺ ، أنه لما صار روحه إلى الله تبارك وتعالى ، قال له ربُّه : « يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال وجدت نفسي كالعصفور حيث يقلى على المقل : لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير .

ويروى عنه أيضاً أنه قال : « وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب » .

ويروى عن النبي ﷺ : « أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : اللهم هَوِّنْ عَلَيَّ سكرات الموت ، وفاطمة رضی الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه ، وهو يقول : لا كرب على أهلك بعد اليوم » .

وقال عيسى ﷺ : « يا معشر الحواريين : ادعوا الله عز وجل أن يهَوِّنَ عَلَيَّ هذه السكره ، يعنى : الموت ، فلقد خفتُ الموتَ مخافة ، أوقفني خوفي من الموت على الموت » .

وقال عمر بن رزق الله : لولا أني أخاف أن يكون قسماً لا أبره لحلفت ألا أفرح بشيء من الدنيا حتى أعلم ما لي في وحه رسل ربِّي .

فهؤلاء أولياء الله وأحبّاءه لم تزل عنهم سكرات الموت وغمومه مع تهوينه على بعض ، فما ظنك بغموم الموت وكرهه وشدته على المخطئين ، مع ما قد اجتمع عليهم من الحسرة والتندامة والتأسف على ما قد فات ، حتى يبلغ منهم الكرب مداه ، وينتهى منهم منتهاه ؟ فعند ذلك يبدو لهم ملك الموت بصفحة وجهه .

وكذلك يروى في بعض حديث المعراج أنه قال للنبي ﷺ وسأل ملك الموت عن ذلك فقال : أمر أعوانى من الملائكة أن يعالجوا روحه حتى إذا بلغت الحلقوم بدأت لها فتناولتها منه ، فما ظنك بالنظر إلى وجه ملك الموت ، إن كان من أهل الشقاوة والعداوة ، فلا تسأل عن قبحه وكرهه وجهه ، فعند ذلك تحسّ النفس بالبلاء والعطب والمهلك .

وقد روى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن إبراهيم عليه السلام ، كان رجلا غيورًا . وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فأغلقه ذات يوم ، فخرج ثم رجع ، فإذا هو برجل في جوف البيت ، فقال :

من أدخلك دارى ؟

قال : أدخلنيها ربّها .

قال : أنا ربّها .

قال : أدخلنيها من هو أملك بها منى ومالك .

قال : فمن أنت من الملائكة ؟

قال : أنا ملك الموت .

قال : يا ملك الموت ، هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها نفس المؤمن ؟

قال : نعم فأعرض عني ، فأعرض عنه ، ثم التفت فإذا هو بشاب ، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه ، وطيب ريحه ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ذلك ، ثم قال :

يا ملك الموت ، هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها نفس الفاجر ؟

قال : لا تطيق ذلك .

قال : بلى .

قال : فأعرض عني ، فأعرض عنه ، قال : ثم التفت فإذا برجل أسود قائم الشعر ، منتق الرياح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخره لهب النار والدخان ، فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم

أفاق وقد عاد ملك الموت عليه السلام ، لصورته الأخرى ، فقال إبراهيم عليه السلام : يا ملك الموت ، لو لم يلقَ الفاجر عند موته إلا صورة وجهك كان حسبه .

وقال عمر بن رزق الله : لولا أنى أخاف أن يكون قسماً لا أبره لحلفت ألا أفرح بشيء من الدنيا حتى أعلم ما لى فى وجوه رسل ربى .

وروى أبوهريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً ، وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق الأبواب ذات يوم وخرج ، فأشرفت امرأته ، فإذا هى برجل فى الدار ، فقالت : من أدخل هذا الرجل ، لأن جاء داود ليلقين منه عتاً ، فجاء داود فرآه . فقال : داود من أنت ؟ فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا تتمتع منى الحجاب ، قال : فأنت ، والله إذاً ملك الموت ، قال : وزُمِّلَ داود مكانه .

وروى عن عيسى عليه السلام ، أنه مرَّ بمجمعة فضرها برجله ، فقال : تَكَلَّمِي بإذن الله ، قالت : يا روح الله ، أنا مَلِكُ زمان كذا وكذا ، فبينما أنا جالس فى ملكى على تاج وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى ، إذ بدا لى ملك الموت عليه السلام ، فزال عنى كلَّ عضو عن حياله ، ثم خرجت نفسى إليه ، وبالييت ماكان من تلك الجموع : كان فرقة ، وبالييت ماكان من ذلك الأنس كان وحشة ، فما ظنك بصفحة وجه ملك الموت ، إذا بدت وعابنها المُجَدِّلُ للموت ؟ فطرفُ خاوٍ ، وقلبٌ وجلٌ محزون ، من بدن قد برد ، فتستخذى النفسُ وتستسلمُ للخروج ، ثم لا تخرج حتى تسمع نغمة ملك الموت بإحدى البُشُرَيْنِ : أبشريا عدو الله بالنار ، أو أبشريا ولى الله بالجنة ، وإياها يخاف العقلاء من الله عز وجل ، العلماء به .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لم تخرج روح أحدكم حتى يعلم أين مصيره ، وحتى يدري مقعده من الجنة أو النار .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم ، قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالوا : كلنا نكره الموت ، قال : ليس ذلك بذلك ، إن المؤمن إذا فُرجَ له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله عز وجل ، وأحب الله عز وجل لقاءه .

وإن الكافر إذا كشف له عما هو قادم عليه كره لقاء الله والله للقاءه كره .

وروى أن حذيفة بن يمان قال لابن مسعود الأنصارى ، وهو لما به من آخر الليل : قم . فانظر أى ساعة هذه ؟ فقال ابن مسعود ثم جاءه ، فقال : قد طلعت الحمراء : يعنى الزهرة . فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبى هريرة . وهو فى الموت .

فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبو هريرة : اللهم اشد ، ثم بكى أبو هريرة فقال : والله ما أبكى حزناً على الدنيا ، ولا جزعاً من فراقكم ، ولكنى أنتظر إحدى البشريين من ربي عز وجل يحته أو بناره . قال معاذ : لما حضر من الليل أصبحنا ؟ فقيل له : لا ، ثم قال : أصبحنا ؟ فقيل له : لا ، حتى قيل له : نعم ، فقال : أعوذ بالله من صباح إلى النار .

وقيل لعمر بن عبد قيس عند الموت وبكى : ما يبكيك ؟ فقال ما أبكى فراراً من الموت ولا حرصاً على دنياكم ، ولكنى أصبحت في صعود مهبطة ، ثم لا أدري ، إلى أين يهبط بي إلى جنة أم إلى نار !!!

وقيل لجابر بن زيد عند الموت : ما تشتهي ؟ قال : نظرة إلى الحسن ، فلما دخل عليه الحسن ، قيل له : هذا الحسن ، فرفع طرفه إليه ثم قال : الساعة والله ، أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة .

وقال محمد^(١) بن واسع عند الموت : يا إخوتاه عليكم السلام ، إلى النار أو يغفر الله عز وجل ، ولقد تمنى بعضهم أن يتزع نفسه أبداً ، ولا يبعث لثواب ولا عقاب ، ومن ذلك : أنه قيل لعطاء السلمى عند الموت ، وأغمى عليه وأفاق ، وهم يدعون الله عز وجل ، فقال : فيم أنتم ؟ قالوا : كنّا ندعو الله أن يخفف عنك هذه السكره ، فقال : لا تفعلوا فوددت أنها ترد من لهاقي إلى حنجرتي ولا أبعث أبداً للقيامة .

فما ظلتك يا إحدى البشريين ، لو وقعت في سمع المكروب المجدل الحزين ، المرتقب لبشرى الجنة أو بشرى بالنار ، فإن قيل له : أبشر بالنار يا عدو الله ، فيالله من قلب أيقن بالايأس ، من رحمة الله ، وعلم أن ضعفه لن ينجو من عذاب الله ، فعندها تنقطع نفسه حشرات فيسأل الرجوع . فيقول : (رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)^(٢) !!!

هيات خسرت يداه ، وانقطع من الله رجاءه ، وبدا له غير ما كان يحتسب من ربه عز وجل ، ردت عليه ندامته وتوبته ، وحيل بينه وبين الرجوع إلى الدنيا ليعتب من أسخطه ثم لا تسأل ما بعد هذه الأحوال من الحال .

وإن سمع البشرى من الله عز وجل بأنه قد رضى عنه ، وأن له الجنة ، إليها منقلبُهُ ، لا تسأل عن فرح قلبه وسروره ، وتحقيق رجائه وحسن ظنه بربه ، وأمنه على بدنه من العذاب بعد طول عنافته وإشفاقه وكذلك قال الله عز وجل في كتابه :

(١) في رواية أخرى : مجاهد

(٢) ٢٣ - ٩٩ - ١٠٠ .

(تَنْتَرِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ^(١)) .
 فقيل في التفسير : إن ذلك عند الموت : تقول الملائكة : لا تخف ما أمامك من الأهوال ،
 ولا تحزن على ما خلفت ، وأبشر بالجنة التي كنت توعده .

فيا له من قلب ، ما أفرحه حين يسمع البشرى من ملائكة ربه عز وجل !!! هذا يوم راحته
 ولما كان يعمل ، وقد قيل لبعض العباد : علامَ تعمل ؟ قال : على راحة الموت .
 وقد روى عن الحسن ، أنه قال : ليس للمؤمن راحة إلا في لقاء الله عز وجل ، ومن كان
 براحته في لقاء الله عز وجل فقد فاز ، فيوم الموت يوم سروره وفرحه ، وأمنه وعزه وشرفه .
 وقد روى في الحديث عن النبي ﷺ : « أن الله عز وجل ، إذا رضى عن عبد قال : يا ملك
 الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه من نصب الدنيا ، حسبى من عمله ، قد بلوته فوجدته
 حيث أحب ، فيترل ملك الموت معه خمسمائة من الملائكة ، معهم قضبان الرمحان وأصول
 الزعفران ، كل واحد منهم يبشر ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه
 معهم الرمحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ ، قال : فتقول له جنوده :
 مالك يا سيدنا ؟ فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة ؟ أين كنتم عن هذا ؟ قالوا :
 قد جهدنا فكان معصوما » .

وذكر قصة في حديث أسنده الراوى - أنس بن مالك ونعيم الدارى - عن رسول الله ﷺ :
 « إن الله تبارك وتعالى : يقول للملك للموت : انطلق إلى عبدى فأتني به فلا ريمحه ، فإني قد بلوته في
 الضراء والسراء ، فوجدته حيث أحب » .

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ : « أنه كان يأخذ بعضادنى الباب ، ثم يقول : جاء الموت
 بما فيه جاء بالويل وبالخسارة لأهل عداوة الله عز وجل جاء الموت بالغبطة والسرور لأهل ولاية الله
 عز وجل » .

وأما الاعتبار بمن مات من الأشكال والأمثال بمن مضى : فإن ذلك يعظم ذكر الموت في
 القلب ، ويحيي على قصر الأمل ، وقد أخبرنا الله عز وجل ، عن القرون الماضية ، فقال عز
 وجل : (هَلْ تُحِسُّ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا^(٢)) ؟ .

(١) : ٤١ : ٣٠ .

(٢) : ١٩ : ٩٨ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ؛ تسمع لهم صوتاً يخبرك أن الموت قد أهملهم فلا حس ولا صوت .

وقال عز وجل : (يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ^(١)) .
(أفلا يسمعون) .

وروى عن أبي بكر رضى الله عنه ، أنه قال في خطبته : أين الوضأة والحسنة وجوههم ؟ أصبحوا والله تحت التراب !!! وروى عنه أنه قال : أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد تضعض بهم الدهر فأصبحوا تحت الصخور والآكام .
وروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، أنه قال : أين الذين بنوا المدائن ؟ وروى ذلك عن غيرهم .

وإنما أردت بهذه الأحاديث أن يعرف العبد المريد كيف يتفكر في الموت . ليجتلب به قصر الأمل ، أن يبدأ فيذكر فجأة الموت من غير مؤامرة ، وألا سبب له ولا وقت معلوم فيؤمن دونه . كالعمر والوقت والعلّة ، ثم يتفكر في كرب الموت وسكراته ونزعه ، وما أصاب منه أنبياء الله صلوات الله عليهم ، وأحبابه ، والنظر إلى ملك الموت ، ومن معه من رسل ربّه عز وجل ، واستماع إحدى البشريين عند موته ، والاعتبار بمن مضى قبله بذكر موتهم ومصرعهم ؛ ووجدت العبرة أسرع إلى القلب بالأشكال والأمثال والأصحاب ممن سواهم . بأن يذكر العبد مصارعهم تحت التراب ويتوهم صورهم في حياتهم ومقاماتهم ، وكيف محي التراب حسن صورهم ، وكيف بلوا في قبورهم ، وكيف أرموا نساءهم وأيتموأ أولادهم ، وخلت منهم مجالسهم ومساجدهم وانقطعت منهم آثارهم ؛ فيذكرهم رجلا رجلا فيتوهم صورته ، ويذكر نشاطه وتردّده واكتسابه وإنفاقه ، وأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت أو ذكره له ، وموانسته لإياه معه ، وفرحه وضحكته ، وكيف وقعت تلك الأسنان وتقطعت تلك المفاصل ، وذهبت تلك القوة ؟ فيعترضهم رجلا رجلا ، فإذا اجتمع في القلب معرفة فجأة الموت وكربه والنظر إلى صورة الملائكة لقبض روحه ، وعظم خطر إحدى البشريين ، وارتقاب قلبه لإحدى البشريين ، وذكر الإخوان وأحوالهم ، وكيف فنوا وبلوا وخلفوه ومضوا ؛ وأنه لاحق بهم لا محالة ، فها هو عند نفسه إلّا كأحدهم وأن الموت نازل به كما نزل بهم ، كما قال أبو الدرداء : إذا دُكِرَ الموتى فعدّ نفسك

كأحدهم . وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في الموتى » فعند ذلك بعون الله عز وجل يقصر أمله ويرتقب أجله ، ويستعد بالتوبة للقاء ربه عز وجل ، ويعظم الحمد والشكر في قلبه لربه عز وجل ، ألا يكون قلّمه ولم يمهل بعد إخوانه ، فيحال بينه وبين الاتعاظ بهم ، والعبرة والاستعداد لمثل ما نزل بهم ، فتعظم النعمة عنده ألا يكون هو المتخطف ، ويحمد الله عز وجل ، إذ أخره للعبرة والاتعاظ ، ثم يرجو أن يكون ذلك من سعادة سبقت له من ربه عز وجل .

وكذلك يروى عن ابن مسعود رضي الله عنهما ، أنه قال : السعيد من وعظ بغيره .

وروى عن عمر بن عبد العزيز : أنه قال في خطبته . ألا ترون أنكم تتقبلون في أسلاب المالكين ، ويرثها منكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله عز وجل ، تضعونه في صدع من الأرض ثم في بطن صدع ، قد توسد التراب وخلف الأبواب ، وقطع الأسباب موجّه للحساب ، غني عما خلف ، فقير إلى ما قدّم ؛ يخصهم على الفكر والذكر بذلك .

فإذا تفكّر العبد على نحو مما وصفنا قصر أمله واستعدّ للقاء ربه بالتوبة ، فأعطى العزم ألا يعود فيما كره ربه عز وجل .

قلت : قد وصفت لي ذكر الخوف للموت ومطالبة قصر الأمل بإيهام الأجل والعبر بالموت ، وقد كنت أذكر من قبل بعض ذلك ، فلا أجده يُنجم في قلبي ، وإن نجح لم يلبث إلا قليلاً حتى يزول عن قلبي .

قال : إنك تذكره بجملة المعرفة والقلب مشغول بغير ذلك ، فلو ذكرته ذكراً يباشر قلبك أنجم ذلك فبك وهاج منه حريف المعالجة ولزمه قصر الأمل .

قلت : فكيف أذكره ذكراً يباشر قلبي ذكره ؟

قال : أن تفرغ قلبك حين تذكره من ذكر كل شيء إلا من ذكره . فإذا ذكرته كذلك باشر ذلك قلبك ، إذ لا شيء فيه غيره . ولم يلبث أن يتبين ذلك على بدنك وكما وصف الله عز وجل قلب أم موسى عليه السلام . حين فرغ من كل شيء ، إلا من ذكر موسى ﷺ قال : (وأصبح فوؤد أم موسى فارغاً) .

أي من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام .

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ^(١)) ، قَالَ تَقُولُ : ابْتَاهُ .

فَأَخْبَرَ تَعَالَى ، أَنَّ فَوَادَهَا لَمَّا فَرَّغَ مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ ابْنِهَا كَادَتْ أَنْ تَبْدِيهِ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَا تَحَازِرُ وَمَا يُهْلِكُ ، فَكَيْفَ لَا يَظْهَرُ وَيَتَبَيَّنُ عَلَى مَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ لَذِكْرِ الْمَوْتِ وَمَا يَبْدُو مِنْهُ فِيهِ نَجَاتُهُ ، فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ غَلَبَ عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْهَمِّ مَا يَكَادُ أَنْ يَجِدَ طَعْمَ الْمَوْتِ مِنْهُ كَمَا رَوَى عَنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْخَوَارِيزِ ادْعُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، أَنْ يَهَوِّنَ عَلَيَّ هَذِهِ السَّكْرَةَ ، فَلَقَدْ خِفْتُ الْمَوْتَ حَتَّى

أَوْقَفَنِي خَوْفِي مِنَ الْمَوْتِ عَلَى الْمَوْتِ » .

فَمَنْ بَاشَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ قَلْبُهُ انْكَسَرَ عَنِ الدُّنْيَا فَوَادَهُ ، وَقَلَّ سُرُورُهُ وَفَرَحُهُ وَحَسَدُهُ فِيهَا ، كَمَا قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : مَنْ بَاشَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ قَلْبُهُ قَلَّ فَرَحُهُ وَحَسَدُهُ .

كتاب الرياء

باب في صفة الرياء وذكره

قلت : قد وصفت لى مراقبة الله عز وجل وذكره والرعاية لحقوق الله عز وجل ووجوه طلبها ،
والأول من الواجب والفضل فما تخاف على إن قت لذلك ؟
قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرته ويذهب بجلاوته من قلبك .
قلت : ذلك أعظم للحسرة ، أن أتعمى ثم يُحبط ويبطل عملي ، وما ذاك المعنى ؟
قال : فإن المتقى الراعى لحقوق الله عز وجل ، القائم بها يبدل أحواله حتى يظهر للخلق ،
فيظهر منه الصمت بعد طول الخوض فيما لا يعنيه ولا يحل له ، وتظهر منه المجانبة لمن كان يعصى
الله عز وجل معه ، ويظهر من الإنس لمن يسلم معه ومن يستفيد منه الخير ، ويظهر منه الكلام
فما يجب لله عز وجل عليه ، ويتقرب به إليه ، وتسكت جوارحه ويخضع طرفه ، وتعلوه السكينة
والوقار ، فتظهر منه الطاعات ، فعند ذلك تعلم النفس أن ما ظهر منها لعباد الله عز وجل ، لن
يتمتعوا أن يحمدا فعله ويعظموه بذلك ، ويروا له الفضل والقدر ، وتعلم النفس أن ما يظن منه
وأسرّه لو ظهر لحُمِد ذلك منه وفضّل به ، فتطلب النفس الراحة إلى التزّين بالدين بما ظهر
وبما أسرّ أن يكون محمودًا معظّمًا ، ليكون في الدنيا محمودًا معظّمًا ، لأنه لما منعها من كثير من
لذاتها من الدنيا ، فإذا وجدت موضع خلاص في الدين إلى طلب اللذة والراحة نازعته إليه ،
لتصيب من راحة الدنيا بعد منعه لها أكثر لذتها وراحتها ، وهى شهوتها الخفية ولذتها الكامنة ،
لأنها ليست من ظاهر شهواتها ، فعلم العبد - إذا نازعته إليها - أنها قد نازعته إلى شهوتها ولذتها ،
وليس من شهوتها الظاهرة ولا من شهوات مطعمها ومشربها وملبسها ومنكحها التي تنالها
بجوارحها ، ولكن شهوة من باطنها في خير ظاهرها ، فهى خفية في النفوس لأنها ليست بظاهرها
من فضول حلال منفرد به ، ولا شرّ يفرد من الشرّ الذى لا يشوبه الخير ، ولكنها شهوة خفية إذ
صارت ممازجة للخير داخلة فيه فعاملها ظاهر الخير ، فهو مطيع في الظاهر ، يرى أنه لله عز وجل
يعمل ، والنفس قد أبطنت الشهوة ، لتزّين بذلك وتتصنع عند العباد بظاهر الطاعة ، وأنها قريبة
لا يهتم العبد نفسه فيفقددها ، لأن الشهوة تخفى على العبد قصده من أجلها ، فلا يتبين ذلك

إلا بالعلم الدالّ على قصده ما هو ، فكنت وخفيت على العامل إذا لم يستضيء بالعلم كما يروى عن وهب ، أنه قال : كمون الشهوة في القلب ككمون النار في العود : إن قدح أرى وإن ترك خفي ، وقال : الرياء أبيض كذب وأخفاء مكيدة ، يعني أنه يخفى على من غفل ويتبين لمن يتفقد بالعلم ونظر إليه بالمعرفة .

ومن علم شدة حاجته إلى صافي الحسنات غداً في القيامة ، غلب على قلبه حذر الرياء وتصحيح الإخلاص بعمله حتى يوافي يوم القيامة بالخالص المقبول ، إذ علم أنه لا يخلص إلى الله جلّ ثناؤه إلا ما خلس منه ، ولا يقبل يوم القيامة إلا ما كان صافياً لوجهه ، لا تشوبه إرادة بشيء غيره .

ألم تر إلى العباد يتجاوزون بينهم النقد في الورق والذهب ، فيأخذ بعضهم من بعض الدرهم المردود والردىء من النقد في الحضر والأمصار ؟ فإذا أراد أحدهم طريق مكة أو غيرها لم يأخذ من النقد إلا الجيد الصافي لمعرفته أن طريقه يقل فيه العطف من العباد بعضهم على بعض ، والمواساة لشدة سفرهم وبعد شقتهم ، فيخاف أن يأخذ دراهم رديئة أو دنائير مردودة ، فيدلها في أداة من ماء أو قرية من ماء ، أو في زاد أو في كرى يتحمل به فترة عليه ، فيقطع به في موضع الحاجة حيث تقل المواساة ، ويعزّ التعاطف من الناس بعضهم على بعض ، وهو في الحضر يتجاوز الردّ والمردود ، رجاء إن ردّ عليه رده وأبدله ، وإن يرده وجد عوضاً منه من ملك له أو قرض من غيره ، فكذلك من عقل تحاذل العباد في القيامة وتبرّى بعضهم من بعض ، حتى تودّ الوالدة أنه جمل لها على ولدها حتى تأخذ به لشدة حاجتها إلى شيء يثقل به ميزانها وتريد في حسناتها ، ولتعظيم ما عاينت .

فن عقل شدة ذلك اليوم وشدة فقره إلى صافي الحسنات ، خشى أن يأتي يوم القيامة بغدو أو رواح إلى علم أو صلاة أو صيام أو خشوع ، أو حج أو غزو أو كرم على عدو في سبيل الله لم يخلصه فيحبط ، فتصير حسناته أنقص من سيئاته ولو كان أخلصه في الدنيا لرجحت حسناته على سيئاته فدخل الجنة بذلك ، فلما حبط عمله بقيت سيئاته أرجح وحسناته أخف وأنقص ؛ فلا تسأل عن تقطع نفسه حسرات ، فيخاف العاقل ذلك ، فيغلب على عقله حذر الرياء والتصنع للعباد وإرادة الله جلّ ثناؤه وحده لا غيره حتى يتخلص له علمه وعمله .

باب حض العاصي على الإخلاص في عمله

قلت : إن الإخلاص منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين .
قال : إن أهل القوة لأقوَمُ العباد به ، وإن المخلط العاصي لأشد حاجة إلى الإخلاص بتطوعه من المتقي الورع ، لأن المتقي الورع إن حبط جميعُ تنفّله نجا بقيامه بالفرض وانتهائه عن المعاصي ، والمخلط إنما تطوعه يقوم مقام فرضه وورعه .

ألم تسمع قول مجاهد : إنه ليس نافلة إلا للنبي ﷺ لأنه قد غفر له ، ثم قرأ :
(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ^(١)) .

وقال أبو أمامة : إنما كانت النافلة للنبي ﷺ خاصة .

وروى أبو هريرة وتمام الداربي وأنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « يحاسب العبد يوم القيامة فإن نقص فرضه قيل : انظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه » قال تمام في حديثه : « وإن لم يكن له تطوع أخذ بطرفيه وألقى في النار » .

فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة ؛ فإن حبط تطوعه كله أو بعضه عطب : لأنه يعمل في إكمال الفرض وتكفير السيئات ، والمتقي يعمل في علو الدرجات فإن حبط تطوعه بقي من حسناته ما يرجع على السيئات فيدخل الجنة ، والعدو يريد ألا تبقى له حسنة ، والمخلط يوازن بها ، والقوى الورع لما صلحت أحواله وعلم أن الخلق يحمدون من ظهرت منه تلك الأحوال ، ووجد العدو موضعاً للدعاء لما عطل عليه مكائده وغلبه ، إلى أن يدع لذاته لربه عز وجل ، أراد أن يدعوه إلى اعتقاد الرياء ، ليحبط ما كان يدعوه إلى تركه فلم يطمعه ، فيدعوه إلى التصنع بالدين ، ويعظم قدر المنزلة عنده ، حتى يكون عنده أغلب على طبعه من قدر الذهب والفضة ، لأن العبد قد يترك الذهب والفضة ، ويردّها إذا وصل بها ، ليقال : قد ترك وزهد ، لأن النفس من قبل هواها والعدو يدعوان العبد إلى المعاصي .

أما النفس فلاصابة لذتها ، وأما العدو فللحسد والعداوة إرادة هلكة العبد ، فإذا أبى عليها

دعواه إلى ترك التنفل ، وقال : يكفيك الورع ، فإن عصاهما وتنفل دعياه إلى الرياء به ؛ وكذلك يدعوانه وإن لم يتنفل إلى الرياء بورعه ؛ أما النفس فتطلب القدر عند الخلق والتعظيم منهم له ، والعدو للحسد والعداوة له ، فإن أبي أرياه أن ذلك رياء منه ، وأنه لا ينجو من الرياء إذا خطر على قلبه ألا يترك العمل ، فإن أبي إلا المضي على العمل بالإخلاص والكراهية للرياء ، وإنما ادعيا عليه باطلا إذا كان له أياً وله كارهاً ، دعواه إلى المحاوراة والمجادلة : يقولان له : إنك مرء وهو يردد عليهما التكذيب لهما ، وهما يدعيان ذلك عليه ليشغلاه بذلك عما هو فيه ، ليفعله بشغل قلبه عن الآخرة ، أما النفس فلتصيب مع تعبها بعض راحتها عن الفكرة في الآخرة ، وأما العدو فأرادته : أن ينقص العبد من طاعة ربه عز وجل لئلا تكون له كاملة ، بحضور العقل فيها عداوة منه وحسداً ، كما حسد أبويه وعاداهما من قبله .

وقد حذرنا الله عز وجل ذلك ، فقال :

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ (١)) .

وقال عز وجل : (إِنَّهُ عَلَّمَ مَضِلُّ مُبِينٌ (٢)) .

يعنى أنه يبين العداوة . وقال عز وجل : (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ (٣)) .

وقال عز وجل : (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (٤)) .

فأخبرنا الله عز وجل ، أن النفس تأمر بالسوء ، وأن العدو يضل العبد ويصد عن طاعة الله عز

وجل .

باب في شرح الرياء : ما هو ؟ والدليل عليه

قلت : فلا غنى لي عن معرفة الرياء ما هو ؟
قال : أجل لا غنى بك عن معرفته ، وإلا لم تحسن أن تتقى ما لا تعلم ، ولا تحذر ما لا تبصر ؛
وذلك شأن المريدين من قبلك : أن يعلموا ما نهوا عنه ليدعوه على علم ومعرفة ، وبما يدلك على ذلك :

ما روى عن النبي ﷺ « أن رجلا سأله فقال : يا رسول الله فيم النجاة » فقال : ألا تعمل بما أمرك الله به تريد به الناس ، فسأله عن نجاته في أعماله ، فأخبره بترك الرياء .
وقال رجل : « يا رسول الله ، الرجل يقاتل في سبيل الله حمية ، والرجل يقاتل ليرى مكانه »
فسأله عن الرياء إذ أشفق على عمله أن يحبط ، فأراد أن يعرفه الرياء من الإخلاص ، لينفيه على علمه به إذا عرض له .

وقال أبو الدرداء ، رحمه الله : إن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان ، أي متى تأتيه ؟
ومن أين تأتيه ؟ وصدق رحمه الله : إذا فقه العبد عن الله عز وجل أنه لا يقبل إلا ما خلص وصفا
من الأعمال لوجهه دون خلقه ، وأن نفسه وعدوه يدعوانه إلى ما يحبط عمله حذر واستدل بالعلم
فعلم حين تأتيه التزعة من قبل الرياء وغيره .

وعن يونس عن الحسن : لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يُفسد عليه عمله فلا غنى بالعبد
عن معرفة ما أمرنا باتقائه من الرياء وغيره ولا سيما الرياء ، إذ وصف بالخفاء في الحديث أنه أخفى
من ديب البخل ، فإخفى لم يعرف إلا بشدة التفقد ونفاذ البصرة بمعرفة له حين يعرض ، وإلا لم
ينفع التفقد لما لا يعرف ، فبالخوف والحذر يتفقد العبد الرياء ، وبمعرفة يبصره حين يعرض ،
فلا غنى بك عن معرفة الرياء .

قلت : فاهو وما دلّ عليه من العلم ؟ لتقوم بذلك الحجة وينشرح لقبوله الصدر .
قال الرياء : إرادة العبد العباد بطاعة ربه .

قلت : فما الدليل على ذلك ؟
قال : قول الله عز وجل : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّتَهَا) .

إلى قوله عز وجل : (وَحِيطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١)) .
وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان ؛ وروى عن مجاهد في تفسير هذه الآية قالا : هم
المراءون .

وقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ^(٢)) الآية .
قال مجاهد : هم أهل الرياء . ووصف الله عز وجل قلوب المخلصين وأن الرياء إرادة لغير الله
عز وجل فرفضوه الله عز وجل ، فقال :
(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ^(٣)) .
فأخبر الله جل ثناؤه ، أنه من أراد بعمله الحياة الدنيا وزينتها حبط عمله .
والحديث : « إن الله عز وجل ، يقول للملائكة : إِذَا رَفَعْتَ عَمَلَ الْعَبْدِ : إِنْ عَبْدِي هَذَا لَمْ
يَرُدَّنِي بِهِ فَاجْعَلُوهُ فِي سَجِينٍ » ، فأخبرك أنها إرادة الدنيا والزينة عند أهلها ، والآي في ذلك كثير
جلداً .

وَأَمَّا فِي السَّئَةِ : فقول النبي ﷺ ، حين سأله الرجل فقال : يا رسول الله فيم النجاة ؟
فقال : « لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس » .
وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : « من رآه يعمل رآه الله
عز وجل به ، ومن سمع سمع الله عز وجل به » ، وروى عنه أبو هريرة في حديث الثلاثة : المقتول
في سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارئ لكتاب الله عز وجل ، أن الله تبارك وتعالى يقول لكل
واحد منهم : كذبت . بل أردت أن يقال : فلان عالم . ويقول للآخر : بل أردت أن يقال :
فلان شجاع ، وقال للثالث : بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل . قال النبي ﷺ
« فأولئك أول ثلاثة يدخلون النار » . فأخبر النبي ﷺ عن الله عز وجل ، أن رياءهم الذي أحبط
أعمالهم : إرادة الناس بطاعة الله عز وجل ، وأخبر عن قلوب الصادقين المخلصين له عن أعمالهم ،
أنهم قالوا :
(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) .

(١) ١١ - ١٥ - ١٦ ، وتكملة الما قص (بوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يحسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة
إلا النار)

(٢) ٣٥ - ١٠ ، وتكملة الآية . (وسكر أولئك هو يبور)

(٣) ٧٦ - ٩

١٣٣

قال مجاهد في تفسير ذلك : ما قالوه بالسنتهم ؟ ولكن قالوه بقلوبهم ؛ فحكى الله عز وجل عنهم ، ليرغب راعبٌ ، فرضى عنهم إذ نفوا عن قلوبهم إرادةَ حمدِ المخلوقين وإرادةَ مكافآتهم . والحديث في ذلك كثير ، فدلنا بالعلم أن الرياء : إرادة غير الله عز وجل بالطاعة ، فالرياء : إرادة المخلوقين بطاعة الله عز وجل .

باب معرفة أن الرياء على وجهين أحدهما أعظم ، والآخر أهون وكلاهما رياء

قلت : الرياء هذا الوجه وحده أم في غيره من الوجوه ؟

قال : الرياء هو الإرادة وحدها ، إلا أنه على وجهين :

أحدهما أعظم وأشدّ ، والآخر أهون وأيسر وكلاهما رياء ، وإنما الوجه الذى هو أشدّ الرياء وأعظمه ، إرادة العبد العباد بطاعة الله عزّ وجل ، لا يريد الله عز وجل بذلك ، كما قال النبي ﷺ : « ألا تعمل بطاعة الله تريد الناس » ، وكما وصف الثلاثة : أنهم أرادوا الناس ولم يذكر أنهم أرادوا الله عز وجل ، مع إرادتهم لخلقهم وذلك عنده عظيم .

وكذلك يروى عن النبي ﷺ « أن المرأى ينادى يوم القيامة على رهوس الخلائق : يا فاجر - يا غادر . يا مرأى ، ضلّ عمّلك ، وحبط أجرك ، اذهب فخذ أحرّك من كنت تعمل له » . وقال في حديث الثلاثة « أن النبي ﷺ خط على فخذ أبي هريرة وقال : يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله عز وجل ، تسع بهم نار جهنّم يوم القيامة . فذلك أعظم الرياء عند الله عز وجل » .

وروى شداد بن أوس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أخوف ما أخاف على أمتي الرياء » .

وروى عنه أيضاً أنه قال : « رأيت النبي ﷺ يبكى فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : أمرٌ تحوّفه على أمتي : الشرك . أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قرّاً ولا حجراً ولا وثناً . ولكن يراءون بأعمالهم ، فكان أخوف ما أخاف عليهم الرياء » .

وأما الوجه الذى هو أدنى وأيسر : فإرادة العباد بطاعة الله عز وجل . وإرادة ثواب الله عز وجل ، يجتمعان في القلب ، الإرادتان : إرادة المخلوقين وإرادة ثواب الله . وهو أدنى الرياء وهو الشرك بالإرادة في العمل . لأن الأول : أراد الناس ولم يرد الله عز وجل ، وهذا أراد الله عز وجل والناس ، فأشرك في عمله بطلب حمد الله عز وجل . وطلب حمد المخلوقين . وكذلك يروى أبو هريرة عن النبي ﷺ : « إن الله تبارك يقول : أنا أغنى الشركاء عن

الشريك من عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأننا منه برىء وهو للذى أشركه « فأبان بذلك أن من الرياء إرادة الله عز وجل ، وإرادة خلقه .

وقال طاووس : « جاء الرجل إلى النبي ﷺ . فقال : يا رسول الله الرجل يتصدق ويحب أن يُحمد ويؤجر فلم يدر النبي ﷺ ما يقول ، حتى نزلت عليه هذه الآية : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١)) .
فأنزلها الله عز وجل جواباً لقول السائل ، إذ سأل : من أراد الله عز وجل وأراد حمد المخلوقين .

وروى محمود بن لبيد عن النبي ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء . قال : يقول الله عز وجل لهم ، يوم يحازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء .
وروى القسم بن عيمرة أن النبي ﷺ ، قال : « يقول الله تبارك وتعالى : إنه لا يقبل عملاً فيه مثقال خردلة من الرياء » . وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة ، للذين كانوا يراءون بأعمالهم : اذهبوا فانظروا هل تجدون عند من كنتم تعملون له ثواباً » .

وقال عمر رضى الله عنه لمعاذ بن جبل ، ورآه يبكى : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعنى النبي صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : « إن أدنى الرياء : شرك »
والحديث الذى يروى : « يسير الرياء شرك » .
وسأل ابن أبي معيث سعيد بن المسيب فقال : أهدنا بصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر ، فقال له ابن المسيب : تحب أن تمقت ؟ قال : لا ، قال : فإذا عملت لله عز وجل عملاً فأخلصه .

وقال رجل لُعْبادة بن الصامت : أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد وجه الله عز وجل ، ومحمدة المؤمنين ، فقال : لا شىء لك ، فسأله ثلاث مرار ، كل ذلك يردّ عليه لا شىء لك ، ثم قال فى الثالثة : إن الله عز وجل ، يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشريك ، من عمل لى عملاً وأشرك معى شريكاً ودعت نصيبى لشريكى » .

وذكر الله عز وجل ، في قول من رضى عنه من المؤمنين فقال :
(إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَنُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) .
ففنوا عن قلوبهم أن يريدوا مع الله خلقه .
وقال الضحَّاك : لا يقل أحدكم هذا لله ولك ، ولا يقل أحدكم : هذا لله وللرحم ، فإنه
لا شريك له .
وضرب عمر رجلا بالدرّة ، ثم قال : اقتصر منّي . قال : بل أدعه لله ولك . فقال له
عمر : ما صنعت شيئاً ، إما أن تدعها لى فأعرف ذلك . أو تدعها لله وحده . قال : ودعتها لله
وحده ، قال : فنعّم إذاً ، فدلّت هذه الآثار أن أعظم الرياء : إرادة العباد بطاعة الله عز وجل ،
وأن يكون أدناه إرادة المخلوقين وإرادة ثواب الله عز وجل .

باب هيجان الرياء والدواعي إليه

قلت : فمِمَّ يكون الرياء الذى يتشعب منه فى القلب والذى يهيجُه ؟ لأنه لو لم يكن له من قلب العبد أصل يتشعب منه ويهيجُه ، لم يقبل خطرات العدو فى ذلك ، إذ يدعو إلى ما ليس فى قلب العبد له محبة ولا رغبة .

قال : أجل .

قلت : ماهو ؟

قال : ثلاثة عقود فى ضمير النفس : حبّ المحمدة ، وخوف المذمة ، والضعفة فى الدنيا ، والطمع لما فى أيدي الناس .

قلت : ما الدليل على ذلك ؟ قال : ما يحده العبد من نفسه : أنه يحبّ أن يعلم العبادُ بطاعته لربه عز وجل ، فيوصل ويعطى ، ويكرم ويحب أن يحمد : يثنى عليه ويعظم ويكره أن يذمّ فيفعل الطاعة لئلا يذم بقلة الرغبة فيها .

قلت : قد أجد ذلك ، ولكن أردت الدليل عليه من العلم .

قال : الدليل على ذلك : الحديث الذى رواه أبو موسى الأشعرى : « أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل حمية ومعنى ذلك أنه يحمى فيأنف أن يقهر أو يذم بأنه غلب أو غلب قومه فيقاتل لذلك .

قال : « الرجل يقاتل ليرى مكانه » وهذا طلب الحمد بالقلب ومعركة القدر « ورجل يقاتل للذكر » وهذا طلب الحمد بالألسن وقال ابن مسعود رضى الله عنهما : إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فيكتبون الناس على نياتهم : فلان يقاتل للذكر ، ومعنى هذا حمد المخلوقين ، والرجل يقاتل للملك وهذا الطمع فى الدنيا .

وقال عمر رحمة الله عليه : وأخرى تقولونها فى معازيكم : فلان قتل شهيداً ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقاً .

وقال النبي ﷺ : « من غزا لا ينوى إلا عقلاً فله ما نوى » يرويه عنه عبادة .

وقال النبي ﷺ : « من هاجر لدنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه » يرويه عنه عمر رضى

الله عنه ، وقال : « من هاجر ينفى شيئاً من الدنيا فله ما نوى » . وهاجر رجل لتزوّج امرأة يقال لها : أمّ قيس ، فسمّى مهاجر أمّ قيس إذ لم يهاجر إلا لتزوّجه نفسها ، يرويه عنه ابن مسعود . فالذى يبعث على الرياء وقبول خطرات العدو : هذه الثلاث خلال : حبّ المحمّدة وخوف المذمة والفضة ، والطمع للدنيا ولما فى أيدي الناس جميعاً ؛ ويجمع ذلك كله : حبّ المحمّدة ، وخوف المذمة ؛ لأن العبد قد يعلم أنه لا ينال ما عند الناس بطاعة ربّه إلا أن يحمّده عليها ، فتبدل له أموالهم ، وأنه إنما جزع من الدم لحبّه للمحمّدة كراهية أن يزول عنه حمدهم ، فتؤول هذه الثلاث إلى حبّ المحمّدة ، إلا أنها تشعبت وتفرقت على أقدار الناس وقدر مراتبهم .

باب وصف خوف المذمة والطمع لما في أيدي الناس

قلت : فكيف يخاف المذمة ؟

قال : كالرجل ، يحضر العدو فيحضر القتال ، فيقتلهم قوم هم أشجع منه ، فيصبروا في نُحُور العدو ولا يقوى هو على ذلك ، فلا يمكنه طلب الحمد ممن حضر إذا وقف مع العامة في الصفِّ وسأواهم ، وتقدَّم الخاصة في نُحُور عدوهم ، فيأُسُّ أن يقول من معه في الصفِّ ما أشجعه وهو مثله ، وهم يرون من تقلبهم وتقلبه ، فإذا يش من الحمد ، وكان ممن لا يريد أن يقف في الصفِّ جبناً ، أو غير ذلك ، أراد أن ينحاز عن الصفِّ ، خاف أن يقولوا ما أجبته فيحبس نفسه معهم لئلا يولى فيلثموه على الجبين وقلة الرغبة في ثواب الله عزَّ وجلَّ .

وكذلك من تخلف عن الصفِّ الأول في القتال فلم يمكنه طلب الحمد على الشجاعة وأراد الانصراف لقلة رغبته في الأجر ، أو جبن يمنعه من الانصراف أن يُدَمَّ بالجبن ويسمَّى به ، فصار حبسه نفسه في ذلك الموقف خوفاً أن يذمَّ ، ولولا ذلك لانصرف لأنه إذا خاف الهزيمة أو رأى كثرة القتل ، أحبَّ أن يتنحى عن الصفِّ أو يفرَّ من العسكر والسريَّة ، فإذا خاف أن يقال : جبن حبس نفسه على المقام .

وكالرجل يكون مع القوم فيتصدق كل واحد منهم بالدينار والدرهم أو الشيء الكثير ، ولا تسخو نفسه أن يتصدق بمثل ما تصدقوا ، ويكره ألا يتصدق بشيء فيبخل ، فيتصدق بالشيء اليسير لئلا يبخل ؛ وقد يأس أن يحمد إذ فاته القوم بما أعطوا .

أو كرجل يكون معه الرجل يطيل الصلاة بالليل أو بالنهار ، ولا يقوى على صلاة من معه ، ويكره أن يكسله من معه فلا يطعم أن يُحَمَدَ ، إذ فاقوه في الصلاة فصلَّى الركعتين أو الركعات كراهية أن يكسل ، فيجزع من أن ينظر إليه بعين الكسل ولا يجد للمحمدة موضعاً .

وكالرجل يترك بعض ما يحمله من دينه . أن يسأل عنه كراهية أن يقال : هو جاهل بهذا إلى اليوم ، أو يحمله مثل هذا ؛ وقد يحمله خوفُ المذمة على الكذب ، حتى يدعى أنه قد كتب من العلم ما لم يكتب ، وقد يحمله خوفُ المذمة على الكذب على أن يفتى بغير علم ، وقد علم أنه

لا يحسن ما يُسأل عنه ، وأن الواجب عليه أن لا يفتى في ذلك ، وأولى به أن يقول لا أدرى ، فتعجز نفسه أن يذم. يجهل ذلك .

وأشياء كثيرة من هذا الباب ، وكذلك يدع اكتساب الحلال كراهية الذم ؛ وكذلك يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كراهية ذم من يأمره وينهاه .

قلت : فالطمع لما في أيدي الناس كيف هو ؟

قال : يحب أن يراه من يرجو منه البر فيعطيه على عمله فيصله ويبره ، أو يطلع عليه فيفرح باطلاعه ليريه ويصله ، فإن اطلع على ذنبه اغتم له ما لا يغتم باطلاع غيره ممن لا يطمع فيا عنده ، وإن اطلع على طاعته ارتاح قلبه لاطلاعه ما لا يرتاح لاطلاع غيره ممن لا يطمع فيا عنده ، وأشياء كثيرة من ذلك .

وكذلك من يبايعه ، فيرجو أو يبايعه فينسته ويؤجره عليه ويحب حمده أن رآه على خير وارتاح قلبه ، فيحب أن يتصحح عنده بالورع وحفظ المنطق والوفاء بالموعد ، ليثق به ولا يجوز به إلى غيره .

وكذلك الصانع عند من يسلم إليه العمل ، والأجير عند من يستأجره أو يوكله بضيعته أو تجارته أو عمله . يحب الصحة عنده ويرائيه بالورع .

قلت : قد فهمت هذين ، فأما حب المحمدة فهو أبين في النفس وأجلى من أن أحتاج إلى تفسيره لي ، فقد تبين لي أن هذه الثلاث خلال هي التي تهيج الرياء وتبعث على قبول خطرات العدو ، فما الذي كانت هذه الثلاث خلال منه ؟ فإنه لا ينبغي إلا أن يكون لها أصل عنه تشعبت وتفرقت .

قال : أما أصل هذه الثلاث خلال الذي منه تشعبت : معرفة النفس بلذة ما ينال من الحمد والبر وما يدخل عليها من ضرر الذم وغمه ، فلما عظمت المعرفة بذلك بعثت العبد على اعتقاد هذه الحلال الثلاث ؛ لأنه لما عرف أنه إن حمده الناس عظموا قدره ، فيبدأ إذا لقي بالسلام والبشر والإعظام ، والهبة والتوسعة له في المجلس ، والتكرمة له بتشريفه وقبول الشهادة ، وتصديق الحديث وحسن الظن به ، حتى قد يوجه الذنب منه إلى الخير ، فكيف بالخير إذا كان منه ؟ وقبول أمره والانتباه عما نهى عنه ، والرئاسة واستماع الثناء الحسن الذي يلتذ به السمع وتستريح إليه النفس . فهذه معرفة ما ينال من حمم العباد .

وأما الطمع ففرقت : بأن من بره الناس بما يظهر من طاعة ربه أنه يوصل بالأموال ويهدى

إليه الهدايا ، وتقضى به الحوائج ويسارع إلى إقراضه المال ، ويوسع عليه في طلب الدين وما أشبه ذلك .

قلت : فخوف المذمة .

قال : أما خوف المذمة فمعرفة أن من ذمه الناس يُكذَّب صدقُه ، ويُساء به الظنُّ في الخير ، فكيف في الشرِّ؟ تُردُّ عليه شهادته ويردُّ عليه قوله ، ويُقصَى مجلسه ويعرض عنه ، ويُحقى في السلام ويردُّ بغير قضاء حاجة ، ويُستحى من صحبته والتحذير منه إن أشير في أمره في خطبة أو شهادة ، ولا يؤمن على مال ولا حرمة ، وربما وُضِعَ عليه ذنبٌ غيره ويحمل عليه لغيره ، وربما كان مظلوماً ؛ فلما عرف عظيم قدر هذه الخلال في الخير : في الطمع والحمد ، وفي الضرر : في الذم ، اعتقد حبَّ حمدهم وخوفَ مذمتهم ، والطمع لما في أيديهم ، فورثته المعرفةُ بذلك الرغبةَ وغلبت على قلبه ، فهاج دواعي هذه الثلاث الخلال إلى الرياء ، واعترض العلوُّ بالدعاء بالرياء بالعمل والعلم ، لما عرف من عظيم رغبته فيهنَّ .

باب مايكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع

قلت : قد وصفت المعرفة بذلك وصفاً لم تهونها في قلبي ، حتى خشيتُ أن تغلب عليَّ ، بل كنت أجد ذلك قبل أن تصفه لي ، ولكن لم أعرف شرحه حتى شرحت لي ، فما الذي يوهن المعرفة بما يُنال به دفعُ هذه الخلال الثلاث ويصغرُها ويحقرها ، ويدل على عورات سوء عاقبتها ، حتى يزهد العبد فيها ولا يعتقدها ، ولا يكون لها في قلبه قوة ، فتضعف الخلال الثلاث التي تُهيج على الرياء ويُعرض عنها ، ومن أجلها ؟

قال : المعرفةُ بخلتين :

إحداهما : ما يحرم ، وينقص من خوف الله وتوفيقه وإصلاح قلبه في الدنيا ، ومعرفة ما ينقص من ثواب الله عزَّ وجلَّ بذلك في الآخرة ، وخوف مقتته أن يطلع على قلبه وهو معتقد لواحدة منهنَّ .

والخلة الثانية : تحصيل ما ينال من العباد عند تحصيله لذلك ، مع ما ينزل به من الله عزَّ وجلَّ ، فأما الذي يُحرِّم به من الله عزَّ وجلَّ في الدنيا ، وما ينزل به منه إذا اعتقدنَّ ، فإنه يتجَبَّ إلى العباد بالتبَّعُض إلى الله عزَّ وجلَّ ، ويتزيَّن لهم بالشين عند الله عزَّ وجلَّ ، ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عزَّ وجلَّ ، ويتحمَّد إليهم بالتلنم لله عزَّ وجلَّ ، ويطلب رضاهم بالتعرض لسخط الله عزَّ وجلَّ ، ويطلب ولايتهم بالتعرض للعداوة من الله عزَّ وجلَّ ويُحرِّم في الآخرة الثواب ، ويحبط عمله في الدنيا ، ويبطل أجره في يوم فقره وحاجته وفاقته ؛ ولعله يُحبَط من عمله ما لو كان أخلصه في الدنيا ، فجعل مع حسناته فرجحت على السيئات دخل الجنة ، فتكون سيئاته أرجح من حسناته ، ولو أخلص عمله لوضع مع حسناته فدخل الجنة ؛ فيدخل النار إذا لا حسنات له خالصة تجعل مع حسناته ؛ فلا تسأل عن تقطع نفسه بالحسرات والتدامة ، إلا أن يكون أخلصه قبل القيامة إذا رأى موضع منفعة الإخلاص ، وموقف ضرر الرياء ، وإن كانت حسناته راجحة على حال لما عنده من العمل الخالص سوى ذلك فقد خسر بعض حسناته التي تقرب بها من ربه جلَّ وعزَّ ، ويعلو بها في جنته مع سؤال الله عزَّ وجلَّ له وتوفيقه إياه على الرياء والحياء منه أنه قدم في الدنيا في عمله عليه غيره في الهية والمحمدة ، والتقرب والتجَبُّب

للتعرض للتباعد منه والتفت إليه ، وما يناله في الدنيا بإظلام قلبه وخبث نفسه ، وزوال الرجاء عن قلبه ؛ إذ علم بريائه وتشت همومه في طلب حمدهم لا يحصى لأنه كثير عددهم ، لا يحصى من يعامل منهم ، ورضاءهم لا يدرك لأن بعضهم يرضى بما يسخط بعضهم ، فإن فعل ما يرضى بعضهم سخط آخرون ، وإن فعل ما يسخط بعضهم رضى آخرون ، ولأن بعضهم يسىء الظن ويحمده بعضهم على ما يذمه آخرون ، فرضى من يطلب منهم بسخط من يترك منهم ، فقلبه مشتت وهمومه كثيرة لأنه لا يدرك منهم جميعاً ما يطلب .

وأما ما ينال منهم مع تعرضه لهذا البلاء العظيم ، وما يترك به من الله عز وجل في الدنيا والآخرة ، فإنهم لم يزيدوه بحمدهم في أجل ولا رزق ، ولا اجتزاز عافية ولا صرف بلاء ، ولا دفع مكروه مما قدر الله عز وجل .

وأما الطمع لما في أيديهم فإنه لم ينل ما لم يقدر له ، وإن كان نال شيئاً فإنما نال ما قدر له ما لو كان أخلص عبادة ربه لنال ما نال لا محالة ، فأحبط عمله وتعرض لمقت ربه وحرمان ثوابه ، من غير ازدياد في رزق ولا أجل ، ولا اجتزاز منفعة في دين أو دنيا على ما قدر له ، فكيف لا يزهد عاقل فيما يضره في الدنيا والآخرة بغير اجتزاز منفعة في دنياه ؟ .

وأما المذمة فإنه لا ينزل به من البلاء ما لم يقدر له ، ولن يناله من الذم ما لم يقدر ولا يناله من الذم إلا ما لو أخلص لكان ذلك الذم حمداً ، ولعله قدّر أن يلقي كذبه في قلوبهم فينعموه إذ قرمن ذمهم ، ولا يصرف مخافة ذمهم شيئاً من العاقبة والرزق ، ولا يقطع من الأجل ما قدره الرحمن جل وعز ، فحبط عمله من غير دفع مكروه من البلاء ولا زوال محذور من المقدور وما لم يقدر فليس بمصيبه أبداً .

فكيف لا يزهد عاقل ، في هذه الخلال الثلاث إذا عرف ضرهن ، ولا ينال منفعة في دنياه بشيء منهن ، وأن أمر الله مفروغ منه ، وأن هذه الخلال الثلاث خدعة وغرور ، تضر الضرر الأكبر ولا تنفع في شيء من الأشياء ، فإذا عقل العبد هذا كما وصفت له : أنه يحبط عمله وينطل أجره وتشت همومه ، ويتعرض لمقت ربه عز وجل ، ويحجب قلبه عن الخير من عند الله عز وجل ، من غير زيادة منفعة ولا دفع مضرة ، زهد في هذه الخلال الثلاث ولم يعتقدن ، وكيف يعتقدن عاقل وهن يضررن به الضرر الأكبر العظيم ، لغیر منفعة ولا دفع مضرة ؟ ما يكون هذا بعد هذا البيان إلا من الحمقى الجانين ، وربما اتقى بعض الحمقى مثل هذا في دنياهم من الذي يتلف ماله أو يقطع بعض جوارحه ، أو يقتل ولده بغير اجتزاز منفعة ولا دفع مضرة .

وقد روى عن النبي ﷺ ما يبين لك ذلك مع ما أنزل الله عز وجل في كتابه ، أن رجلا ، وهو شاعر بنى تميم ، قال : إن حمدي زين وإن ذمي شين ، قال : كذبت . ذلك : الله عز وجل ؛ فإذا كان لا يزين حمد غير الله عز وجل ، ولا يشين ذم غيره ، واستقر ذلك عند العبد العاقل ، استوى حامده وذامه في طاعة الله عز وجل ، إلا طبع ينازعه قد قعه بعقله وغلبه بعلمه . ومع ذلك لو كان ينفعهم حمدهم ويضرهم ذمهم ، لكان قد جهل طلب الحمد والفرار من الذم ؛ لأنه لا يعلم الناس أنه يريد حمدهم على طاعة ربّه عز وجل ؛ لأن إرادته مغيبة عنهم في قلبه ، أحبّ حمدهم أو لم يحبّه ، فالأمر في الظاهر واحد وليس عند الله عز وجل بواحد ، هو في الظاهر متطهر وفي الباطن نجس فاجر القلب ، قد أضمر في القلب من إرادتهم ما لا يظهر لهم فيحمدوه أو يلعنوه ، ولو أبطن الإخلاص بإرادة الله عز وجل وحده ، لكان الأمر واحدا عندهم ، بل لو اطلعوا على ما في قلبه فعلموا أنه يريد حمدهم على طاعة ربّه ، أو الطمع لما في أيديهم أو خوف ملامتهم ، لمقتوه على ذلك مع ما يتعرض لمقت الله عز وجل أيضا ، ما هو إلا شيء يعتقده في قلبه ولا معنى له إلا البلاء والضرر في الدين والدنيا والآخرة غداً عند الله عز وجل ، فلو كان ينال بحمدهم منفعة وزيتا ، وبنمهم ضررا وشيئا ، كان قد أخطأ طريق طلب الحمد والفرار من الشين . فكيف وليس أحد ينفع حمده إلا الله ، فلا يضر ذمه إلا الله عز وجل ، إذ لا شريك له في ملكه ، ولا مدبر لغير ما أراد في سلطانه .

فهذا الذي يصغر ما تأمل النفس من هذه الخلال ، ويعظم المعرفة بضررها وأن لا منفعة فيها ، فإذا ثبتت هذه المعرفة ورمت القلب الزهد فيها والرفض لها ، فضحفت دواعي الرياء في قلبه حين يعرض من نفسه وعدوه ، فينكسر الطبع ، وينحشئ العدو ويتمكن الإخلاص ويصفو العمل ويظهر القلب ، ويستأهل العبد الإقبال من الله عز وجل عليه ، والمعونة له ، ويجتمع همه فيصير واحداً في معاملته لخالفه ومولاه ، ويستريح من تشلت المهموم في معاملة الخلق ، ويعتق من ذلة الرياء وتضرعه للعباد واهتمامه برضاء واحد ويسخط آخر ، لأنه علم أن معاملة الخلق لا معنى لها ، وأن معاملة الله عز وجل ، فيها خير الدنيا والآخرة .

باب شرح مايرأى به من العمل واللباس وغير ذلك

قلت : قد وهنت هذه الخلالُ عندي ، وتبين حِجَابَهُ من اعتقدهنَّ وَقَلَّةَ عقله وفهمه عن ربِّه جل وعز ، فأخبرني عن المراءى به الذي يُتَرَيَّنُ به من قبل هذه الخلالِ الثلاثِ ما هو؟ من وجه واحد هو؟ أم من وجوه شتى؟

قال المراءى به والمتزيّن به خمسة أشياء : يرائي العبد بيده ، وبزيّته ، وبقوله ، وبعمله ، وبغيره من الصحابة والقراة ، فيرائي بالطاعة بهذه الأشياء الخمسة وكذلك أهل الدنيا : يراءون بالدنيا بهذه الخصال الخمس إلا أن ذلك أيسر من الرياء بالطاعة .
فأما البدن فيرائي به العبد من جهة الدين ، يرائي بالنحول وبالصفار ليتوهوا عليه الاجتهاد والأحزان أو الخوف ، ويرائى بضعف الصوت وغور العينين وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على الصيام .

كما يروى عن أبي هريرة ، ويروى عن عيسى عليه السلام أنه قال : « إذا صام أحدكم فليُكْمَلْ رَأْسَهُ ويرجّل شعره ويكحل عينه » يخاف عليهم أن يراءوا بما يَظْهَرُ من بشرة وجوههم ، الذي يدلّ على صيامهم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنهما : أصبحوا صياماً مدهنين .
وكذلك النحول يدلّ على التقلل من الغذاء ويدلّ على الهمو والأحزان ، وكذلك الصفار يدلّ على الصيام وقيام الليل ، والأحزان والغمو ؛ وفي ذلك التفتت إلى الرحمن عز وجل .
وأما أهل الدنيا : فيراءون بالسمن وصفاء اللون ، وانتصاب الصلب ، وذلك أيسر من الرياء بالدين .

وأما الزيّ : فيرائي العبد بتشعث الرأس ومראה العينين ، وحلق الشارب واستئصال الشعر أو فرقه ؛ يظهر بذلك تتبع زيّ النبي عليه السلام وأثر السجود وخشن اللباس وغلظها ، وتشميرها وقصر الأكمام ، وخصف النعال وحذوها على زيّ أهل الدين ، وترك تهذيب الثوب وجميع التقشف على قدره في العبادة وقدر أصحابه ، لأن القراء في ذلك أصناف : فمنهم من يريد أن يجتمع له الحمد على الدين والدنيا ، فيلبس الثياب الجيّدة ويشمرها ، ويلبس النعال الجيدة ويحذوها على

غير حذو العوام على زى أهل الدين مع جودتها ، والرداء الجيد ولا يفتله أو يفتله إن كان أصحابه لا يفتق^(١) عندهم إلا ذلك ، والأكسية الجيدة التي تجوز عند أهل الدين والدنيا يريد أن يحمده أصحابه ، والقراء والملوك والأغنياء من التجار وغيرهم ، يلبس زى القراء في جودة ثياب الأغنياء ، فقد جمع زى أهل الدين والدنيا ليحظى عند أهل الدين والدنيا .

ومنهم من يجب أن يبجله الملوك والسلاطان والقراء على الدين ، وينفق عند جميع أهل الفرق فيبالغ في الثياب ، والحمار القاره والدابة الفارحة ؛ يريد حمدتهم أجمعين فيدنو من السلطان على جهة الدين ، ويقضى الحوائج لأهل الدين ومجالسهم تصنعاً وتزيئاً .

ومنهم من يتقرب بالطاعة عند أهل الهدى والضلال ، ليقم وجهه عند أهل الحق وأهل الباطل : يلقى هؤلاء بما يحبون ، وهؤلاء بما يحبون ، وهذا شرّ الفِرَق من أهل الرياء والتصنع ، ليتقرب إلى أهل كل طبقة بما يفتق عندهم .

ومنهم من لوجعل له مفروح ما قوى أن يتقبل مما قد ألفه وعرف به من الزى في دينه ، فن يلبس منهم الصوف والثياب الخشنة الدون ، لوقيل : تلبس المروية أو اللينة الجيدة أو الرقاق ، لكان عنده قريباً من الذبح ، كراهية أن يقول الناسُ فتر عن طريقه ، وركن إلى الدنيا بعد نقشه .

ولو قيل لأهل الطبقة الوسطى ممن يلبس الأوسط من المروى ، أن يلبس الثياب الرقاق الجيدة والأكسية الرقاق المرتفعة أو الكنان الرقيق ، لكان عنده قريباً من الذبح ، كراهية أن يقال ركن إلى الدنيا ورغب فيها ؛ وكذلك لو قيل لأهل هذه الطبقة ، أن تلبس الصوف والثياب المخرقة الوسخة شق ذلك عليه ، كراهية أن يحقره أهل الدنيا وينظروا إليه بالازدراء ، يريد ألا يحقر ويريد أن يحمد على زى الصالحين ، ولا يقوى أن يغير ذلك الزى إلى ما هو أرفع منه كراهية أن يُظن به رغبة في الدنيا .

وكذلك أهل الرياء بالثياب الجياد المرتفعة ، فلو قيل لهم أن ينتقلوا إلى الصوف والخشيش من اللباس لما فعلوا ، لتلا يكسلوا عند الملوك وعند السلطان والقضاة وأهل الغناء ، وكذلك لا ينتقلون إلى زى الملوك من لبس المصبغة والقلائس وتقطيع الثياب ، لتلا يكسلوا عند القراء ،

(١) يفتق : بمعنى يروج ويستحسن .

ويذمهم ويقولوا رجعوا عن طريقهم ، وانسلخوا من طريق القراء ؛ كل ذلك إقامة المترلة بالدين عند كل الفرق .

وأما الرياء بالدنيا فتبضع أهل الدنيا عند أمثالهم بالثياب الجياد على غير زى الدين ، من تطويل التقطيع بالطيالة المصبغة والجياد وغير ذلك .

وأما الرياء بالقول : فبالنطق بالحكمة وإقامة الحجة عند المجادلة ، وحفظ الحديث وبيان الحجة والفهم بالعلم ، وإظهار الذكر لله عز وجل باللسان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتضعيف الصوت عند المحاورة ، وحسن الصوت بالقراءة وتخزينه ؛ ليدل بذلك على المخافة ، ويرأى أهل الدنيا بالفصاحة وشدة الحجة في المحاورة في الحقوق وغيرها ، وحسن الصوت وحفظ الأشعار ، وحسن الصوت بالشعر والغناء ، وقوة الصوت والنحو والغريب .

ويرأى المتدين بعمله : يرأى بطول الصلاة ، واعتدال الانتصاب فيها ، والتكبر والتطويل للركوع والسجود ، وشدة الخشوع فيها وتخزين القراءة ، وأخذ اليسرى على اليمنى واصطفاف القدمين ، والتجافى في الركوع والسجود ، ورفع الأيدي للركوع وبعده ، وبالصوم وبالغزو وباللحج وبطول الصمت ، وبذل المال في الواجب والتنفل وإطعام الطعام ، والإحبات في المشى وعند اللقاء ، كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس ، وبالثبوت عند المسألة بالوقار .

ومنهم فرقة في ذلك تريد أن تجمع الدين والدنيا : تمشى مسرعة لحاجتها وتتكلم كذلك ، حتى يطلع عليها بعض أهل الدنيا فتقارب في الخطى ، وتبطئ المشى وتنكس الرأس ؛ فإذا جاوزها عادت لحالها الأولى ، وذلك كالرجل يمشى مسرعاً لحاجته ، أو يكون متلفئاً جالساً وماشياً ، فإذا رمقه بعض أهل الدنيا وأهل الدين ممن يجب أن ينظر إليه بعين الخشوع والسكينة والوقار ، ولا ينظر إليه خفيفاً في مشيته ، ولا لاهياً في تلفته ؛ فإذا رمقه سكن في مشيته ونكس رأسه وقارب خطاه ؛ وكذلك يدع التلفت ويحدث خشوعاً لم يكن عليه من قبل ، فلم يخشع لذكر عظمة الله عز وجل ولا لذكر الآخرة ، ولكن خشوعاً أحدثه لمن يطلع عليه من الخلق .

ويرأى أيضاً بعض أهل الدين لغيرهم من أهل الدين بالعلماء والصحابة ممن هو فوقهم في الطاعات والعلم ، فيسير مع العالم أو العابد ، ليقال : فلان يأتي فلاناً ويمشي معه ، أو ليقال : فلان صاحب فلان ويكثر غشيانه وذكره في كثير من حديثه ليوسم بمحبته .

فقد بينت لك أصول الخلال التي يراءى بها ، إلا أنهم جميعاً مختلفون في ذلك بعضهم دون

بعض .

فمنهم من يريد بذلك أن يعرف الناس له قدره ، ومنهم من يريد مع معرفة القدر أن ينشر لهم
حسن الثناء والحمد ؛ ومنهم من يريد بذلك الرياسة والشهرة في البلدان والثناء والحمد والرحلة
إليه ، ومنهم من يريد بذلك الشهوة عند الملوك والسلاطان والتصنع للشهادات ، ومنهم من يريد
بذلك أن يُطمأنَّ إليه فيحتاز الأموال ويظلم الحقوق ، وهؤلاء شر الفرق .

باب ما ينفي به الرياء

قلت : فبِمَ ينفي الرياء حتى يسلم منه العبد ؟
قال : إنَّ نفي الرياء بمعنيين أحدهما : نفي ما قد قبل من الرياء وركن إليه ، والآخر : نفي العارض بالدعاء ولم يقبله .

قلت : عنها جميعاً أسألك وابدأ بنفي العارض .
قال : العارض لا يخلو أن يكون من العدو أو من النفس من قبل هواها ؛ لأن العدو له ثلاث خطرات بذلك أولها : الرياء بذكر اطلاع الخلق أو علمهم ، أو رجاء اطلاعهم أو علمهم ؛
والثانية : الترغيب في حمدهم أو التحذير من ذمهم ، وقد تجمع الخطرة الواحدة ذكر علمهم والترغيب في حمدهم ؛ والثالثة : الدعاء إلى القبول والعقد لذلك والركون إليه .
فأقوى الناس في النفي : الرادُّ عند الخطأ الأول بتذكير علم الخلق والقنوع بعلم الخالق ،
والذي يليه في القوة : الراد عند الترغيب في الحمد والترهيب من الذم بالرغبة في الثواب والرهبة
من ذمَّ الديان ؛ والثالث : الذي يردُّ حين يدعو إلى القبول بعد هيجان الرغبة والرهبة في الحمد والذم .

قلت : فكيف الردُّ للعارض عند هذه الخطرات الثلاث ؟
قال : ينفي ذلك كله بالمعرفة والكراهة إن اجتماعاً ، وإن افتراقاً لم يتنف الرياء .

قلت : فكيف ذلك ؟
قال : إن كان كارهاً للرياء في جملة عقد قلبه ثم اعترض الدعاء وهو عاقل ، فلم يعرف أن ذلك هو عارض الرياء الذي يحبط العمل قبوله ، فركن إليه واستحلاه ولم يذكر ، فيستعمل الكراهة المتقدمة في جملة عقد قلبه وضميره ؛ لأن الخطرة تأتي بالدعاء إلى الرياء ، بالترغيب في الحمد والنيل من الدنيا ، والترهيب والتحذير من الذم والملامة ، فيملأ حلاوة حب الحمد ورهبة الذم قلبه ، ولا يكون في القلب موضع فراغ يذكر به أن ذلك هو الذي يُحبط عمله كالعبد ينوي أن يحلم إن غضب ولا يكافئ بما يكره الله عز وجل ، فإذا اغتاض ملاً الغيظ قلبه ونسى عزمه ؛ ولم يبق من قلبه موضع فراغ يذكر به ما قدَّم من العزم على الحلم ، فكما يملأ الغيظ قلبه فكذلك

حلاوة الشهوة تملأ قلبه فينسى ذكر ربه جل وعز ، كما روى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على ألا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حُتِن حتى نودى بأصحاب الشجرة فرجعنا » .

وإنما الغيظ مثل ضرته لك ، قياساً على امتلاء القلب بحلاوة الشهوة وحمد المخلوقين ، فينسى العبدُ عزمه والكراهة المتقدمة للرياء في جملة عقد قلبه ، فيركن ولا يبنى ذلك ، وعامة الأعمال الحرام كذلك ، فكذلك الذي عرض له وليس معه ذكر الرياء ، فلما فقد المعرفة ، لما عرض ، زال عن الكراهة الأولى ولم يستعملها ، لأنه إنما قلمها في جملة عقد ضميره يستعملها عند العارض ليحس على ألا يقبله ، فتركها حين احتاج إليها ، وفي الموضع الذي أعدها له ، لأن تلك الكراهة من عزم العبد على الإخلاص ، وترك الرياء قبل العمل ، على أن يخلص ، ولا يراى ، إذا حصل عملاً من طاعة ربه عز وجل ، فقدم الكراهة للرياء قبل العمل ليستعملها عند العمل ، فيضيها بنسيانها للقيام بحق ربه عز وجل في باطنه ، فلما فقد المعرفة نسي الكراهة الأولى ، وقد يذكر ، فيعرف أن الذي عرض عارضٌ وداعٌ إلى ما يحبط عمله ، وأنه الرياء الذي نهى عنه فيغلبه هواه وشهوته ، فلا يردُّ ذلك ، ولا يكرهه لغلبة الهوى وقلة هيجان الخوف ، فإما أن يتشاغل عنه بعد المعرفة ، وإما أن يسوّف التوبة من ذلك ويقبل الرياء ويعمل عليه ، كالرجل يتكلم بالكلام وماله فيه معنى غير المخلوقين ، ويقطن لذلك فيمضي في كلامه ولا ينقيه عن قلبه ، ولا يسكت عن كلامه ؛ وكذلك : يذهب إلى الموضع ما له فيه معنى غير المخلوقين ، يريد حمدهم أو منفعتهم بطاعة ربه ، كالذهاب إلى العلم أو مجلس من مجالس الذكر ، فيعرف ذلك ولا ينهى نفسه ؛ وكذلك في الصلاة : يخطر له الرياء ، فيعرفه فيعمل عليه . وكذلك : إذا عرض له الذهابُ والكلام والعمل قيل أن يدخل فيه ، فخطر الرياء فعرفه بقلبه ودخل في العمل على ذلك ، ولم ينه نفسه عن ذلك ، فالذي لم يعرف حين عرض له فسَخَ كراهته الأولى حين ركن إلى القبول والاعتقاد للرياء ، والذي عَرَفَ ثم لم يكره كانت معرفته عليه حجةً ؛ إذ ذكره الله عز وجل نبيه ووعظه ؛ وعرفه ما عرض له من الرياء الذي يُحبط عمله ، فركن إلى داعي الرياء وقبله بعد علم ومعرفة ، لغلبة هواه والشهوة ، فلم تنفعه المعرفة والكراهة حين افترقا عند عارض الداعي إلى الرياء .

وكذلك : يروى عن الحسن ، قال : لا يزال العبدُ بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله .
فمنهم من يزين له ما هو فيه فيرى أنه مصيب ؛ ومنهم من تغلبه شهوته بعد علم ومعرفة ،

وذلك أنه لما عرض الداعي بما تحب نفسه ولا معرفة ولا ذكر معه قَبِلَ الداعي إلى الرياء فاعتقد الرياء ، ولما عرض له فعرّفه ثم غلبته شهوته فَقَبِلَهُ ، ولم ينفسه بالكراهة له ، فإذا عرض الداعي إلى الرياء فعرّف أنه الرياء ثم كرهه نجما منه .

وفي ذلك آثار فيها دليل وحجة أن الكراهة والإيذاء لقبول ما يعرض من الرياء يتنفي بهما الرياء ، ولا يقدر المريد على أكثر من ذلك ولم يكلفه الله سواه .

ومن ذلك : ما يروى عن النبي ﷺ حين شكّا إليه أصحابه رضى الله عنهم فقالوا : « يا رسول الله يعرض بقلوبنا شيء ، لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الرياح في مكان محقق ، أحب إلينا من أن نتكلم به ، فقال : أوقد وجدتموه ؟ ! ذلك صريح الإيمان » . لا يعنى الوسواس لكن يعنى إيذاءهم وكراهيتهم لقبوله ، حتى اختاروا أن يموتوا وينقطعوا ولا يتكلموا به لكراهتهم له ، فإذا كان الإيذاء والكراهية ينجان من الوسواس في الله عز وجل فهما من الوسواس في الرياء أنجا وأنجا ، لأن ما كان دافعا للكثير العظيم فهو للقليل الصغير أدفع وأنجا ، وإن كان الرياء عظيما فإنه عند الوسواس في الله عز وجل صغير .

وقال أبو حازم : ما كان في نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك هو من عدوك ، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه .

وقال زيد بن أسلم مثل ذلك ، وصدقا ، لأن ما كرهته وأبیته فقد رددته وبقي الشيطان يوسوس ، وإن كان الطبع يتنازع فلا يضرك .

ولذلك يروى عن النبي ﷺ ، في حديث ابن عباس ، رضى الله عنهما ، أنه قال لأصحابه : « الحمد لله الذى ردّه إلى الوسوسة » فإذا عرض الرياء فعرّفه ثم كرهه وأبى أن يقبله نجما منه ، ولابد أن يجتمع مع الكراهة إيذاء لقبوله ، لأن الراكن إلى الرياء قد يكره ما هو مقيم عليه يجب الثقله منه ، والراد للقبول هو الكاره الإيذاء له ؛ لأن الرياء إنما يقبل بخصيتين : بإرادة النفس له والشهوة ، ولابد من صد هاتين ، فتكون الكراهة ضد الشهوة ، ويكون الإيذاء ضد الإرادة فحيثئذ ينجو العبد من داعى الرياء .

قلت : كيف أكره ما أنا له مريد مُشْتَهٍ ؟

قال : إن الله عز وجل ، جعل فيك غرائز : فجعل فيك غريزة تحب ما وافقك وألذك ، وكراهة ما خالفك وآذاك ، وجعل فيك غريزة عقل لحبه ، فقرن مع غريزة الحب للموافق ، والبغض للمخالف الشيطان ، يزين له الدنيا ويشطه عن الآخرة ؛ وقرن مع العقل العلم والكتاب

والسنة ؛ ليزين الآخرة ويكره إليه الدنيا ؛ والعلم للعقل كالسراج للعين ، أو النور من الشمس وغيرها للعين ، فإذا عرضت الخطرة ذكرت النفس معرفتها بما يوافقها من الحمد والثناء ، وما يخالفها من الذم والملامة ، هاج من النفس حب ما يوافقها من الحمد والثناء ، وبغض ما يخالفها من الذم والملامة ، هاجت تلك المعرفة بذلك عند تذكير العدو لها ؛ فإذا كان عبداً عاقلاً ذكر ما يرضى به الله عز وجل ، من الإخلاص وما يسخطه من الرياء ، وأنه يحبط لعمله في يوم فقره وفاقتة ، فهاجت بذلك المعرفة ، لما ذكر نفسه بالعلم الذي جعله الله عز وجل في قلبه ، إذا اتصل بعقله عرف ما تستره ظلمة الجهل من ذكر الآخرة وذكر اطلاع الرب عز وجل ؛ وذلك كالعين تستمد للسراج ، فتعرف ما وارته ظلمة البيت ، فبقى على علم ، وعمل على علم ؛ فإذا كان عبداً حازماً جاهد بعقله وبما أعطاه الله عز وجل من العلم ، ما عرض به العدو وما هاج من شهوة النفس فكره وأبى .

باب معرفة ما ينال به الحذر من الرياء

قلت : قد تبين لي أن المعرفة والكراهة مع الإيذاء إذا اجتمعا انتفى الرياء . وأنه إنما ينال ذلك بنبيه نفسه بعقله بما استودعه الله عز وجل من العلم بضرر عارض الرياء ومنفعة ردّ الرياء عن قلبه في يوم فقره . وقد قلت : إنها إذا افترقا لم ينتف الرياء . فكيف لي باجتماعها ؟ ! ومن أين عزبت المعرفة ؟ وبم ينال حتى لا تذهب المعرفة عن العبد عند عارض الرياء ؟ ومن أين عزبت الكراهة بعد المعرفة فلم يستعملها ؟ وبم ينال استعمالها ؟

قال : أما المعرفة فإنما عزبت من النسيان وزوال الذكر . والذكر إنما عرب لعزوب الحذر والاهتمام . فإذا اهتم وحذر تيقظ وذكر . وإذا ذكر عرف ما عرض من الرياء .

قلت : فبم ينال الاهتمام والحذر ؟

قال : بالعناية .

قلت : فبم ينال العناية ؟

قال : بالمعرفة بقدر منفعة الإخلاص في الدنيا والآخرة من ثواب الله عز وجل في القلب في عاجل الدنيا وثوابه في الآخرة . بالرضا والجنة . وضرر الرياء على القلب مما يورثه القسوة والرين والحبط لعمله غداً في يوم فقره وفاقة والتعرض للمقت من ربه جل وعز . فإذا عظم قدر ذلك في قلبه غنى به . وإذا غنى به اهتم بالقيام بأمر الله عز وجل من الإخلاص . وحذر تضييع أمره فيه بالركون إلى الرياء ، فإذا ألزم الاهتمام والحذر قلبه يقظاه . فإذا تيقظ ذكر فإذا ذكر عرف ؛ ومثل ذلك ، مثل اللص يأتي منزل الرجل ليلاً وهو نائم . فإن استيقظ فعلم به ومعه عدّة لقتاله زجره . فإن أبي شدّ عليه فهرب منه ولم يأخذ من بيته شيئاً ؛ وإن لم يستيقظ حربه وهو لا يشعر . فكذاك العاقل : إذا لم يتيقظ

قلت : فبم عزبت الكراهية بعد المعرفة ؟ وبم تنال ؟

قال : عزبت لأن خاطر الرياء إذا عرض في القلب هاجت سورة شهوة النفس للحمد والثناء والنيل . فغلبت حلاوة ذلك على القلب . فزالت الكراهة ولم تستقرّ مع حلاوة الشهوة . فالذي يطفى ذلك ويبهج الكراهة والإيذاء إذا سارت الفرحة من قبل الطبع . إذا عقل العبد الليب فكرة

من عقله في يوم المعاد ، وَذَكَرَ حَبَطَ عمله وحاجته يوم فقره وفاقته إلى صافي الحسنات . وأنه لا يُقْبَلُ إلا ما خُلِّصَ وصفاً من العمل . وخَوْفَ نفسه مَقَّتَ الله عز وجل . في ساعته تلك أن يطلع على ضميره . وقد قبل ما يكره ربّه عز وجل به فيمقته . وخَوْفَ ما يورث قلبه قبولَ خطرة الرياء من الرين والقسوة ؛ فإذا هاج الفكر بالخوف في عقوبة الله عز وجل . في عاجل الدنيا وآجل الآخرة . إن قبل تلك الخطرة هاجت مرارة العقوبة بالذكر على ما سار في القلب من هيجان الشهوة . فكان بعقله أليماً كارهاً . وعلى هواه وعدوه راداً . فعند ذلك تخلص عمله قلت : أكلُّ العباد يردّ بهذه المجاهدة والمكابدة والتكلف ؟

قال : هكذا في أول بدء المريد . لأن للإخلاص أولاً وآخرًا . فأوله . مع المجاهدة والكابدة لقوة الشهوة وضعف العزم . وقلة العادة للإخلاص وطول العادة للرياء ؛ لأن العبد الضعيف منذ عقل في العبا قبل البلوغ لم يرل في تصنّع للعباد . فإذا أراد فطمَ نفسه عن العادة وكسر قوة شهوته بضعف عزمه وقلة عادته للإخلاص . أبت النفسُ واستصعبت فجاهد وكابد . حتى إذا أدام الرّدُّ على نفسه واعتاد الإخلاص ونفى الرياء . رجع ثوابُ الإخلاص على قلبه من الله عز وجل . بالنور والبصيرة . وانكسرت النفسُ حين طال منه منعها ما تحبّ . ويئس العدو فخنس وانتظر الشهوة والغفلة . وأقبل الله عز وجل عليه بالنصر والمعونة . لما رآه قد صبر له على إدمان المجاهدة لهواه^(١) . فعند ذلك تسكن دواعي الهوى . وما عرض منها عرض بضعف وقلة . وتقوى دواعي القلب ويعظم العزم . فإذا عرض عارض الرياء نفاه سريعاً بغير مكابدة ولا كلفة قلت : فقد تأتى حال فيها محنة شديدة وأسباب مفتنة . فتكثر فيه الخطرات حتى لا يكاد العبد يتخلص منها ، وذلك كالشهوة العظيمة والأمر الكبير من البر الذي لا يصل إليه عامة الخلق . فتكون الوسواس كأنها مشبكة على القلب ، فبِمَ يدفع ذلك ؟

قال : إذا اختبر العبدُ بذلك فليذكر الله عز وجل . وعظيم قدره وصغر قدر المخلوقين في عظيم قدر الله عز وجل . وأن المنافع كلها بيده . وأن القدرة من الخلق على منافعهم عنهم زائلة . ويصغر أقدارهم ، ويذكر اطلاع الله عز وجل . بعد ذكر عظيم قدره . فإنه إذا فعل ذلك تخلّت الخطرات كما تمزق الرياحُ السحابَ عن السماء وكما تكشف الرياحُ الغبارَ عن الصفا

(١) وفي ذلك يقول الله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)

باب معرفة قوة الإخلاص على منازعة النفس عند العارض والنفي له

قلت : إذا كرهتُ العارض ولم أقبله فما الدليل على أن الإخلاص في قلبي أغلب وفيه أكثر من منازعة النفس وإرادتها ؟

قال : ألم تعلم أن المريد لله عزَّ وجلَّ وللعباد قد استوت الإرادتان في قلبه فإذا كره ذلك كانت الإرادة لله عزَّ وجلَّ ومعها الكراهة ، فكأننا معنيين ومنازعة النفس معنى واحداً لذلك [كانا] أكثر وأغلب .

قلت : فالنافون للرياء في مقام واحد من السرعة والإبطاء ومن الفضل والنقص . قال : لا ، هم أربعة نفر : فمنهم من ينفي سريعاً لقوة عزمه . ومنهم من يلبث في المجاهدة . ومنهم من ينفي الخطرة . فإذا رآه العدو كذلك لم يطمع فيما يحبط عمله . وأراد أن ينال منه ما ينقص من صلاته وغيرها في الفضل والكمال ، فأراه أنه إن خاصمه بالرد عليه والمجادلة له كان أصنى للإخلاص وأنجح فيخاصمه ويحاده في النفي . فينقصه : إذ شغله بمخاصمته عن صلاته . لأنه لم يؤمر بمجادلته . إنما أمر بعصيانته فقد عصاه . إذ لم يقبل ما دعاه إليه . وكان جداله إياه لا معنى له أكثر من الشغل عن الصلاة ، أو عن برِّ إن كان فيه . وإشغال قلبه بما لم يتدب إليه . وأما الثاني : فهو الذي يردَّ عليه بالتكذيب من غير حاجة ولا مجادلة .

والثالث : يمضي على ما كان عليه من هيجان الكراهة والإباء . عالماً أن ذلك مجزيه من التكذيب له والمجادلة والمخاصمة له . فيمضي على ما كان عليه . لا يقبل ولا يحدث معنى يشتغل به عما كان فيه .

والرابع : الذي قد علم من قبل أن يعرض له في الدعاء إلى الرياء . أنه إنما يريد أن يزيله عن نعمة ربِّه حسداً له . فلما قدَّم هذا العلم في قلبه ثم عرض له بالدعاء . فإن كان قلبه بالله عزَّ وجلَّ مشغولاً ازداد شغلاً ، وإن كان ساهياً في عمله فزع إلى الذكر والفكر والشغل بالله عزَّ وجلَّ غيظاً له . وازدياد منفعة لعارض الداعي جعله عبرة لذكر ربِّه

وكذلك يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له : إن فلاناً ذكرك قال : والله لأغيظن من

أمره . قيل له . من أمره ؟ قال : الشيطان اللهم اغفر له . إني لأغبطه بأن أطيع الله عز وجل فيه . فإذا رآه العدو كذلك أوشك أن يُقبل خطراته . كراهة أن يزداد به خيراً إذا عرض له بالدعاء إلى الرياء . إذ لم يره يقبل ورداً ولم يرض بالرد . حتى اتخذ الداعي عبدة يزداد به خيراً وذكرًا لرَبِّه وكذلك يروى عن إبراهيم التيمي أنه قال : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم فلا يطيعه ويُحدث عند ذلك خيراً . ثم يدعوه إلى الباب من الإثم فلا يطيعه ويُحدث عند ذلك خيراً . فإذا رآه كذلك تركه . وهكذا يروى عنه أنه قال : إذا رآك الشيطان متردداً طمع فيك . وإذا رآك مداوماً ملَّك وقَلَّك

وإنما مثل النافين في الوحوه الأربعة : مثل رجال أربعة أرادوا مجلس محدث أو ذكر . يخافون أن يفوتهم منه بقدر إبطائهم عنه في طريقهم . أو صلاة في جماعة أو جمعة . فمر أحدهم برجل من أهل الضلالة . فعرض له بالتبُّط والنهي عن الذهاب يريد أن يصدّه . فلما رآه يأبى أن يرجع قبل أن يخادله . فقام عليه يخادله ويخاصمه . والضال يحب طول المجادلة بينها . ليفوته بقدر ما يحسه بخصومته ؛ ومر الثاني عليه فنهاه عن الذهاب إلى الموضع الذي يريد فوقف متبرهاً له راداً عليه . فاعتمها الضالُّ بقدر ما يفوته يحسه بالوقفة عليه ؛ ومر الثالث وهو يمشي ماشياً أوراكباً . فعرض له بالنهي والتبُّط . وقد علم ما لقي أصحابه من الحس فضى ولم يقف ولم يحدث معنى ؛ ومر الرابع وقد علم ما لقي أصحابه من الحس . فلما أحس بصوته إن كان ماشياً سعى ، وإن كان راكباً حرك راحلته بالسرعة ليغيظه وليدرك ما يطلبه تائماً . ولا يكون كأصحابه الذين قبله ، فيوشك إن عادوا عليه . أن يعرض لهم ويدع هذا الرابع . لأنه اتخذ دعاءه عبدة وزيادة في الخير بالسرعة إليه والإعراض عما دعا إليه العدو . وكذلك القوى الكيس من الخُلصين .

قلت : فكيف يكونون قبل الاعتراض بالدعاء ؟ أمنتظرين له بالحذر قل أن يعرض حتى إذا عرض عرفوه ؟ أو يشتغلون عنه بالتوكل على الله عز وجل . والطاعة حتى يكون هو الذي يزحر عدوهم عنهم ؟

قال : قد قال الناس في ذلك أقوالاً كثيرة مختلفة . عامتها علط إلا قولاً واحداً . فأحد ما قالوه : أن فرقة من البصريين قالت : إنما يحتاج إلى الحذر من ذلك الضغفان . فأما الأقوياء . فقد انقطعوا إلى الله عز وجل واشتغلوا بحبه . فليس للشيطان عليهم سبيل . إذ قطعوا حب الدنيا من قلوبهم وأبدلوا قلوبهم إلزام حب الله عز وجل لها . والاشتغال بالسيد وبمناجاته . فقد خمس

الشیطان عنهم وذلل واعتزل كما اعتزل في خاطر الخمر والزنا والقتل من قلوب غيرهم من العابدين .
وقالت فرقة من أهل الشام . إنما يحتاج إلى الحذر من قل يقينه وضعف توكله ، فأما من أيقن
بأن الله عز وجل لا شريك له في تدبيره . ولا يحدث في ملكه ما لا يريد ، وأنه لا يضر ولا يفع
شيء إلا به . وأن الشيطان عبد مخلوق ذليل مهين . لا تنفذ له خطرة ولا مكيدة إلا بإذن الله عز
وجل فيها ، فالعارف بالله عز وجل يرجع إلى الله عز وجل . بالتوكل والاستحياء منه أن يراه يحذر
مخلوقاً دونه . فالحذر لغير الله عز وجل . نقص من اليقين والتوكل . فأولى به الثقة بالله عز وجل
واليقين . لأنه لا ضار ولا نافع غيره . فلا يحذر عدواً ولا غيره .

وقالت فرقة من أهل العلم : كلا الفريقين غلط أما ما قالت الأولى فإن من الاشتغال بالله عز
وجل والحب له حذر ما حذر منه واتباع أمره فيمن أمر بالحذر منه ، لأنه عز وجل ، يقول :
(فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ^(١)) .

وقال عز وجل . للناس كلهم لا يخشى ضعيفاً ولا قوياً :
(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ) .
وقال عز وجل : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ^(٢)) .
فحضر على التحرز منه ومن قبيله والحذر لهم ، ثم قال عز من قائل :
(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ^(٣))
وقال النبي ﷺ : « إنه ليغان على قلبي » هذا وقد أسلم شيطانه فلا يأمره إلا بخير .
ثم قال له ربه عز وجل : (واحذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ^(٤)) .

فلا أحد أشد اشتغالا بربه عز وجل . ولا حباً له من محمد ﷺ . فأمره مع اشتغاله به
له . أن يحذر الخلق أن يفتنوه عن دينه . وقال عز وجل لآدم وحواء وهما في الجنة في دار
والملك التام . لا يجد العدو لها خدعة من خوف فقر ولا نازلة شديدة . ولا منع شهوة ولا ط
بتكلف .

وقد سمع الله عز وجل يقول :
(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) .

وقال عز وجل :

(يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١)) .

فلو كان الله عز وجل يحب الأمن منه لأحد ويزيل الحذر عنه لأجبه لها وأزاله عنها في جنته ، وليس لها فتنة ولا شيء نيا عنه إلا شجرة واحدة فكيف بنا في فتن لا تحصى في القلب والجوارح ، وما لا يحصى من ملاذ الدنيا وشهواتها ؟ فما زال بها حتى أخرجها من جوار ربها !! فن يأمن عدو الله بعدما إذأزالها في الدار التي لم يمتحن فيها إلا بواحدة . فكيف في دار المحن والبلوى والفتن والبلاء ؟ .

وقال موسى عليه السلام : (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) فحذرنا الله عز وجل في غير موضع في كتابه

من الاشتغال به . ومن حبه : اتباع أمره وأن يحذر ما حذر منه . فالأمن منه غرور ، وترك لأمر الله عز وجل . فستوجب من أمته وضيع ما أمره الله عز وجل به من حذر أن يسلطه عليه ، ثم لا يعصمه منه عقوبة لتضييعه أمره ، وكيف يؤمن من لم ينبج منه الأقوياء ؟ فأمان الضعفاء له غرة وخدعة مع تضييع الأمر من المولى جل وعز بالتحذير منه واتخاذ عدواً ، وهو يقول : (عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) بَيْنَ الضَّلَالَةِ (٢) وأمر يحذره وبجاهدته كما أمر يحذر الكافرين وبجاهدتهم .

فقال عز وجل : (خُذُوا حِذْرَكُمْ) .

وأمر نبيه عليه السلام بصلاة الخوف تقوم بها طائفة منهم بعد طائفة لا نعد ذلك من النبي عليه السلام شغلا عن ربه عز وجل ، ولكن اتباعاً لأمره ففعل ذلك طاعة لربه لا اشتغالا بعدو الله . والكفار عدو تراهم الأعين وتسمع أصواتهم الآذان . فإن غفل العبد فأصابته منهم نزغة من ضربة أو طعنة أورمية لم ينك من أجزان عاش ، أو شهادة إن مات ، والشيطان عدو يراك ولا تراه . كما أنكرك عنه ربك عز وجل : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) فهو أجدر أن يظفر بك فلا تظفر به .

قال ابن محيرز في ذلك : صياد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك ، يعنى : إبليس يراك ولا تراه .

وإن غفلت عنه فأصابتك نزغته فعملت فيك لم تعر من إثم أو حبط عمل أو نقص من فضل ؛ وإن مت عليها في قتال في سبيل الله عز وجل أو غير ذلك ، وقد قبلت منه خطرة من

(٢) في رواية : بين العداوة .

(١) ٢٠ : ١١٧ .

الرياء أو غيره مما نهيت عنه . كانت النار ، أوعفو الله عنك . فأى العدوين أولى أن تحترز منه ؟ وأى التزغتين أولى أن تحذر ؟ عدو تراه إن غفلت عنه فأصابتك نزغته لم تخل من أجر أو شهادة ، أو عدو يراك فلا تراه ، وإن أصابتك نزغته لم تخل من إثم أو خسران عمل ، أو موت أو دخول إلى النار أوعفو الله عز وجل العلى الكريم .

فقد تبين غلط الفرقة التي قالت : إن من الاشتغال بالله عز وجل الإعراض عما حذر الله منه طاعة لله عز وجل واتباعاً لأمره . فذلك بين عند من عقل أمر الله عز وجل .

وأما الفرقة الثانية التي قالت : إنه من اليقين والتوكل على الله عز وجل : ألا يحذر عدو الله ، فهذا غلط منها أيضاً لأن أولياء الله عز وجل لم يحذروا العدو باعتقاد منهم أنه يضر أو ينفع دون الله عز وجل ، ولكن طاعة لله عز وجل مع اعتقاد أنه لا تضر خطراته إن عصم الله عز وجل . ولا ينفع حذره إن خذل الله عز وجل . فلا تأل جهداً في الحذر إن حذرك الله عز وجل ، فترك الحذر هو الخذلان . ودوام الحذر هو عصمة من الله عز وجل ؛ لأن الحذر معها دام حجز العبد عن القبول منه . فكيف يكون من يحذره قد نقص توكله وحذره عصمة من الله عز وجل على العبد فيها أعظم النعم ؟ فكيف يكون من خاف ما خوف الله عز وجل تاركاً لأمر الله . وكيف والحذر هو الذي جعله في النجاة من كل ما كره الله عز وجل وإنما يركن العبد إلى ما كره الله عز وجل إذا ترك الحذر مما حذر الله . فالحذر لما حذر الله منه العبد : أن يحذر العبد أن يترك الحذر مما حذر منه . فيكون مضيقاً لأمره . وضد الحذر الأمن والغفلة ، والأمن والغفلة : ترك القيام بما أمر الله . ولكن اتبعوا أمر الله عز وجل بذلك فكان حذرهم اتباعاً لأمره من توفيق الله لهم . لا حذراً لإبليس أنه يضر أو ينفع . ولكن يطيعون ربهم كما أمرهم ، وذلك كما أمر النبي ﷺ بصلاة الخوف ، وأمره أن يأخذ حذره من عدوه هو والمؤمنون فقال عز من قائل :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ (١)) .

وظاهر النبي ﷺ بين درعين . وحمل المؤمنون الترسه ولبسوا ما يحصنهم . وأقام النبي ﷺ من يحرصهم في صلاته . وحفر الخندق فتحصن به شهراً لا ينقصه ذلك ولا المؤمنين من يقينهم ولا توكلهم لعلمهم أنه لا يكون إلا ما قدر ولا يشغلهم عنه ذلك . ولكن اتباعاً لأمره واشتغالا بما أحب وأراد ؛ فكذلك من حذر العدو الذي لا يراه وهو يكيده بأعظم ما يكيده الكفار .

فحذره طاعة من المؤمنين لله عز وجل واتباع لأمره ، وتوكل في ذلك على ربه يؤدّي ما أمر به مع خلع الشيطان من ملك شيء دون ربه عز وجل ويثق بربه ويحسن الظنّ به إذا اتبع أمره بالحذر مما حذر مع اليقين بأنّه لا يضرّ ولا ينفع غيره وأنه يحسن معونته ويقويه على عدوه ويعصمه من فتنه . فليس من اتبع أمر الله عز وجل مع اليقين بناقص التوكل واليقين . ولكن ناقص اليقين من ضيّع أمره إرادة كمال اليقين وهذا قول الفرقة المتبعة لكتاب الله عز وجل والسنة .

باب وصف الحذر من العدو إبليس

قلت : كيف الحذر منه ؟ أم انتظار وتوقع متى يعرض ؟ أم نحذر بغير انتظار له ؟ قال : وقد اختلفت هذه الفرقة التي دانت بحذره اتباعاً لأمر الله ، عز وجل ، فاختلفت هذه الفرقة إلى ثلاث فرق ، كلها غالطة إلا فرقة .

فقال فرقة منهم : إذا أمرنا الله عز وجل ، بمجاهدة من لا نراه ونخوفنا منه ، وأعلمنا أن في ظفره بنا الهلكة ، ولا يكون في قلوبنا شيء أغلبَ عليها ولا ألزمَ لها من حذره ، فنتنظر متى يعرض بفتنته ، لأن الاشتغال عنه يورث النسيان ، والنسيان يورث قبول خطراته بغير معرفة ، وذلك يؤدي إلى الهلكة ، فرأت أن تكون قلوبها منتظرة للشيطان ، متوقعة متى تخطر بخطر فينظروا فيها كراهة أن يخطر على غفلة فيقبلوها فيهلكوا وهم لا يشعرون .

وقالت فرقة : ذلك غلط ، لاشتغالها بانتظار الشيطان ولم تؤمر بذلك ، وذلك إرادة الشيطان منا أن نخلى قلوبنا من ذكر الله عز وجل ، وذكر الآخرة ونعمرها بذكره وارتياب خطراته ، ولكن نلزم قلوبنا ذكر الآخرة وذكر ما يعرض ، فلا نكون قد تعطلنا من ذكر الآخرة ، ولا نكون ناسين لمن أمرنا بحذره كراهة أن يأتي على غفلة فيفسد ما نحن فيه من الذكر ، فكان ذكر الله عز وجل ، وذكر وساوس الشيطان في قلوبهم متعارضين : كلما ذكروا شيئاً من ذكر الآخرة ذكروا العدو شفقاً أن يخطر بفتنته فيزيل قلوبهم عن ذكر الله عز وجل ، أو يركنوا إلى ما يحبط عملهم في يوم عرضهم على ربهم ، جل وعز .

وقالت فرقة وهم أهل العلم وأولى بالحق ، كلتا الفرقتين غالطة : أما الأولى ففرغت قلوبهم من ذكر الآخرة ، وجعلت عبادتها إلزام قلوبها ذكر الشيطان ، فقد أدخلت ذكر الشيطان من القلب ، غلطاً أكثر مما أدخلت ذكر الله ، عز وجل ، في قلوبهم ، وإنما أمرت بالحذر من أن تغفل عن الذكر والعمل ، فإذا ودعت الذكر فقد أصاب العدو ما أراد ، وإن جاءت خطرة إلى قلب فارغ من الذكر يوشك أن يقبلها ، إذ ليس فيه نور من ذكر الآخرة ، ولا قوة اشتغال بالله ، عز وجل ، فأنتم أضعف في الرد وأفرغ قلوباً من الآخرة من غيركم ، ولم تؤمروا بانتظاره ولا بإدامان ذكره .

وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى في بعض معناها إذ جعلت ذكر الله ، عز وجل ، وذكر الشيطان في القلب مستويين ، فكأنما أمرت بذلك : ذكر الله ، عز وجل ، وذكر الشيطان ، والاشتغال بالله عز وجل ، وبالشيطان ، ولم يبلغنا عن أحد من الأقوياء ولا الضعفاء أنه فعل ذلك ولا دان به ، لأن الله عز وجل ، أمر عباده بطاعته ، وندبهم إلى الاشتغال به عن خلقه : إبليس وغيره ، وأمرهم بالحذر منه حين يعرض بفتنته ، فاشتغل أولياء الله عز وجل ، وأهل الخالصة من عباده بذكر ربهم وذكر ما ندب إليه وأحبه ، وألزموا قلوبهم حذرًا ما حذرهم منه ، على غير انتظار له ، ولا اشتغال بذكره ؛ والحذر يلزم القلب من العناية بالنجاة من العدو والخوف من فتنته ، ثم لا يمنع الاشتغال بالله ، عز وجل ، مع ترك ذكر العدو والاشتغال به ، أن يبيح الذكر والتيقظ حين يعرض العدو بخطرته . وإن ذلك لموجود فيما هو أشد من الاشتغال بالله عز وجل : ذهاب العقل بالنوم ، حتى لا يعقل شيئًا من الدنيا ؛ فإن نام والحذر في قلبه من ذهاب النوم يتيقظ في غير وقته الذي كان يستيقظ له من الحذر اللازم لقلبه ، فكذلك المشتغل بذكر ربه الذي لم يذهب عقله أول أن يوقظه ويذكره الحذر من عدوه ، وإن اشتغل بذكر ربه وترك ذكر عدوه والاشتغال به ، لأن المستيقظ من النوم من غير ذكر دائم في قلبه ، وكيف يذكر وهو نائم لا يعقل ولكنه أيقظه الحذر . فكذلك العامل لله ، عز وجل ، المشتغل بذكره اللاهي عن ذكر الشيطان بالاشتغال بربه ، عز وجل ، إذا عرض عارض منه ذكره الحذر في قلبه ، وقواه الذكر على أن يفتن للعارض ، وتحرك للعارض وفرع ، إذ كان فيه عطبه ، والنائم ليس في قلبه ذكر ولا عارض له يوقظه . فإن عرضت خطرة ذكرها وكان أقوى على ردّها ، لأنها تعرض بقلب مشغول بالله عز وجل ، قد غلب عليه نور الاشتغال فأمات منه الهوى ، وقوى منه العقل ، وزجر الجهل ، وجانبه بنور العلم ، فبرّده بأهون الردّ .

ومثل الذي يفرغ قلبه أو بعضه لانتظار خطرة من الشيطان ، مثل من يريد أن ينزف الماء القدر من بئر ، والماء من المجرى إليها واصل ، فهو ينزف والماء إليها يجري ، فيقطع أيامه بالتزف ولم تجف البئر من الماء . ومثل الذي يلزم الاشتغال بالله عز وجل قلبه : مثل من جعل لجراها سكرًا وسدًا : فإذا جاء الماء ردّه بذلك السكر والسد من غير كلفة ولا عناء ، فطهر البئر من السائل من الأقدار ، وقلّ تبعه وكلفته في التزف . وكذلك من اشتغل بالله عز وجل ردّ الحاطر باشتغال قلبه بربه ، عز وجل ، ونوره وقوة غزمه ، بأهون الردّ .

فهذه الفرقة الفرقة للقرآن والسنة والصالحين أتبع ، وعلى ردّ الخطرات أقوى وأبعد من الخدع

١٦٣

والتقص ، فألزموا الحذرَ قلوبهم بغير اشتغال بالعدو ، ولا خافوا المقدرة عنده دون ربهم ، عزَّ وجلَّ ، ولكن طاعة الله وتوكلا عليه واتباعاً لأمره ، ولم يعدوا الاشتغال بربهم ، جلَّ وعزَّ ، والإعراض عن الاشتغال بالشیطان وذكره . فهم في الاشتغال بربهم ، دائبون ، وبالحذر إذا عرض الخطر متيقظون ، وبقوة الاشتغال بالله يسهل عليهم ردُّ الخطر إذا عرض بفتنة ، فسلموا وغنموا ، واتبعوا واستقاموا .

باب الغلط في الحذر من العدو إبليس

قلت : فإذا خطرت خطرة : تحذيراً للرياء ، هل يكون في التحذير غلط ؟

قال : إن أنفع التحذير : ما لم يورث أمناً .

قلت : فكيف يورث التحذير أمناً ؟

قال : يدعوك إلى الحذر من الرياء بترك العمل ، ولما لم تطعه في ترك العمل دعائك إلى الرياء ليحبط عملك ، فلما لم تطعه ولم تجبه إلى ذلك حذرَكَ الرياء بترك العمل ، فقال : إنك مرأء فذعُ العمل ، فردك إلى ما أَرادَكَ عليه من ترك العمل أولاً ؛ فلما لم تجبه إلى تحذيره ورثَكَ أمنه فأَمستَه ، إذ لم تظن أنه إنما أراد أن يحرمكَ ثواب العمل إذ عرض لك بتحذير الضرر ، وأنك تريد بذلك الإخلاص ، فلم تخلص لله ، عزَّ وجلَّ ، شيئاً حين تركت العمل ، لأن الإخلاص : أن تعمل وتحذر الرياء وتنفيه عن عملك ، فيخلص لك عند ربك ، عزَّ وجلَّ ، وليس الإخلاص أن تترك العمل ، فلا يخلص لله عزَّ وجلَّ عملك .

فعلى المريد الإخلاص في عمله ، فإن ترك العمل إرادة الإخلاص فلم يخلص لله عزَّ وجلَّ ، عمله ولكن تركه .

أَرَأَيْتَ لو أن عبداً دفع إليه مولاة حنطة ، فقال : طيبها واجعلها خالصة من الزوان والشعير ، أو فضة فقال له : ألقها في الخلاص ، حتى تكون فضة خالصة من الخبث والغش ؛ فألقى الحنطة والفضة . فقال : أخاف ألا تخلص ، هل كان أخلص لمولاة شيئاً ؟ فقد خدع من قبل الإخلاص بترك استعمال الإخلاص حيث أمر أو ندب إليه ، لأن التخليص غير الإخلاص ، التخليص : التمييز بين الجيد والردى ، والحق والباطل ؛ والإخلاص : أن يكون الحق والجيد خالصاً صافياً من كل ما يشبهه ، فكذلك التخليص في العمل لله ، عزَّ وجلَّ : هونق الخطرات ؛ وترك القبول للرياء ؛ واعتقاد الإخلاص ، فيكون عملاً خالصاً بعد ما ميز من الرياء ، وعزله منه ؛ ونفى الرياء أن يخالطه ، وكذلك الفضة : إنما تكون خالصة إذا خلصت ، فميز الخبيث منها ، وكذلك الحنطة إذا ميز الزوان منها .

وقد يمكن أن يعترض من الشيطان . أيضاً : لو ترك العمل خوف الرياء في الترك فلا ينجيه منه

شيء ، وإن دخل تحت الأرض ، مع ما حرم بترك العمل ، وذلك أنه لو تكلم بخير فعرض له : أن اسكت لثلاث تكون مراثياً فسكت ، لقال : الآن يقولون : إنما سكت لطلب الإخلاص ففرّ ، فإن فرّ عرض له ، أيضاً ، بأن يقولوا : إنما فرّ كراهة الرياء والشهوة ، فلو دخل سراً في الأرض ألزم قلبه حلاوة القرار والحلوة فيه ؛ لعلمه بما يلزم قلوبهم من التعظيم لمن أراد الإخلاص وفرّ طلباً له ؛ فلا ينجيهِ من ذلك إلا المعرفة ، والكراهة ، والإباء له .

وبين الدعوى للباطل والدعوى على حقيقة فرق ، إذا دعاك داعٍ من قلبك : أنك مراءٍ فنظرت ؛ فإذا أنت من قبل عقلك وعلمك كاره أبيّ رادّ ، وإن كان العدو مع ذلك يخطر ، وطبع النفس ينازع ، عرفت أنها دعوى باطل من عدوك : ليصّدك عما أنت فيه ، أو عما عرض لك من البرّ والطاعة ، قبل الدخول فيه . فإن خطر خاطر آخر بذلك ، فرجعت إلى نفسك ، فوجدت قلباً مجتمعاً على ذلك ، متميّناً لحمد المخلوقين ، ولا رادّ من عقلك لهوى نفسك ، علمت أن ذلك تنبيه من الله عزّ وجلّ لك لما اعتقدت من الرياء ، فندمت واستغفرت ، فإن قويت على الإخلاص لله عزّ وجلّ ، عقوبة النفس بلزوم ذلك العمل لله عزّ وجلّ ، بُنية قوية عن غير غلظة : تبين لك ذلك بإجماع القلب أن لو لم يعلموا بذلك لفعلته حياء من الله عزّ وجلّ : إذ سخطت نفسك للمخلوقين بالطاعة لحمدهم ، وأعرضت عن إرادة الله ، عزّ وجلّ ، فإن وجدت من نفسك هذه القوة بعد الندم والاستغفار والنية منك ألا تعود إلى مثل ذلك ، فامض في العمل ، فإن لم تجد ذلك من قلبك قدح العمل إن كان العقد أولاً للمخلوقين ، قدح العمل مع الحياء من الله عزّ وجلّ ، أن تسخو نفسك بالعمل لحمد المخلوقين ، ولا تسخو للعمل لحمد الخالق ، عزّ وجلّ . وإن كان العقد الأول لله ، عزّ وجلّ ، ثم ركنت بعد ذلك ، فأنف ذلك واندم عليه ، وارجع إلى عقدك الأول ، فاعمل عليه مع الحياء من الله عزّ وجلّ ، إذ رآك مستبدلاً بحمده طلب حمد غيره ، حتى كان الخلق يطلعون على ضميرك معه ، بل لو اطلعوا لخشيت مقتهم لما أردت من حمدهم فاستح من الله عزّ وجلّ ، المطلع عليك وعلى إعراض قلبك عنه إلى من لا يملك منفعة ولا دفع مضرة ، ولو اطلعوا على ضميرك لكانوا أهيب عندك منه ، جل وعلا ، فليعظم حياؤك منه ، وإن قدرت أن تزيد في العمل حياء من ربك عزّ وجلّ ، وعقوبة لنفسك ، فافعل ، وإن عرض لك عارض ، وأنت في العمل ، وقد أردت الله ، عزّ وجلّ ، به لا يدعى عليك أنك مراءٍ ، ولكن يحذر كراهة الرياء ، ويقول : اتركه ، لأن تسلم ، فذلك من العدو ومن هوى النفس ، فإن خطر خاطر يحذر كراهة الرياء ، ويأمر بك بأن تتم العمل بالخير ، ليكون سليماً خالصاً ، فذلك واعظ من ربك عزّ وجلّ .

باب منازل الرياء وأوقاته

قلت فأخبرني بأوقات خطرات الرياء ، وتفاوت منازلها بأوقات الرياء وتفاوت منازلها . قال : خطرة تخطر ولا بهمّ بعمل يعتقد فيه الرياء ، ولكن يتمنى أن يقدر على الأعمال ليعظم بها ويحمد عليها : كالغزو والعلم والتفقه ، فيبهر ويعظم ، أو يستقضى أو يوصل ، أو يعطى . وخطرة تخطر له قبل الدخول في العمل يعتقد بها الرياء ، لا يعتقد غيره ، يريد حمد المخلوقين ، لا يذكر عند ذلك ثواباً ولا إخلاصاً .

وخطرة قبل الدخول في العمل ، يعتقد بها الرياء ولا يريد بذلك الأجر مع ذكر الإخلاص ومعرفة الرياء ، متغافل لا ينوى على الإخلاص ، ولا يفزع من الرياء بعد معرفة منه له ، وذكر الإخلاص من غير توجع ولا إكراه له .

وخطرة تعترض ، فتقبلها قبل الدخول في العمل ، فتعتقد الرياء وأنت ذاكر للرياء متوجع منه كركونك إلى الذنب لا تكرهه كراهة إباء وترك لقبوله ، ولكن كراهة من أجل حب العصمة من ذلك كالرجل المصر على الذنب ، يكرهه ويقتم لما يرى من نفسه ، لمعرفته بأن فيه المهلكة ، وهو مقم عليه ؛ فكذلك هذا يريد الرياء ويعتقده ، وهو يجب أن يعصم منه ، قد غلبه هواه ، وعزب عنه خوفه وحذره ، وثقل عليه مجاهدة نفسه ، فهذا أقرب إلى الإقلاع ممن وصفت لك قبله ممن يعرف ولا يتوجع لذلك ولا يقتم له .

وخطرة تدعو إلى الرياء قبل العمل ، مع خطرة تنبيه من الله عز وجل ، وطلب التواب ، فيفقد إرادة الله عز وجل ، وإرادة الخلق معاً : يجب أن يُحمد ويؤجر ، يريد الله عز وجل به . ويريد الخلق على النسيان وزوال المعرفة للرياء .

وكذلك خطرة ثانية يذكر أنها داعية إلى الرياء ، ويعرفها فيعتقد بها بغير توجع ويعتقد إرادة الأجر .

وخطرة أيضاً يذكر الرياء ويعتقدها ، ويعتقد إرادة الله عز وجل ، مع توجع وحب القلة والعصمة .

وخطرة ثالثة بعد العقد لله عز وجل قبل الدخول في العمل ، يعتقد الرياء بعد ذلك الإخلاص ، ثم يدخل العمل على غير ذلك .

وخطرة رابعة بعد الدخول في العمل بإرادة الله عز وجل وحده فيقبل خطرة الرياء ، ويعتقده بعد دخوله في العمل بالإخلاص ، فيرأى بالتزيد في العمل ، كإحداث شدة الخشوع الذي لم ينوه ، ولم يكن يفعله قبل الخطرة ، أو كرفع الصوت في الصلاة ، أو بتحزينه ، أو تحسينه ، أو بطول القراءة زيادة على الآيات التي كان نوى أن يقرأها ، أو بطول الركوع والسجود والاعتدال فيها ؛ وكذلك القيام بعد الركوع وبين السجنتين من التمسك في القيام ، ورفع اليدين وأخذ إحداهما بالأخرى .

وخطرة تعترض بعد الدخول في العمل بالإخلاص : فيعتقد حب حمدهم على ذلك العمل ، ولا يحميه إلى الزيادة بالتحسين له ولا غيره .
وخطرة تعترض بعد الفراغ من العمل ؛ ليحدث به : إرادة حمدهم ، فيحدث بالذي كان منه ليحمد على ذلك .

وقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه : أنه سمع رجلا يقول : قرأت البارحة البقرة ، فقال : ذلك حظك منها .

وروى عن النبي ﷺ : عن الرجل الذي قال : صمت الدهر ، فقال : ما صمت ولا أفطرت . فقال بعضهم : من أجل أنه حدث به . وقال بعضهم : من أجل كراهة صوم الدهر .

وخطرة تدعو مَنْ أبى أن يحدث به إلى حب الحمد فيما ظهر : من نحول الجسم ، أو صفار اللون أو انقطاع الصوت ، أو يبس الشفة ، أو جفوف الريق وخروجه يابساً ، أو آثار الدموع ، أو انغيار العينين ، أو غلبة النعاس بين الخلق ، فيحب ذلك ويسر به رجاء أن يستدلوا به على عمله ، فيحمدوه بالتوهم والظن بما ظهر منه ، وقد يعرض بالحديث دون التصريح : ليفطنوا له : لأن نفسه تجزع أن يظنوا أنه مرأى إذا حدث به ، ويجب أن يعلموا بما كان منه فيحمدوه ، فيحب أن يحمدوه ولا يذمّوه فيعرض به بترك التصريح كراهة أن يظنوا به الرياء ، ويريد أن يفتنوا بالتعريض للمعنى ، فيحمدوه على ما كان يستر عنهم من طاعته لربه عز وجل . وقد يترك التصريح بالكلام ، وتغلبه نفسه على التعريض : إرادة الحمد ، فتلك خطرة تعترض بذلك ، فيقبلها ويعمل عليها .

وقد يأتى الحديث والتعريض والمحبة والسرور بما ظهر من دلائل طاعته من اللون والنحول وغيره ، فيدعوه عند لقائهم إلى محبة التعظيم له لما ظهر لهم من بره ، وإن كان قد مضى خالصاً لربه عز وجل ، فيجب أن يبدعوه بالسلام والبشاشة ، فأعظم إخوانه عنده قدرا : من عظمه على طاعة ربه عز وجل ، وأهونهم عليه من ترك تعظيمه له على ما يعرف منه ويحد ويغضب على من لم يعظمه ويبره ، ويقرب من عظمه ويحله على ما يعلم منه ، فنيته ثابتة لإرادة قيام المنزل عندهم . وتحظر الخطرة عند سؤال الحاجة ، وعند الرد عليه بالتعظيم إذا سلم ، والرخص في المبايعة عند الشرى ، والصفح له عن الثمن ، فيركن إلى ذلك ، ويحب أن يفعل ذلك به ويتقصد ذلك منهم ، ويستثقل من لم يفعل به ذلك ، ويستخف من فعل ذلك به ، ويتعمده في المبايعة وسؤال الحاجة ، لما يعرف من إكرامه له يفرح بذلك ، ويرى أنهم حمقى إن لم يقضوا له حوائجه ، لما يعرفون منه من عمله أوبره أو صلاحه ، فما آمن أن يحبط ذلك أجره .

وقد يروى عن على رضى الله عنه ، أنه قال : إن الله تبارك وتعالى ، يقول للقاء يوم القيامة : ألم يكن يرخص عليكم السعر ؟ ألم تكونوا تبدعون بالسلام ؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج ؟ وفى حديث آخر : لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم .

وروى ابن المبارك عن وهب : أن رجلا من السياح قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان ، فنخاف أن يكون قد دخل علينا الطغيان في أمرنا أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم ، إن أحدنا إذا لقي أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص له لمكان دينه ، فنخاف أن يكون قد دخل علينا الطغيان في أمرنا هذا أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم . فبلغ ذلك ملكهم فركب إليه في الناس ؛ فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح : ما هذا ؟ قيل : هذا الملك قد أظلك . فقال لغلام له : اتبني بطعام ، فأتاه بلبن وجمص . وقال في الحديث الآخر : وزيت ، وقلوب الشجر ، فجعل يحشو شذقيه ويأكل أكلا عنيقا ، فقال الملك أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، قال ، كيف أنت يا فلان ؟ فقال في أحد الحديثين : كالناس ، وقال في الآخر : بخير ، فقال الملك ما عند هذا من خير ، فانصرف عنه . فقال السائح ، الحمد لله الذى صرفك عني وأنت لى ذام . فلم يزل العاملون لله جل وعز يخادعون العباد عن أعمالهم الصالحة ، كما يخادعون العاملون لغيره عن سيئاتهم لإرادة أن تكون أعمالهم الصالحة سرا بينهم وبين ربهم ، جل وعز ، ليجزيهم بها علانية على رموس أهل القيامة .

باب وصف أعظم الرياء وأدناه

قلت : فأخبرني بالمرائين ، ومنازلهم ، في عظم ريائهم ، وشدته ، وأقدارهم فيه ، ومن أعظم الناس رياءً عند الله عز وجل ؟
قال : أعظم المرائين عند الله عز وجل ، رياء : من رأى بالإيمان ، واعتقد التكذيب والشك ، أو الرب ، وكذلك المنافق الذي ذكره الله عز وجل في غير موضع من كتابه ، فقال ، عز من قائل :

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ التَّيَظُّبِ ^(١)) .
وقال : عز وجل : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ^(٢)) الْآيَةُ .
وقال : تعالى : (قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ^(٣)) .

ثم كذبهم : أنه ما ذلك بحق في قلوبهم ، والله ، عز وجل ، يعلم أن ما قالوا حق : أنك رسوله ، وهم كاذبون : ما يعتقدون ذلك في قلوبهم .

وقال تعالى : (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ^(٤)) .
وقال : (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى : يُرَاءُونَ النَّاسَ ^(٥)) الْآيَةُ .
قيل في التفسير إنه لغير الله ، عز وجل .

وقال : تعالى : (قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . إِلَى قَوْلِهِ ^(٦)) يُرَاءُونَ) .
على غير اعتقاد ، ولكن ليظنوا أنه مؤمن بالفرائض ، قائم بها .

(١) ٣ : ١١٩ .

(٢) ٢ : ٢٠٤ ، ٢٠٥ . وتكلم الآية « وهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .

(٣) ٦٣ : ١ .

(٤) ٩ : ٥٤ .

(٥) ٤ : ١٤٢ .

(٦) ١٠٧ : ٤ ، وتكلم ما لم يذكره المؤلف : (الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم) .

قلت : فمن الذى يليهم ؟

قال : الذى يليهم ، وهو أهون من الأول ، وإن كان عند الله عز وجل ، عظيماً : الرجل يرائى بالفرض ، وإن كان معتقداً أن الله عز وجل ، ربُّه ، وأن ذلك عليه مفترض ، كالزكاة : يكون ماله بيد غيره فيقول : زكه : كراهة أن يذمَّه الناس على تركه الزكاة والله يعلم أنه لو خلا له ذلك ما أذى زكاته ، أو يخرج زكاة ماله إن فُطِنَ له أنه لا يزكى ماله مخافة أن يأخذوا ذلك عليه ، والله ، عز وجل ، يعلم منه أنه لو آمن ذمَّ العباد ، أو سقوط عدالته ما زكى ، واتقى على ماله . وكذلك الحج والصيام : يحضر معه في شهر رمضان من يفطن له إن أفطر ، وهو لو أمكنه الإفطار لأفطر ، فمسك عن الطعام ، والقلب يتقلب على خلوة يأكل فيها ، أو يأتي فيها أهله ، أو ما لا يحل له .

ثم الذى يليه لا يزكى ، ولا يصوم ، ولا يحج ، ويكذب بالقول : إني قد زكيت ، وحججت ، وصمت ، لتلا يذمَّ بترك الفرائض ، فأما الصلاة فإنه لا يكبر فيها إلا الله ، عز وجل ، ولا يصلحها إلا له ، وقد يكسل عنها ، فلا يحمله على صلاته إلا الخوف من المنة ، ومع ذلك لا يسجد إلا لله عز وجل ، وقد يكون من الخبيث المتهتك بتركها ، والله يعلم أن لولاهم ما صلاتها وتركها ، فيصلحها من أجلهم ؛ كراهة أن يذمَّه بتركها ، حتى إنه ليصلى على غير وضوء ، لتلا يذمَّه ، ولو قيل له : اسجد لإله دون الله ، عز وجل ، ولك الدنيا ما فعل ، فيصلى خشية الذم لغير تدبير لعبادة أحد دون الله ، عز وجل ، من جهة الربوبية والإلهية ، وقد يرائى بسائر أعماله الفرض التي لو خفيت له ما أداها ، فذلك الرياء بالفرض ، وكذلك يصل رحمه ، ويبرئ والديه ، ولولا من يعلم به ، أو شكايه ذوى رحمه ما فعل ذلك ، ومثل إتيان الجمعة : لولا من حضره ولزمه الذهاب معه ، أو رآه مختلفاً ما ذهب إليها . لحاجة يؤثرها ، أو كسل عنها عن غير جحد ولا شك ، فذلك الرياء بالفرض ، لا على عقد المنافقين على التكذيب والشك في القلب ، ولكن مع اليقين بأنه محرم ، وأن الله عز وجل لا شك فيه ، وأنها عليه مفترضة ، ولكن الكسل والتهاون ، فيظهر أداء الفرائض كراهة الذم وحب الحمد .

قلت : من الذى يليه ؟

قال المرائى بالسنن الواجبة : كإتيان الجماعات ، ولولا من يحضره أو من يتفقده لتركها ، أو ترك بعض الصلوات في بعض الأوقات ، وإن كان قد يأتيها في غير ذلك الوقت لله عز وجل فيأتيها ، ولولا من يحضره أو يتفقده لتركها ، إثارةً لحاجته ، أو كسلاً عنها ، وكذلك إقراء

الضعيف ، ينزل به ، وعيادة المريض الضائع الذى يلزمه تعاوده وإن كان غريباً ، لقول النبي ﷺ : « للمسلم على المسلم سنن » وكذلك اتباع الجنائز ، وغسل الميت إذا لم يقدر على من يغسله كراهية الذم له ، ولولا ذلك ما غسله ولا شهد جنازته .

وفرقه ممن يظهر النسك ترائى بإظهار الورع ، فيطيل الصمت ، ويمسك عن الغيبة ، وينهى عنها ، ويمسك عن الخيانة ، ويؤدى الأمانة ، ويستغفر إذا ظهرت من أحدهم الزلة ، ويظهر الندم والحزن ، ويستحل ممن ظلم ؛ والله عز وجل يعلم منه : أنه لو خلا بذلك لما فعله ، وقد يخلو بذلك أو ببعضه ، فيدع الورع فيه ، وإنما يفعل ذلك ، لقبول الشهادة منه ، أو لطلب دنيا ، أو لطلب حسن الثناء ، أو خوفاً من مذمة .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرائى بلا كمال الفرائض التى إذا تركها كان حرجاً أو منقوصاً فى فرضه ، كالذى يريد تخفيف الركوع والسجود ، وخفة الصلاة التى تجب عليه الإعادة أو التقصان بها ، كخفة الركوع والسجود ، وخفة الانتصاب بين السجدين ، وبعد رفعه رأسه من الركوع ، فإن خلا له الموضع خفف صلاته ، وإن رآه الناس أتمها كراهية مذمتهم .

وقد روى عن عبد الله وقد أسند عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى صلاة حيث يراه الناس فأتىها وأكملها ، فإذا خلا خففها . فذلك استهانة يستهين بها ربّه عز وجل » وقال فى حديث آخر : « يستهين بها نفسه » وعن حذيفة أيضاً مثل ذلك .

وكذلك يؤدى الزكاة : الدراهم الرديئة ، والتمر الرديء ، والحب الرديء فيدع ذلك مخافة ملامة الناس ، كما قال الله ، عز وجل : (وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْتَ مِنْهُ تَتَفَقُونَ ^(١)) .

فروى عن عبيدة قال : الدرهم الزائف وأشباهه ، وقال مجاهد وعطاء : كانوا يعلقون الأعذاق من التمر الرديء فى مسجد النبي ﷺ للصلقة . فنهاهم عن ذلك فقال : ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ؛ قال : يقول : لو كان لك على غيرك دين ما أخذته منه إلا أن تغمض له فتأخذه على رداءته ، قال مجاهد : يقول : لا تأخذونه فى سوقكم ، فى بيوعكم ولا فى غريمكم ، إلا بزيادة على الطيب . وقال عمران بن حصين : لو وجدتموه فى السوق ما أخذتموه حتى ينقص من ثمنه .

وكذلك يصوم فيصمت عن الغيبة عند من يحفظها عليه ويعد ذلك منه تهاوناً بصومه .
وكذلك النظر ، والكذب وغيره .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرائى بإكمال الفريضة بما لو تركه لم يكن حرجاً ولا منقوصاً : كالمبادرة إلى التكبير الأولى ، ورفع اليدين وأخذ الشمال باليمين ، وشدة تنكيس الرأس والسكون والخشوع ، والاعتدال ، والتطويل فى الركوع والسجود . والقراءة بعد أداء ما يحزى عنه من ذلك ، يعلم الله عز وجل أنه لو خلا ما طابت نفسه أن يقصر عما لا يحزىه غيره ، ولما زاد على ذلك ، فإذا رآه الخلق حسن وعمل وتبع الاتباع فيها ، من الرفع وغيره ، وكثرة الخطوة فى شهر رمضان ، وطول صمت يريد بذلك أن يحمّد بشدة التحرز للفرض ، وكذلك فى زكاته ، وكفارته ، ونذره ، وبره والديه ، وصلة الرحم ؛ يتخير الجيد الذى ليس عليه من الدراهم ، والطعام ، وعق الرقبة الغالية ، وإعطاء الطعام الجيد ، إرادة الحمد بأنه يؤثر الله عز وجل ، على نفسه ، ويأين بذلك العوام فى أداء فرضهم ؛ ويؤدّيها بأتم الأشياء وأكملها ؛ وكذلك فى حجه من شدة الصمت ، وشدة التوقى عند من يحضر ذلك منه ، وحسن المرافقة لرفيقه ، وشدة الإخبات فى حجه ، ولو خلا لأدى ما يحزى من ذلك فقط ، ولم يزد على ذلك وغلب عليه الورع من تضييع الفرض ، ولم يتورّع من إكماله ، من الأمر الذى يحزىه لو تركه .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرائى بالتزئد فى السنن الواجبة : كالمبادرة فى إتيان الجماعة فى أول أهل المسجد ، والصف الأول ، وطلب أن يلى الإمام ، فيكون قبائلته ، ولو خلا لما بالى أين قام ، لما عرف به من الفضل أن يرى فى حال الصلاة منقوصاً من الفضل عند من يعرفه بالمسابقة إلى الفضل . وكذلك فى إكرام الضيف فوق ما يحزى ، بعد ما أدى ما يجب عليه ، ليثنى عليه .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرائى بالطاعة النافلة . وقد يظهر ، أيضاً ، التورّع والتقوى مع تصعّبه بالنافلة ، يريد بذلك أن يختال فى المعصية ؛ فهو ، وإن كان أسوأ حالا من كثير ممن ذكرنا قبله ، فإنه إنما رآى بالتطوع ، وإن كان أعظم منه بلية بطلبه المعصية ؛ لأن ذلك عظيم : أن يجعل طاعة الله عز وجل ، سلماً وبضاعة ينال بها معاصيه ، كالرجل يريد الوصية ليختانها ، أو أخذه مالا يتصدق به على المساكين أن يختاته ، أو طلب امرأة يريد لها للفجور ، أو غلاماً يريد له لذلك ؛ وذلك على

قسمين من الناس : أما طلب الفجور وغيره من أهل الفسوق ؛ وأما اختياره الوصية والمال يجعل للمساكين ، والوديعة يريد أن يختارها ، وأخذ المال للغزو والحج يختانه ، فذلك كثير ممن يظهر القراءة ، وقد يظهر القراءة أيضاً ؛ بعض الفجار ، فيطلب الغلمان والنساء بالطاعة فيظهر لبس الصوف والخشوع وكثرة الذكر وطلب العلم والجلوس مع أهل الدين وإتيان مجالس الذكر ، وغير ذلك من البر ليؤمن ويوصى إليه ، أو يعطى مالا للمساكين وللوديعة يريد أن يختانها ، ويعطى ما يغزو به أو يعطيه لمن يغزو به ؛ وكذلك من يحج ، وكذلك من يتجر : يظهر التزُّين بالخشوع والذكر وغير ذلك ؛ لئلا يتهم في الطلب فلا يمكنه الظفر ؛ أو ليطمئن إليه المرأة والغلام لما يظهر من البر والدين .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرأى بالنوافل ، وقد يُظهر أيضاً التورّع مع تصنّعه بالتطوع لمعصية هو مقيم عليها ، مخافة أن يظن له ، فإن اختان مالا فادّعى عليه ، أو اغتصب مالا فأتهم به ، أظهر الخشوع والدين والنسك ، لأن يبرأ في القلوب ويظنّ به البراءة مما يدعى عليه ، أو مما يرمى به ، أو يُظنّ به ، وكذلك إن كان مقيماً على فجور : يستره بالنوافل والتورّع وإظهار الطاعات والبر لئلا تقع عليه التهم فلا يُصلّق عليه إن قيل فيه أو اتهم بذلك .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرأى بالتطوع لينال بذلك الدنيا : كالمراة يريد لها حلالاً ، أو يرغب في التزويج ، فيظهر الحزن والبكاء والقصص^(١) والعمل الصالح وتذكير الناس ، ليرغب فيه فيزوج ، كما يفعل كثير من القصاص ؛ وكما يروى عن الأعرابي الذى هاجر لتزوّجه أمّ قيس نفسها .

قلت : من الذى يليه ؟

قال : المرأى بالنوافل تكلفاً إذا اطلع على بعض ما يتقصه في الدين عندهم ، أو خاف أن يُظنّ به أنه لا يريد الله عزّ وجلّ بذلك يخاف أن تزول منزلته ، وتغيّر حاله في القلوب التى كانت فيها ، كالرجل يمشى مستعجلاً أو يطلع عليه متلفئاً ، فإن لقي لاهياً أو اطلع عليه سكن في مشيته وخشع وغضّ طرفه وخفض صوته وأرخى جفونه ، لئلا ينظر إليه بعين السهو واللهو ، وذلك رياء من يظنّ أنه من الخاصة من القراء ، لئلا يُنظر إليه بالنقص ، ولذلك إن اطلع على نقص فيه من

(١) يقصد بالقصص : الوعظ .

ضحك أو مزاح استغفر وتنفس وتحزن كراهية أن يقال : لاهي ؛ وألا ينظر إليه بعين الحزن والخوف ، فيستغفر مما ليس بذنب ، ويظهر الحزن والتنفس والتندم مما يريد به الله عز وجل ولقد علم أن الله عز وجل لا يعذب على ذلك ، وما ذلك بذنب يُستغفر منه ، ولكن لكيلا تغير منزلته من قلوبهم ، ولا يظن به إلا الحزن والانكسار ، فيجزع مما كان منه لسقوط المترلة عندهم ، أو يتكلف إظهار الحزن والاستغفار والخشوع لغير الله عز وجل .

قلت : من الذي يليه ؟

قال : المرأى بالعمل لا يريد إلا الخلق تكلفاً من أجل حمدهم ، كالمصلّي وحده يرى المصلين ، فيخاف أن يقال : كسلان ، أو لا يحمد على الصلاة ، أو يبيت مع القوم ، فيقومون فيقوم كراهة أن يظن به أنه ممن ليس يقوم بالليل ويُعرف بذلك ، أو ينامون فيقوم فيصلي ، لئلا يرى أنه فوقهم وأنه من القوامين المصلين ، وإذا خلا لم يفعل ذلك ، يعلم الله عز وجل أنه لو لم يروه ويعلموا به ما فعل ذلك ، وكالقوم يصومون ، وهم في موضع واحد ، فيصوم معهم ، ولو كان وحده لأفطر ، جزعاً أن يفوقه بالصوم ، فينظروا إليه بعين التقصص ، فيصوم ، فلو خلا لأفطر وما صام ولا تطوع بذلك الصوم . وكذلك الغزو والحج وسائر أعمال الطاعات . وكذلك يظهر البر والطاعة يُعَدَّل ، فتقبل شهادته ، وتُفَضَّى حوائجه ، ويُوصَل ، ويُرَّ ، ويُعَظَّم ، أو يُشَيَّ عليه ويشهر بالخير ويذكر به ، أو ليرأس بذلك ، وما أشبه ؛ لا يريد بذلك إلا الخلق ، ولا يذكر ثواباً في عمله ولا في بعضه .

قلت : من الذي يليه ؟

قال : المرأى بالعمل يريد الله عز وجل ، ويريد غيره ، ولو لا إرادة الخلق وحمدهم بذلك ما عمله من أجله ، ولو خلا لما عمله الله عز وجل وحده ، فلما اجتمع له الأجر والحمد نشط له .

قلت : من الذي يليه ؟

قال : الذي يعمل العمل يريد حمدهم والثواب وهو معتاد لتلك الطاعة بِنَيْتِهِ ، ولو خلا لعملها وهو فرح مسرور بها ، وإذا جاء وقت فعلها بحضرتهم يجزع من قبل عقله وعلمه أن يكون تكلفاً للعباد لا يريد الله عز وجل به وقد غلبه طبعه على اعتقاد حمدهم مع اعتقاد الثواب .

قلت : من الذي يليه ؟

قال المرأى بتوهم الطاعة أنه عاملها وليس كذلك ، كالرجل يعرف بالصيام ، أو يرى غيره صائماً ، أو يظن به الصيام فلا يأكل ولا يشرب خشية أن يراه من يظن به الخير أو يعرفه بذلك ،

١٧٥

فيدع الماء وإنه لعطشان ، ويدعى إلى الطعام فيمتنع من الأكل محبة أن يرى أنه صائم ، وجزعاً أن يقال : إنه مفطر ، فينظر إليه بالنقص من فضيلة الصائمين ، فإن علم بإفطاره اعتذر ليُعذر فَيُرى أنه لم يدع الصيام من فترة ، ولكن إرادة بر والديه . أو سرور أخٍ وأداء حق يلزمه في دعوة . أو إبرار مقسم ؛ أو علة في بدنه .

باب مايورث الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها

قلت : فأخبرني بالذى يورث الرياء من الأخلاق المذمومة عند الله عز وجل .
قال : ما كان منها عن الرياء خاصة لا عن غيره : فإنها تورث خللاً ، منها : المباهاة بالعلم والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ، وقد يعتزى التفاخرُ أيضاً من الكبر ، ولكن التفاخر من جهة الرياء جزعاً أن يُعْلَى ومُحَبَّةً أن يعلو ، والتكاثر بالمال وغيره من أمر الدنيا ، وبالعلم والعمل ، والتحاسد على العلم والعمل لغير منافسة ولكن جزعاً أن ينال من يحاسده من المتزلة والحمد ما لا ينال هو ، ورد الحق على من أمره أو ناظره ، لكلا يقال : هو أعلم منه ؛ وقد يعتزى ذلك أيضاً من الكبر ، ولكن كراهة أن يقال : غلبه فلان ، أو أخطأ ، وحُبُّ الرئاسة ، والغلبة في المناظرة ، وترك التعلم ، لما يحتاج إليه من العلم .

قلت : ما الرئاسة ؟

قال : حُبُّ التعظيم والتسخير للعباد والحقرة لهم ، وألا يُرَدَّ شيء من قوله ، ولا يساوى في العلم بغيره ، ولا يقدم عليه غيره ، وإن وُعِظَ عَنَفٌ ، وإن وُعِظَ عَنَفٌ فلم ^(١) يقبل وعَنَفٌ وإن علم أنه قد أخطأ ، فلما علمه الناس أو وعظوه لم يظهر الرجوع لكلا تنكسر رئاسته .

قلت : ما المباهاة ، وكيف هي ، وما تورث ، وإلى ما يؤول ضررها ؟

قال : المباهاة بالعلم والعمل ، فأما بالعلم فالدوام على الطلب للعلم ، وكثرة الحفظ له ، والمواظبة عليه ، وكثرة عدد من لقي من المحدثين ، والمبادرة إلى الجواب حين يسأل هو أو غيره : يجب بذلك أن يصيب الحق ليعلو أو ليعلم أنه فوقه ، ويُعْلَمُ غيره أنه أعلم منه ، ويبادر إلى ذكر الحديث ليعلم صاحبه أنه أعلم منه ، وإن ذكر صاحبه حديثاً أخبر أنه يعرفه ، مباهاة ، ليفوقه . والمباهاة بالعمل ، إن اجتمع هو ومن يذكر الله ، عز وجل ، أو يقاتل في سبيل الله عز وجل ، أو يصلى ، أو يعمل عملاً من أعمال البر فإن صلى غيره قام فصلى جزعاً أن يعلوه ،

(١) معنى العبارة التالية : أنه إذا أخطأ فردّه الناس وعلم هو خطأه لا يقبل مهم الحق ولا يظهر الرجوع إليه وعنف في جده . كل ذلك لكلا تنكسر رئاسته .

ويكره صلاة المصلى معه ليرى فضله ، وإن صلياً جميعاً طَوَّل الصلاة ليتحشم صاحبه ويمل ، فيترك الصلاة ، فيُرفع فوقه ، ويكون قد علاه في المنزلة عند من يعلم ذلك ، أو عند المصلّي معه ، ليستصغر نفسه ، ويرفعه على نفسه ، ويرى فضله عليه . وكذلك القتال في الحرب : يبادر قدام غيره ، ويحب أن يتخلّف ويتقدّم هو ، ويحمل نفسه على الكرّ على العدو ويكل ما يقدر عليه : ليعلوه ، ويرى فضله عليه ، ولعله يقتل على ذلك مُحِبّاً أجره ولا آمن مقت الله ، عز وجل له ، وكذلك في سائر الأعمال .

وأما المباهاة في الدنيا : فالمباهاة بالبناء ، فينفق ما لو كان إليه وحده ما أنفقه ، ولكن لمن قاربه من الجيران ، أو من الأقارب والأصحاب والأشكال من أهل عمله ومثله ، فأنفق من الثقة أكثر مما لو كان يريد بالبناء نفسه ، فأنفق للمباهاة أضعاف ذلك ، لثلا يعلوه غيره ، ليكون هو العالى عليه . وكذلك في طلب الدنيا مجتهداً في الطلب لثلا يعلوه ويعلو هو في شرف المال وذكره به ، وكذلك في الخدم والأثاث وغيره .

قلت : وما التفاخر ؟

قال : التفاخر قد يجمع المباهاة في أكثر معانيه ، ولكن له أسباب ينفرد بها مثل ما قد يجاء معها في العلم ، فيخرجه التفاخر بالعلم إلى الاستطالة عليه فيقول : كم سمعت وهل تحسن شيئاً ؟ وما تقول في كذا وكذا ؟ يقول ذلك لغيره ، وما يحسن فلان وإن لم يسمعه ، وما سمع ما سمعت ، وما قام مقامى : افتخاراً عليه ، وكذلك تفاخر بالدنيا مع المباهاة فيقول : أنت فقير لا مال لك . وكم ربحت ؟ وكم عندك من المال ؟ ومتى ملكت المال ؟ وعندى أكثر مما تملك ، ومولاي أغنى منك ! وكذلك في العمل أن يقول : ما قتت في الحرب مقام الفرسان ، وما كررت ، ولقد جبت ، وما أحسنت الكرّ ، وكذلك في المناظرة والمفاخرة يقول : كم تحفظ من الحديث ؟ ومن لقيت من المشيخة ؟ وكم أدركت من العلماء ؟ وما كان فلان يقدمك وقد كان يقدّمنى عليك ! ويقول ذلك لغيره من غير أن يسمعه افتخاراً عليه ؛ فيخرجه الرياء إلى إظهار التكبر عليه والاستطالة والبغى عليه .

والتكاثر قد يجمع التفاخر ويزيد عليه في بعض معانيه وهو مثل قوله : سمعت كذا وكذا من الحديث ، وغزوت كذا وكذا غزوة ، وحججت كذا وكذا حجة ، وأدركت من المشيخة كذا وكذا ، وما أفطرت مُذْكَراً وكذا ، ومن ينام بالسحر ؟ فإن كان مكاثراً أو مفاخرًا فطناً - يريد أن يحمد ويفاخر ولا يذم - لم يصريح بذلك [ولكن] عرض بجميع ذلك لينال المباهاة والمفاخرة

والمكاثرة ، ولا يصرح فيقولوا : مباه . مراة ، مفاخر ، مكاثر ، وهذه بعضها تجماع بعضها ولكن يزيد بعضها على بعض ، فمن ثم فرق الكتاب والسنة بينهما وذلك قول الله عز وجل :
(وَزَيَّنَتْهُ وَتَفَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ (١)) .
وقد قال النبي ﷺ : « من طلب الدنيا مكاثراً مفاخرًا » وقال في الحديث خلافا لفرق بينهما .

قلت : فالتحاسد .

قال : يبعث عليه الرياء وغيره ، فأما ما كان من الرياء فحسداً ونفاسة أن يدرك [غيره] من المنزلة أكثر مما يدرك ، ومن حمّد الناس أكثر مما يدرك من الحمد ، فيحب أن تزول عنهم النعم ؛ لئلا يعلوه بها فيكون دونهم عند إخوانهم وغيرهم ، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال لأبي أمية : لا أبقاني الله وإياك إلى زمان يتغاير فيه على العلم ؛ كما يتغاير على النساء .
قلت : وكيف يردّ الحقّ وهو يعلم أنه حقّ ؟

قال : لكرهه أن يقر له بالصواب فيعلوه ؛ ولذلك تفرق أهل الكتاب بغيا بينهم وحسداً .
قلت : فحبّ الغلبة ؟

قال : حبّ الغلبة قد تعترى من الرياء وغيره ؛ فأما ما يعترى من الرياء فكراهة أن يغلبه في المناظرة ويرتفع عليه من غلبه ويتضع عند من يعلم ذلك منه ، ويحب أن يغلب فيعظم عليه ويثنى عليه ويبرّ ويوصل بالأثرة عليه ، وكم من عبد قد صارم رجلا في علم فناظره حتى غلبه ، وقد كان المغلوب يبرّ ويعظم ، فجفاه من كان يبرّه حين غلبه ومال بالبرّ والتعظيم إلى الغالب ، فيحب أن يخطئ غيره ويصيب هو ، وإن أصاب اغتم لذلك ! وتلك نعمة إبليس في العباد أن يخطئوا في دين الله عز وجلّ ولا يصيبوا ، ويغتم إن أصابوا ، ولا يتفهم ما يقول مناظره إنما همته الردّ والشغب ، وبذلك وصف الله عز وجلّ الكفار . فقال :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ) .

قلت : وكيف يترك التعلم لما يحتاج إليه ولا يسأل عنه ؟

قال : قد يعترى ذلك من الرياء وغيره ؛ فأما ما يعترى منه من قبل الرياء فكراهة أن يسأل عن أمر فيقال : هذا لا يحسن مثل هذا فيدع الحقّ أن يطلبه والحرام أن يسأل عنه . وهو يعلم أنه

يحتاج إليه ، ثم توهمه نفسه أن ذلك منه حياء ، وإنما هو منه رياء ، ولو كان حياء لكان من الله عز وجل أحق أن يستحى ، زعم ، من الناس أن يطلب الحق فيعلموا بذلك فيفطنوا يحمله ولا يستحى من الله عز وجل وقد علم أن الله عز وجل يعلم أنه يدع الحق أن يتعلمه ويطلبه . وهذه الأخلاق كلها تشعب من العجب والكبر وغيره ، وإنما أخبرنا بما يهيج عن الرياء ولقد جاء الأثر بذلك : بالنهاي والذم من قبل الرياء ، فروى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء ، أو تماروا به السفهاء ، ولا تجترؤا به أبصار الناس إليكم » قال كعب يأتي على الناس زمان يتغايرون فيه على العلم ؛ كما يتغايرون على النساء فذلك حظهم منه .

باب علامة المرائى فى نفسه

قلت : فما علامة المرائى فى نفسه ؟

قال : يحبُّ الحمد على طاعة الله عزَّ وجلَّ ، ويكرهُ الذمَّ فيدعُ الطاعة من أجل الذمِّ ؛ وإذا عمل عملاً لم يعلم به غير الله عزَّ وجلَّ ، أو علم علماً لم يعلم به إلا الله لم تقنع نفسه فى علمه وعمله بعلم الله عزَّ وجلَّ ونظره وسمعه وحلّه ، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره يهتم لذلك ! فإن اطلعوا عليه ارتاح قلبه لذلك وسرَّ بمحمدهم ! وأخفَّ الناس عليه من حمده وأثنى عليه ، وأنقلهم من ترك حمده والثناء عليه ، ولا تسخو نفسه بإتيان طاعة الله لا يعلم بها أحد ، فإن أراد نفسه على ذلك ثقل عليها ولم تطاوعه عليه ، وقد روى عن رجل : أنه عرض على نفسه فى أيام بابك وهو يقاتل المسلمين فقال لنفسه : أتحبُّ أن تقتل بابك ولا يعلم بذلك أحد ؟ فأبت وقالت : مثل بابك يقتل ولا يعلم به أحد ! !

باب ما يجب أن يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية

قلت : فما الذى أولى به أن يلزمه قلبه قبل العمل ؛ وفيه ، وبعده ؟
قال : أن يكون يعمل العمل لا يريد أن يعلم به إلا الله عز وجل وحده ، قائماً بعلم الله عز وجل دون علم غيره ، لأنه قل من يقنع بعلم الله عز وجل إلا الخائف من الله عز وجل ؛ لأن العبد إذا أراد العمل من عمل جوارحه أو عمل في باطنه أو ابتداء فيه كالفكر الذى يهيج البكاء والأحزان ، جزعت النفس أن يكون يعمل عملاً عظيماً له عند الناس قدر عظيم ولا يعلمون به ، فتغلى لذلك غلياً تقول به : مثل هذه الفضيلة لا يعلم بها أحد ! ! لو علموا منك لقت عندهم مقاماً كبيراً ، ولا يعلم العبد أن فى ذلك ضعة قدره عند الله عز وجل ، فليقنع بعلم الله عز وجل ، فإن طلع عليه فعلم به غيره منع قلبه من الارتياح والسرور ، فإن غلبه طبعه على الارتياح والسرور كره ذلك ومنع قلبه من الركون إليه ، ثم لا يزال حذراً حتى يفرغ من عمله ثم يمسك عن إظهاره ويمنع قلبه أن يطلب البر من الناس لما يعرفون من بره وفضله ، ويكون وجلاً مع ذلك كله أن يكون الله عز وجل قد أحصى عليه من النية المذمومة فى عمله ما لا يرضى بها ، لا يأمن من أن يكون نسبها وغفل عنها وأحصاها الله عز وجل عليه .

قلت قد وصفت عمل السر ، فما تقول فى العلانية كالجنازة وطلب العلم والصلاة تطوعاً يوم الجمعة أو فى المساجد حيث يراه الناس ؟

قال : مثل ذلك أن تكون نفسه قائمة بعلم الله عز وجل لا تفرح بعلمهم إذا علموا بذلك ؛ لأنه يريد بذلك ثواب الله عز وجل وهو : الرضا والجنة لأن فرح العبد بعلم من لا يملك رحمة الله عز وجل ولا جنته دلالة أنه لا يريد رضا الله ولا جنته ، ثم يرى جميع ما فسرت لك من ذلك بقلبه ويحفظ جوارحه .

باب سرور العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه منه وبعد فراغه

قلت : فأخبرني إذا اطلع عليه بعد فراغه من العمل فيسر باطلاعهم ؟
قال: سروره باطلاعهم قد يتصرف على وجوه ليس كلها مذمومة ، قد يسر باطلاعهم إذا
أطلعهم الله عز وجل وقد كان هو يستره عنهم ، فأبى الله عز وجل إلا أن يطلعهم عليه فيسر بما يرى
من نعمة الله عز وجل بستره القبيح وإظهاره الجميل .
قلت : فيعلها نعمة ويسر بحمدهم ، فهو إذا يحب حمدهم على طاعة الله عز وجل ؟
قال : لا ولكن يسر بستر الله عز وجل القبيح عليه ، وإظهاره الجميل منه ؛ لأن النفس تحب
أن تحمد وتكره أن تذم ويهلك عنها السر ، فيسر بستر الله عز وجل : إذ فعل به ما يوافق طبعه
وترك ما يخالفه سروراً باللطف منه لا لقيام المترلة عندهم فيسر بفعال المنعم في ستره القبيح وإظهاره
الجميل .

قلت : وبماذا يكون سروره ؟

قال : يسر بما يرى من الخلق وحمدهم الطاعة إذا ظهرت من المطيع وحبهم له ، فيسر بذلك
منهم إذ كانت قلوبهم كذلك ، وغيرهم ممن يدعى الإيمان قد يرمى من اطلع عليه على مثل هذا
العمل بالرياء ويتكلم بالوقعة فيه والحسد ، فيسر بطاعتهم فيه ومجانبتهم أهل الحسد وأهل سوء
الظن ، ويسر أيضاً إذا ستر الله عز وجل عليه القبيح وأظهر الجميل : رجاء أن يكون هذا دليلاً
على ستر الآخرة ، لقول النبي ﷺ : « ما ستر الله عز وجل على عبد في الدنيا إلا وستر عليه في
الآخرة » ويسر أيضاً باطلاعهم وتعظيمهم الطاعة ورجاء أن يقتدوا به فيعملوا مثل ذلك العمل ،
ويسر أيضاً باطلاعهم لنفسه ليحمدوه لطاعته الله عز وجل ويبجلوه ويعظموه ويفضلوه ويبروه
ويصلوه وهذه الخلطة المكروهة .

قلت : فهل يفسد ذلك عمله الماضي الذي قد فرغ منه وإنما يسر به بعد العمل ؟

قال : لا ، وقد ذهب العمل خالصاً ولم يراء به ، ولم يظهره على عمد ، ولم يحدث به ، ولم
يتمن أن يظهره عليه ، وهذه المحبة منه لحمدهم نقص منه ، ومحبة للمترلة عندهم بطاعة الله عز

وجلّ ، وذلك عقد المرائي أن يحمد ، فذلك نقص منه وذمّ عند الله عزّ وجلّ ، ولا يحبط العمل إن شاء الله إذا لم يراء به ولم يتمنّ اطلاع العباد عليه ولم يظهره لهم ولم يحدث به العباد ، وقد ينبغي له أيضاً أن يكون خائفاً على عمله الماضي أن يكون قد خالط قلبه من الرياء ما لم يفتن له لغلبة الهوى فخاف ذلك لما رأى من محبة نفسه لحمدهم ، ويرجع إليها فيقول : لولا أن للرياء في قلبك أصلاً لما هاج حين اطلعوا ، ويرجو ألا يكون خالطه رياء يحبط عمله ، فيكون يأمل من الله عزّ وجلّ أن يكون تقبّله منه ويكون خائفاً لما رأى نفسه تحبّ حمدهم عند اطلاعهم عليه أن يكون قد أحصى الله عزّ وجلّ من ضميره مانسيه ولم يفتن له ، فليستغفر الله عزّ وجلّ مما يعلم الله عزّ وجلّ ولا يعلمه هو ، فإن كان خالط عمله رياء رجوت أن يعفو الله عزّ وجلّ عنه ، وإن لم يكن خالطه رياء كان ذلك الإشفاق والخافة طاعةً لربه عزّ وجلّ وزيادة حذر فيما يستقبل من الأعمال وردّاً على نفسه ما حدث في قلبه من سرورها بحمدهم .

قلت : فإن اطلع عليه من قبل أن يفرغ من العمل فيسرّ بذلك ؟
قال : ذلك مختلف فيه أيجب أم لا إن كان سروره من حب المنة والحمد .
قلت : أفليس قد روى عن النبي ﷺ الحديث . « أن رجلاً قال يا رسول الله : أسيرُ العملَ لأحبّ أن يُطَّلَعَ عليه فيطلع عليه فيسرني ذلك : قال لك أجران أجر السرّ وأجر العلانية » .
قال هذا الحديث لم يقل فيه فيطلع عليه بعد فراغى منه أو قبل فراغى منه وقد يجوز أن يكون علم به قبل أن يفرغ منه ، ويجوز أن يكون بعد فراغه ؛ فإن يكن قبل الفراغ من العمل فذلك أشد ، وقد اختلف في ذلك ، فقالت طائفة : لا شيء عليه - لا يضره السرور منه بالعزم المتقدم لله عزّ وجلّ بالإخلاص الذي به دخل العمل - وروت هذا الحديث واعتلت به حديثاً عن الحسن أنه قال : إنها سروران ، فإذا كانت الأولى لله عزّ وجلّ لم يضره الثانية .
وقالت فرقة : يحبط عمله إذا كان قبل الفراغ منه ؛ لأنه قد نقص العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين ولم يتم عمله بالإخلاص وإنما يتم العمل بخاتمته ؛ وكذلك يروى عن معاوية رحمه الله عن النبي ﷺ : « أن العمل كالوعاء إذا طاب آخره طاب أوله » أي العمل بخاتمته ، وبالله التوفيق .

والحديث قد روى من رأى بعمله ساعة حبط ما كان قبله ، ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هلها الرياء قبل أن يفرغ من العمل ، فقد رأى بعمله ساعة فحبط ما كان قبله ، ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا الرياء قبل أن يفرغ من

العمل ، فقد رأى بعمله ، فقد حبط ما مضى منه وما بقي إلا أن يتمه على غير ذلك العقد .
وأما حديث الحسن فإنما روى إذا كانت الأولى لله فلا تهلله الثانية - أى لا تكسره - وأما
ما روى في الحديث الآخر لا يضره فهذا معناه : ألا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله عز
وجل ، ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره .

وأما حديث النبي ﷺ فليس في مسألة السائل قال يا رسول الله فيسرفني من قبل حب المحمدة
فيكون فيه حجة وقد يمكن أن يكون - إذ لم يصرح لم كان سروره - لمعان كثيرة .

قلت : فما تقول أنت ؟

قال : كنت لا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزدد في العمل ، ولا آمن عليه الحبط ، فكنت
أقف لاختلاف الناس في ذلك ، والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء ، وأما اليوم
فقد تبين لي ذلك فأنا أقطع به ، لأنه عمل على الرياء وختم عمله به ، وقد أحبطت السنة عمل
المرائي ، وهذا قد ختم عمله بالرياء .

قلت : فما تقول في الحديث الذي روى عن النبي ﷺ ؟

قال : قد أخبرتك بما يمكن أن يكون سروره لا اطلاعهم ؛ فإن يكن للنعمة أو لطاعتهم فيه
أو للقدوة فله أجران أجر للعمل ، وأجر لسروره ؛ لأن سروره طاعة لربه عز وجل إذ ظهر عمله ،
فسرليقتدى به ! فأخبره النبي ﷺ أن له أجر ما ظهر من عمله فسرليقتدى به ، وإن كان سروره
لحب الحمد والثناء فذلك عقد الرياء فلا أجره يصح في الكتاب ولا في السنة تأويل من تأوله ،
وإن السائل سأل عن ذلك فأجابه النبي ﷺ . وإن الأمة مجمعة على الكتاب والسنة أنه ليس
فيها أن الله عز وجل يأجر على الرياء ، ولا يقول ذلك أحد من علماء الأمة ، وإن أحسن حال
المرائي أن يعفى له عما اعتقد من الرياء ويبقى له أجر عمله ولا يحبط كما تأول من ترخص في ذلك
واحتج بحديث الحسن أن ذلك لا يضره ، فلما أن يقول أحد له أجر عمله ، وأجر سروره
بالرياء ؛ فذلك مالا يقوله أحد فإن احتج بالحديث فإنه لا يحتج أن الله عز وجل يأجر على الرياء
وإنما يحتج به لثلاث يطل العمل الأول ولا يضره سروره ، والنبي ﷺ قد جعل له أجرين : أجر
السّر ، وأجر العلانية ، فأحسن أحواله أن يكون قال له : لك أجر ما سررت ولا يضر لك ما ظهر ،
وإنما أن يكون له على عقد الرياء أجر ثان فالذي لم يراء بعد ما اطلع عليه ، وأخلص لله قلبه ونفى
خطرات الرياء عن قلبه أخس أجراً والمرائي أعظم أجراً : له أجران على قياس هذا القول ، وذلك
مالا يقوله مسلم يعقل .

فلولا أن الرجل كان في مسأله ما يدل أن سروره كان طاعة لرّبه وإن لم يكن له بذلك علم وأشفق من اطلاعهم وسروره به لقلة علمه^(١) فلا يمكن أنه كان سروره إلا ببعض ما ذكرنا من النعمة أو لطاعة من اطاع عليه فيه أولأن يقتدى به .

وقد روى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال : إنما معنى هذا الحديث أنه أراد القدوة ، وقوله أجر العلانية يدل على ما قال عبد الرحمن : لأن سروره بما علن من فعله عندهم ، فإن اقتدوا به كان له مثل أجرهم ؛ كما قال النبي ﷺ من سنّ سنة حسنة فعمل بها كان له مثل أجر من يعمل بها والله أعلم بما أراد ، غير أن الكتاب والسنة لم يدلّا على أن له أجرًا على الرياء ، وأن الله عز وجل لم يجعل المرائي أعظم أجرًا من المخلص .

وتأول بعضهم في ذلك : منهم عبد الرحمن أنه قال : إنه ندم على ما اعتقد من الرياء ، فلذلك جعل له النبي ﷺ أجرين : أجرًا على طاعته ، وأجرًا على توبته . وقد أخطأ من قال ذلك ؛ لأن المرائي إذا ندم على ريائه أجر على توبته ، وحبط عمله إذ قد أحبطه بالرياء ! والحديث مع ذلك عامّة من يرويه غير متصل لا يرفعه إلى أبي هريرة - أكثرهم يوقفه على أبي صالح ، ومنهم من يرفعه إلى أبي هريرة ، والله أعلم : أمحفوظ الحديث أم لا ؟ فإن كان محفوظًا فلا وجه له إلا ما ذكرنا ؛ وإلا تركنا السنن بالتناقض له وخرجنا من إجماع العلماء ، وقد يمكن أن يكون اطلع عليه بعد العمل فسرّ ولم يعلم لم كان سروره ؟ فأخبره النبي ﷺ أن سروره بذلك لا يضرّه ، وأن له أجرين : أجر له على عمله ، وأجر له فيما ظهر للعباد أن يعملوا بمثل عمله ، فيؤجر فيهم إذا اقتدوا به ، فدعاه النبي ﷺ إلى أن يكون سروره بالأجر فيهم ، لا بالرياء .

(١) العبارة هنا تحتاج إلى تكلّة لعلها : « لا أحاطه الرسول بذلك » .

باب ذم الرياء والعجب

قلت : فالحديث الذى يرويه أبو موسى عن رسول الله ﷺ : أن أعرابياً أتاه فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، من فى سبيل الله ؟ قال النبي ﷺ : « من قاتل حتى تكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ولقد علمنا أن كل مسلم يجب أن تكون كلمة الله هى العليا .

قال : قد تأول قوم فى ذلك وزعموا أن ذلك لا يضر بهذا الحديث وذلك عندنا غلط منهم ؛ لأن الكتاب والسنة يدلان على غير ذلك ، فأما الكتاب فإنه روى عن طاووس وعدة من التابعين أن رجلاً قال للنبي ﷺ : « الرجل يصطنع المعروف » أو قال بتصدق ، يجب أن يحمد ويؤجر فلم يرد ما يقول له النبي ﷺ حتى نزل .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١)) .

وأما السنة فإن معاذاً روى عن النبي ﷺ : « إن أدنى الرياء شرك » وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « يقال لمن أشرك فى عمله : خذ أجره ممن عملت له » وروى عن عبادة بن الصامت أنه قال إن الله جل ثناؤه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل لى عملاً وأشرك معى غيرى ودعت نصيبى لشريكى » وقال عبد الله : من هاجر يبتغى شيئاً فهو له ، وقال عبادة بن الصامت إن النبي ﷺ قال : « من غزا لا ينوى إلا عقلاً فله ما نوى » ، وقاتل رجل من أجل حمار فقال النبي ﷺ : « له الحمار » وقال : « إنما لامرئ ما ينوى » .

وكل مسلم يجب أن يغلب المؤمنون المشركين وإلا راعى ، ولو كان كما تأولت هذه الفرقة لكان لا يكون مرائياً فى غزوة حتى يكفر ؛ لأن حبه لأن تعلق كلمة الكفر كفر ! فتتابع الآثار بخلاف ما تأولته هذه الفرقة .

وليس يكون ما سأل عنه السائل بحجة على العباد ، إنما سأل النبي ﷺ عن أشياء لا يجوز أن تكون لله فأجابته بخلافه وما يصح عند الله فقال : من قاتل حتى تكون كلمة الله هى العليا فهو فى

سبيل الله ، ولم يقل : من أراد ما سألت عنه فقاتل لذلك ولتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، إنما قال له مَنْ في سبيل الله ، فأخبره أن في سبيل الله غير الذي عدت فأخلص القتال لعز الإسلام . فمن ادعى معنى ثانيًا قاله النبي ﷺ فليأت به ، ولن يجده . والآثار أيضًا بخلاف ما تأولت ، وقد روى عن ابن مسعود : « إن الملائكة إذا التقى الصفان نزلت ، فكتبت الناس على منازلهم ، فلان يقاتل للملك ، وفلان يقاتل للذكر ، وفلان يقاتل يريد وجه الله ، فذلك الشهيد . وقول عمر رضى الله عنه : وأخرى تقولونها في مغازيكم : فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقًا . قال : وقال النبي ﷺ : حين سأله الرجل عن الرجل يقاتل في سبيل الله قال : « إن قتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر » وقتل رجل من أصحابه ﷺ فقال له أصحابه : له الجنة ، فقال النبي ﷺ : « له الحمار إنه أراد » وروى عبادة عن النبي ﷺ أنه قال : « من غزا لا ينوى إلا عقالًا فله ما نوى » . والحديث في ذلك كثير ، فذلك غلط في التأويل ، وأكثر العلماء يرون أنه أشد الحديث إذ لم يجعل في سبيل الله إلا من أخلص ؛ لتلوه الكلمة وحدها ولم يضم إليها إرادة غيرها . ولو كان كما تأولته هذه الفرقة لكان الرياء مباحًا لا يبطل العمل ولا يبطله ؛ لأنه ليس من مسلم يقاتل إلا وهو يجب أن يغلب المؤمنون ويهزم الكفار ، فقد أباحوا الرياء في الغزو ، ولو كان أيضًا كما تأولته ما كان ذلك حجة في سائر الأعمال ، لأن الصدقة وأكثر الأعمال قد يفعلها العبد لا يذكر الله فيها كما يذكره محبة أن يغلب المسلمون في الغزو .

باب ما يجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص فيه لله وما لا يجوز له منه

قلت : فهل يجوز لأحد أن يقطع أنه أخلص لله عملاً ، إذ لم يعلم رياء خالطه ، أو الخوف والشك أولى به ؟

قال : أما قبل أن يتدبّر في العمل فلا يجوز له أن يدخل العمل حتى يعلم أنه قد أراد الله به ولم يرد غيره ؛ لأنه لا يجوز له أن يدخل في العمل ولا يدري ما يريد به ، فعليه أن يكون متيقناً بأنه قد أراد الله عز وجلّ بذلك العمل وإلا لم يدخله ؛ فإذا علم أنه قد أخلص فأراد الله عز وجلّ وحده دخل في العمل على ذلك ، فإذا مضى عليه من الأوقات - ولو كان كطرف العين - مما يمكن المخلوق فيه النسيان والسهو فالخوف أولى به ، لأنه لا يدري لعله قد خطرت خطرة بقلبه : رياء أو عجب أو كبر أو غيره فقبلها وهو ناس لا يذكر أنها رياء فيكون مشفقاً خائفاً .

قلت : فإذا كان شاكاً في عمله فكيف يرجو على الشك ويأمل الرضا من الله عز وجلّ ؟ قال : أما الشك في أنه لا يدري دَخَلَ العمل بإخلاص أم لا فلا يجوز في ذلك الشك ؛ إذ قد علم أنه قد دخل وقد أراد الله عز وجلّ وحده ، وأما الشك خوفاً من أن يكون قد أَحْصَى الله عز وجلّ عليه قبولَ خطرة نسيها هو ولم يفطن لها فنعم : فالخوف على عمله والوجل والإشفاق من أجل ذلك .

قلت : فالرجاء والخوف على العمل أن يكون عمله لله أو لغير الله عز وجلّ إذاً مستويين فأمله في الله عز وجلّ ضعيف فكيف ينعم بطاعته لله عز وجلّ ويجد حلاوتها ؟

قال : بل الأمل والرجاء أغلب وأكثر ، لأنه قد استيقن أنه قد دخله بالإخلاص لله وحده ولم يستيقن أنه رأى بشيء منه : فالإخلاص عنده يقين ، والرياء هو منه في شك ؛ فخوفه إن كان قد خالطه رياء كان ذلك الخوف مما يرجو به أن يصفيه الله له لإشفاقه على ما لا يعلم فيه فبذلك يعظم رجاءه ، وإن لم يكن خالطه رياء فذلك زيادة على عمله وعبادة منه ؛ وكلما أشفق ازداد نمياً بالطاعة وأملاً في الله عز وجلّ ؛ إذا أيقن أنه دخله بالإخلاص ، وختمه بالإشفاق والوجل عن علم الله عز وجلّ ، فبذلك يعظم رجاءه وأمله ، ويتنعم بطاعة ربّه عز وجلّ .

باب ما يجزى من النية عند ابتداء العمل والنية في العمل

قلت : فعلى الناس أن يقدموا النية عن كل عمل حتى يعلموا أنهم قد أرادوا الله عز وجل وجهه ، أم يجزى المريد نيته المتقدمة في كل عمل يعرض له ، لأنه لا يعمل إلا الله عز وجل وحده ، وقد سمعتك تقول : لا يدخل حتى يستيقن أنه أراد الله عز وجل وحده ؟
قال : إنما سألتني هل يجوز لأحد أن يقطع أنه قد أراد الله عز وجل ؟ فرجعت إليك في ذلك أنه يجوز في بدء العمل قبل دخوله ، ولم أقل لك : إنه من لم يذكر النية فهو مراء .
قلت : فهل تجزى المريد نيته المتقدمة أم لا تجزى إلا أن يقدم نية عند كل عمل ؟
قال : إن النية المقدمة مجزية إذا عرض له عمل هو الله عز وجل طاعة وفيه ثواب أن يأتيه لاسم الطاعة وظاهرها وإن لم يذكر النية ما لم يخطر بباله خاطر الرياء فيقبله ، فإن لم يقبل خطرة رياء فهو على نيته الأولى وهي مجزية عنه ؛ لأن المريد لله عز وجل المخلص قد قدم النية لله تعالى ألا يعمل عملاً من طاعة الله عز وجل إلا لله عز وجل ، وإنما هذا للمريد ، فأما من قدم اعتقاد الرياء فلا تجزيه ذلك حتى يندم على العقد الأول ويحدد الله عز وجل نية عند العمل . وأولى بالمريد ، وإن كان تجزيه النية الأولى ، أن يحددها عند كل عمل ، وذلك أنور للعمل في قلبه وأبعد له من الغفلة وأحرى إن خطرت خطرة رياء علم بها فلم يقبلها ، وإذا لم يحدد النية لم يكن في العمل كمن ذكر الله عز وجل وحده وذكر الثواب وأهاج الأمل في قلبه ؛ ولأن من لم يذكر ذلك ولم يحدد نية كان أقرب إلى الغفلة والسهو ولا يؤمن عليه قبول الخطرة وهو لا يعلم ، فأولى به تجديد النية عند كل عمل وإن كانت تلك الأولى مجزية ، ومع ذلك أنه إنما تجزيه في الطاعات المسماة في الكتاب والسنة : كالجنازة تمر به فيقوم لها ؛ لأنها طاعة وإن لم يذكر النية ، وكالصلاة يقوم إليها أو كالصدقة وقراءة القرآن .

فأما ما ليس اسمه بطاعة إلا أن يريد به الطاعة فلا يجزى حتى يحدد النية مثل : سؤال الرجل إياه في حاجة يقضيها له من حوائج الدنيا ، أو دعاه إلى طعام ، أو زيارة ، أو أشباه ذلك ، فذلك يكون للدنيا ويكون لله عز وجل ، وليس اسمه طاعة - إنما يكون طاعة إذا أراد الله به -

فلا يحزبه إلا أن يحدد نية عند ذلك ؛ لأنها ليست بطاعة ، فيكون إنما أهاجه اسمها ومعرفته بأنها طاعة لربه عز وجل ؛ إلا أن يكون العبد معتاداً بعض ما ذكرنا أو ما أشبهه مما ليس اسمه طاعة إلا أن يراود الله عز وجل به ، فإن كان العبد معتاده ، وقد قدم النية فيه لله عز وجل فذلك كالرجل قد حسنت منه النية في القيام بجوائح الناس يريد الله عز وجل وحده بذلك فذلك يحزبه ما تقدم من نيته ؛ لأنه وإن لم يكن اسمه طاعة فقد ألزم قلبه النية لله عز وجل بذلك وهو في عادته ومعرفته وما ألزم نفسه كالصدقة ، وأما ما لم يقدم فيه نيته لم يحزه إلا في أربعة : في العالم ، والعايد ، أو المضطر ، أو الرحم فإنها فيهم أسهل ، وأرجو أن تجزيه النية الأولى ؛ لأنه إذا سأله العالم أو العايد الذي يحبه لله عز وجل حاجة فقضاها له فإنما هو للحب المتقدم لله عز وجل ، والرغبة في العلم ، أو لحب العلماء ، أو لإغاثة اللهفان أو المضطر ، أو صلة الرحم ؛ فذلك يحزبه إن شاء الله عز وجل ما لم تعرض له خطرة رياء يقبلها إلا أن يكون هؤلاء قد تقدم في قلبه رجاء مكافأتهم أو خوف ملامتهم أو حب محمدتهم - يعرف ذلك من نفسه - فلا يحزبه إلا أن تجدد النية ، فأما من لا يعلم أن نفسه تريد ذلك منه فهي تجزيه إن شاء الله عز وجل النية المتقدمة ما لم يقبل خطرة رياء ؛ ولا سيّما من يجب في الله عز وجل خاصة فإن كل أمره عندي هو لله عز وجل ما لم تعرض خطرة رياء يقبلها لغير الله .

وخصلتان تغمض النية فيهما : إرادة سرور المؤمن ، وإرادة منفعة بما يعلمه العالم ، فلا يتم السرور والمنفعة له إلا بالعلم . فالعلم يغمض ويلتبس ؛ لأنك تريد أن تسره ليحمدك على ما أدخلت عليه من السرور وتعلمه فيستفع فيحمدك ويعظمك إذا رأى منفعة في دينه أنها بما علمته فيحمدك إذا نال الطاعة بما علمته ، فمن أجل أنك تريد سروره ومنفعته تغفل وتظن أنك تريد الله عز وجل بذلك ، وإنما تريد أن يحمدك ويبرك ويعظمك .

قلت : فكيف الإخلاص بهما ؟

قال : أن تكون تريد أن تدخل عليه السرور لتؤجر على سروره لا ليحمدك ؛ وتريد أن يستفع بما تعلمه ؛ ليعمل به فتؤجر فيه ويكون لك مثل أجره لا تريد بذلك أن يحمدك ولا يعظمك ولا يبرك .

باب العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل وحده ثم يجد من نفسه نشاطاً للزيادة ، وما تجزيه من النية في ذلك

قلت : العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل به ، ثم يجد من نفسه نشاطاً للزيادة فيه من غير حادث نية يذكرها ولكن ينشط قلبه للزيادة ، أعليه تجديد النية فيه كان اسمه طاعة أو لم يكن ؟ قال : تجزيه النية الأولى في ذلك ما لم تعترض خطرة رياء فيقبلها ؛ وكذلك كثير من الأعمال ، يقوم العبد وهو يريد أن يصلي بآيات قليلة العدد فيفتح له شهوة ونشاط حتى ربما قرأ القرآن كله ويسجد يريد التخفيف فيفتح له الزيادة في الدعاء في السجود فيطيل السجود ، وكذلك قراءة القرآن يتدنى في السورة لا يريد غيرها فيخف عليه قراءة الأخرى من غير ذكر نية معلومة .

قلت : هذا قد فهمته فيما كان اسمه طاعة ، فما لم يكن اسمه طاعة ؟ قال : وما لم يكن اسمه طاعة فابتدأ فيه لله عز وجل ثم أتبعها التزيد فيه فهو على ما ابتدأ ما لم يكن حدث في قلبه رياء ؛ كالرجل يريد الله وحده بإعانة بعض المسلمين على شرائه أو يبعه أو في حاجة يريد أن يعينه على بعض ذلك يريد الله وحده ثم ينشط فيزداد على ما كان نوى فهو على نيته الأولى ما لم يعترض رياء فيقبله . وكذلك يُسألُ الحاجة فينوى قضاءها لله عز وجل وحده ، ثم يحب الزيادة على ما يُسألُ فيفعل ذلك ، وكذلك ينوى الهدية لله عز وجل ثم يزيد فيها قبل أن يرسل بها فهو على تلك النية .

والتجديد أبعد من الغفلة وأقوى لأهل الثواب والرجاء ، لأنه قد يعترض في ذلك آفات إن كان أراد الله عز وجل بالأولى كالهديّة يريد بها الله عز وجل ثم يخاف أن تستقل ويقال : ما أبخله ! وإنما يزيد من أجل ذلك ؛ وكذلك المعونة في البيع والشراء والعمل وقضاء الحاجة يزيد إذا رآهم قد سُرّوا رجاء أن يعظم حمدهم ، ويزيد مخافة أن يلزم أو يقال لم تسخ نفسه من المعونة إلا بكذا ، فبين أن يكون أتم المعونة حتى يفرغ المعان من عمله ، أو يبع أو شراء ، فالتجديد أحب إلى ، وإن لم تجدد نية كان ذلك مجزياً لما تقدّم من نيته ، ما لم تعترض له خطرة رياء فيقبلها .

باب وصف النية ماهي

قلت : فالنية ماهي ؟

قال : إرادة العبد أن يعمل بمعنى من المعاني إذا أراد أن يعمل ذلك العمل لذلك المعنى ، فذلك الإرادة نية إما لله عز وجل وإما لغيره لقول النبي ﷺ « وإنما لامرئ ما نوى » ، لأنها نية للمعنيين : نية أن يعمل العمل ، ونية أن يعمله لمعنى من المعاني دنيا أو آخرة كالرجل يريد أن يعمل أو يريد أن يغزو للأجرة أو للذكر ، وكذلك يريد أن يصلي للثواب أو للحمد ، لأن إرادة الصلاة أن يتدئ بالتكبير ثم يستصب قارئاً ثم يركع ثم يسجد ثم يرفع ، والنية لثواب الله عز وجل أو للدنيا إرادة منه أن يصلي ليؤجر وأن يرضى الله عز وجل بها عنه أو إرادة أن يحمده ويثنى عليه فذلك النية . فالنية في العمل لله عز وجل أن يريد به ثواب الله عز وجل لا يريد غيره .

قلت : فأنأ أريد أن أكون مخلصاً ، وأكون مصلياً وصائماً ومطيعاً في كل أمرى .

قال : ذلك على وجهين : أحدهما ، قد نويت أن تخلص وألا تريد بشيء مما تفعله إلا الله وحده ، ونويت أن تقوم فتصلى وأن تصبح صائماً وألا تعصى الله عز وجل ، وإن عرضت لك معصية ودعتها من خوف الله عز وجل ، فذلك الإرادة التي هي نية لك هي نية الله عز وجل . ومعنى آخر تريد أو تحب أن تكون مخلصاً وأنت مضيق للإخلاص ، وتحب أن تكون صائماً ومن نيتك الإفطار ، وتحب أن تكون مصلياً وأنت كسلان عنها أو مؤثر عليها الشغل بالدنيا ، وتحب أن تدع المعاصي من خوف الله عز وجل والنفس لا تسخو بالتوبة فذلك إرادة محبة منك للشيء .

وإرادة ثلاثة قد جوزتها العرب في لغتها ، وأنزل بها الكتاب - إرادة كاد - قال الله جل ذكره : (جداراً يُريد أن يَنقُصَ^(١)) .

وقال الشاعر :

لا تعجبي مني ومن سَوَادِي ومن قَمِيصِي همَّ بَانِقِدَادِي

ويقول آخر :

يريد الرمحُ صَدَّرَ بنى زَرَارٍ ويرغب عن دماء بنى عقيل
فوصف الله عزَّ وجلَّ الجدار بالإرادة ووصف الشاعر القميص بالهمم . وذلك أنه جدار مائل
كاد أن ينقضَّ ، والقميص خلق كاد أن يتخرق لبلائه ، وتقول أردت والله أن أهلك نفسى أى
كدت أهلكها لأنه ينوى هلاك نفسه ولا يجب هلاكها .

قلت : فهل تحضر النية ويمكن العبد فى كل أمر وفى كل وقت ؟
قال . أما النية فيما ليس فيه ثواب فلا تحضر ولا نية فى ذلك ، ومن أراد الله عز وجل فى ذلك
فغرور غلط كالرجل بنى البنيان الفاخر يريد بذلك ، زعم ، الله ، ويأكل الأطعمة الطيبة
ويتكلفها لغير ضعف وجده به ولا قوة على طاعة لا يقوى على تلك الطاعة إلا بها فلا تجوز النية فى
ذلك وكل ما أشبهه ؛ وكذلك فى المحرم : المرأة يعتبر . زعم . بالنظر إليها . فلا تجوز النية بالنظر
فى ذلك .

باب معنى قوله لا تحضرني النية في العمل

قلت : فاما معنى قول من قال من المريدين لا تحضرني النية ؟

قال ذلك يحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون يُسأل حاجة ، أو يدعى إلى أمر له فيه الأجر ، فيبخل أن يقضى الحاجة ، أو يكسل عما فيه الثواب ، فلا يرغب فيه ، فيبدى المذمة لنفسه ؛ كالمال يبخل به أو لا تسخو نفسه بإخراجه لله عز وجل ، أو يكسل عن الصلاة ، أو عن القيام للحاجة يُسألها ، أو لا تسخو نفسه بترك الطعام والشراب ، وتحمل الجوع والعطش للصيام ، فيقول : لا تحضرني نية ؛ أى : لا تسخو نفسى بأن أدع شهوتى وطعمى وأتحمل الجوع والعطش ، فذلك معنى صحيح .
والمعنى الآخر : أن تكون نفسه قد سخت لله عز وجل بإخراج ماله في سبيل الخير ، أو قد نشط لله عز وجل في الصلاة لا يجد كسلا يعتريه ، وكذلك تسخو نفسه بترك الطعام والشراب للصيام فيعرض له الخطرات تدعوه إلى الرياء فيقول : ليس لى نية ؛ يريد ألا يجد خطرة ، وأن يكون قلبه بعد ما خطر ، مثله قبل أن تخطر به الخطرة ، لا منازعة فيه وقد سكنت منه الخطرات فذلك غلط وضعف ؛ لأن العباد أمروا وندبوا إلى الطاعات ، وأن ينفوا الرياء أن يعتقدوه . ولم يؤمروا أن يتركوا الطاعة من أجل دواعى الرياء . ولو فعل ذلك عبد لأوشك ، إذا علم الشيطان بذلك منه ، أن يعترض له عند كل عمل بالخطرات بالرياء فيدع كل طاعة . ولم يؤمر الناس أن يخرجوا وسواس إبليس أن يعترض في صدورهم بعد إذ جعل الله عز وجل له السلطان بذلك ، ولا يغيروا خلقهم وطباعهم حتى تصير لا تنازع إلى معنى من زينة الدنيا من رياء ولا غيره حتى تكون طبائعهم . الحمد فيها مكروه والذم فيها محبوب ! وإنما أمروا أن يستوى ذلك في دينونتهم من عقولهم بما استودعها الله ، عز وجل ، من العلم ؛ فأما في الخلقة فإن ذلك لم يكلفوه ، ولا يقدرين عليه ، ولكن قد يقوى العبد فتسكن دواعى النفس عن الدعاء في بعض ما يعمل ، ويعترض بالدعاء في بعض ما يخطر بضعف إلا أن الحمد والذم لا يستويان في طبعها . فإنما أمر العباد بمجاهدة أهوائهم ولم يؤمروا ألا يكون في النفس غريزة تدعوه إلى شهوة . ولا أن يخرجوا وسواس الشيطان أن يعترض في صدورهم بل جعلت لهم غرائز عقولهم ، ومن عليهم بالمعرفة والعلم

قائمين في عقولهم ، وُبُلُوا بغرائزهم وجُعِلَ الشيطان مهيجًا للغرائز بالتذكير لها بما تحب ! وأمرُوا أن يجاهدوا بعقولهم - بما استودعها الله عز وجل من المعرفة والعلم - بما حاج من دواعي غرائزهم ونزغ الشيطان وتزيينه للنفس ما في غريزتها موافقًا لها ، فليس على العباد غير ذلك ولا يقدرُونَ إلا عليه ، إلا أن بعضهم في ذلك أقوى من بعض وهم الذين أداموا الجهادة حتى انكسرت النفس عن الدعاء من غير تغير الطبع وقد تخطر أقل مما كانت تخطر به من قبل مع ضعف من الخطرة عما كان في أول بدايتهم ، فعلى العبد الجهادة والنهي لنفسه عن هواها ، ولم يكلف تغيير طبعه حتى ينقلب فيجعله كطبع الملائكة ، ولكن النهى عما يدعو إليه الطبع !

وكما يروى عن وهب أنه قال : الإيمان قائد ، والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر قائدها صدفت عن الطريق ، وإن فتر سائقها حرنت على قائدها ، فإذا استقام السائق والقائد : مضت النفس طوعًا ، أو كرهًا ! ولو كنت كلما كرهت نفسك شيئًا تركته يوشك أن تترك دينك كله .

وقال : النفس تنتظر الهوى ، والهوى ينتظر العقل ، فإن زجره العقل انزجر ، وإن أرخى له مرّ ، وصدق ؛ لأن العقل إذا لم يبصر بالعلم ويعتصم بالمعرفة صبا إلى ما تدعو إليه النفس من قبل هواها ، فكان هو الذى يخال للمكائد ويتلطف لشهواته وهواه ؛ وإذا تذكر فأبصر بالعلم واستعصم بالمعرفة عرف ضرر ما يدعو إليه الهوى وأبصر عاقبة ضرره زجره ، فأمسكت النفس عن استعماله .

وذلك أن الله عز وجل طبع الحيوان من أهل السموات والأرضين على طبائع شتى : فطبع الملائكة على العقول والبصائر ، وعزّاهم من الهوى والشهوات والاشتغال للمكاره التى يألم بها غيرهم من الحيوان ، فلا يعترض لهم الأهواء ولا تنازعهم الشهوات : فهم دائبون فى طاعة الله عز وجل وذكره لا يفترون ؛ إذ لم يجعل فيهم الأضداد التى بها يفترون والأهواء والشهوات التى تصدّ وتؤثر على الطاعات والذكر ، فلم يجعل لهم ثواب نعيم الجنان ؛ إذ لم يجاهدوا الأهواء ، ولم يتحملوا الآلام والتعب والنصب ، وأجبروا من العذاب وتركوا فى طاعتهم .

وطبّع الأنعام والطير والحوام على الشهوات ، وجعل فيها المعرفة بقدر ما تقتضى وتطلب معاشها وتحذر على نفسها وأولادها بقدر ما عرفت من المكروه . ولم يجعل لها من العقول ما تعقل الأمر والنهى والعلم للعواقب ؛ فرفع عنها ، العقاب فى كل ما أصابته من الشهوات التى حرمها على الإنسان والجن ، فرفع عنها العقاب ولم يؤاخذها بما نالت من النكاح وما أصابت من أموال الناس

ودمائهم ، وأجارها من العقاب وجعل آخر مصيرها أن يجعلها ترابًا .
 وطبع الإنس والجنّ على العقول التي تحتل الأمر والنهى وتعرف العواقب وذلك إذا بلغوا
 الحلم ، إلا من أزال الله عزّ وجلّ عنه العقل كالمعتوه وغيره . وجعل فيهم غرائر تحبّ كل ما وافقهم
 وتبغض كل ما خالفهم وآذاهم ، ثم أمرهم أن يجاهدوا بما أعطاهم من العقول ما دعت إليه
 النفس من قبل غريزتها فجعل لهم الثواب العظيم والعذاب الأليم .
 فاعقل كيف طبعت وبماذا أمرت ، ولا يحيل إليك أنك كلّفت أن تغير طبعك حتى تصير
 كطبع الملائكة ، فتدع الطاعة انتظاراً أن يصير الطبع إلى غير ما بنى عليه في الخلقة ، وأن يسكت
 العدو ويزول سلطانه عن الوسوسة فصنّك ذلك عن طاعة ربّك عزّ وجلّ . فتدع العمل
 للإخلاص - زعمت - فلا تكون أخلصت عملاً ، ولكن تركت أن تخلص عملاً فيكون لك
 ثوابه .

فقول القائل لا تحضرني النية أى أريد أن أطيع الله عزّ وجلّ ولكن أخاف ألا يخلص لى عمل
 لما يخطر بقلبه فذلك ضعف وغلط ؛ وأما من قاله على الكسل والبخل وقلة الرغبة وقلة سخاء
 النفس بالطاعة لله عزّ وجلّ فذلك صادق جائر من قول من قاله ، ولكن لا يحمد نفسه على بخلها
 وكسلها عن الخير وقلة سخائها بالطاعة ، ولكن ليدكرها ثواب الله عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة حتى
 تسخو ، فإذا سخت فليرد الله عزّ وجلّ بذلك وينى كل ما خطر بقلبه من خطرة رياء وغيره .

باب من يدخل في العمل لا يريد الله عز وجل بذلك ثم يندم ، كيف يكون عمله بعد الندامة

قلت : فالعبد يعمل العمل فيبتدئ فيه لا يريد به الله عز وجل ، ويريد حمد الناس أو اتقاء مذمتهم أو طمعا لما في أيديهم ، ثم يندم على نيته وهو في العمل لم يفرغ منه .

قال : أما الأعمال كلها فلا يحتسب فيها بما مضى ولكن ليستأنف ابتداء غير ذلك العمل الأول إن أراد أن يتم له النافلة التي ابتدأها : كالسورة يقرأ بعضها ثم يذكر فيبتدئ من أولها وما أشبه ذلك ، إلا الصلاة والصيام والحج فإن الناس في الصلاة مختلفون : فقالت فرقة يدع ذلك كله ، لأنه قد حبط ثم يبتدئ فيعيد ما عمل من قراءة أو ركوع أو سجود كان بعد الافتتاح .

قلت : ولم خصصت الافتتاح والإحرام وعقد الصيام فلم تفسده وأفسدت ما سواه ؟ قال : لأن الافتتاح جعل تحريماً للصلاة ، وإنما الرياء عقد في قلبه لا يفسد التحريم والإحرام وعقد الصيام ، فيجعله كأنه افتتح الصلاة بالشعر واستقبل غير القبلة والافتتاح لا يفسد لأنه يتحرم بالصلاة وما سواه يفسد .

وقالت فرقة : يبتدئ الافتتاح وعقد الصيام والإحرام فلا يحتسب به ، لأنه وإن كان يحرم به للدخول في الصلاة فلم يفعل ذلك لله عز وجل وإنما فعله للخلق فكل ذلك فاسد إلا ما أريد الله عز وجل به .

وقالت فرقة ليستغفر ويتم ما بقي من صلاته وحجه وصيامه ويعتد بما مضى لأن الأعمال بخواتيمها وقد ختم صلاته بالإخلاص كما لو ختم صلاته وصيامه وحجه بالرياء حبط عمله كله ما مضى منه وما بقي ، فلأن العبد لا يكبر ولا يتوجه إلى القبلة ولا يركع ولا يسجد إلا لله عز وجل فلو فعله لغير الله عز وجل كان كافراً فلو صلى لله عز وجل . للإيمان ، وأراد حمدهم فإذا ندم فليحتسب بما مضى فإنه خالص ؛ وإنما هو كثوب أبيض لطخته بسواد ثم غسلته فتق ورجع إلى البياض ، فكذلك افتتاحه وقراءة كوعه وسجوده تعبد لله عز وجل لا لاله غيره ، فلما ندم واستغفر ونوى أن يجعله لله عز وجل وحده زال عقد الرياء وبقي على أصل تدينه لله عز وجل بالصلاة فقد أخلص وصفا وصار لله وحده ؛ لأنه قبل أن يفرغ من العمل قد زهد في حمد المخلوقين فيما مضى

من العمل ، وسخت نفسه بالآيحاء عليه وتدم ألا يكون لم يجهل وأراد الله عز وجل بـ
الدخول في عمله ، فذلك يميزه من الإعادة لما مضى ، إذ ختم عمله بالإخلاص ، وإنما
بنحوائيمها .

والفرق كلها ، الصلاة عندهم لا يشبهها شيء من الأعمال ، إلا أن الإحرام بالحج أو
عقد الدخول ليس له أن يدعه ، ولكنه يتمه لما أوجب الله عز وجل عليه ألا يحله إلا الله
بالييت ، ولسته النبي ﷺ فليتيمه وعليه الندم على الرياء ، وليس له أن يخرج منه .
قلت : إذا كان الله عز وجل قد ستر على ، وألقى لي المحبة عند الإخوان والجيران والمعار
وأظهروا الحمد والثناء ، وقلبي يعطى العزم أنه لا يريد ثناءهم ولا يريد حمدهم ، فهل يخاف
أن يكون ذلك أغلوطة وخدعة ؟

قال : ذلك على معنيين . أحدهما أن تكون صادقاً في ذلك غير مطمئن إلى حمدهم تشكراً
وجلّ على ستره ، عالم بأن حمدهم لم يزدك في معنى من المعاني ، وقد تكون ركنك إلى حـ
واستراحت نفسك إلى ذلك وأنت تعطى من قلبك الكراهة على خدعة وغرّة ، وذلك أن ا
قد ظفرت بما أحببت من حمد العباد فلا تبالي أن تعطى الكراهة لغير نقص من محبتها وقد
بما أحببت وذلك مثل الرجل يكون عنده ما يكفيه ، ويكون له من ينق عليه ، فيقول توكل
الله وما آهتكم للرزق ، ويحتمل إليه أن ذلك يقين منه وتوكل ، وإنما طمأنينته وثقته با
والإجراء عليه ، ونفسه تربه وتحمل إليه أن ذلك يقين منه وتوكل .

قلت : فيم أميز بين هذين المعنيين ؟

قال : إذا تغيروا أو تغير بعضهم عن الحمد ، فإن رأيت نفسك لا تغتم إلا خطرات لا
وأنت لها راد فاعلم أنها صادقة في نفي حمدهم ، ولولا أنها كانت زاهدة في حمدهم لما قل
بزواله ، وإن اغتمت بتغيرهم عن الثناء عليك وما خطرته على قلبك لا تكاد أن تخرجه و
به قلبك فهذا دليل الخوف أن تكون النفس كانت راكبة راغبة في حمدهم ، ولولا
ما اغتمت إلا عارض غم مردود بعقل عن الله عز وجل ، ولولا أنه نزع منها ما تحب ما اغت
بل قد تغتم بالظن دون اليقين كراهة أن يكونوا قد ظنوا بك غير ما كانوا يعرفونك به حتى
بذلك قلبك ، ولعلك أن تخرج إلى أن تقع فيمن ذكرك لثلا يصدق عليك ، وتعتذر بالك
وتحلف بالإيمان ، وتسهر بالليل للتفكر فإن علمت أنهم قد أيقنوا بذنبك شغلك هم يعلم
علم الله عز وجل ، ولعلك أن تعتذر من ذلك الذنب بأعظم من الذنب وتظهر من هم والـ

أكثر مما كنت تظهر لبرئى صدورهم مما ظنوا أو تيقنوا فإن أردت أن تعلم أن النفس قد ركنت إلى حمدهم أو لم تركزن ، فإن تغيروا لك فانظر كيف غمك بزوال حمدهم ؟ فإن غمك بذلك يدل على ركونها إلى حمدهم ! وإن لم يتغيروا فأعرض على نفسك : أن لو تغيروا لك عن الحمد إلى الذم كيف غمك بذلك ، فإن اغتممت فليغلب على قلبك الخوف واعلم أنها كانت إلى حمدهم راکنة ، وإن لم تغتم فلا تقطع بأنها صادقة لأنها قد تسخو بترك الغم ما لم تنزل بها مذمتهم . وقد يكون العبد صادقاً فى النقي مع الحمد من العباد فإذا بلى بالذم زال عنه إخلاصه . وما أقل ما يكون ذلك ! فالخوف أولى به أن يخاف أن تكون كاذبة فى إخلاصها إذا اغتممت بزوال الحمد .

باب في الرجل يدع بعض النوافل إشفاقاً على الناس أن يعصوا الله عز وجل فيه

قلت : فما تقول : أيما أفضل أدع بعض النافلة إشفاقاً على الناس أن يعصوا الله في ،
أو أفعّلها ؟

قال : إن في ذلك أغلوطه منك : أن تظنّ بعبد أنه يسىء بك الظن ويقع فيك فتدع العمل
من أجل ذلك ، فقد جمعت خصلتين : أسأت به الظنّ ، وتركت ما يقربك إلى الله عز وجل .
وقد تترك أيضاً بعض الواجب لعلك أن تدع إتيان القرابة لحوف الممر بهم ، ولعلك ترى منه المنكر
فتمتنع أن تأمره لأنه عندك لا يقبل ، ولم تعلم منه ذلك ، فتضيع ذلك الأمر ، وتسىء به الظن ،
إلا أن يكون فاسقاً مهتكم فذلك الظن به ، وقد يقبل مع فسقه ، ويحاجك القارئ إذا أمرته فتدع
كثيراً من الواجب والنافلة ، لئلا يعصى الله عز وجل فيك ، زعمت ، فإن كنت صادقاً في زعمك
فقد غبت وأسأت الظن ، وإن لم تكن صادقاً فإنما جزعت النفس من الذم فخيلت إليك أنها
تريد الشفقة والنصح وأنت لم تشفق عليهم في غير ذلك ، لا تبالي في أن يعصوا الله في دنياك
لا تدعها لهم وإن ظننت أنهم يعصون الله عز وجل . ولا تغضب إن غضبت عليهم ولا غير
ذلك ، وهذه الصفة التي تدعى صفة الأنبياء الأبدال الرحماء بالخلق ، فانظر هل تعرف نفسك
بالخلق هكذا في أحوالك فإن كنت تعرف نفسك بهذا فقد وضعت الشفقة على حال في غير
موضعها إذ صدك عن الطاعة سوء الظنّ ، ولم تستيقن منه بأمر تشفق عليه منه إلا أن يكون أمراً
لا يتقصك من فرض ولا فضل فتدعه إشفاقاً أن يدخل عليهم الشيطان ، إلا أنهم كذلك في وقت
ما تشفق عليهم ولكن تقول لا أعرضهم لفننة ولم تدع لهم فضلاً ولا فرضاً فيكون العدو قد أصاب
منك ما يريد .

كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : «إنها صفة» وذلك أنها أتته وهو معتكف ، فلما خرجت
استقبلها رجلان من أصحابه ، فقال : إنها صفة فقالا : يا رسول الله وهل نظن بك إلا خيراً ؟
قال إني خشيت الشيطان أن يدخل عليكما ، ولم يقل قد دخل عليكما .
وأراد إبراهيم والأعمش أن يمرّا في طريق ، فقال إبراهيم يقولون أعمش وأعمش ، فقال

٢٠١

الأعمش : ما علينا أن نؤجر ويأثمون ، فقال إبراهيم وما علينا أن نسلم ويسلمون .
فما لم تنقص من خير فلا بأس بالإشفاق عليهم على غير قطع عليهم بشره وأكثر ما يكون ذلك
جزعاً من الدم وسقوط المنزلة ، فلا يخذعن بذلك العبد العاقل اللبيب !!

باب إظهار العمل ليقْتدى به

قلت : فما تقول في إظهار العمل ليقْتدى به فيه : كفعل الأنصارى الذى جاء بالصرّة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبى ﷺ :

« من سَنَّ سُنَّةً حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه فيها ؟ »

قلت : فهل تجرى الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره ؟
قال : أما الصدقة فإن الناس فيها متقاربون فى القدوة لأنها عطف ورحمة وإعانة للملهوف ، فإذا أظهر العبد ذلك لغيره كان فيه حض لغيره وترغيب فى الصدقة ، إلا أنه لا ينبغي لعبد أن يتعرض لإظهارها حتى يعلم أنه قد أراد الله عز وجل بذلك وأنه لم يجزع من أن يسرها ، ولا أحب إظهارها لقلة القنوع بعلم الله عز وجل ومحبة منه أن يعلم الناس بصدقته ولكن جزعاً أن يفوته عظيم الأجر أن يصيبه فى غيره مع أجره على صدقته ، فلم يقنع بأجر الصدقة وحدها حتى أحب أن يحض بفعله عليها غيره ليؤجر فيه مع أجره على صدقته .

وفى الصدقة معنى آخر خاصة : سترها خير من القدوة إذا كان المتصدق عليه يؤذيه ذلك ويكرهه فترك أذى المؤمن أفضل ، وقد اختلف فى قول الله عز وجل :
(لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ^(١)) .

فقال بعضهم : هو أنك تحدث بما تصدقت به عليه ، فيبلغه فيؤذيه .
وقال أكثر العلماء : هو أن تؤذيه بفعلك ، فإذا لم تجد من نفسك قوة عزم الله عز وجل فى إظهارها للقدوة لا لغير ذلك فسترها أفضل وإن سلمت فى إظهارها من الرياء ، ألم تسمع إلى ما يروى عن النبى ﷺ ؟ يرويه عنه سلمان وغيره أنه قال :

« سبعة فى ظلّ عرش الله يوم لا ظلّ إلا ظله » فذكر أحدهم فقال : « رجل تصدق بصدقة يمينه فأخفاها عن شماله » ، وقال فى حديث آخر : « فلو قدر أن يخفيها من شماله فالصدقة أفضل سرّاً ، إلا أن يظهرها للقدوة » ، وقد يروى حديث : « إن العمل سرّاً أفضل من سبعين ضعفاً

علانية ، وإن العمل علانية للقدوة أفضل من السرّ سبعين ضعفاً .
قلت : قد أجد القلب يقوى على ما تقول ، ويريده ، ويحبّ زيادة الأجر ، ولا تعرى النفس من خطرات العدو ، ومن هواها أن تنازع ، فما الذى يفرق بين صدق الضمير بذلك وبين الخدعة فيه من النفس ؟

قال : أن تعرض عليها أن لو أصبّت الأجر فيهم من غير علمهم أكنتِ تقنعين بعلم الله عز وجلّ وحده وتصيبين هذا الأجر؟ فإن رأيت القلب يقنع بذلك فهو صادق ، فإن رأيت لا يقنع بذلك فإنما هى خدعة ومحبة من النفس أن تظهر عملها ، لتظفر بمحمدهم ، وتحيل للمخدوع بذلك أنها تريد الله عز وجلّ صادقة لتستكثر من الأجر .

قلت : فالصوم والصلاة والحجّ والغزو ؟

قال : أما ذلك فلا أحبه لأحد ولم أجد عامّة الناس يفعلونه ؛ إلا الرجل القوى الصادق الإرادة القوى على ردّ الخطرات فى العمل بعدما يفرغ من العمل ، وقد يتبعه العدو فيخطر له فى حال غفلته فيصرعه ، فلا بأس بإظهاره للقدوة ، والذى أمر به الناس : أن يخفوا ذلك ما استطاعوا لأن النفس خدوع ، والشيطان مرصد بمكيده .

وقد كان الرجل يرفع صوته ليحرك بعض جيرانه فى جوف الليل وذلك إذا قوى عزمه ، وهان عليه حمد من يسمعه ، وليس له رغبة فى عملهم به أكثر من أن يصيب ثواب الله عز وجلّ فى تحريكه إياهم على طاعة ربهم .

فأما الغزو فذلك عمل ظاهر : فالمسارعة فيه للقدوة به أفضل إذا قوى العزم أن يشدّ الرجل قبل القوم ، ليحضّر على القتال وينبث من معه على الشدّ معهم فذلك .

أفضل ، لأنه لم يخرج من سرّ الى علانية ، وإنما خرج من علانية الى علانية ، لأن مقامه ذلك علانية ، فكلمة حضّ غيره لفعله كان أفضل ، ولو خف له الشدّ والكر على العدو وكان ممن وهب الله عز وجلّ له القوة على نفي الخطرات وهو من المعروفين عند من حضر ممن يقتدى به ويحرّكهم فله كان أفضل أن يظهر ذلك ولا يخفيه . ليحضّر على قتال العدو ، وينصر الله عز وجلّ بذلك على الأعداء ويعز به الدين .

باب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ليحضهم على ذلك

قلت : فالرجل يُحدثُ إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ليحضهم بذلك ؟
قال : قد تقدم في ذلك رجال صالحون منهم سعد بن معاذ قال : ما صليت صلاة منذ
أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي إلا بما هي قائلة وما هو مقول
لها ، ولا سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً قط إلا علمت أنه حق .
وقال عمر : ما أبالي أصبحت على عسر أم على يسر ؛ لأني لا أدري أي ذلك خير لي . وقال
ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها ، وقال : يا حَبْدَا المكروهان :
الموت ، والفقر - وإنما هو الغناء والفقر وما أبالي بأيها ابتليت - وقال عثمان : ما تمنيت
ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ . وقال شداد بن أوس :
ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه الكلمة فكان قال لغلامه إيتنا
بالسفرة نعبث بها حتى يدرك الغداء .

وقال أبو سفيان بن الحرث لأهله لما حضرته الوفاة : لا تبكوا عليّ فما أحدثت حدثاً منذ
أسلمت ، وقالت عائشة : قال أسيد بن حضير وكان من أفاضل الناس : ثلاثة أكون عليهنّ
لو كنت في سائر الأشياء : فذلك لكنت ما تبعت جنازة قط فحدثت نفسي بغير ما هي صائرة
إليه ، وإذا قرأت القرآن وإذا سمعت النبي ﷺ .

وقال عمر بن عبد العزيز ما قضى الله لي بقضاء فسرتني أن يكون قضى لي غيره ، ولا أصبح لي
هوى إلا في مواقع قدر الله عز وجلّ .

فقد فعل هذا هؤلاء الأئمة ولا يظنّ بهم إلا الخير ، والحضّ لغيرهم على الطاعة ، وليس ذلك
إلا لمن قوى وكان يعلم أن الذي يظهر ذلك له يضعه موضع القدوة ، وإلا كان قد وضع القدوة في
غير موضعها وإن قوى عزمه ولم يرد به الرياء . لأننا قد رأينا وجربنا من العباد أن الإمام كالخليفة
والعالم إذا أظهر الصوف ، أو لباساً شنعاً من التقشف ، أو تكلم في العامة أوحضهم على خير
يعملون به اتعظوا بذلك وخضعوا ، لأنه إمامهم وهو موضع قدوتهم . ورأينا غيره ممن لا يعرفه

العامّة أو يعرفه بعضهم بالعلم والفضل ولا يضعونه موضع قدوة ، قد يفعل ذلك فيستهزأ به ، فمن لم يكن للعامّة إماماً فذلك غلط أن يفعله في العامّة ، فمن كان لهم إماماً فجائز له إذا كان قوياً ؛ كما روى عن ميمون بن مهران أنه رأى في السوق محلول الإزار ينادى : لا إله إلا الله .

ألا ترى إلى قولهم : (اجعلنا للمتقين إماماً) ، قال : يقتدوا بنا ، فأثنى بذلك عليهم لرغبتهم في أن يطاع الله بهم . وقال إبراهيم عليه السلام : (اجعل لي لسان صدق في الآخرين) . وقال عز وجل : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) .

معناه : تركنا عليه الثناء الحسن فكل الأمم من يؤمن بكتاب أو نبي يقول : إبراهيم منا . وقد يفعل ذلك الرجل من العوام فيستهزأ به ، ويقال فيه القبيح ، ويرمى بالرياء والطلب للدنيا والجنون والحمق ، لأنه ليس بإمامهم ولا يضعونه في ذلك الموضع ، وإنما يريد العبد القوي أن يخضعهم على طاعة ربهم عز وجل وينبئهم لها ، فإذا كان ، وإن قوى عزمه ، إنما يخضعهم على العصية فيه فكيف تصح له الإرادة فيهم ولا يرى فيهم موضع أمل أن يزدادوا بما يحدثهم عن عمله أو يظهر لهم من طاعة . فعلى العبد المريد أن يعرف ذلك ويضعه حيث وضعه الله عز وجل . وقد يحدث الرجل القوم عن نفسه فيضعونه على الرياء منه ، لأنهم لا يقتدون به ، فمن الناس من يقتدى به أهله ولو أمر جيرانه أو يظهر لهم خيراً ما اقتدوا به .

ومن الناس من يقتدى به جيرانه . ولو تجاوزهم إلى أهل سوقه ما اقتدوا به أو رموه بالرياء لو حدثهم ببعض عمله أو أظهر لهم الذكر والزي من الصوف وغيره . ومن الناس من يقتدى به أهل حيّه وسوقه . ولو أظهر للعوام ما لا يفعله العوام ظاهراً ثم سمى لها لما اقتدت به ولا ردعها ولأهاج بعض من لا يعرفه منها على سوء الظن والاستهزاء به حتى يعرف بعضها بعضاً بالثناء عليه وذكر علمه وعمله . ومن الناس من إذا أظهر من ذلك شيئاً فحين سمى للعامّة بل لا يكاد يخفى عليها حين يمر بها أن يقال : هو فلان كالحليفة إذا مرّ أو كالمحلث المشهور أو كالمفتي المعروف عند العوام ، فذلك إمام للعامّة من يسمع باسمه - وإن لم يكن رآه من قبل - خضع واقتدى بما يكون منه من خير ، حتى لقد رأينا من العوام من يقتدى بزلة العالم المشهور بالعلم . والفاضل المشهور بالنسك ، فإذا كانت الزلة منه يسارعون إلى القدوة بها ولا يسارعون إلى القدوة بكثير من الخير من غيره . فكيف بما يظهر من الخير ؟

فعلى العاقل المريد أن يعرف في أى موضع من الناس وضعه الله عز وجل فيه فيمكنه الحسبة فيما يظهر من القدوة إذا قوى ولا يجاوز قدره وإن حسنت نيته وقوى عزمه وهان حمد المخلوقين

عليه ، وكذلك روى عن الحسن أنه قال : الرجل إمام أهله ، والرجل إمام حيّه ، والرجل إمام العامة . فالذى أمر به في السّنة إخفاء العمل لطلب السلامة ولفضل السرّ ، لأن السرّ أحرز للعاملين ، وأبعد بهم من كثرة المخاطر وقبورها ، وقد روى عن الحسن رحمه الله أنه قال : لقد علم المسلمون أن عمل السرّ أحرز للعاملين ، فلا ينبغي للمريد العارف أن يخدع نفسه وما جرب منها بأن يتعرّض للبلاء ويلزم العافية ، وإنما مثله مثل سابع رحم الغرق ليخرجهم فتشبهوا به فغرقه ، وليته يفرق كغرق الماء ولكن يكون منه ما يتعرض به للمقت من الله عزّ وجلّ . ومن قوى عزمه ، وهانت خطوات العدو عليه في قبول الرياء ، ولم يحمله على إظهار العمل إرادة غير الله عزّ وجلّ ، أو ظهر وهو لا يريد إظهاره فسراً بما ظهر للناس ، فلم يهجه على ذلك قلة القنوع بعلم الله عزّ وجلّ وطلب علمهم ولكن أهاجه قلة القنوع بطلب الأجر في عمله وحده حتى أراد أن يتقرب بحضهم على طاعة الله عزّ وجلّ فيكون له أجر ذلك مع أجره على عمله ولم يجاوز قدره فيمن يقتدى به إلى من لا يقتدى به فهو أعظم أجراً .

وقد اختلف الناس في ذلك : فقالت طائفة من أهل العلم : عمل السر أفضل من عمل العلانية للقدوة وغيرها ، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل العلانية لغير القدوة . وقالت فرقة : عمل السر أفضل من عمل العلانية لغير القدوة ، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل السر . ولولا أن عمل العلانية للقدوة أفضل لما حضّ النبي ﷺ على ذلك ! وإنما حضهم ليفعلوا ما يستن بهم ، وذلك لا يكون إلا علانية .

حضهم على عمل العلانية لهذا المعنى . وأخبرهم أن لهم أجرهم وأجر من اتبعهم ، فهذا دليل على أنه أخرجهم بالحض والترغيب من عمل السر إلى عمل العلانية ؛ لكثرة الأجر لا إلى الرياء به وأخبرهم أن لهم أجرهم وأجر غيرهم ! وقد علموا من قبل أن عامل السر له أجره وحده . فذلك يبيّن أن عمل القدوة أفضل من عمل السر .

وقد روى في بعض الحديث : « أن عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً ، ويضاعف عمل العلانية إذا استنّ بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفاً ، وإنه ليكون أفضل بأضعاف لا تحصى » . يقول النبي ﷺ : « من استنّ سّنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » فقد يستنّ الرجل السّنة فيعمل بها إلى يوم القيامة .

باب عمل السر والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة

قلت : فإذا كان فضل عمل السر كما ذكرت على عمل العلانية ولسنا من رجال القدوة فلا نظهر عملاً ولا نعمل إلا سرّاً ؟
قال : ذلك غلط وخدع من العدو ؛ لأن الله عز وجل مدح السر والعلانية فقال عز من قائل .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) :

وقال : عز وجل :

(إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

فالسر أفضل من العلانية . والعلانية أفضل من البطالة وترك العمل ؛ فالسر أفضل ما أمكن السر . فإذا لم يمكن السر فالعمل علانية مع الإخلاص لله وحده أفضل من الترك .
قلت : فقد كره المعرفة والشهرة بالخير قوم أئمة أقوياء : منهم إبراهيم . استأذن عليه رجل وهو يقرأ فأطبق المصحف ، فقال : لا يرى هذا أنى أقرأ كل ساعة ، ومنهم إبراهيم التيمي . قال : إذا أعجبك الكلام فاسكت ، فإذا أعجبك السكوت فتكلم . وقال الحسن : إن كان أحدهم يمر بالأذى ما يمنعه من رفعه إلا كراهية الشهرة . وفي ذلك آثار كثيرة . وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وكان أحدهم يبست عنده الزوار فيدع قيام الليل مخافة الشهرة .

قال : إنهم رحمهم الله أئمة . ولنا في جميعهم قدوة . وبعضهم في بعض الحال أقوى من بعض ، فيقوى هذا في حال يضعف فيها آخر . ويضعف هذا القوي في حال أخرى يقوى فيها الذي ضعف ، فإذا سألت عن الفضل أخبرت بالفضل . والفضل في من قوى ونقى ولم يترك ما فتح الله عز وجل له من العمل كما جاء الحديث : « إذا فتح لك باب من الخير فانتبهه ! » ولكل ما ذكرت من الأحاديث مضاد من قوى . وإن كان الذين ضعفوا عما قوى عليه غيرهم

إنما أرادوا الإخلاص والسلامة لا فترة عن العمل . فأرجو ألا يخيبهم الله عز وجل من ثواب ذلك وإن كان الآخرون أقوى منهم !

فأما ما فعل إبراهيم رحمه الله في المصحف فإنه يروى عن ابن عباس أنه دخل عليه رجل وهو يقرأ فقال هذا جزئي فأتني البارحة . وقال عثمان رضي الله عنه : إني لأستحي من ربي عز وجل أن يأتي على يوم ولا أنظر فيه إلى عهد ربي إليّ وأخبر أنه يقرأ في المصحف كل يوم . وقال عمر رضي الله عنه ودخل عليه عبد الرحمن وهو يصلي عند الزوال فقال هذا جزئي من الليل فأتني وكان عكرمة بن أبي جهل يقرأ في المصحف ثم يأخذه فيضعه على وجهه وهو يبكي ويقول كلام ربي كلام ربي ! والذي رواه عنه قد ظهر له ذلك منه .

وأما قول إبراهيم التيمي فيحتمل معنيين أحدهما صحيح . والآخر ضعيف وخلاف ما أمر به العباد ! وإن كان يدارى به بعض العمال نفسه محبة للإخلاص . وغيره أقوى منه . فأما المعنى الصحيح : فإن كان ذهب إلى أن أعجبه الكلام من قبل شهوة النفس للفضول واللغو والحرام كما يقول القائل : إنه ليعجبنى من الطعام كذا وكذا . فصحيح معناه وبذلك أمر العباد ، وكذلك إذا أعجبك السكوت أى : أعجب النفس أن تسكت عن الذكر كسلا . أو عن القول في الحق بين الخلق لشهوة استبقاء مودتهم فتكلم حينئذ وخالف إعجاب نفسك في السكوت .. فكأنه قال : لا تتكلم بكل شيء ولا تسكت عن كل شيء ولكن انظر ما تهوى نفسك فخالفها ، لأن هواها لا يدعوا إلا إلى أمر الدنيا فخالف دعاء هواك واتبع أمر الله عز وجل في الكلام والسكوت . وإن كان أراد . إذا أعجبك . من قبل العجب به أو من قبل الرياء يعجبك أن يحمذك على سكوتك أو قولك فاسكت وتكلم . فإن كان أراد من قبل العجب بالعمل الصالح والقول بالخير فلم يؤمر العباد بالترك . ولكن أمروا أن يذكروا أن ذلك نعمة من الله عز وجل . وأن أنفسهم قد كان هواها خلاف ذلك فيلزموا قلوبهم الاعتراف له بالمنة في ذلك . وإن كان من قبل الإعجاب بحمد الناس . فإن كان الإعجاب هو الذى بدأ أولا فأولى به السكوت بذلك ويترك ما أراد به الرياء سكوتاً كان أو كلاماً كما قال إبراهيم . وإن كان العقد لله عز وجل أولاً وإنما خطر بعد الإخلاص الإعجاب بحمد الناس فلم يؤمر الناس في ذلك بالترك ولكن بالنق لما خطر وإتمام الأعمال لله عز وجل .

وأما قول الحسن رحمه الله فقد يكون ذلك منه حصاً لبعض الضعفاء ومن ظن أنه يريد الشهرة . وحكى عن قوم ضعفوا في بعض الأحوال عن إرادة الإخلاص والخير - وقوله هذا

وحكايته هذا للناس يعظمهم أشهر من رفع الأذى ومن البكاء ، وقد نصب نفسه للفتيا والعظة ، وذلك أشهر من كل ما ذكر ! ولكن حضّ على الزهد في طلب الشهرة واختار هو لزوم العظة والذكر والفتيا ؛ لما وجد من القوة وذلك أشهر وأرفع من جميع ما ذكر عن من ذكر من رفع الأذى والبكاء .

وقد شهد النبي ﷺ وأصحابه الجنائز ، وتطوع العلماء في الجمع والمساجد ، واجتمعوا للذكر والعلم ، ونصبت العلماء أنفسهم وذلك يدل على أن أعمال العلانية أفضل من الترك لها . وأما إبراهيم النخعي فقد قوى في غير ذلك فيما هو أشهر وأرفع ، نصب نفسه للفتيا حتى شهرته العامة . وقول عثمان في إخباره عن نفسه من قراءة في كل يوم أقوى في الفضل من إطباق إبراهيم المصحف . وقعد ابن عباس رضي الله عنه يبكي وهو يقرأ في مصحف حين ذكر أصحاب السبت حتى سأله عكرمة عن بكائه فأخبره ذلك !! فالسرّ أفضل وعمل العلانية أولى مع الإخلاص والمجاهدة لما يعرض إذا لم يمكن عمل السرّ وإلا أصاب العدو حاجته وأطيع في تضييع الطاعة .

باب هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء ؟

قلت : فهل أترك العمل من أجل الرياء ويكون ذلك أولى بي ؟
قال : نعم إن خطرات الرياء ثلاث خطرات في ثلاث أحوال : خطرة قبل العمل ولا يعتقد معها القلب العمل لله عز وجل ! فتلك الخطرة لا تطاع ولا يعمل العمل على ذلك إلا أن يسخو قلبه به لله عز وجل وينفى ما سوى ذلك ، وخطرة قبل العمل مع العقد لله عز وجل ؛ فذلك العمل يدخل فيه وينفى الخطرة ، وخطرة بعد الدخول في العمل بالإخلاص لله ، عز وجل فذلك ينفي عن القلب ويمضي العبد في العمل على ما نوى أولا .

قلت : فهل من العمل ما ندب العبد إلى تركه وإن أراد الله عز وجل . بذلك ؟
قال : نعم ، إن الأعمال على قسمين : أعمال عامة ؛ كالصوم والصلاة والغزو . والجهاد والذكر ، والأمر والنهي ، وما أشبه ذلك ، وأعمال خاصة للخواص : كالقضاء والخلافة والإمرة ، والانتصاب للخلق بالدعاء إلى الله عز وجل ، والفتوى .. ومن ذلك ضرب عمر رضي الله عنه ألياً حين رأى قوماً يتبعونه وهو في غير ذلك يقول : إنه سيد المسلمين ! وقال أيضاً : هذا أبي سيد القراء ! وقد كان عمر ، رضي الله عنه ، يقوم يعظ ويخطب وكطلب الدنيا بعد القوام لينفق في أمر الآخرة ، فيؤمر القوام بترك ذلك كله ، إذ كان لا يقوم به إلا الخواص الأقوياء الذين لا تميلهم الدنيا ولا يستفترهم الطمع ، والله عز وجل في صدورهم أهيب من خلقه . والزهد فيها قد لزم قلوبهم بحقيقة البصائر بالعلم ومكابدة عدوهم بقوة ما عودهم الله . عز وجل من الرد عليه ! فمن أخطأ طريق أولئك دخل عليه من الضرر في تلك الأعمال أكثر من المنفعة ؛ وكذلك رأيناهم يأمرون بترك الخلافة وترك التعرض لها . وكذلك الإمارة .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة أن النبي ﷺ قال له : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن سألتها لم تكن عليها وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها وقال ﷺ : لا تؤلّي أمرنا هذا من سألناه . وقد تعرض للصلاة والصيام والغزو وغيره قلوبهم وضعيفهم وقد سأل قوم النبي ﷺ أن يغزبهم . وبكوا لما لم يجدوا ما ينفقون . فأثنى الله عز وجل عليهم

بذلك ! فلم يجعل النبي الإمارة كذلك ، وقال : « إنكم تحرصون على الإمارة . وإنها حسرة يوم القيامة وندامة إلا من أخذها بحقها » .

وقال : نعمت المروضة وبشت الفاطمة ولم يذمهم أن يحرصوا على الصلاة والغزو والصيام » .

وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عُميرة لا تأمرنَّ على اثنين . ثم ولى الخلافة فقام بها ، وقد قال له رافع : ألم تقل لي : لا تأمرنَّ على اثنين وأنت قد وليت امرأة محمد ﷺ ؟ قال : بلى ، وأنا أقول ذلك لك ، فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله ، يعنى : لعنة الله عز وجل . وقال أيضاً : لما قبض النبي ﷺ ولم يذرنى أصحابي فقال رافع بن عُميرة : فما زال يعتذر إليَّ حتى عذرت .

وقال عمر رضي الله عنه من يأخذها متى بما فيها ؟ وودت ذلك لأن القول من النبي ﷺ قد تقدّم فيها : « ما من والى بلى عشرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، أطلقه العدل أو أوبقه الجور » رواه عنه معقل بن يسار . وولى عمر رجلاً فقال له : يا أمير المؤمنين ، أشر على فقال : اجلس واكتم على .

وروى الحسن أن رجلاً ولاه النبي ﷺ فقال للنبي ﷺ خزلى فقال : اجلس ، وروى هذا الحديث عن غير الحسن متصل الإسناد أن النبي ﷺ قال للرجل الذى قال له : خزلى قال : اجلس .

وإياها عنى عمر بن عبد العزيز حين قام إلى المنبر يحزّ رداءه وتسيل دموعه من البكاء . وكذلك القضاء : لم يزل الناس يتقونه ويفرون منه ، لما تقدّم من النبي ﷺ من قوله « القضاء ثلاثة : اثنان فى النار ، وواحد فى الجنة » يرويه عنه بُريدة .

وقوله عليه السلام : « فمن استقصى فقد ذبح بغير سكين » . وذلك الدنيا : أمروا بأخذ القوام^(١) منها ، ونهوا عن طلب الفضل . لا أنه محرم . ولكنه لا يسلم فى طلب الدنيا إلا الأبطال الزاهدون العالمون بالله عز وجل ، وأيامه .

وقد روى عن الحسن : أنه سُئل عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدّق به ، فقال : القاعد أفضل ، مما يعرفون من قلة سلامته فى طلب الدنيا . وأن من الزهد

(١) قوام الأمر بفتح القاف وكسرها : ملاكه الذى يقوم به والمراد هنا : أخذ ما يكره أو ما يقيم الأود

تركها . إلا للقرية لله عز وجل ! فخشوا أن يزدادوا بعداً من الله عز وجل . إذا طلبوها . لفتنتها وشغل القلب بها

وقال أبو الدرداء : ما يسرنى أني قمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها . أما إني لا أحرّم البيع والشراء . ولكن أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله عز وجل !! وفي حديث آخر : لثلاث تشغلني عن الذكر . وكلا المعنيين واحد . وقال : كنت تاجراً قبل أن يبعث النبي ﷺ . فلما أسلمت أردت العبادة والتجارة . فلم يجتمع علي فتركت التجارة . فأخبر : أنه لا يمكنه التجارة إلا أن يلهو عن ذكر الله عز وجل . ويشغل عنه ، ولم يقل : لا يعجبني أن أنجر فأصيب كل يوم خمسين ديناراً وأتصدق بها . ولا يلهيني ذلك عن ذكر الله . عز وجل . ولا يشغلني .

وقد أجمع المسلمون على أن من ولي الخلافة أو الإمارة أو القضاء أو قام بالدعاء إلى الله عز وجل . والفتيا فسلم أن ذلك أفضل من جميع الناس !!

من ذلك قوله : « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً » . وقال النبي ﷺ : « أيما داع دعا إلى هدى فأتبع عليه كان له أجره وأجر من تبعه » . وقال النبي ﷺ : « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط أحدهم » وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل أحدهم » . وقال : « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة : إمام عادل » رواه عنه أبو سعيد الخدري . وقال لمعاذ : « لأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك من الدنيا وما فيها » . والقاضي كذلك ، إن عدل وأصاب الحق كما رواه أبو بريدة عن النبي ﷺ أنه قال : « في الجنة » يعني الذي قضى وأصاب الحق .

وقد اختلف في الطلب للدنيا . بعد القوت : إن طلب وسلم وتصدق به . فقالت فرقة : التارك أفضل وأزهد .

وقالت فرقة : إذا سلم وتصدق به فهو أفضل ممن ترك ؛ لأنه قد اكتسب من العمل ما لم يكتسب غيره ، وإنما يسأل عن ذلك كما يسأل عن الصلاة والصيام ؛ ليثاب عليه . ونأمره بالترك خوفاً ألا يسلم ! .

باب ما يجوز للعبد من محبته لمحبة الناس له

قلت : هل يجوز أن أحب أن يحبني الناس ؟

قال : أما على طاعة بعينها ليحمدوك عليها فلا تحب بالطاعة إلا إلى الله عز وجل ولا ترد حمد غيره ، وأما أن تحب أن يحبوك لغير طاعة محمودة عندهم ، ولكن لتخف على قلوبهم ، ويحبوك : للستر ، على غير طاعة يحمدونك عليها ، فلا بأس ، لأنهم لا يحبونك على الطاعة إلا حتى يعرفوا فضلك ويحمدوك بقلوبهم ، ثم يحبونك ويعظمونك ويرونك ؛ فلا يجوز لك طلب ذلك منهم بطاعة الله عز وجل .

قلت : فقول النبي ﷺ حين قال له رجل : دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس . قال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ودع أو انبذ إليهم هذا الحطام يحبوك » وقد قال النبي ﷺ : « إذا زهدت في الدنيا أحبك الله عز وجل ، وأحبك الناس » .

قال : صدق ﷺ لأنه إذا ترك ما أبغض الله عز وجل وهنى الدنيا وآثر الله عز وجل بها وهى شهوته أحبه ، فمن ترك شهوته لربه عز وجل أحبه الله عز وجل ! فلا يمتنع الخلق أن يحبوا من آثرهم على نفسه ، فكيف بأكرم الأكرمين .

ومن زهد في الدنيا لم يكن على أحد منهم أذى ولا مؤنة ، والناس يحبون من كان كذلك ، وقد يقذف الله ، عز وجل ، بالمحبة في قلوبهم لمن تحب إليه . ولم يقل له : دلني على أمر أريد به حمد المخلوق وحمد الله ، عز وجل ، ولم يقل النبي ﷺ : ازهد في الدنيا وأرد بزهدك الله وخلقه ، ولكن أمره بالزهد لله عز وجل ، وحده ، وأخبره أن الله عز وجل ، يحبه ويحببه إليهم لصدقه ، لأنه أراد وحده جل ذكره ، ودله على ما يعزل على الناس أذاه ومؤنة . فلا يمتنعون من حبه .

قلت : أليس قد أظهر السائل والنبي ﷺ الترغيب في محبة الناس ؟

قال : لا بأس بالترغبة في محبتهم من عند الله ، عز وجل ، بعد الصدق منه لله . عز وجل وحده ، ألا ترى إلى قوله : « ازهد في الدنيا » . وحب محمدتهم من أكبر الرغبة في الدنيا والزهد في حب محمدتهم من أكبر الزهد في الدنيا ؟

فقد انتظم له أن يزهد في حمدهم وغيره من الدنيا حتى يكون الله عز وجل ، هو الذى يورث
قلوبهم المحبة له ! ومع ذلك : إنه حديث منقطع لا يضاد بالآثار فى النهى عن طلب محمده
الخلق بطاعة الله عز وجل .

باب ما يصح للعبد من غمه عندما يظهر للخلق من ذنوبه

قلت : هل يصح إذا اطلع على بعض ذنوبى أن أغتم بذلك ، ولست أجد الغم يكاد ألا يعرى منه أحد ؟

قال : إن الغم : فعل الطبع ، إذا ورد عليه ما يخالف طبعه فعرفت نفسه ذلك بعينه هاج الغم ، فالغم فعل الطبيعة . والطبيعة : الغريزة على ما وافق ولم يخالف من قول أو عمل أو غير ذلك ، فإذا هاج الغم عن الطبع كان الإخلاص والصدق أو الرياء والكذب عند ذلك ؛ حيثئذ يدعو العدو والنفس إلى الجزع من زوال المتزلة عندهم ، وسقوط الشهادة وترك البر والتعظيم للطاعة ، فإن قبل ذلك وجزع لذلك فقد استعمل غمه لما ينقصه في دينه ، وإن كان غمه خوفاً أن يهتك ستره في القيامة لقول النبي ﷺ : « ما ستر الله عز وجل ، على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة » ، أو اغتم بما يعارضه طبعه مما امتحن به خوفاً أن يشغل ذلك عقله عن الله ، عز وجل ، فقد أخلص وصدق ! وإن لم يستعمل واحداً من الأمرين ، وترك الغم الذى هو فعل الطبيعة ولم يستعمله ، لم يضره . ومن شغله الغم بعلم الله ، عز وجل ، بذلك الذنب عن الغم بعلمه ، فذلك أولى وأفضل ! ومن شغله الغم بعلمهم عن الغم بعلم الله ، عز وجل ، فذلك الخاسر !

باب في ستر المعاصي عن العباد وإن اطلع الله عليها

قلت : فامعناه في تستره أن يظهر معصيته للعباد وهي الله عز وجل بادية ؟
 قال : لقد كان أولى بالعبء ألا يخفى شيئاً سوى ما يظهره للعباد من الخير ، وأن تكون سريره
 مثل علانيته بل أفضل ، كما قال عمر ، رضى الله عنه ، لرجل : عليك بعمل العلانية .
 قال : يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟
 قال : ما إذا اطلع عليك لم تستح منه .
 وقال أبو مسلم الخولاني : ما عملت عملاً أبالي أن يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول
 والغائط .

ولكن الصادق إذا بُلى بالذنب تستر لذلك ! حياء لغير طلب الرياء ، ولما جاء عن الله عز
 وجل : أنه « لا يحب إظهار المعاصي » وعلى ما أجمع عليه المسلمون أنه من أظهر سوءاً فهو
 المتهتك ، وهو أعظم عند الله ، عز وجل ، ممن استتر بستر الله ، عز وجل ! والمرأى إنما يستر ذلك
 ليحمد على الورع وليس بورع ، وأن يوهم أنه لله ، عز وجل ، خائف تصنعاً منه للعباد ورياء
 لا ورعاً لله ، عز وجل ولا حياءً من العباد .

باب ما يستحب فيه الحياء وما يكره فيه

قلت : قد أكثر الناس في الحياء ، فكل مداهن ومراء يدعى الحياء ، والصادق يدعى الحياء ! فهل من الحياء ضعف ومنه خير ؟
قال : الحياء كله خير ، كما جاء عن النبي ﷺ ، وقول من قال منه ضعف إنما يروى في بعض الكتب ، لا يدري ما ذلك .

وقد غضب من ذلك عمران بن حصين حين قال رشيد بن كعب : إنه يقال في الحكمة ! إن منه ضعفاً ! فقال : والله لا أحدثكم حديثاً اليوم : أحدثكم عن رسول الله ﷺ وتحدثوني عن الصُّحُف ! ! فما كان عن النبي ﷺ فهو أولى ، وقد قال : « الحياء شعبة من الإيمان » .
وقال عليه السلام : « إن الله يحب الحيى الحليم » .

فالحياء : فعل من الطبيعة الكريمة ، يختص به من يشاء من خلقه . ينفع العاصي والمطيع ؛ أما المطيع فقد زایل كل خلق دنيء ، وأما الفاسق فلم يجمع مع فسقه إلا فسوقاً وتهتكاً .
وقد جاء الحديث : « إن العصاة إذا تركوا الحياء وتهكوا فلم يغير عليهم عاقب الله ، عز وجل ، العامة والخاصة » .

قال أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا ظهر سوء فلم يغيره الناس أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

وقالت أم سلمة : « أنهلك يا رسول الله وفيما الصالحون ؟ قال نعم إذا ظهر سوء فلم يغير » .
وآثار كثيرة .

فالحياء : غريزة كريمة . فعندها يجد العدو الدعاء إلى الرياء . فإن أطاعه العبد اعتقد الرياء واعتل بالحياء وصدق قد أهاجه أولاً الحياء ، ثم خطر العدو بالرياء فقبله ، فكان مرئياً إذا تنقل من الحياء إلى الرياء وقد يهيج الحياء على أن يريد الله عز وجل . فيضم إلى الحياء الإخلاص لله عز وجل ، فإن فعله للحياء أو تركه لغير ذكر الإخلاص ولا رياء - ولا يكاد يكون ذلك - فهو خير لقول النبي ﷺ : « الحياء خير كله وشعبة من الإيمان » ما لم يكن شياً أولى به فيه الحياء من الله جل وعز .

فالحياء : من كل خلق دنيء في دين أو دنيا .

ومثل ذلك : كمثل رجل أتى رجلين فسأل أحدهما قرضاً أو صلة ، فكان أحدهما ليس في قلبه حياء ، فردّه ، إذ لم تسخ نفسه بالإعطاء ، والآخر سئل مالا تسخوبه نفسه ، فيمنعه الحياء من البخل من أن يرده ، فأمسك عن إظهار الردّ ، وبادر ليفعل ؛ فوجد إبليس موضع دعاء ، - والنفس - فقال : أعطه ، لا يقول : ما أنجله إن لم تعطه ! أو أعطه ليثنى عليك به ويعظمك به ، أو أعطه ليكافئك عليه ؟ وهذا أسرها ، فاعتقد ذلك ، وأعطاه ، ولا يشك أنه أعطى للحياء عند نفسه لبدو هيجان الحياء من طبعه .

ويسأل آخر مالا تسخوبه نفسه فلم يقو أن يرده لما حاج في قلبه من الحياء ، فخطر خاطر الرياء فنقاه وقال : لا ، بل لله عز وجلّ ، أو لما رأى نفسه تمتنع من الرد من أجل الحياء ذكر في ذلك الوقت ثواب الله عز وجلّ ، فأراد ؛ وتولوا الحياء لردّ صاحبه ، ولما أمسك حتى ينوى الإعطاء لله عز وجلّ ، ولو أنه أخلص بالإعطاء شكراً لمن جعل غريزته تبيح بالحياء ، أو لمن وهب له الحياء ، ولم يجعله كمن لا يستحي دون طلب الثواب ، لكان الله عز وجلّ ، يستحق ذلك فكيف يطلبه الثواب ؟ ! .

وآخر يسأل أشياء ، فهاج من الحياء مالا يملكه ، فأعطاه العزم عليه ولم يقبل خطرة رياء ، ولم يذكر ثواباً ، وما أقل ذلك : أن يعطى عبدٌ أو يعمل ، أو يترك إلا لرغبة أو رهبة ، فإن أعطاه على ذلك الحياء أو أمسك عما لا ينبغي أعطاه مع الحياء ، فهو خير عن خلق كريم ، مالم يعتقد الرياء .

ومن جمع مع الحياء إرادة الله ، عز وجلّ ، وثوابه ، فذلك أفضل ؛ لأن الحياء غريزة كريمة ، لا يعطاه كل أحد ، ولا يتزع الحياء إلا من قلب شق ومن ذلك ما يروى عن النبي ﷺ : « أن رجلاً من أهل اليمن أراد أن يشرب سويقاً عند النبي ﷺ فاستر بثوبه من الناس ، فقال رجل ما هذا ؟ فقال النبي ﷺ هذا الحياء يعطيه الله قوماً ويمتنعه آخرين .

فاذا حاجت تلك الغريزة فعندها يعتقد الإخلاص أو الرياء أو يعمل عليها بغير عقد رياء ولا إخلاص .

وكل مرأى يمكنه أن يعتل بالحياء .

وقد ينجل إلى بعض المرئيين أنه مستح ، وإنما هو مرأى لا يستحي من تصحيح الفرض ، ويستحي من أشياء مباحة كاستعجال المشي ، لأنه خروج إلى الخفة ، وكثرة الضحك ، فيقصر

رياء وجزعاً من الزوال عن الخشوع عندهم .

وقد يأتي الشيء استحياء منه من الخلق ، والحياء من الله عز وجل في ذلك أولى ، فهو كخير أفضل من غيره من الخير كالرجل يرى من شيخ مسلم منكراً فيريد أن يأمره فيستحي من شيبته . فالحياء من ذى الشبهة وتوقير الكبير خير .

وخير من ذلك ألا يدع أن يأمره ! ولو كان مستحيًا من شيبته ؛ لأن من الدين والأخلاق الكريمة إكرام ذى الشبهة ، وكذلك رواه أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن من إجلال الله عز وجل إكرام ذى الشبهة المسلم » والحياء من الله عز وجل أولى ألا يضيع الأمر من أن يقوم فيه لله عز وجل ! وإن استحي منه فليؤثر الحياء من الله عز وجل ، على الحياء من الخلق . فافهم ما وصفت لك من الحياء فإن كثيراً من الناس يغفلون في ذلك ويكذبون على الحياء . ويرون ذلك أنه حياء .

وكل ما يستحي منه العبد لا يعقب رياء فلا بأس به : كحيائه من وسخ ثوبه ووسخ جلده . والسواد على ثوبه وعلى جلده ، وما أشبه ذلك ، فلا بأس به ما لم يعقب رياء في الدين !

باب من أين ينبغي للعبد أن يكره ذم المسلمين له ومن أين لا يكرهه ؟

قلت : أليس ينبغي للمسلم أن يكره ذم المسلمين له ؟ .

قال : بلى ، ولكن قد يكرهه على وجوه :

قد يكره ذمهم خشية أن يكون ذلك دليلاً على ذم الله ، عز وجل ، له ، لقول النبي ﷺ : أنتم شهداء الله في الأرض ، هذا ما لم يظلموا في ذمهم ولم يكذبوا ؛ وكراهة أيضاً أن يغيروا قلبه فيشغلوه عن الله عز وجل ، أو يحبوا ، منه إليهم ما لا يحل ، فيعصى الله فيهم ، بقلبه ، أو جوارحه ؛ أو إشفاقاً عليهم أن يعصوا الله فيه .

والذى هو أقل ذلك ، وهو مباح : أن يكره أن يقتّم بما يسمع أو يشقّ عليه ؛ لأنه مخالف للطبع فلا يكاد أن يتمتع أن يهيج الغمّ لسماعه ما يكره من القول فيه ، فليس عليه في ذلك جناح أن يكره ما يشقّ عليه فيما يهيج من فعل طبعه ؛ وألا يجب أن يقتّم . وإن ذمّوه فاغتم لما هاج من الطبع ؛ فلا بأس به ما لم يكن يكره الذمّ ويقتّم له جزعاً أن يزول عنه الحمد بالطاعة ، ومحبة أن يُثبوا عليه بالورع ويبروه على الورع ويأكل بدينه ، ولا يجب أن يقولوا عليه غير ذلك ، فيزول عنه الثناء بعمله والبر على طاعته ؛ فإذا كان ذلك فقد نقص في دينه ، وإن هو لم يراء بطاعة الله ، عز وجل ، من أجل ذلك ولم يخرج من ذلك لأن يتم له الثناء على طاعته الله عز وجل وسلم من ذلك ، وشغله مع السلامة من الرياء غمّ ذمهم ، إذا كانوا صادقين فيه عن الغمّ لله ، عز وجل فقد نقص وغبن ، بل ما يرضى كثير من الناس بالغم بزوال الثناء بالدين ، حتى يتبدى أعمالاً أخر لم يكن يعملها ليزيل ذلك الذمّ عنه والخروج إلى الاعتذار بالكذب والتصنع . والمؤمن لا يطلب بطاعة الله ؛ عز وجل ، حمد المخلوقين ، ولا يكتسب ذمهم ولا يحبه ، لأن فيه شغل قلبه وحنّة له ، لعله أن يخرج إلى ما لا يحل له وعصيان المسلمين فيه بالطاعة ؛ فالطاعة يريد الله ، عز وجل ، بها ولا يريد بها العباد ، وذمّ العباد لا يحبه ، ولا يكتسبه ، ولا يطلبه ، ويجب ألا يعصوا الله ، عز وجل ، فيه ولا يشغلوه عن ربه ، عز وجل ، وأن يسلم دينه ، وأن يسلم عليهم .

قلت : فإذا كان لا يجب ذمهم ولا حمدهم على طاعة ربه وليس بينهما منزلة ، فإذا لم يجب ذمهم أحب حمدهم ، وإذا لم يجب حمدهم فهو يجب ذمهم .

قال : إن غمه بذمهم على طاعة ربه عز وجل ، ليس يجرع منه ، لسقوط منزلة ، ولا حب ثناء ، ولكن لشغل قلبه ولعصيانهم فيه ، فكذلك ، لا يجب حمدهم على طاعة الله عز وجل . قلت : فيحب حمدهم لسقوط الشغل عنهم ولطاعتهم فيه لربه ، عز وجل .

قال : إن شغله لحب الحمد ، وطلبه لتسكين الشغل عن قلبه ، بحبة الثناء والتعظيم على طاعة ربه ، عز وجل ، فقد تعجل ثواب ذلك ، وإن كراهته لشغل قلبه بالذم ومحبته أن يزول الشغل عن قلبه طلب السلامة ، لا أنه معتقد للشغل يجب حمدهم ، ولكن كراهة أن يجاهد طبعه ، فلعله أن يغلبه في حال غفلته ، فكلماً دفع ذلك عنه أن يمتحن به عداها نعمة من ربه عز وجل . قلت : فالحمد ، أيضاً ، يحبه جملة لغير طاعة ، لثلا تعارضه محنة ذم على طاعة يجاهد عنها طبعه ، فيشغله ذلك ، ولعله أن يزول .

قال : إن في وقوع الذم تفار الطبع وليس في دفع الحمد إذا لم يعقبه ذم تفار الطبع إلا جزعا لحب المنزلة ، وطلب الحمد منه لا يكون من قلبه إلا رجاء أن يحمده على خير وطاعة ، فإذا دعت النفس الحمد على جملة فقد علم أنهم لا يحمده إلا على خير وبر .

قلت : وكيف جوزت حب الحمد بعد العمل للستر عليه ؟

قال : لم أجوز لهم إلا سروره بنعمة الستر بعد ما مضى العمل خالصا ، وبين الحمد والذم منزلة .

قلت : وما وهي ؟

قال : أن تخلو قلوبهم من حمدهم على طاعة الله ، عز وجل ، ومن الذم كقلب من لا يعرفه ولا يذمه ولا يحمده ، وكقلب من يعرفه فينسى إحسانه ، فلا يحمده ولا يذمه أو يذكر إحسانه ذلك ولا يتفرغ قلبه لحمد ولا ذم ، فهو لا يجب أن يذمه كراهة الشغل ، ويجب ألا يحمده على طاعة ، لكراهية الرياء والزهد في المنزلة ، ويجب أن يخلو من ذلك جميعا ، فلا يكون منهم حمد فلا ذم على طاعة ، ولو اعتقدوا ذمه بعد أن لا يعلم به لكان عليه ، إذ لا تقع فيه المحنة ، إلا أنه لا يحبهم لهم ، وإن لم يعلم به ، لألا يعصوا الله عز وجل فيه ، وفي الحمد هم مطيعون .

قلت : أليس الحمد والذم منزلتين : إحداهما قبل الأخرى ؟

قال : إنه ليس بين الفعل والترك منزلة ، لأن الترك للفعل فعل ثانٍ ، فالفعل ضروب . فيكون

العبد يفعل فعلاً آخر ثالثاً ، لا حمد ولا ذم ، ويفرغ قلبه من الحمد والذم لبعض العباد ، فهو يحب أن يكون ذلك العبد يعيش عُمره لا يحمده أحد على طاعة ، ولا يذمه أحد ؛ لألا يستغل قلبه عن الشغل بالآخرة ، ولا آمن أن يجيء منه إليهم ما يأثم فيه ، ومحبة ألا يعصوا الله ، عز وجل ، فيه ، وإن كان من يذمه محسن لم يحب الذم منه ؛ خشية أن يزداد إثماً أيضاً أن يذكرهم بما لا يحل له ، وأدنى ذلك : أن يشغلوا قلبه عن ربه عز وجل !

باب كيف يكون قلب الصادق عند كراهية المنزلة عند المخلوقين وحبه لإخمال ذكره

قلت : كيف يكون قلب الصادق في ذلك ؟

قال : تكون نفسه سخيّة ، أو يكون في الخلق ما عاش ، لا يخطر بقلوبهم حمدُهُ ولا معرفَةُ فضله ، ولا تنطق بذلك ألسنتُهُم بالزهد في المنزلة ، سخيّاً بذلك لرَبِّه ، عزَّ وجلَّ ، دون خلقه . قلت : ألم تجوز للعبد أن يحبَّ رفعَ الشغل عنه ، والمعصية عن غيره ، بذمّه ، وإن كانوا ذامين له ، من قبل الغضب لله ، عزَّ وجلَّ ؟ يذمون في وجهه ، ويعظونه ولا يغتَابونه ؟ قال : يغتمُ لذلك من أجل هتك السرِّ ، ويحبُّ لو بعث الله ، عزَّ وجلَّ ، إليه من يوقظه ويعظه ، ويحبُّ مع ذلك أن الله عزَّ وجلَّ ، كان ستر عليه . ويعظه من قلبه ، ولم يكل عظمته وتأديبه إلى غيره بهتك ستره .

قلت : فإذا كان الذمُّ إذا وقع كرهه للشغل والمعصية للعباد إذا كان بما لا يحل لهم لم لا جاز أن يفرح بالحمد منهم ، إذا كان يدفع الشغل عنه . وحبَّ طاعتهم ؟ قال : جاز إذا كان يدفع الشغل عنه . وحبَّ طاعتهم . وكان لغیر قيام منزلة ، إذا حمدوه بعد ما يفرغ من العمل ، أو حمدوه قبل أن يفرغ من العمل ، أو حمدوه على جملة على غير عمل يسمونه ؛ كمثلاً : عافاه الله وجزاه خيراً ، أن يعدها نعمة إذ ستر القبيح ، وأظهر الجميل ، وحبَّبه إلى خلقه . وهو يتبغض إليه ، ويفرح لهم بأن يطيعوا الله ، عزَّ وجلَّ فيه ، وأن يقتدوا به ، إن كان موضع قدوة لهم ، متفقدًا لقلبه مع ذلك ألا يكون فرحه لحبِّ المنزلة عندهم ، وليحذر مع ذلك أن يكره أن تظهر منه فترة بعد ذلك فيغتم ؛ لألا يتغيروا له عن حمدهم ، أو يبتدئ في عمل وهو معتقد بقلبه أن يحمده عليه ، إن اعترضت له محبة نداء ، وتعظيم بطاعته ، أو بالبر والصلة - نفي ذلك - شكراً للذي ستر عليه قبيحه ، وأظهر جميله فعامله وحده وأخلص له قلبه . قلت : فما معنى إذا قول عبد الله : حتى يكون حامده وذامه في الحق سواء ؟

قال: ذلك صحيح : يستوى حامده وذامه في نفسه ، للإخلاص والصدق لله عزَّ وجلَّ والزهد في حمد من لا يضرُّ ولا ينفع ، لأن الخلق عبيد ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . فهم

لغيرهم أولى ألا يملكوا له ضرراً ولا نفعاً ، فزهّد في حمدهم ، فلم يبال بئهم ! واستوى ذلك عنده لنفسه ، إذ الأمر في المنفعة والمضرة واحد ، وأن ذمهم لا يوجب ضرراً ، وأن حمدهم لا يوجب منفعة كما روى عن النبي ﷺ قال له رجل ، وهو شاعر بني تميم : يا رسول الله ، إن حمدي زين ، وذمي شين ، قال : كذبت : ذاك الله ، عز وجل .

فلما استيقن المؤمن ، وعلم وصدّق بأن الله ، عز وجل ، إله واحد ، وكل ما سواه مألوه مريبٌ مدبّرٌ مصنوع ، لا يحدث في ملك مولاه وربه ، عز وجل ، ما لا يريد ، ولا يكون إلا ما أراد ، خلع من قلبه رجاء من لا يملك له ضرراً ولا نفعاً وخوفه ، واستوى عنده حمد المخلوقين وذمهم ؛ إذ كانوا بهذه المنزلة ، ولم يستو عنده حمد الخالق وذمه ؛ إذ الملك كله له ، والمنفعة والمضرة من تدبيره ، عز وجل ، وصنعه ، فاحمده الله ، عز وجل ، من الفعل أمل فيه الثواب بعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، وذلك أعظم المنفعة ! وما ذمه عليه الله عظم عليه ، وخاف عقابه في الدنيا والآخرة ، إذ لا مالك لها غير مولاه وإلهه ، وما حمده الخلق أو ذمّوه استوى عنده ؛ إذ لا ملك لهم في المنفعة ولا في المضرة في الدنيا والآخرة بما لم يرد مولاه ولم يشأه .

باب استواء الحمد والذم في قلب العبد والفرق بين حبه لنفسه ولربه ، عز وجل

قلت : مثل أى شئ يستوى ؟

قال : كرجل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، فحمده من العباد حامد ، ونظر ، فإذا حمده لم يزد في رزق ، ولم يؤخر له في أجل ، ولا زاده في صحته ، ولا دفع عنه سقماً ، ولا وجب له ثواب في الآخرة ، فكان عنده كأنه لم يكن ، ثم ذمه آخر على أمره ونهيه ، فقال : مُراءٍ مكلف ! فنظر فإذا ذمه لم ينقصه من رزق ، ولا من عمر ، ولا أزال عنه صحته ، ولا أحلَّ به سقماً ، ولا وجب به عليه عقوبة في الآخرة ، فكان الذم منه لم يكن ، فاستوى ذم من ذمه وحمده من حمده لنفسه ، إذ لم ينل بمحمد الحامدين منفعة ، ولم يُصِبْ بذم الدائمين له مضرة ، فيستوى لنفسه ولا يستوى لربه ، لأن الذي حمده قد أطاع الله ، عز وجل ، فيه بحمده للحق ، وجهه للقيام به ، وجه لمن أطاع الله عز وجل ، والذي ذمه على الحق قد عصى الله فيه ، وأبغض الحق ، ولم يجب عليه ، فيفضيه على معصيته لله ، عز وجل ، في ذمه للحق وأهله ، فلا يستوى لربه ويستوى لنفسه .

قلت : هذا معنى غامض دقيق لا يعقله مثلى إن لم تكن تشرحه لى ، كيف يميز بين ذلك وطبعه يتنازع إلى الحمد ، وينفر من الذم ! وكيف يستويان لمعنى ، ولا يستويان لمعنى آخر ؟ قال : هو معروف موجود إذا قررت : أن الحامد للحق مطيع لله ، عز وجل ، والذام للحق وأهله عاص لله ، عز وجل ، فقد ثبت الفرقان بينهما في الحب والبغض ، وثبت المساواة بينهما لنفسه ، لا لربه عز وجل ، إذا لم يتنفع بالحمد ولم يُضرَّ بالذم . قلت : لابد من معنى تنصبه لى أعرف به كيف أفرق بينهما وأستدل به على ما يكون من طبع ، لما أجد في الحمد والذم ؟

قال : إن الذى يسوى بينهما لنفسه قد يخالف بينهما لمنازعة النفس وخطر العدو ، ولكنه كاره لذلك ، راد على هواه وعدوه ، وقد يقوى ويعلو في الإخلاص ، حتى يأتى عليه بعض الحال يُدْمُ ويُحَمَّدُ فيها ، فلا يكاد أن يتغير طبعه لما قد قهر الطبع من قوة عزم العقل ونور الإخلاص ، وقد

ينازع طبعُ هذا القوى في بعض الحالات ، إلا أنها منازعةٌ ضعيفة ، لغلبة الصدق على قلبه ، ومن لم يقوَ فعله المجاهدة والردّ على دعوى نفسه وعدوه ويسوى بينها بعقله وعلمه ، وإن نازع الطبعُ إلى الخلاف بينها ، حتى يعلو ويقوى ، فتخفّ المحنُ ويضعف دعاء الغريزة ويهنُ ، ولما ثبت أنه إذا سوى بينهما بعقله ، لـمـ استودعه الله ، عز وجل ، من العلم بمعرفة الخلق والمخالق ، كانا عنده سواء ، كما أمر وندب إليه ، ولم تضره منازعةُ نفسه إياه ، وكذلك إذا فرق بينها في الحب والبغض لربه ، عز وجل ، وسأوى بينهما لنفسه سلم وصدق .

قلت : فبِمَ يعتبر ، حتى يعلم أنه قد صار إلى ما قلت ؟ إن التبس عليه وخاف أن يكون الفرقان بينها للحب والبغض لنفسه ، وهي تدعى أن ذلك لربه عز وجل .
قال : يعرض على قلبه : أن لو كان الحمود على الطاعة غيره ، والمذموم عليها غيره ، كيف كان جُبه الحامد ، إذا أحبه الله ، عز وجل ، وبغضه الذام إذا أبغضه الله عز وجل ، ويحمل قلبه على أن يدين الله بمثل ذلك سواء .

قلت : فالطبع لا يستوى فيه حمده وحمد غيره ، وذمّه وذم غيره .
قال : أجل ما أقل ذلك ولكن يتدبّر بعقله وعلمه أن يحبه ويُبغضه على نحو مما يبغض من يذم غيره ويحب من يُحمد غيره ، ويكون رادّاً على هواه ، كارهاً للفضل بينها كما يكره منازعة النفس ومخالفتها بين الحمد والذم ، إذا استوى ذلك عنده ، من قبل تدبّره بعقله لربه ، عز وجل ، وكذلك يستويان عنده في الحب والبغض للحامد والذام لغيره والحامد والذام لنفسه ، ويكره ما نازع من الطبع من الزيادة والفضل بينها التي تنازع الطبع إلى التفرقة بينها ، وإذا فعل ذلك فقد دان الله بالحب والبغض للمطيعين والعاصين ، ودان الله عز وجل ، بالتهاون بحمد المخلوقين وذمهم ، فاستوى ذلك عنده ، وما خالف هذين بالمنازعة من قبل هواه كرهه ولم يركن إليه ، كما أمر بنهى النفس عن الهوى .

قلت : إن الإخلاص منزلة شريفة لا يبلغ مثلي إليها ، لأنها منزلة الخاصة ، وأنا مخلط .
قال : ما أحد أحوج إلى الإخلاص من المخلط ! لأن المتقى لو حبط تطوعه كله نجاً بتقواه ، والمخلط إنما يكتمل بتطوعه فرضه . فإن حبط تطوعه بقى فرضه ناقصاً فهلك إلا أن يعفو الله . عز وجل ، بعد أن يلقى الله عز وجل على توبته من الرياء .

باب في الرياء للوالدين ليرضيا ، وللعلماء ليستفيد به علماً

قلت : فهل يجوز الرياء للعالم ليستفيد منه علماً ، لا يريد بذلك دنيا ، ورياء الوالدين ليرضيا عنه ، يريد بذلك رضاها ولا يريد بذلك دنيا ؟

قال : لا ، هذه أغلوطة وخدعة لأن الله عز وجل ، إنما أمرك أن تعمل له وحده وتريده وحده ، ورياءك لتزداد علماً خسران وجهل . فكأنك قلت : أخسر عملاً بازدياد علم ، لأن إرادتك أن يحمدك العالم ضد إرادتك أن يحمدك الله عز وجل ، فذلك يحبط عملك ، ولعلك لا تستفيد علماً . ولعلك إن استفدت لن ينفعك الله ، عز وجل ، به بسوء إرادتك ، لما رأيت بعملك ، وليس رياءك بالذي تزداد به علماً إذ كان ما يصير إليك من العلم مقدوراً رأيت أو أخلصت ، فإنه لا يصل إليك إلا ما قدر لك ، وما لم يقدر لك لن يصل إليك ، وما علم العالم بأنك تريده فيزيدك علماً ، بل لو علم أنك إنما تريده لغيره لمقتك - وكنت أخرى أن يمنعك العلم - لما ظهر له من سوء ضميرك ، فكيف تأمن الله عز وجل ، أن يمنعك ما تأمل من العلم ، لما يعلم من سوء ضميرك ، وإن أعطاك إياه منعك المنفعة به عقوبة ، فتكون إنما ازدادت حجة ولم تنل منفعة ، مع خسران العمل وجبطه وتعرض للمقت .

وكذلك والداك : إنما تطلب رضاها لرضى الله ، عز وجل ، وفي رضى الله عز وجل ترك الرياء له ، فكأنك قلت : أطلب رضى الله عز وجل ، بسخط الله عز وجل . فهذا متناقض ومحال لا يقوم في وهم ، ولا يقرب به عقل ، ولعله لا يزداد إلا سخطاً عليك ، لأنك إنما توهم بما يظهر له منك أنك في الضمير تطيع الله ، عز وجل ، فيلقى الله عز وجل . كذلك في قلبه عقوبة ، فيزداد لك مقتاً وبغضاً ، لثقلك على قلبه ، كما لم تهب الله عز وجل ، في ضميرك فتخلص له عملك .

فاتق الله عز وجل ، فإن هذه خدعة : أن تطلب رضا والداك بما لا يرضى الله عز وجل ، وإنما تريد برضاها ، زعمت ، رضا الله عز وجل ، فتطلب رضا الله بسخط الله عز وجل .

باب الرجل يحضر القوم يصلون فتحضره نية للعمل وإن لم يكن يفعل ذلك في خلوة أو يكون فلا يجد البكاء

قلت : الرجل يبيت مع القوم في منزل بعضهم أو في منزله ، فيقومون ، أو يقوم بعضهم ، فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن لا يقوم وحده في منزله من الليل كما يقومون ، إنما يصل ركعات ، ثم يوتر ، أو إماماً أن يقوم في منزله دون صلاته ، فتحضره نية ومحبة أن يقوم معهم ، ويرتاب بنفسه ، إذ كان لا يقوم في منزله مثل ذلك ، أبدع الصلاة ولا يزيد على ما كان يصل في منزله ، أو يصل معهم ؟

وكذلك لو حضرهم بالنهار في منزل أو مسجد ؟

قال : إن أسباب الدنيا مشغلة مفترقة قاطعة عن العمل ، وإن أسباب أعمال الآخرة محركة مهيجة على العمل ، فإذا كان الرجل في منزله قطعت الأسباب : من حب النوم مع زوجته وأهله أو على فراشه ، إن كان له ممكناً أن ينام عليه ، أو أكل طعام ، أو حديث مع زوجته ، أو شغل بولده ، أو ينظر في حساب أو غيره ، فيفتر لهذه الأسباب ونحوها ، وأخرى أن قيامه في منزله ، وإن قل ، دائم ، فلا يقوى على الدوام مع الكثرة ، فإذا صار إلى موضع غير منزله زالت هذه الأسباب عنه المفترقة المشغلة له عن القيام ، فحضرته أسباب تهيج على ذلك وتحركه عليه ؛ وذلك رؤيتهم وهم يصلون فيحركونه بصلاتهم ، ويحمد الغبن أن يسبقوه بصلاتهم ، وربما لم يأخذ النوم لاستنكار الموضع ، أو لأصواتهم وحركاتهم ، فيستغنى ذهاب النوم ، فيجعل سهره في صلاة ، وقد لا يستنكر الموضع ويمكنه النوم ، ولكن حركوا قلبه للقيام ، وزالت عنه الأسباب المشغلة له ، وإنما هي ليلة أو ساعة أو ليال قليلة أو يوم واحد ، ثم ينقطع ، فيخف على النفس ، لقلة الدوام على ذلك ، ويقتنم ذلك إذا وجد على نفسه أعواناً يحركونه للقيام بصلاتهم ، فقد تحضره النية الصادقة بذلك ، وقد يكون ذلك خدعة من نفسه تحيل إليه أنه صادق يريد الله عز وجل ، بذلك لما حركوه بقيامهم ، وإنما هو جزع من ذمهم له والنظر إليه بالنقص أن يقولوا في أنفسهم : ليس

هو من يقوم الليل ، أو ما كنا نظنه إلا صاحب قيام بالليل ، أو كنا نظنه يصلى أكثر مما صلى هذه الليلة ، أو جزع أن يكسلوه إذ لا يتحرك بحركتهم .
قلت : فما الفرق بين المهمتين ، وبين المعنيين ؟

قال : الفرقان بينهما : أن يعرض على نفسه أن لو كان وحده ، وزالت عنه الأسباب التي كانت تشغله في موضعه ، أو علم بصلاتهم ، فرآهم يصلون من حيث لا يرونه ، ولا يعلمون به ، فيخاف مذمتهم ، إن هو لم يصل كما يصلون ، وعلم بهم من وراء جدار ، أو سائر لهم عنه ، فعلم بهم ولم يعلموا به ، ويحركه بمثل ماحركه به ، وهم لا يرونه ، أكان قائماً أم لا ؛ فإن طابت نفسه بذلك فليصل ما بدا له ، وإن لم تطب نفسه فلا يزيد على ما كان يصلى في منزله ركعة ، وكذلك الصيام : إذا حركه به ، وكذلك إن لم يصل منهم أحد ، ولكن حضر معهم قراءة القرآن أو عظة ، فتحرك قلبه لذلك ، فأراد أن يصلى ما لم يكن يصلى من قبل ، وكذلك إن لم يكن حضر معهم قراءة قرآن ولا ذكراً إلا أن النوم طار عنه ، فليعرض على نفسه : أن لو كان في موضع لا يرونه ، وسمع تلك القراءة أو العظة ، أو طار عنه النوم ، أكان مصلياً ؟ فإن طابت نفسه وسخت بذلك فليصل ، وإلا فلا يزيد على ما كان مصلياً من قبل .

قلت : فإن كان وقت ماحركه - وهم يرونه - يجد من نفسه حركة للقيام ومسارة من قلبه فلا يقوم : إما كسلا من نفسه من تحمّل القيام وأن تقول له نفسه : انعس ، وإما أن يدعوه من قلبه داعٍ : أن القيام لا يصح لك ، لأنك لا تقوم في منزلك مثل هذا القيام .
قال : إن كان كسلا وفترة من النفس ، والقلب قد سخا بالقيام معهم ابتغاء مرضاة الله وحده ، جل ذكره ، لا يجد غير ذلك فليقم معهم ، فأما الداعي أنه لا يصح لك معهم ذلك فقد يكون من العدو ، ويكون من الله عز وجل : فإن وجد من نفسه الغالب على قلبه حب القيام لله وحده ونفسه سخيّة أن لو خلا وحده وحركه بمثل هذه الحركة ، من حيث لا يرونه ، قام فليقم ، وإلا فلا يقيم إن وجد الأغلب على قلبه أنه لا يصح له القيام ولا يجد نفسه طيبة بالقيام لو خلا ورآهم يصلون من حيث لا يرونه ، أو طار عنه النوم ، أو سمع مثل ما سمع من القراءة والعظة ، من حيث لا يرونه ، فلا يصلى ولا ركعة .

قلت : فإن كان يعرض حب حمدهم مع ما حضره من النية ؟
قال : إن كان الغالب على قلبه حب القيام لله عز وجل ، وكان كارهاً لحب محمدتهم ، راداً على المنازع من نفسه حب حمدهم ، ونفسه سخيّة أن لو خلا ، وهو يراهم . فحركه بمثل ذلك

لصلى فيصلى معهم ، ولا يدع الصلاة من أجل تلك المنازعة إلى حمدهم ، أو وجده من قلبه أنه غالب عليه إرادة الله وحده عز وجل . وأنه لو خلا لقام مثل ذلك القيام ، وقد يشط. العبد بغيره كالصلاة يوم الجمعة : تزول عن العبد لأسباب المشغلة ، ويرى من حوله يصلى فينشط لذلك ، وهو في سائر الأيام لا يكاد أن يصلى ، فإذا حضره مثل تلك النية فليصل فإنه لله عز وجل ، وكذلك بالليل مع غيره إلا أن مع غيره أقرب من خدعة النفس ، فليعرض على قلبه ما وصفت لك

قلت : فإن حضر مع قوم ييكون ، ولم يأت به البكاء ، فوجد نفسه تجزع أن يكون قاسيا من بينهم ، أيتكلف البكاء بالفكر والذكر ؟

قال : ليعرض على قلبه أن لو خلا وسمع بكاءهم ورآهم ، من حيث لا يرونه ، هل كان جزءا إن كان قاسيا يراه الله ، عز وجل على ذلك ، وغيره ييكي من خشية الله عز وجل ؟ وأن يكونوا أخوف لله ، عز وجل ، منه ، وهو يعرف من نفسه من الذنوب أكثر مما يعرف منهم ، فليتكلف ذلك ، وإن لم يجد من قلبه ذلك فلا يتكلف ذلك ، حتى يأتيه ما لا يملك لأنه إذا لم يجد من قلبه ذلك ، لا آمن أن يكون قد جزعت نفسه أن يقولوا : ما أقساه ، وأقل رقتة ، وأقل خوفه وحزنه ! لأن النفس تنازع إلى أن يظهر منها الخوف ليكرم به ، ألا ترى إلى قول لقمان ، رحمة الله عليه يا بني لا تثر الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر .

قلت : فالصبيحة تكون من العبد ، أو النفس العالی عند الذكر يسمعه العبد ، أو عن فكرة منه تكون ذلك ؟

قال : ذلك على ثلاثة أوجه :

أحدها : تكلف - لا عن خوف هائج - ابتغاء حمد من يسمعه أو يبلغه غيره عنه ، أو جزءا - عند الذكر يسمعه - أن يقال : ما أقساه ، وأقل رقة قلبه عند الذكر ، أو يفجأه على ذنب وتقصير في دين : كالمزاح أو الضحك ، أو يظن أنه قد بلغهم عنه ذنب ، أو نقص في دينه فيتفلس أو يصيح تحمضا ، ليندرس ما كان منه ، ولئلا ينقصه ذلك عندهم ، إما ليشككهم فيما كان منه ، إن كان يحتمل التشكيك ، أو لئلا يضع أمره على قلة الخوف لله ، عز وجل ، وقلة الورع ، وقلة الحزن ، وأنه منه لأجل خوف في قلبه والحزن فإليه يرجع .

والوجه الثاني : أن يتفكر أو يتذكر أو يسمع الذكر من غيره ، فيحزن قلبه حزنا لا يغلب على قلبه ، فيتكلف الصياح والتنفس بالزفرة ، والأنين ، استعظاما لما يتفكر فيه ، ولما يسمع ، إذا

رأى قلبه لا يرق كما ينبغي ، فيصبح ويزفره ويئن : تحزناً منه واستدعاء للحزن من قلبه ، ثم يلحقه التصنع في وقت ما يبدو ذلك منه أن يستدلوا بذلك على أن قلبه خائف محزون . فإن نفاه معاً ولم يقبل الخطرة خلص ذلك منه ، فإن قبلها بعدما تقضى لم يحبط ذلك ، وذلك نقص ، إذا أحب قلبه حمد المخلوقين على طاعة ربه ، عز وجل ؛ وإن قبل الخطرة مع الصيحة وزاد فيها حبط أجره فيها ؛ وإن قبلها معها ولم يتزيد فيها خشيت عليه ألا يقبل منه .

والوجه الثالث : أن يبجج الصباح ، والتنفس ، والزفير ، أو الأنين ، عن الفكر بالخوف ، أو عن الاستماع للخوف ، أو النظر للمخوف والحزن ، كالنظر إلى الميت أو إلى القبور أو الشيء يعتبر به يدل على عقوبة الله ، عز وجل ، أو معنى من معاني الآخرة يبجج ذلك منه عن غلبة من عقله ، فذلك يبجج خالصاً لله ، عز وجل ، من خوف تحقيقه في القلب . وقد يخطر العدو مع الهيجان بذلك ، حين يظهر الصباح والتنفس ، حباً محمدية المخلوقين ، أو جزعاً من أن ينظروا إليه بالقسوة وقلة الرقة والخوف ، فإن نفاها خلص ذلك إليه ، وإن قبلها فقد تصنع بذلك .

قلت : وكيف جعلته متصنعاً بذلك مرائياً ، وقد ابتدأ في الهيجان على غير كلفة ؟ قال : إنه تصنع به قبل أن يتقضى ، وكذلك الصلاة وغيرها ، يدخل فيه ، ثم يخطر العدو بالدعاء إلى الرياء ، فيقبل ذلك منه ويتصنع به ؛ وأعظم من ذلك الصباح والتنفس والتأوه والأنين يبجج عن الخوف ؛ فإذا ظهر للعباد تصنع بذلك العبد فيزيده فيه ، حتى يزيد في مدّ صوته أو تحزيمه ، وكذلك تنفّسه أو تأوّه وزفيره وأنينه ، فذلك الذي لا يختلف فيه أنه رياء ؛ لأن ذلك التزيد هو كابتدائه تكلفه لطلب حمد المخلوقين ، فإن لم يقبل حتى يقضى صياحه وأنينه ، ثم خطرت بقلبه خطرة لحب حمدهم على ذلك فقبلها لم يحبط ذلك ، لأنه قبل الخطرة بعد تقضى الصباح ، إلا أن ذلك نقص منه ، وكذلك البكاء : يحلّ منه هذا المحلّ في جميع أموره : قد يتكلفه تصنعاً للعباد ، وقد يتكلفه ليستدعى به البكاء ، يريد الله ، عز وجل ، بذلك ، ويخطر خاطر الرياء مع ذلك فيقبله ، وقد يبجج من الخوف مالا يملكه ، فيخطر خاطر الرياء مع ذلك فيقبله ، ويزيد عليه من ترجيع النشيج ، أو تحزين الصوت بالبكاء ، أو رفعه ؛ وقد يقبل الخطرة ، ويعتقد حب حمدهم على بكائه ، ولا يتزيد على ذلك شيئاً ، وهو الذي يختلف فيه كالصلاة : يدخل فيها فيبتدئ بها ثم يخطر خاطر الرياء فيقبله ، وكذلك التعديد على نفسه : يحل هذا المحل .

قلت : فالسقوط ؟

قال : ذلك قد يكون تكلفاً ، وذلك فعالُ الكاذبين : يسقط لغير خوف أضعفه فألقاه ، أو ذهاب من عقله ، وقد يكون لضعف غلب على البدن ، فلم يتالك أن يثبت جالساً أو قائماً والعقل لم يذهب ، وقد يلحقه في ذلك التصنع به ليحمد على ما ظهر منه من دلالة الخوف ، وقد يلحقه في ذلك أعظم من التصنع بما ظهر من سقوطه : أنه تجزّع نفسه أن يفتنوا أنه سقط لغير ذهاب عقله ، فيحمله جزعها من ذلك أن يوهم أنه ذهب عقله ، وهو صادق في سقوطه مع ذلك من الضعف ، فجزعت نفسه أن يروه أنه سقط من غير ذهاب عقل ، فيظهر ذهاب العقل ، فيخرج إلى التكلف له لا لشدة الخوف تصنعاً ورياء ، وقد يسقط من ذهاب العقل ، فيفتق سريعاً ، فيخاف أن يفتنوا أنه سقط من غير غلبة على عقله ، ولو كان سقط من غلبة على عقله لأبطأ في سقوطه على الإفاقة ، فيسقط لله عز وجل ، لخوفه منه لا يملك ذلك ، ثم وجد العدو موضع فتته فيدعوه إلى أن يطول المكث ، لئلا يتوهّموا أنه سقط من غير غلبة على عقله ، ليعظم عندهم بطول مكثه في سقوطه ، ليدل بذلك على أن الخوف الغالب في قلبه قوى . وكذلك إذا سقط لضعف قوى سريعاً تجزّع نفسه أن يفتنوا به أنه سقط من غير غلبة ، إذ لو كان من غلبة على عقله لما أفاق سريعاً ؛ وقد ينهض حين يفتق ، ولا يتمكن بعد الإفاقة ، ثم يفتق ولا يظهر القوة سريعاً ويحققها إن تظهر منه ، فيضعف صوته ويظهر الضعف في بدنه ، لئلا يفتنوا به أنه سقط عن غير غلبة على عقله ؛ وكذلك يسقط لذهاب عقله ، ثم يفتق فيظهر الضعف لأن يزيل سوء الظن منهم ، ليستدلوا بما يظهر من الضعف بعد الإفاقة ، أنه سقط من ذهاب عقله .

باب ما ينفي به التصنع للمخلوقين في التصنع والحزن

قلت : فم ينفي جميع ذلك في الصباح والتنفس والسقوط ؟
 قال : أما إذا دعت نفسه إلى أن يفعل ذلك تكلفاً للعباد ، فليذكر إطلاع الله ، عز وجل ، على بدنه وعقله ، وقلبه ، بالمقت له إذ رآه متكلفاً لإظهار الخوف ، مع الأمن ، لله عز وجل ، إذا فعل ذلك يريد العباد ، ولا خوف في قلبه ، وذلك خلق من أخلاق المنافقين : أن يتكلف الطاعة لا يريد الله عز وجل ، بها ، ولولا العباد ما فعل ذلك ، ويظهر أنه خائف من الله عز وجل ، بالأمن لله عز وجل لأن تكلفه ذلك وقصده لذلك إلى العباد من الأمن لغضب الله ، عز وجل ، ومقته ، ولو كان تكلفاً لله عز وجل ، أو مغلوباً على ذلك لما أهاج الخوف قلبه ، فيذكر نظر الله ، عز وجل ، إليه ، وأنه لا يرضى إلا عن من فعل ذلك خوفاً منه ، أو تكلفاً ليستدعى به الخوف ، وتعظيماً لما يخاف منه ، ثم يذكر أنه يستبدل بما يرضى الله : عز وجل عنه به ، التعرض لمقته ، من غير أن ينال ازدياد منقمة من العباد في دين أو دنيا ، ولا اجتلاب حمد منهم ؛ ولعل الله عز وجل أن يزيل حمده من قلوبهم ويحجل عقوبته في قلوبهم ذمّاً له ؛ إذا بارز الله ، عز وجل بما يكره في ضميره ، فإذا خاف المقت وذكر الغين والخسران أن يستبدل بما كان بدوّه صدقاً - يرجو الرضا من الله ، عز وجل ، عنه به والأمن من عذابه - بالتعرض لسخطه وحرمان رضاه بذلك عنه ، فإن لم يكن هذا خاسراً مغبوناً فلا خاسر أبداً في شيء ولا مغبون ، فإن ذكر هذا بعقل عن الله ، عز وجل ، ولم يزد على ما تكلفه الله عز وجل ، ولا على ما هاج منه ، وهو لا يملكه ، ولم يحب حمدهم على ذلك ، ولم يتردد فيه بتحزين ، ولا يطول مكثه في سقوطه ، ولا إظهار ضعف إفاقته ؛ وكذلك تنكيس الرأس والإظهار للانكسار في مشيته وصوته وصلاته ، وعند الذكر ؛ ولم يهيج من القلب خوف يكسره ينكسر له رأسه وينكسر له بدنه ، ويخشع له قلبه ؛ ولم يتكلف حياء من نظر الله أو طلب السلامة أن لا ينظر إلى ما لا يقرب إلى الله عز وجل ، ولا يمزج ولا يبطر ، ليدلل نفسه بذلك لله عز وجل ؛ وذلك فعال المنافقين .
 كما جاء في الحديث « تعوذوا بالله من خشوع النفاق ، قيل : وما خشوع النفاق ؟ قال : إن يخشع البدن والقلب ليس بخاشع .

وكذلك إظهار الاستغفار والاستعاذة بالله عز وجل ، من عذابه وغضبه .
وقال عمر ، رضى الله عنه : لا يزيد الخشوع على ما فى القلب .

قلت : فبمَ ينبى ذلك ؟

قال : بذكر نظر الله ، عز وجل ، إليه ، وخوف مقته ، وقليل ما يرجع إليه من العباد ، بل لا يرجع إليه منهم شئ يزداد به فى منفعة فى دين أو دنيا ؛ فمن الذى نطيب نفسه أن يتعرض لمقت الله عز وجل ، ويحبط عمله فى الآخرة لغير منفعة ينالها فى دين أو دنيا ؟ ما يفعل هذا إلا كافر أو أحمق ذاهب العقل ، أو فاجر على الله متمرد لا يكثر بغضبه ولا بعقابه .

قلت : يعترض لى الخشوع حين أرى بعض الخلق ، وأنسى ما الذى أهأجه ابتداءً .
قال : إنك قبل أن تحشع فى حال أخرى غير الخشوع فإذا رهقتك أبصار العباد ، فإن أردت نفسك أن تغبر من الحال التى كانت عليها إلى حال الخشوع ، فانظر ما الذى ثار فى قلبك من الذكر له ؟ أعن اطلاع الله عز وجل ، أو عس ذكر الآخرة ، أو تصنعاً لهم لما رأوا ذلك ؟ فإن كان الله عز وجل ، فامضه ، واحذر أن تركز إلى حمدهم بعد ما كان منك الخشوع على صدق ، وإن تغيرت عن الحالة الأولى تصنعاً لاطلاعهم ، فاستحى من الله ، عز وجل ، واحذر على ذلك مقته والفضيحة غداً أن يهتك سترك عند من كان يظن بك الصدق والإخلاص .

ألم تسمع إلى ما روى وهب - أن أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام قال : يا أيوب ، أما علمت أن العبد تفضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ، ويمجى بسريته :

ومنه قول بعضهم : أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت .
وكان من دعاء الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه : اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن فى لامعة العيون علانيى ، وتقبح لك فيما أخلو سريتى ، أحافظ على رياء الناس من نفسى ، وأضيع ما أنت مطلع عليه منى : أبدى للناس حسن أثرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقرّباً إلى الناس بحسناتى ، وفراراً منهم إليك بسيتاتى ، فيحل بى مقتك ، ويجب على غضبك ، أعذنى من ذلك يا أرحم الراحمين .

واحذر المقت والفضيحة فى الآخرة ، وسقوط الجاه عند الله عز وجل ، وحرمان الإجابة عند الاستغاثة ؛ لأن من تهاون لنظر الله ، عز وجل ، إليه هان على الله ، عز وجل .
ألم تسمع إلى ما يروى وهب بن منبه ، رحمه الله : أن أحد الثلاثة نفر قال لأيوب : يا أيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم ، فعند طلب الحاجات إلى الرحمن ، عز وجل ، تسود وجوه أولئك بالرد ؟ .

باب ما قالوا في علامة صدق الخاشع لله عز وجل إذا رمقته أبصار العباد

قلت : فما علامة الصادق فيما يُظهر من الخشوع والخوف إذا رمقته أبصار العباد ؟
قال : إن الصادق قبل أن ترهقه أبصارهم ، لا يخلو من إحدى منزلتين : إما أن يكون خاشعاً
أو غير خاشع ، فعلامة صدقه في ذلك : أن لو اطلع عليه جميع العباد لم يتغير عن حاله التي هو
عليها : فينتقل من حاله التي لم يكن فيها خاشعاً إلى الخشوع ، ولا يزداد في خشوعه ، ولا يسرّ
باطلاعهم على خشوعه إن كان خاشعاً قبل أن ترهقه أبصارهم ، من أجل اطلاعهم ، إلا أن
يحضره صدق من قلبه يشهد أن الله عز وجل قد علم ذلك من قلبه ، يهيج على ذكر الله عز
وجلّ ، أو ذكر الآخرة ، أو تحرزاً منهم إن كانوا ممن يتحرز منهم ، فيخشع لئلا ينظر منهم إلى
ما يلهيه ، أو يخاف ، إن لم يخشع ، انقباضاً عنهم إن انبسطوا إليه وانبسط إليهم بما لا يسلم في دينه
أو بغضاً لهم لله عز وجلّ ، أن ينظر إليهم ، إذ عرفهم بالعصيان لرؤيته عز وجلّ ، أو إجلالاً لهم
وهيبة لله عز وجلّ ، إن كانوا يستحقون ذلك ، ومع ذلك أن يجد من نفسه سخاء أنه لو هاج من
قلبه هذا الذكر الذي هاج فيه من غير أن يروه الخشع ، فذلك علامة الصادق في خشوعه ،
وعلمة صدقه من قلبه ، مع الحذر منه أن يتغير قلبه ، فيميل إلى التصنع لهم بعد الصدق ،
فالحذر من نفسه غالب على قلبه ، فإذا كان كذلك كان منه الخشوع ، وكأنه لا يطلع عليه إلا الله
عز وجلّ ، متقلّباً في خشوعه ، كأن ليس في الأرض غيره إلا خطرات تخطر بضعف والقلب راذاً
لها بصدق قوى وإجلال لله عز وجلّ ، وخوف منه .
فإذا كان كذلك لم يكن في طاعة ولا مباح فيتغير ولا يتقل إلا لاطلاع ربه ، عز وجلّ وابتغاء
مرضاته ، والطلب لما عنده : من الثواب الجزيل ، والعيش السليم ، والنعيم المقيم .

باب الرجل يكون له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير فيكثر زيارة الغني ويبرّه دون الفقير كيف السلامة من ذلك له ، ومن أين فسادة ؟

قلت : قد يكون لى صاحبان : أحدهما فقير والآخر غنى ، فأجد نفسى تسارع إلى برّ الغنى وإيثاره بالزيارة والعيادة وغير ذلك .

قال : إن ذلك قد يصح وقد لا يصح فى الإرادة لله عز وجل ، فأما الذى يصح : فإذا كان الغنى منها أطوع لله عز وجل ، وأتقى ، أو كان أنفعها لك فى دينك ، أو تكون تجد قلبك معه أزيد وأسلم لك فى دينك ، أو تستفيد منه علماً تتفع به فى دينك ، فأثرته بالإتيان تريد الله عز وجل ، بذلك ، ولا تعتقد بذلك طلب دنياه ، فهو أولى حيثئذ أن تؤثره بالبر والإتيان ، إلا أن تعلم من الفقير تجوعاً أو عرياً فتبتدئ بمواساته حيثئذ .

وكذلك أن يكون منك قريباً للمتلز ، فتتشتط إلى إتيانه من أجل قرب منزله ، والله عز وجل ، يعلم أن نفسك سخية أن لو كان الفقير يقرب منزله ما آثرته بالإتيان على الغنى ، إذا كانا مستويين فى الطاعة والسلامة والمنفعة والقرب والقرابة ، فإيثارك الغنى للدنيا لا يُشك فيه ، إلا أن تكون أنت عالماً ، والغنى يخاف ضعفه ورجوعه وفقرته ، وهو أضعف قلباً من الفقير ، فتألفه بالبر ، رجاء أن يقوى فى الدين ، فإن أثرته بالبر لذلك ، وأنت تريد الله عز وجل ، بذلك ، فهو أولى حيثئذ بالبر والإتيان .

قلت : قد تحضرنى النية فى إتيان الغنى ، ولا تعرض فى إتيان أخ فقير ، ولا آمن خدعة نفسى فيسم أعرف ذلك ؟ .

قال : اعرض عليها بعض الفقراء ، أن لو استوت أسبابه وأسباب هذا الغنى ، أكنت تأتبه ، فإن لم تسخ نفسك بذلك ، علمت أنها غير صادقة .

قلت : فإن استوت أسباب الغنى والفقير ، فأتيتهما جميعاً ، أكنت تخاف على ؟ .
قال : أما فى الذهاب فلا ولكن أن تذكر العلم وتنشر الحكمة وتظهر الخشوع أكثر مما يكون منك عند الفقير ، فتتقّد ذلك ، ثم دع فضل ما بينهما .

٢٣٧

وقد روى أن ابن السكّ قال لجارية له : ما لي إذا أتيتُ بغدادَ تفتحت لي الحكمة ؟ قالت له جاريته يُشجِدُ لسانك الطمعُ وصدقتُ : إنّ العبدَ يُكثرُ الكلامَ بالخير عند الغنى ما لم يتكلم به عند الفقير ، يهيجهُ الطمعُ على ذلك ، أو تعظيمهُ للدنيا ، وكذلك يُظهر الخشوعَ وغيره من الطاعات .

هذا آخر كتاب الرياء ، والحمد لله رب العالمين

كتاب الإخوان ومعرفة النفس

باب في العبد يعزم على التوبة ثم يرجع ، وما الذي يقويه وبيعينه على التقوى ومخالفة الهوى والشهوة ؟

قلت : قد تسخو نفسى بالرعاية لحقوق الله ، عز وجل ، وترك الرياء بالطاعة لعباد الله ، عز وجل ، وأعزم على ذلك ، ثم لم ألبث أن أزول عن ذلك حتى أضيع بعض الحقوق ، وأنصع ببعض الطاعة . فن أين أوتيت ؟ .

قال : خوفك ضعيف ، وحذرُك من الله عز وجل قليل .
قلت : فكيف لى بقوة الخوف وشدة الحذر ؟ قال : قد أجبتك عن ذلك بإدمان الفكر بالتخويف لنفسك .

قلت : قد خوّفتُ نفسى كما أمرتنى ، حتى سخت بالعزم ، ورفضت الإصرار على المعاصى ، والرياء على الطاعة ، ثم لم ألبث أن زلّيتُ ورجعتُ ، فراجعتُ التوبة والعزم ، ثم زلّيتُ ، ثم راجعتُ التوبة والعزم ، ثم راجعتُ الذنب والتصنع فى بعض ، ووفيتُ فى بعض ؟ .

قال : إنك قريب. العهد بالجهالة والزلل ، طويلُ العادة والألفة للمعاصى ، قليل العناية للمراقبة والصدق ؛ فهواك قوى ، وشهوتك هائلة ، لشدة إلفِ نفسك للذات ومباشرة الشهوات ، فن ثم أسرعتَ الرجوع ولم تحقّق الوفاء بالعزم فى حقوق الله عز وجل ، حتى ضيعت بعضها وتصنّعت ببعض الطاعة .

قلت : فكيف لى بموت شهواتى ، وضعف هواى ، وقوة خوفى ، وشدة حذرى ؟ .
قال : الزم الفكر فيما سلف من الذنوب وخوف ما وجبَ عليك من الله ، عز وجل بها ، والفكر فى البعث والسؤال ، وشدة العذاب ، وحرمان الثواب ؛ فإنك لذلك مستوجب ، ومراجعة التوبة ومراجعة العزم ، والحفز فيما تستقبل ، ومنع النفس لذاتها فيما يكره ربه ، عز وجل ؛ فإن زلّيتُ رجعتُ سريعاً ، وعادوت العزم والتوبة ؛ فإذا أدمنت الفكر بالتخويف لنفسك ، قوى خوفُك ، وإذا أدمنت الردّ على نفسك ، والعصيان لها ، وترك استعمال شهواتها

انقطعت النفسُ على عاداتها ويشتت من أن تعطيها لذاتها وماتت شهواتها إذا لم تستعمل ، وما استعملت منها عاقبته بالخوف والحزن ؛ فحيثما تقوى وتستقيم على الصديق ، وتعلو في المراقبة لله عزَّ وجلَّ ، والإخلاص له .

قلت : هذا قد يطول بي ، وقد يسرع ؛ فما الذى أستعين به على ضعفى ما دمت ضعيفاً ، حتى أقوى بعد إدمانى على الفكر ومجاهدة نفسى كما وصفت ؟ .

قال : يقوى ضعفك وتقوى على نفسك بخصلتين :

إحداهما : قطعُ كل سبب يكون عنه زوالك وفتنتك ، إلا سبباً يجب عليك الاشتغالُ به والإتيانُ به أو إتيانه أوسياً هو عون لك على طاعتك لربك ، عزَّ وجلَّ .

والخصلة الثانية : قلة المكث بعد الزلل ، والمصارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية ، ويتمكن في قلبه حلاوة الشهوة .

قلت : والأسباب التى يكون عنها الخطأ والزلل ، مثلُ أى شىء هو من الأسباب ؟ .
قال : كالرجل يشكو حبَّ النظر إلى ما لا يحل ، وهو يجلس على الطريق يتحدث ، أو يستريح إلى ذلك ، ويكثر لقاء الإخوان ، فكلما جلس على الطريق وهو ينوى ألا ينظر فجأه ما يهيج شهوته على النظر ، فتغلبه نفسه فينظر ، ثم يرجع فيندم ويتوب ، ثم يعاود الجلوس ، فيصيبه مثلُ ذلك ، وإذا قطع الجلوس ولزم منزله أو مسجده سقط عنه السببُ الذى كان يفتنه ، وصار في تلك الخصلة مع ضعفه أقوى من القوى الذى يعرض نفسه للفتنة بالجلوس ، لأن الضعيف إذا قطع السبب الذى يؤتى من قبله صار أقوى من القوى الذى يتعرض للسبب الذى يفتنه ؛ وكذلك الخروج في الحوائج التى لا تجب عليه فتركها أقطع عنه سبب فتته .

قلت : فإن كانت حاجة فيها بر وطاعة ؟

قال : إن كانت واجبة فليخرج لها ، ولا يعصى ربَّه ، عزَّ وجلَّ ، بشك : لا يدرى ، أياكون أم لا يكون ؛ لأن تركه للذهاب معصية ، والنظر منه لم يكن بعد ولا يدرى أياكون أم لا يكون ، بل إن ذهب ، والله عزَّ وجلَّ ، يعلم منه أنه لو كان الذهاب لراحة نفسه ، أو حاجة له فيها لذة لما ذهب ، إبقاءً على دينه ، لئلا ينظر إلى ما كره ربُّه ، عزَّ وجلَّ ، ولولا أداء واجبٍ حقَّ الله ، عزَّ وجلَّ ، ما ذهب ، فإذا علم الله ، عزَّ وجلَّ ، منه الصديق فى ذلك : من خوفه من النظر كراهة أن يُسخط الله عزَّ وجلَّ ، فذهب لله عزَّ وجلَّ ، ولولاه ما ذهب ، وتوكل على الله عزَّ وجلَّ ، فإن الله يعصمه إذا علم أنه لا يذهب من أجل راحة نفسه ، فإذا ذهب على ذلك ، كان الله عزَّ

وجلّ ، أكرمَ من أن يُخَذَله ، فإن كانت حاجة الدنيا لا غناء به عنها من الغذاء له ، أو لعياله فهو يقوم هذا المقام ، إذا علم الله ، عزّ وجلّ ، منه أنه لو كان يذهب لتكثّر ، أو لرياء أو لافتخار ، ما ذهب ولا أثر الترك ، لئلا يتعرّض لما يُسَخِطُ ربّه ، عزّ وجلّ ، ولولا طلب العون على طاعة ربّه ، عزّ وجلّ ، والعدوّ في عياله ونفسه ، ما ذهب متوكّلاً على ربّه ، عزّ وجلّ ، إنه لا يُخَذَله ، إذا علم أنه لم يذهب للذة نفسه ، رجوتُ ألا يُخَذَله الله عزّ وجلّ ، بل لا يُخَذَله ويعيّنهُ ويعصمه ، إن شاء الله ؛ فإن كان ذهابه لحاجة الدنيا ، فله عنها غناء ، وهو يعلم أنه لا يسلم ، لما جَرَّبَ من نفسه ، فترك ذلك أولى به ، حتى يقوى ، ولستُ أمره بذلك دهره كله ، إنما أمره تداوياً لذلك قليلاً ، حتى يقوى ؛ وكذلك ، إن كان يشكو لسانه : أن يسبقه إلى الغيبة والمزاح بما لا يحلّ ، والاستهزاء لغيره ؛ فإذا أنعم الرويّة من أى وجه يؤتى ، ومن أين أكثر ما يؤتى : من مجالسة الإخوان وغيرهم ، وترك مجالستهم حتى يلحقه فرضٌ واجب لا يؤدّبه إلا بالكينونة معهم ، أو معاشٍ لا غنى به عنه ، فيجالسهم حيثلذ لإقامة الواجب ، أو لطلب الغذاء ، لا لراحة نفسه نفسه وشهوتها متوكّلاً في ذلك على ربّه أن يعصمه ، إذ علم أنه تارك للمجالسة ، للذة نفسه وشهوتها ولولا أداء واجب له ، أو طلب ما يعينه على أداء واجب حقّه ، لآثر الله ، عزّ وجلّ ، بالترك خوفاً أن يتكلّم بما يُسَخِطُ ربّه ، عزّ وجلّ به ، عصمه الله ، عزّ وجلّ ، وأعانهُ إن شاء الله .

وأما إذا علم أنه لا يسلم معهم ، ثم جالسهم بعد علم وتجربة من نفسه ، أنهم يخرجونه بحديثهم ومجاورتهم إلى الكلام بما يكره مولاة ، ثم ذهب أو جلس لغير واجب ، ولا طلب معاش لا غنى به عنه ، وهو يعلم ذلك ، فقد أعطى بيده إلى التهلكة على عمد منه متهاوناً بأمر الله عز وجل .

باب الرجل يخرج في الحاجة أو يجالس بعض إخوانه من يدعى أخوتهم في الله ، عز وجل وهو يعلم أنه لا يسلم له دينه معهم

قلت : أرأيت إن ذهب ، وهو عازم ألا يتكلم بما يكره الله ، عز وجل ، وقد جرب نفسه وجربهم ، فعلم أنه لا يسلم معهم ؟ .

قال : فإذا عزم على ترك الكلام فيما يكره الله ، عز وجل ، وقد جالسهم ، وهو عازم من قبل ، كعزمه هذا المستقبل ، فلم يسلم ، فقد تعرض للفتنة على علم وتجربة ، ويستحق من الله ، عز وجل ، ألا يعصمه ، وقد تعرض للهلكة بعد علم وتجربة ، ويستحق من الله ، عز وجل ، ذلك ، وأعطى يده بعد التجربة من نفسه لقلّة السلامة ، وإذا استقصى ذلك من نفسه ، وقطع مجالستهم ، حتى يجب عليه حق الله ، عز وجل ، أو معاش لا غناء به عنه ، علم الله ، عز وجل ، أنه لولاه ما جالسهم وكذلك زيارتهم ما زارهم كان الله أكرم من أن يخذله ، وقد ترك مجالستهم للذة نفسه وراحتها ، ولولا ربه ، عز وجل ، لم يجالسهم ولم يأتهم ، ولكن لما وجب عليه من حقه لم يسلمه الله ، عز وجل ، إلى الهلكة ، وقد أثر الله ، عز وجل على هوى نفسه . قلت : فإن كانت مجالستهم على ذكر وخير ، وقد يجرى بين ذلك من الكلام ما يكره الله ، عز وجل .

قال : يترك مجالستهم وإتيانهم ، إذا جرب نفسه أنه لا يسلم معهم ؛ لأن يقوم التطوع بالمعصية .

قلت : إنهم إخوان في الله ، عز وجل .

قال : هذا اسم قد يستعيره الكاذب اللعوى على غير حقيقة . إن أدنى ما يستحق الأخوة في الله ، عز وجل ، بل المحبة ، فإنها دونها : من تسلم معه دون أن تغتم معه ، ومن لا تسلم معه فهو عدو لك في دينك ، وإن سميت صديقاً وصاحباً وأخاً في الله ، عز وجل ، فكيف يكون صاحباً وأخاً في الله ، عز وجل ، من تتعرض بمجالسته ومحادثته لغضب الله ، عز وجل ؟ ! لأنك لا تسلم

معه أن تتكلم بما يكره الله ، عز وجل ، وقد سمعت حديث بلال بن الحارث ، عن النبي ﷺ .
إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يرى أنها تبلغ من سحق الله ما بلغت ، فيكتب الله بها عليه
سخطه إلى يوم يلقاه .

فمن أعدى لك ممن يُعرضك بمحادثته لأن تتكلم بكلام يغضب الله ، عز وجل ، عليك
منه .

وحديث بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جدّه ، عن النبي ﷺ : أنه قال : « ويل للذي
يحدث ، فيكذب ، ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له » .

وحديث قيس بن أبي حازم ، عن ابن مسعود : إن الرجل ليتكلم بالكلمة في الرفاهية ،
قال : يعني في المجلس ، ليضحك به القوم ، فترديه بعد ما بين السماء والأرض ، أي يهوى بها في
النار ، فمن أعدى لك ممن كان سبب هذا منه ، وبه .

وكذلك إن كان لا يرضى منك إلا بالتصنع ، ولا تمتنع نفسك من ذلك إذا كان لا يرضى
منك إلا بتصنع ، وكذلك أن تغضب لغضبه وتصارم من صارم ، جَارَ أو عَدَلَ في صرمة
وغضبه ، وهذا يكون في الفرط ، ولكن المحادثة أكثر ذلك .

فهذا عدو لك لا أخ لك في الله عز وجل .

ألم تسمع إلى حديث محمد بن النضر الحارثي : « إن الله عز وجل أوحى إلى موسى . عليه
السلام يا موسى ، كن يقظاً مرتاداً لنفسك أخذاناً ، فكل خدن لا يواتيك على مسرقي ،
فلا تصحبه ، فإنه لك عدو ، وهو يقسي عليك قلبك » فمن كان هكذا فهو لك عدو ، وإن
سميته أخوا في الله ، وصاحباً ، فوضعت عليه اسماً لا يستحقه ، ويستحق ضده ، وهي العداوة .
وكيف يكون أخوا في الله ، عز وجل ، أو صاحباً في الله ، عز وجل ، من يُعصى الله ، عز وجل ،
به ومن أجله ١٩ فمن أشد لك ضرراً في دينك ممن كان سبب معصيتك به ! .

ألم تسمع إلى حديث أبي موسى ، عن النبي ﷺ : « مثل صاحب السوء : كمثل صاحب
الكبر ، يعني الحداد : إن لم يحرقك بشره يعقبك بك من رجه » . وكذلك هو كما قال : إن لم
تعص الله ، عز وجل ، معه لم تعد معه قسوة قلبك وهواه واشتغاله ، فليس من كان لك هكذا
بأخ ، ولكن هو لك عدو ، وهو أضّر عليك في دينك ممن تعادى .

وإنما الناس أربعة رجال : رجل لا تعرفه ، أو تعرفه ولا تصاحبه ، ورجل مبتدع ، ورجل
فاسق ، ورجل عندك مستور ، وأنت له مصاحب . فالابتدع قلبك منه نافر ، والفاسق كذلك ،

ولو دعواك إلى الحق لم تمل نفسك إليهما . فكيف تخوض معهما فيما لا يعينك ، ومن لا تصاحبه ولا تعرفه فلست تحادثه . فلا تؤانسه . فهو لاء كلهم لا تغتش بهم ولا يستريح قلبك إليهم فتغفل بهم حتى تتكلم بما يكره ربك عز وجل وإنما يؤتى من الصاحب الذي هو شكلك ومثلك وأنيسك فيستريح قلبك إليه ويغفل معه حتى تعصى الله عز وجل . وأنت غافل لا تذكر الله ، عز وجل ، أو تذكره ولا تبالي لغلبة الهوى فيه وفي محادثته . وهو من مكائد إبليس وحبالته : يَحْيِيكَ به حتى يوقعك في حبالته ، لأنه شكلك وأنيسك ، ومثلك وهو أرفق من الصياد الرفيق .

ألا ترى أن الصياد لا يخال للغربان . فيصنع شباكا . ليصيدها به من العصافير . ولا يخال للعصافير بالغربان . فإنما يخال فينصب لكل طير من صنفه وشكله ، لأن الشكل بالشكل يألف . فعليه يقع ، وبه يُصطاد ؛ ألم تسمع إلى كتاب أبي الدرداء إلى سلمان . رحمة الله عليهما : أما بعد ، فإن يكن البدن من البدن بعيداً ، فإن الروح من الروح قريب ؛ وطير السماء على شكله من الأرض يقع .

وقد صدق ، رحمه الله ، قد رأينا ذلك : فالصياد يخال بالشكل للشكل من الطير ؛ وكذلك عدوك : إبليس ، لما علم أنك نافر من أهل البدع ، ومن الفساق ، ومن مؤانسة العوام ، حرك قلبك بالدعاء إلى لقي الأشكال والإلف بهم . وحب محادثتهم . فلما التقيتما على الحب والمؤانسة زال عن قلبك الحذر منه . كما يحذر من المبتدع والفساق ، وأنس قلبك به . واستراح إليه . فركن . ولها يقربه . فزين لك من القول ما يزيلك به . حتى تشاركه فيه . ثم الأصحاب عنده مختلفون ، فإن علم إبليس أنك حذر خائف في كثير من أحوالك لم يبدأ صاحبتك بالترين له بالغية والكذب . إن علم أنك من ذلك نافر ، وله بجانب ، ولكن يدعكما ، حتى إذا ذكرتما الله ، عز وجل ، واستأنست قلوبكما زين لكما فضول الكلام والراحة إلى الدنيا ، فإذا خضتما في ذلك زين لكما الغيبة والكذب .

فإن كنتما من الخائفين في كثير من أمور كما أجرى الغيبة من قبل الغضب لله . عز وجل أو التعجب والإنكار أو التوجع لمن تغتابانه .

وإن كنتما لا تقومان في الخوف ذلك المقام ، أجرى بينكما الغيبة من قبل الغضب والغيظ والمكافأة لمن ذكركما أو ذكر أحدكما والآخر راض بذلك . أو الراحة إلى ذكر عيوب الناس . وكذلك الكذب والاستهزاء . قد يزين لكما ذلك قبل أن يجري بينكما شيء من ذكر الله . عز وجل على قدر ما عرف من ضعفكما .

وقد يُريد العدو العبد على ما يكره الله - عز وجل - فيأبى عليه - ولا تطيب نفسه أن يتكلم مع العوام بالخير دون الشر - فكيف بالشر ؟ فإذا عصاه زين له لقاء من يرجو أن يطيعه به - فإذا لقيه زين لأحدهما الكلام حتى يفتحه الآخر ، ثم يزين له الكلمة بعد الكلمة - فلهذه يكون عامة نهاره أو بعضه ساكناً قد سلم ، أو متكلماً فيما ينفعه من الذكر أو طلب معاشه بما يحل له ، حتى يلتقى من يزعم أنه أخوه في الله ، عز وجل . فإذا لقيه جرى بينهما من الكلام ما لعلهما لا يفترقان ، حتى يلعبنا جميعاً .

فمن ثم قال عمر ، رضى الله عنه : واحذر صديقك إلا الأمين من الأقيام ولا أمين إلا من خشى الله - عز وجل ، إذا غفلت ثبّهك ، فإذا لقيته ازدادت سلامة . فإن كنت في لغو صرفك إلى ذكر ، وإن كنت متكلماً بما يكره الله - عز وجل - نهاك عن ذلك ونهيك له - فإذا نهيك لما تعلم أنه لا يحل لك ندمت عليه وتبت منه - وما لم تر أنه مما يكره الله - عز وجل ، لما أنت به جاهل ، عرفته واستفدت منه علم ما لم تكن تعلم من ذنوبك ، فتحذرهما فيما يستقبل . وكذلك قال الشعبي : نصف عقلك مع أخيك ، وصدق رحمه الله ، لأنه إذا نبه عقلك بما كنت عنه غافلاً كنت كأن عقلك كان معه فردّه عليك ، وكأن عقلك كله كان معه فردّه عليك في الوقت الواحد ، فأما في جميع أحوالكما فكان نصف عقلك معه ، لأنك قد تظن لما يغفل أخوك عنه فتنبه ، وتغفل أنت عنه فينبهك ، فأنت تعبد الله ، عز وجل ، بعقلين إذا اجتمع ، وتعرف عيوب نفسك بعقلك وعقل أخيك ، فمن لم يخف الله - عز وجل ، من الأصحاب ، وإن كان مصلياً ، أو مدمناً للصيام ، أو عازياً أو حاجباً فهو عليك وبال ، لأن صلاته - وصيامه ، وغزوه ، وحجه ، وكثرة ذكره ، وزكاته له ، وخوضك معه وخوضه معك ، مما يكره الله ، عز وجل ، عليك وبال . وإنما مثله : كمثل صاحب لك غنى موسر ، وأنت فقير محتاج - فكلما أتاك أكل طعامك ولم يؤاسك بماله ، قال له وضرره عليك ، لأكله طعامك ، فكذا هذا : له صلاته ، وصيامه ، وغزوه ، وحجه ، وباله - بما يخرجك إليه من الخوض - عليك ، فإن كنت قد سلمت قبل أن تلقاه أخرجك إلى العطب في دينك عند لقائه ؛ وإن كنت في خير استبدلت به شراً عند لقائه ؛ ولعلك أيضاً تبداه قبل أن يبدأك بالخوض فيما لا يحل لك ، لأنه موضع راحة قلبك ، وأنس نفسك ؛ أو لعلكما تفيضان في ذكر الله ، عز وجل ، وطاعته ، أو تعاونان على بعضها على قدر قوتكما ؛ وقد يطعم العدو فيكما ، ثم لا تفترقان إلا عما كره الله - عز وجل ، من الكلام - فلا يقوم ما تعاونتما عليه من البر بما تعاونتما عليه من الشر ؛ لأنكما ضيعتما فرضاً ، وتعاونتما على

نافلة ، وذلك هو الخسران المبين .

فكم من صاحب ، قد عصيتَ الله ، عز وجل ، معه ، وتصنَّعت له ، قد مات ونخلدك بتوحده في القبر عنك ، وبقى ما عصيت الله ، عز وجل ، معه مكتوباً عليك . والكلام في الأصحاب يطول ، وليس هذا بموضعه .

وسأصف لك إن شاء الله ، عز وجل صحبتهم في غير هذا ، وإنما أردت بهذا لأننيك اترك الأسباب التي ينقص بها عزمك ، ويقلّ بها صبرك على الوفاء لله ، عز وجل ، بالتوبة ، إذا كنت ضعيفاً وعرضت لك الأسباب المزيلة لك المفتنة لم تلبث معها أن تزول ، فإن قطعها قويت على نفسك ، لأن القوى إذا تعرض للأسباب المفتنة كان أضعف من الضعيف إذ يتحرز من الأسباب المفتنة ، والضعيف أقوى منه في الترك لما كرهه الله ، عز وجل ، إذا زالت منه الأسباب المزيلة به .

باب ما يستعان به على ترك لقاء الإخوان الذين يتخوف من لقائهم قلة السلامة في الدين

قلت : فيم أستعين على ترك الأصحاب ؟ فإنك لم تذكر شيئاً أعظم على القلب منه فتنة ولا أغلب في الراحة .

قال : أن تكون معنياً بدينك ، مشفقاً على بدنك من النار ، فإذا كنت كذلك فتذكر وتفكر ، فأحسن الفكر ، وأنعم الروية بالبحث والتفكير ، حتى تعلم كنه ما ينقصك لقاءهم في دينك ، فإن أنت نظرت في ذلك بفراغ قلب ، مع الإشفاق على بدنك من النار ، وعلى دينك من التقصان ، فعرفت كنه ذلك من كلام يحصى عليك ، لا تأمن فيه غضب الله عز وجل ، فلو عرفت أنك لا يكون منك من الكلام عند لقاءك للأصحاب إلا كلمة مما يكره ربك ، عز وجل ، ثم أشفقت على نفسك ، ونظرت إليه وإليك بعين اليقين ، وأنت فار منه في القيامة ، مشغول عنه بما أنت فيه من الخطر العظيم ، وقد تحملت أوزاراً كثيرة لم تصبها إلا بصحبته ، لم يكن شيء أبغض إليك من لقاءه ، وذلك إذا كنت مشفقاً خائفاً من الله ، عز وجل ؛ ولذلك مثل بين : أن لو كنت كلما لقيت إخوانك وأصحابك أخذوا من لحيتك شعرة ، أو من ثوبك سلماً ، لقلّ لقاءك لهم ولأبغضتهم وأبغضت لقاءهم ، لأنك تعلم أنه إن دام ذلك ذهبت لحيتك ، وصرت مشوهاً ، ينظر إليك العباد بالشين والقيح ، وكذلك تعرى من ثيابك سريعاً : فكذلك من كان مشفقاً على نفسه وعلى دينه ، ثم عرف كنه ما ينقص بلقائهم في دينه أبغض لقاءهم ، إلا لقاء الذين يريدونه في دينه ورعا ونجراً ، فأولئك الإخوان في الله عز وجل ، والاسم بالأخوة لهم حق وصدق ، والاسم لغيرهم كذب وزور .

قلت : أرايت إن عزمْتُ على ترك كل من لا أسلم معه في ديني ، فلم تصبر نفسي وجاشت على لقاءه ؟ قال : إن سخت نفسك بتركه ، ثم تحزرت ممن لا تأمن منه ، وتوقيت حتى يأتي عليك بعض النهار وأنت صامت عما كره ربك ، عز وجل ، قد فرح قلبك بالسلامة ، ازدادت زهداً في لقاءه ، ولم يكن شيء أبغض إليك من لقاءه ورؤيته ، إذا وجدت حلاوة السلامة ورجوت رضا الله ، عز وجل ، بها عنك ، فإذا أحسست بمن تخاف أن يزيلك عنها ثقل عليك لقاءه ، فإن

استعملت التحرز إذا انفردت من الأصحاب حتى تظفر بالسلامة . ويجد قلبك حلاوتها ، أبغضت لقاء من يزيلك عنها ، لأن المريد الساهى راحته في الكلام ، وغمه في السكوت ، وذلك إذا كان الأغلب على قلبه حباً راحة المحادثة للناس ، ولم يكن طلبُ السلامة أغلبَ على قلبه ، فَعَمَّهُ حيثُ في السكوت ، ولذته وراحته في الكلام ، فإذا اهتم بالسلامة وغلب على قلبه طلبُها والاهتمامُ بها ، ثم عمل فيها بعض نهاره حتى يسلم ، ثقل عليه الحديث مع الأصحاب والإخوان إذا عرف أن في محادثتهم زواله عما قد من الله ، عز وجل ، عليه به من السلامة : فإن رأى بعضهم ، فأطلت منه كلمة مما يكره الله ، عز وجل ، ضاقت عليه الأرض برحبها ، إذا كان قبل أن يلقاهم سليم القلب والبدن ، يرجو رضا الله ، عز وجل ، مما صمت عنه مما يكره الله ، عز وجل ، خوفاً منه ، ثم تكلم بما يخاف أن يكون قد سخط الله ، عز وجل ، منه عليه ، فتضيق عليه الأرض ، ويلزم قلبه الغم ، إذ زال عن السلامة إلى العطب ، فبينما هو يسكت عن كلمة من محادثتهم ، فتكاد تضيق عليه الأرض برحبها ، إذ صار ذلك إذا تكلم بالكلمة التي كان يغم السكوت عنها ؛ وهذا ميراثُ الورع ، وعادةُ التقى ومعونة الله عز وجل . ونصره للمريدين ، إذا كابدوا له أنفسهم ، وجاهدوا له شهواتهم وأهواءهم .

قلت : فإذا عزم على ترك مؤانستهم ، لم أعز من لقايتهم ، لمعاش في سوق ، أو اجتماع في حلقة علم ، أو جماعة في مسجد جامع ، أو غيره . أو جنازة . أو حاجة تعرض لأحدهم إلى ، أو تعرض لي إليه ، أو يأتيني زائراً ، أو أطمع في أن يقبل مني فيقطع من يصحب ويعزم على مثل ما عزم عليه .

قال : إنك إذا عزم على ترك مؤانسته ، وتفردت بنفسك عنه ، ثم لقيك فرآك نافرًا منه ، مشمئزًا من حديثه ، استحي . وتحرز أن يؤانسك بما لا تحب ، وزال عن قلبك السهو والغفلة به إذا ألزمت قلبك حذرَه ، فإذا عرف ذلك منك ، أمسك نفسه عنك ، فإذا لقيته بغير هوى وشهوة محادثته وإنما تلقاه لبعض هذه الأسباب أو لما يشبهها ثم ألزمت الحذرَ قلبك منه لعلمك أن العدو بصطادك به ، وإن تكلم بشر أو بفضول قلت لنفسك : ما أعرفني بمن ^(١) دسه على ليزيلني عن طاعة الله . عز وجل . فاتخذته عبرة . فإن كان ممن يحتمل العظة نهيت في رفيق ، ونهيت لما يقول . فلعلك ، أيضًا تنفعه . فإن كان ممن يحتمل ذلك أو هو ممن يجادلك إذا نهيت . حتى يخرجك إلى

نقص في دينك ، كرهت ما قال . وتحزنت إلا أن يقول محرماً . فتنهه برفق ، ولا تجادله إذا أراد ذلك منك ، إلا أن يكون مريداً لطلب البيان فتبين له إن كنت تحسن ذلك ، وإلا فاسكت عنه . فإن أخذ في الخوض . ولم تقوَ على نهيه . ولم يمكن القيام عنه . فإن قدرت فاذكر الآخرة لعلك تصرفه عن ذلك فيكون لك أجره وأجره .

كما يروى عن إبراهيم التيمي أنه قال : إن الرجل ليأتى القوم وهم يخوضون في الباطل . فيصرفهم إلى الذكر ، فيكون له أجره وأجرهم .

وإن بدأك بالخير قلت في نفسك : هذا خير . وما أدري ما يكون بعده ؟ فأنت حذر وإن بدأك بذكر الله ، عز وجل . لطول ما جرّبت من الأصحاب ومن نفسك فإذا كنت حذراً كنت متحزراً ، وإذا كنت متحزراً فجرى في عقب الذكر خوضٌ فيما لا يعينكما . فظنت له بالحذر اللازم لقلبك ، فلم تخض معه . وإن لم يجر بينكما شيء كان حذرَكَ زيادةً في خوفك لله ، عز وجل . وعملك عادتك لنفسك ، فنتعك أن تزل في وقت آخر يجرى أوله الذكر ، ثم يجرى عقب الذكر ، أو في خلاله . ما لا يعينك ، أو ما هو معصية لربك ، عز وجل . وكذلك في أهل سوقك : تكلمهم في معاشك أو غير ذلك ، وقلبك حذرٌ نافرٌ منهم ؛ وكذلك إذا زارك أحد منهم أو أتيتَه لحاجة ، أو أتاك لحاجة ، أطلت معه الصمت وتركته معه الكلام . حتى يجرى ما هو الله ، عز وجل . رضى ، فإذا أفضت معه في ذلك لم يزايل قلبك الحذر . لطول ما جرّبت من نفسك . وأما أن تأتبه لتعظه ، فإنه لم يبان لك ذلك بعد ما تشكو من ضعفك أنت . كمن يتعلم السباحة . فكيف يخرج الغرق من يتعلم السباحة . فاشتغل بنفسك ، إلا أن تتلى بلفظه فيحب عليك حق تقوم به لله ، فتكون في سكوتك تخاف . حيثنذ عليه . المقت من الله عز وجل . إن سكنت عنه . فتأمره وتناه وتنبه . إن قبل . وإلا صمت عنه ولم تجادله ، وكذلك بعض القربات ممن تزورهم لله . عز وجل ، ويزورونك ، فلا تأتهم لراحة نفسك ، واحذر إن كنت قد جرّبت نفسك معهم بالخوض فيما بكره الله . عز وجل . وكذلك من معك من في منزلك : لا تشك به وإلّا لك يهلك تسهوا وتغفل فتجادهم بما لا يحل لك . فكن منهم حذراً . وهذه أصعب الأسباب عليك . إذا كنت لا تقدر أن تجانبهم . ولكن احذر وادكر ما وصف ربك عز وجل ، عن أهل الجنة إذ قالوا ، حيث استقروا ورأوا عاقبة الإشفاق والوجل فقالوا : «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين» ووصف عدوه من أهل النار ، فقال جل من قائل : (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) ، فكن منهم مشفقاً حذراً ، واحذر أن يفتنوك عن دينك ، وهم أصعب عليك في

المؤانسة وفي الإنكسار عليهم ، فاحذرهم وأدب من وجب عليه الحق منهم بالنهي عن الخوض فيما يكره الله ، عز وجل ، حتى تقوم بأمر الله ، عز وجل ، فيهم إذ أمرك بأديهم خاصة فقال : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) .

قال علي ، رضي الله عنه : أدبهم وعلموهم .

قال مجاهد : أوصوهم بتقوى الله ، عز وجل . وقال قتادة : مروهم بطاعة الله ، وانهوهم عن معصية الله ، عز وجل . وقال الضحاك : وأهليكم فليقوا أنفسهم ، ويكون لك مثل أجورهم ، ويعرفوا مذهبك ، ويمسكوا عما يفتنك ، حين تسهو معهم ، فتحوض معهم . فتفرع حيثنذ من الخوض في الباطل ، فترجع إلى الله ، عز وجل ، بالتوبة . ألا ترى ما مدح الله عز وجل ، به اسماعيل ، صلى الله عليه وسلم في قوله : (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة) . وقال الله ، عز وجل ، لنبيه ، ﷺ : (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ) .

وكذلك طلب العلم تطلبه مع من لا تسلم معه ، وتجالس عليه من لا تسلم معه : فلا تطلبه إلا وحدك أو مع من تسلم معه . وأما المجالسة للاجتماع له في بعض ذلك فلا يجوز أن تتركه فتترك العلم ، ولكن كن منهم حذراً ، وأبد لهم التحرز والاشمئزاز منهم ، وإن وجب عليك حق فيهم فقم به ، فإنهم لم يخلوا من منازل ثلاثة : إما أن ينتفعوا ، أو ينتفع بعضهم فيكف عنك ، أو يتصنع لك فيمسك عنك ، أو يستحي منك لعلمه باشتغالك بجديته فيكف عنك ، فتسلم في دينك ، ويخلص لك طلب العلم بغير آفة ولا معصية تشوبه . وكذلك الشريك في تجارتك أو صناعتك ، والأجير لك ، أو من أنت أجير له ، أو معامل له . إفطم نفسك عن عاداتها معه ، وافطمه عن عاداته معك ، واحذر واحترز ، ولا تستعن به على صلاح دنياك بفساد دينك ، فإن زلت في جميع ذلك فلا يمنعك ذلك من أن تبادر التوبة ، فإنه لا غناء بك عن الرجوع والإنابة إلى ربك ، عز وجل ، فإذا كان عزمك قطع الأسباب من العباد وغيرهم . المزيلة لك إلى ماكره الله ، عز وجل ، فيما قت به ، مما يجب لله عز وجل عليك فيهم ، حمدت الله ، عز وجل ، على ذلك ، فإذا زلت ، استغفرت الله عز وجل . وندمت وحذرت ذلك السبب . وتحزرت فيما تستقبل من تلك الزلة ، وحذرتك أمثالها فخشيتك إن شاء الله عز وجل . مشكورة . إذا فعلتها رجاء الله ، عز وجل ، وخوفاً منه وذنبك مغفور إذا اتبعته بالتوبة . وصار لك عبرة وتحذيراً فيما تستقبل منه ومن أمثاله . فلم تلبث - إن صدقت الله عز وجل - إلا قليلاً حتى يقبل الله عز وجل . عليك بمعونته . ويرحم منك مكابدتك ومجاهدتك نفسك له . وتأييس نفسك منك

وَتَأْيُسُ مَنْ كَانَ يَفْتَنُكَ وَزِيلُكَ ، وَتَقْوَى عَلَى طَاعَةِ رَبِّكَ ، عَزَّ وَجَلَّ .
فَافْعَلْ فِي هَذِهِ الْأَسْبَابِ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ وَكُلَّ سَبَبٍ يُزِيلُكَ وَيَفْتَنُكَ ، فَإِنْ ذَكَرْتُ كُلَّ الْأَسْبَابِ
يَطُولُ بِهِ الْكِتَابُ ، وَالْعَاقِلُ يَحْتَرِئُ بِالْوَحْيِ دُونَ التَّصْرِيحِ ، وَإِنَّمَا قَطَعْتُكَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَزِيلُكَ ،
وَأَمَّا سَائِلُ جَوَارِحِكَ عَمَّا يَكْرَهُ رَبُّكَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، حِمِيَّةٌ تَحْتَمِي بِهَا أَنْ تَرْتَعَ فَتَهْلِكَ ، كَمَا يَحْتَمِي أَهْلُ
الدُّنْيَا فَيَتَرَكُونَ مَلَاذِمَهُمْ ، رَجَاءَ الْعَافِيَةِ وَخَوْفَ طَوْلِ الْبَلَاءِ .

فَتَلُكْ فِي حِمِيَّتِكَ لِرَبِّكَ : كَمَثَلِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، أَمَكَّتَهُ الْأَشْيَاءُ مِنَ الشَّهَوَاتِ
وَاللَّذَاتِ ، فَرَتَعَ فِي مَا يَجِبُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَأَحَاطَتْ بِهِ الْأَدْوَاءُ ، مَعَ سَقَمٍ مِنْ بَدَنِهِ وَضَنَى ، فَإِنْ
رَتَعَ فَيَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ هَلْكَ ، وَإِنْ احْتَمَى عَاشَ وَنَهَكَ ، فَقَدْ آخَى الْأَطْبَاءَ ، وَحَارَفَ الصِّيَادِلَةَ ،
وَتَجَشَّمَ شَرْبَ الْأَدْوِيَةِ الْمَرَّةَ ، وَجَانِبَ الْأَطْعَمَةِ الطَّيِّبَةِ ، فَبَدَنُهُ يَزْدَادُ نَهْوَكَ لِقَلَّةِ طَعْمِهِ ، وَسَقَمُهُ ،
كُلَّ يَوْمٍ يَقِلُّ وَصَحَّتْهُ تَزِيدُ ، وَإِنَّمَا اخْتَارَ الْإِحْتِمَاءَ ، وَإِنْ أَنَهَكَ بَدَنُهُ عَلَى أَطْيَابِ اللَّذَاتِ خَوْفًا أَنْ
يَرْتَعَ فِيهِلِكَ ، وَرَجَاءَ أَنْ يُؤَدِّيَهُ الْإِحْتِمَاءُ إِلَى الْعَافِيَةِ ، فَيُنَالِ اللَّذَاتِ بِحِسْمٍ صَحِيحٍ ، وَعَافِيَةٍ
لَازِمَةٍ ، فَتَطْيِبُ حَيَاتِهِ بِغَيْرِ سَقَمٍ ، وَيَصْفُو عَيْشَهُ فَلَا يَكْدُرُ .

فَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ الْمُرِيدُ التَّقَى : احْتَمَى عَنْ كُلِّ مَهْلِكٍ مِنَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِ . فَيُبَيِّنُ عَلَيْهِ
النَّحُولَ ، وَالتَّقَشُّفَ ، وَالْوَحْشَةَ ، وَزَوَالَ الْأَنْسِ بِالْعِبَادِ وَظُهُورِ الْأَحْزَانِ . وَزَوَالَ الْأَفْرَاحِ .
فَاخْتَارَ ذَلِكَ كُلَّهُ كَرَاهِيَةَ الرَّتْوَعِ فِي لَذَاتِهِ . فَيَحِلُّ بِهِ غَضَبُ رَبِّهِ . عَزَّ وَجَلَّ وَيَجِبُ عَلَيْهِ عَذَابُهُ .
وَرَجَاءُ أَنْ يَرْضَى اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ عَنْهُ ، فَيَنْجُو مِنْ عَذَابِهِ . وَيَحِلُّ فِي جَوَارِهِ ، فَيَصِيبُ
اللَّذَاتِ ، فِي الْجَنَانِ ، بِغَيْرِ سَقَمٍ وَلَا تَنْغِيصٍ . وَلَا تَبْعَةٍ فِي ذَلِكَ يَخَافُ فِيهِ الْمَهْلَكَةَ مَعَ الْبَقَاءِ الدَّائِمِ
فِيهِ أَبَدًا ، وَرِضْوَانِ رَبِّهِ الْأَعْلَى .

فَالزَّمِ الْحَمِيَّةَ ، وَتَذَكَّرْ سُوءَ الْعَاقِبَةِ فِي الْآخِرَةِ . وَأَمْلُ طَيْبِ عَيْشِ الْآخِرَةِ وَاسْتَعْنِ بِالَّذِي
يَحْتَمِي لَهُ لَطْلُبُ مَرْضَاتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِلْمُرِيدِينَ عَوْنًا ، وَعَلَيْهِمْ مَتَحْنًا ،
وَلَوْ شَاءَ لَأَغْنَاكَ فِي أَوَّلِ بَدَايَتِكَ عَنْ الْحَمِيَّةِ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مِنْكَ صَدَقَ الطَّلِبُ لِرِضَايِهِ .
بِالْمُجَاهَدَةِ وَالْمُكَابَدَةِ ، حَتَّى إِذَا صَدَقْتَ فِي الطَّلِبِ . وَتَجَشَّمْتَ مَكَابِدَةَ نَفْسِكَ وَمُجَاهَدَتَهَا . أَقْبَلْ
عَلَيْكَ بِالْمَعُونَةِ فَهَلْ عَلَيْكَ تَرْكُ مَا تَهْوَى . وَنَعْمُكَ بِطَاعَتِهِ . لِأَنَّهُ الْكَرِيمُ بِغَيْرِ تَكْلَفٍ ، وَالْجَوَادُ
الَّذِي لَا يَعْتَرِيهِ الْبُخْلُ . وَإِنَّمَا أَحَبُّ مِنْ عَبْدِهِ الْمُرِيدِ أَنْ يَصْدُقَ فِي طَلْبِ مَرْضَاتِهِ ؛ فَيَكَابِدُ لَهُ نَفْسَهُ
وَيُجَاهِدُ لَهُ هَوَاهُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْفَفُ اللَّهُ . عَزَّ وَجَلَّ . عَنْهُ الْحُزْنُ . وَيُمِيتُ مِنْهُ الْهَوَى . وَيَلِي سِيَاسَتَهُ
وَتَقْوِيهِ حِينَ رَأَاهُ جَادًّا فِي طَلْبِ مَرْضَاتِهِ ؛ عَزَّ وَجَلَّ .

ولو أن عبداً من عبيد أهل الدنيا أقبل إلى مولاه ؛ وهو ضعيف في بدنه فأقبل إلى مولاه بضغفه - يقع مرة في مشيته ؛ ويقوم أخرى ؛ فكان ذلك منه مراراً - فنظر إليه مولاه - مقبلاً إليه مكباً يكبو لوجهه لضغفه ثم يقوم فلا يمتعه وقوعه من الإقبال إليه ؛ لطلب القربة منه ومرضاته ؛ فرآه يصيبه ذلك في الإقبال إليه مراراً ، وعنده دواب كثيرة ؛ ثم كان له أدنى كرم أو رحمة لما ودعه كرمه ولا رحمته إلا أن يرسل إليه بدابة يأتيه عليها - مستريحاً من الوقوع ؛ ويسرع عليها إلى لقائه ؛ فآله عروجل ؛ أولى بذلك إذا رأى عبده المريد مجاهدًا لنفسه - يزل ثم لا يمتعه ذلك أن يعود إلى طلب مرضاته : يجاهد من نفسه ، مغتصمًا بزواله أعظم من غم الساقط على وجهه فإذا رآه كذلك خفف عليه طلب مرضاته . وأسرع به إلى معالي درجات القرب منه . جل من لا يشبهه أحد في جوده وكرمه . ورافته ورحمته وتمننه ولطفه .

كِتَابُ التَّنْبِيهِ عَلَى مَعْرِفَةِ
النَّفْسِ وَسَيِّئِ أَعْمَالِهَا
وَدَعَائِهَا إِلَى هَوَاهَا

باب التحذير من هوى النفس

قلت : قد وصفت لي الرياء وأسبابه فمن أين أوتيت ؟

قال : من نفسك من قبل هواها .

قلت : وكيف أوتيت من قبل نفسي ، ولي عدو يكيدني ويزين لي . ودنيا تفتني .
قال : فإنه لم ينال منك عدوك ما يريد إلا من قبل هوى نفسك ولولا ذلك لكنت قد ازددت بدعاء عدوك قرينة إلى ربك . إذ كان سبب القرينة دعاؤه لأنه حين دعاك عدوك فأبيت أن تجيبه . كنت بامتناعك مطيعاً حين عصيت من دعاك إلى ما لا يحب ربك ، عز وجل . وكان اعتصامك منه خوفاً من الله . عز وجل . ورجاء ثوابه . فامتنعت . واستعملت الخوف والرجاء حيث أمرت ، ولو لم تكن تركزن نفسك إلى الدنيا لازددت بزيتها قرينة . إذا امتنحت بالدنيا وعرورها ، فلم تركزن إلى غرورها . وأردت الآخرة ورغبت فيها . وامتنعت أن ترتفع في الدنيا أو تميل إليها فتحرم الآخرة ! أو تنقص منها فأطعت فيما امتنحت به . فكان سبب ذلك الدنيا . إذ يقول الله . عز وجل :

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَتَلَبَّوْهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(١) .

يخبرك أنه يريد حسن العمل في الزينة وإنما خلق زينة الأرض لينظر من الذي يحسن له العمل فيها . وإن أحسن العمل فيها . الزهد فيها . وإيثارك الآخرة عليها . فإن فاتك ذلك فاترك كل زينة عليها توجب سخط الرب ، جل وعز ، وذلك الورع الواجب عليك لله عز وجل ، ولم يضرك أحد من أهل الدنيا يدعوك إلى ضلالة وخطأ إن لم تجبه نفسك . بل توجر إذا امتنعت وأبيت واستعصمت لقول الله ، عز وجل . ورسوله ﷺ ، وكذلك من عاداك وآذاك واغتالك . وكادك إن لم تعص الله : عز وجل ، فيه ولم تكافئه فتكون مثله . لم يضرك . بل عرضك للمنفعة وأهلك نفسه إلا عدواً أمرت بمجاهدته وهم الكفار . فذلك الذي يتفعلك بمجاهدته . وعلى أي الحالين فإنك الراجح الفائز ، إما أن تغلب أو تقتل . فالغلبة منك فيها أجر عظيم . والقتل شهادة لقول الله ، عز وجل :

(قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ^(١))

فوسيلة كل عدو . ضرك بمكيدته . نفسك من قبل هواها

قلت : فقد ثبت عندى أن سبب كل محذور أخافه على : نفسى من قبل الهوى . فدلنى ذلك أن فى مخالفتها طاعة الله عز وجل ، وفى طاعة الله ، عز وجل ، صدقه والقيام لمحبتة فاشرح لى ذلك وعرفنيها .

قال : لا تصدق الله حتى تصدق نفسك ، ولا تصدق نفسك حتى تعرفها . ولا تعرفها حتى تفتشها وتعرضها على الموت والعرض على الله عز وجل فتعرض أحوالها ولا تعترض أحوالها حتى تهتمها فيما تظنها ، محسنة فيه ، وتحكم عليها فيما ظهر من إساءتها فإذا اتهمتها فتشتها ، فإذا فتشتها اعترضت أحوالها ، وإذا اعترضت أحوالها عرفت تصنعها وخذعها وكذبها ، فإذا عرفت حذرتها ، فإذا حذرتها تفقدتها . فإذا تفقدتها أبصرت روعاتها من طاعة ربها . عز وجل . وترينها بما لا يجب خالقها ، لأنها معدن كل سوء . والدعاية إلى كل بلية أخبرك عنها خالقها . عز وجل . أنها بالسوء أمانة . وللهموى المردى متبعة . فخذ منها حذرك واتهمها على دينك .

باب بم يعرف سوء رغبة النفس

قلت : فدلّني على ما أعرف به بعض عيوبها . حتى يَلْزَمَ قلبي تهمتها فأفتشها وأعرفها .
قال : أَلَسْتَ ترى أن العزم منها في حال الرضا مبذول على الحلم سخية غير ممتنعة ؟
قلت : بلى .

قال : فكل خلق من كافر أو من مؤمن يحلّم عند الرضا ، فإذا غضبت فطلبت منها الحلم ،
امتنعت منه فظهر منها السفه والحقده وسوء الخلق ، ما لو يظهر من بعض الولدان لكان قبيحاً
قلت : بلى .

قال : فمن بذل الشيء حيث لا يُحتاج إليه . ومنعه عند الحاجة . أليس مخادعاً وليس
بصادق ؟ يَحْدِلُكَ عند الحاجة ويعدك في الغناء . أنه يغنيك . فإذا احتجت إليه أسلمك
للهلكة ، لأنها وعدتك أن تحلم عند الغضب . فتستوجب بذلك الجنة . وتعصم من أن تُمضى
غضبك بما يكره ربك ، عز وجل ، خوفاً أن تجب لك النار . فلما احتجت إليها أسلمتك إلى
التعرض لوجوب العذاب ، وأعانتك عليه وشجعتك فيه . وثقلت عليك التعرض للنجاة . فمن
أعدى لك ممن فعل ذلك بك ، ومن أكذب وأفجر ممن فعل ذلك بك .

وكذلك الإخلاص . تعطيك قبل العمل ، وليس الإخلاص إلا نية الإخلاص : أن يُخلص
عند العمل إشفاقاً ، زعمت على العمل أن يحبط في يوم فقرك وفاقتك إليه . تعطيك ذلك سخية
غير ممتنعة ، فإذا عرض العملُ هاجت هي بالدعاء إلى الدخول فيها وعدت أن تفر منه . وامتنعت
مما وعدت أن تقوم به ، وهاجت الشهوة بالرياء . وامتنعت من الإخلاص ، وامتنعت مما يُقبلُ به
عملك ، ودعّتك إلى ما يحبط به عملك في يوم فقرك وفاقتك .

أرأيت لو أنها وعدتك الرياء عند العمل . والامتناع من الإخلاص عند العمل . فأخبرتكَ
أنها تريد بذلك حبّطَ عملك ، حيث تحتاج إليه في يوم فقرك وفاقتك ، ألم تكن قد أنجرتُ
ما وعدتكَ ؟ وكذلك تُعطيك الورع في حال العدم . وإنما ذلك نَبّه الورع فتزعم أنها تدع ما يكره
الله عز وجل حين تعرض للبلاء . خوفاً أن يغضب الله عليك ، فتستوجب العذاب وتحرم
الثواب ، وأنها تمتنع من المعصية . ترجو بذلك الأمان من العذاب . والظفر بالقوز والثواب ؛

حتى إذا قدرت وامتنعت . جاشت لشهوتها . فطلبت ما زعمت أنها تدعه إذا عرض لها إشفاقاً عليك من النار وحرمان الثواب . وامتنعت مما زعمت أنها تقوم به من الورع . رجاء الأمن من العذاب والظفر بالفوز والثواب : فهل يقدر أعدى الأعداء لك ، إلا أن يعطيك من الأمن ما تعثر به ، لتسكن قنطرة ولا تحذر . وتأمنه ، حتى إذا عرض ما وعدك أن يعطيك ، كان هو الذي يطلب هلاكك وعطبك ، لينال ما يريد ويشتهي .

وكذلك الزهد ، تعطيك قبل الملك ، حتى يخيل إليك أنك من الزاهدين حتى إذا ملكك الدنيا أو القليل منها هاجت منها الرغبة ، وكانت هي المطالبة والمنازعة إلى الرغبة ، والصادة عن الزهد ، والمثبطة عنه فأخلفتك الموعد ، وكانت عليك في خلاف ما أعطتك .

وكذلك الرضا ، في حال الرخاء والعافية ، قبل وقوع القضاء بالبلاء والمصائب ، حتى يخيل إليك أنك من الراضين ؛ وتلك حال يرضى بها كل مؤمن وفاجر ، لأنها حال توافق محبة النفوس ؛ وليس عند هذه الحالة أريد منها الرضا ، وإنما ذلك العزم منها نية أن ترضى ، لا رضا لأن الرضا بعد القضاء بتزول البلاء والمصائب ، فإذا نزلت مصيبة أو بلاء في بدنه ، أو ضيق في معاشه من شدة من شدائد الدنيا ، امتنعت من الرضا بل كانت هي التي تهيج للجزع والتسخط وتثبط عن الرضا وتصد عنه ، فلم تف بما وعدت ، وكانت هي التي تدعو إلى ما يبكره الله عز وجل من السخط ، وتصد عن الرضا .

وكذلك تعطيك التوكل والثقة بالله عز وجل . ما واتها الأسباب والدنيا . وكفيت المؤونة فإذا جاءت حال يحتاج فيها إلى النظر إلى الله عز وجل لا إلى خلقه والآباء التي دون الله عز وجل . تعلقت بالأطاع . وهاج رجاء المخلوقين وخوفهم . ولزم القلب الاهتمام بالأسباب وظهر التصنع والتملق للخلق فغدرت بك حين احتجت إليها وكانت هي التي تصد عن التوكل وتثبط عنه فإن أيقظك الله عز وجل لها ولمجاهدتها وذكرتها موعدها وما تحملك عليه من نقض موعدها وخلف عزمها جاهدتك وامتنعت فإن حملت عليها بذكر الوعيد والوعد . وذكرتها نظر الله عز وجل وقيامه عليها وسؤاله غداً لها فتذكرت بعقلك استبان فيه اليقين وعظمت فيه المعرفة ، واشتدت فيه البصيرة فقهر ذلك هواها وغريزتها ، خلاف ما انقادت له ؛ فلما رأيتك قد حلت بينها وبين الشر الظاهر والباطن ، طلبت الشر الخفي الغامض ، وانتشرت عليك بطلب الرياء لتصنع به ، والعجب لتستريح إليه ، والكبر لتعظم به وتفتخر به . تريد أن تنال لذتها فيما أجيبت إليه كأنها لا تريد أن تصل إلى خير من عمل الآخرة ، فإن صرت إليه جهدت في أن تحبطه . وماذاك

بها ، ولكنها تحوم على أن تنال لذتها ، لا تبالي فيها نالتها كائنات ما كان غير مكترثة . فإن حملت عليها ، وتفقدت دقائق منازعتها . ولطائف خدعها ، فكرهت ذلك ، وذكرت ما قدم الله . عز وجل ؛ إليك فيه وما توعده به على قبول ذلك والركن إليه ، من الحبط والتعرض للمقت فغلب على قلبك الخوف والحذر ، انقادت وهي كارهة ، ثم لا ترضى مع إعطاء هذا العزم . ثم الغدر بها أن تقي بها والمعاونة على الشر ، حتى تدعو إلى الله عز وجل . وتكلم بكلام الخائفين . وتقول بقول المؤمنين . وتظهر تقشف المتواضعين ؛ وتنعت آفات الدين ، من الغيبة . والكذب . والرياء والكبر ، والحسد ، والاغترار ، فكنت مغترًا منها بذلك : تظن أنها كذلك لما ظهر منها . حتى لما وقعت المحن . ونزلت النوازل التي تحتاج فيها إلى تحقيق ما تقول . وتصديق ما تدعى ومعنى ما تظهر قلبك ذلك كله وأرادت خلافه .

وقد كان تخيل إليك أن الخوف له أبصل في قلبك ، والصدق والإخلاص والتواضع والزهد والتوكل والرضا ، فلما جاءت الأحوال التي يتبين فيها : هل صدقت فيها ظننت أنه قد سكن قلبك : من الخوف والإخلاص والزهد والرضى والتوكل والصدق . هاج الهوى منها . وجاشت الشهوات في ضد ذلك كله . فلو كان ذلك ساكنًا قلبك ، لهاج في وقت الحاجة إليه . ولما هاج ضده . فإن هاج ضده فقه ، فعلمت أن ذلك إعطاء جملة بلا مؤونة مع دعوى غير محققة . رأيت لو قال لك عدة من الخلق : إنا معك إذا نزلت بك نازلة أو شديدة ، فلما نزلت بك النازلة خذلوك ، وطلبتهم فلم يجدهم ، علمت أنهم ليسوا معك ، ولكنهم غرؤك ؟ فبينما أنت تعجب من خذلانهم وقلة وفائهم ، إذ وثبوا هم عليك ، يعينون عليك عدوك ، لطلال منهم تعجبك ، واشتد منهم حذرهم فيما يستقبل ، ولم تطمئن إلى موعد وعدوك به . وإن سمعته الثانية يذكرون نصرتك عند الشدائد مقتهم ، لما عرفت منهم .

فاعرف نفسك ، فإنك لم ترد خيراً قط ، مهما قل إلا وهي تنازعك إلى خلافه ولا عرض لك شر إلا أقله . إلا كانت هي الداعية إليه ، ولا ضيقت خيراً قط إلا لهواها ، ولا ركبت مكروهاً قط إلا لمحبتها ، فحق عليك حذرهما لأنها لا تفتر عن الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة . فإن تيقظت للآخرة وتذكرتها وتفكرت فيها ، نازعتك إلى الدنيا وإلى الراحة بالتذكر والفكر فيها ، والغنى لها ، فما تمت لك قط ركعتان لم تنظر فيها في شيء من أمر الدنيا مما يشغلك عما أنت فيه ، ولا تمت لك ساعة من أجزاء النهار بالفكر في الآخرة ، لمجاذبتها إياك عن ذلك ، ومنازعتها إلى الدنيا فإن غفلت عنها ركعت واشغلت ، وإن تيقظت نازعتك لتشغلك عما أنت فيه من أمر

آخركَ ، فهوها قاهر لعقلك ، يغفل عقلك وهي لا تغفل ، ويذكر عقلك وهي تنازعك ألا يذكر ، فلا يحلّ لك قتلها ، ولا تقدر على مفارقتها ، وهي بهذه المتزلة من العداوة لك ، فاعرفها واحذرهما ، فإنك إن عرفتها ازدددت منها حذراً ، وعلى ربك توكلًا ، وبه ثقة ، وإليه طمأنينة ، ولها بغضًا ومقتًا ، ولربك عز وجل ، مودة وحبًا ، ومنها إياسًا وقنوطًا ، ولربك عز وجل رجاء وأملًا ، والله عز وجل ، بالنعمة والمثّة والتفضل بما عملت : اعترافًا وإقرارًا وشكرًا ، وأنها منه بريئة لأنك لو صحبت صاحبين : أحدهما لا يحلّ لك قتله فلا تقدر على مفارقتها : كالوالدة أو الوالد ، وله نعمة أن يصيب لذته ويروّج بدنه . وإن أعطيت في ذلك فيينا أنت معه إذ غفلت فجاء بصخرة ليرضخ بها رأسك ، فأيقظك الآخر الذي معك . وأمسك بيده حتى قتت إليه فأخذت الصخرة من يده ثم ألقيتها .

وكذلك لو صنّع طعام فيه سم فنبهك الآخر له حتى عرفته ، لازددت له بغضًا ومقتًا ، وللذي نبهك وفطنك له مودة وحبًا ، وللذي أراد بك القتل حذرًا ، وعلى الذي نبهك توكلًا وبه ثقة وانقطع رجائك ممن أراد أن يكيدك ، واشتد أملك ورجائك للذي أيقظك ونبهك ، وانقطع عنك العجب لفطنتك به وتخلصك من شره ، وأقررت بالنعمة والتفضل للذي نبهك وأيقظك ، حتى امتنعت من مكائد عدوك الذي أراد أن يكيدك

فالعدو الذي أراد مكيدتك نفسك ، والذي أيقظك ونبهك ربك عز وجل . فكهم من بلاء أرادته بك ونازعتك إليه ، وهممت به أو فعلته ، فنبهك الله عز وجل عليه ، فتركته ولم تركه ، وما ركبت منه ندمت عليه وتبت إليه .

فإن عرفتها ازدددت لله عز وجل حبًا ومودة . ولها بغضًا ومقتًا . وعلى الله عز وجل توكلًا وثقة ، ومنها إياسًا ، وإلى الله عز وجل طمأنينة ، ومنها حذرًا ووجلًا . ولم تعجب بما عملته . ولم تضفه إلى نفسك إذا كانت محبتها في خلاف ما عملت من الخير . ومحبتها فيما تركت من الشر . ولو تركت إلى محبتها صارت إليها ، فالذي أيقظك وأعانك على خلاف محبتها غيرها . وهو الله عز وجل فاعرفه عز وجل ، واعرفها ، فإنك إن عرفتها صدقتها وإن صدقتها ولم تداهاها ولم تمل مع هواها ، صدقت الله عز وجل واتقيته وأتبت إليه ووثقت به ، فاتهم ما خف عليها من الخير من غير أن ينقطع منك الرجاء ، فيدخلك الإياس والقنوط ، ولكن اتهم وفتش ، وإن لم تعلم شيئًا فاحمد الله عز وجل ، وكن وجيلًا أن يكون قد كان منها ما يكره الله عز وجل . فلم تذكره لغلبة هواها وأحصاه مليكها عليها ، مع الأمل في الله عز وجل أن يقبل منك ما عملت ، وإن كان منك أمر

مما يكره فيما عملت رجوت العفو عنه ، ولم تترك الوجل والإشفاق من ألا يعفو عنك ، وترجو بذلك الوجل العفو عنك والصفح ، لأن من خاف أن لا يعفى عنه بصدق منه عُنى عنه ، ومن أمن واعتز استوجب أن لا يعفى عنه .

فاحذرهما وفتشها وخاصمها ، كما يخاصم الخصم الظلوم الخائن الموارب ، البليغ في حُجته المزخرف القولَ الباطلَ بشدة بيانه ، حتى تقيم عليه البيّنات العادلة وتفتشه ، حتى إذا قامت عليه البيّنة أوفتش فأصيب معه السرقة انقطعت حجته ، وأذعن وأقر ، فإن أبى أن يؤدى الحق الذى اعترف به أو قامت عليه البيّنة ، رفعته إلى موضع الحكم ، فحكم عليه بالحبس والضرب ، فإذا نظر إلى ذلك وعلم أنه يمتنع أن يُعطى أقل مما ينال منه وأن يؤخذ منه أكثر مما يمتنع منه ، أعطى الحق ورد الظلم .

وكذلك فخاصمها بالكتاب والسنة ، وأقم عليها الحجة ، وفتشها عن عيوبها ، وذكرها خبثها وكذبها ، حتى إذا أذعنت بالإقرار والاعتراف بالحق ، وانقطعت معاذيرها ومواربتها وحججها الكاذبة ، فإن انقادت إلى الحق ، وإلا فارفع وهما إلى النار . وهى السجن والعذاب ، فتوهم شدة عذابها وأنه واجب عليها ، فإذا رأتَه يبصر العقل وعين اليقين وهاج منها الخوف ، لم تتالك بالإذعان والندم والعزم ، وانقادت إلى الحق ، لما عاينت وعلمت أنه يؤخذ منها أكثر مما تنال ثم احذرهما أيضاً بعد ذلك أن تنازع إلى ما تركت فتدرك غادراً ، فإن نازعتك فأقم عليها الحجة وأرها العذاب ورجعها بالترك : الثواب ، وأرها إياه بمشاهدة اليقين . واستعن بالله عز وجل عليها ، وتوكل عليه ثقة به ، وأحسن به الظن ، وإياأس منها أن يكون منها خير . إن وكلك الله عز وجل إليها ، فتوكل عليه ، ومنها فليقطع رجائك وأملك .

کتاب العجیب

باب ما يؤدي إليه معرفة النفس وشرح العجب والإدلال بالعمل

قلت : قد عرفتني نفسي وحذرتها ، فأخبرني ما الذي يؤدي إليه معرفتها ؛ بعد وصفك الرياء وأسبابه . ولم يكن لي عنه غنى ؟ وإن عرفتها فما ينفعني أن أعرف عدوى ولا أعرف مكائده ولا يكون معي آلة لمجاهدته . فأخبرني بالعجب ماهو وفيما هو وفيما ينبغي ويتقن ؟

قال : إنك سألت عن آفة في كثير من العباد عظيمة ، معمية لذنوبهم . ومزينة لهم خطأهم وزللهم ، لأن العجب يُعمى القلب ، حتى يرى المعجب أنه محسن وهو مسيء . وأنه ناج وهو هالك ، وأنه مصيب وهو مخطئ ، ولا يلبث صاحبه المعتقد له أن يركن إلى الغرّة ، فيستصغر ما علم به من ذنوبه وزلله وينسى كثيراً منها ، ويُعمى عليه أكثرها حتى لا يظنه ذنباً ، فيستكثر عمله ، فيغترّ به ، فيقلّ خوفه . ويشتد بالله عز وجل غرته . بل قد يخرج صاحبه به إلى الكذب على الله عز وجل وهو يرى أنه عليه صادق ، وإلى الضلالة وهو يرى أنه مهتدٍ ، فبالعجب هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون . وافتخر المفتخرون . واختال المختالون . وبه هلك آخر هذه الأمة .

وما يدلّك على ذلك قول النبي ﷺ - وذكر آخر هذه الأمة - فقال : لأبي ثعلبة : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك » . وقال أبو الدرداء : « ثلاث منجيات . وثلاث مهلكات . فأما المهلكات فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه »

وروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاث مهلكات » شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه » .

وقال عمر رضي الله عنه مثلاً ذلك ، فدلّوا بذلك أن فيه الهلاك . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الهلاك في اثنين : القنوط . والعجب . وصدق رحمه

الله ، فإن الإنسان إذا أعجب لم يقطن لذنوبه . وما فطن به من ذنوبه استصغره . وما لم يقطن له لم ير أنه ينبغي أن يتوب منه . وما استصغره لم يُفزعهُ فيُقلع عنه . فيقيم على ذنوبه فيهلك . وإذا عرف كثرة ذنوبه واستعظمها ثم قنط لم ير أنه يقبل منه التوبة . فأقام عليها فأمسك عن العمل لله عز وجل بالطاعة فيهلك .

فدلّ ابن مسعود بقوله هذا : أن في العجب الهلاك ، لأنه إذا أعجب زكى نفسه ، فإذا زكاها لم يَتَّهمها ، ولم تعظم عليه مخالفتها أمر ربّها ، وظن أنها ناجية .
ألا ترى إلى قول الله عز وجل : (فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ ^(١)) .

قيل في التفسير لا تبرئوها ، فكيف يَتَّهمها وهي عنده بريئة فإذا لم يَتَّهمها كيف يقطن لعيوبها وقوله جلّ ثناؤه « فلا تزكوا أنفسكم » قال زيد بن أسلم لا تبرئوها ، وقال ابن جريج : يقول لا تعملوا بالمعاصي وتقولوا : نعمل بالطاعة ، وقال مطرف : لأن آيت نائماً وأصبح نادماً أحبّ إلى من أن آيت قائماً وأصبح متعجباً ، فيجمع العجب خصالاً شتى : يعنى عليه كثير من ذنوبه ويُنسئ مما لم يعم عليه منها أكثرها وما ذكر منها كان له مستصغراً وتعنى عليه أخطاؤه وقوله بغير الحق ، ويخرجه ذلك إلى الكبر والتعظيم على العباد . ويفتر بالله عز وجل ويدل عليه بعمله وعلمه حتى كأن له منّة على ربه عز وجل ، فحينئذ يقطع عن الله عز وجل عصمته . وَيَكِلُهُ إلى نفسه فيرى أنه من المحسنين وهو عند الله من الظالمين الفاسقين .

ألا ترى إلى ما يروى عن عائشة رضى الله عنها أنه قيل لها : متى يكون الرجل مسيئاً ؟ قالت : إذا ظن أنه محسن ، وصدقت رضى الله عنها ، إنما يرى أنه محسن إذا أعجب بعمله .

ويخرجه العجب إلى المن بمعروفه وصدقته . لأنه عظم عنده ما تصدق به أو تفضل به . وينسئ منّة الله عز وجل عليه . وأنه مضيع لشكره على ذلك ، فنّ بما اصطنع من معروفه فحبط أجره ، كما قال الله عز وجل : (لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ^(٢)) .

ويستوجب عذاب ربه جل وعز . قال النبي ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل يوم القيامة . - ولا ينظر إليهم . ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : أحدهم المنان » فاعقل ما سألت عنه . وافهم إجابتي إياك وقدم لله عز وجل العزم في تركه بعد معرفته ، لعل الله عز وجل أن ينفكك بإجابتي لك عنه .

(١) ٣٢ . ٥٣

(٢) ٢٦٤ . ٢

باب العجب بالدين

واعلم أن العجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم والرأى الصواب والرأى الخطأ ، فالعلم ما حفظ وفُهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .
وأما الرأى الصواب فما استنبط قياساً على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبهاً بها حكمة مثل حكمة .

وأما الرأى الخطأ فما كان عن غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة ، وإنما هو تأويل بغير الحق ، وانتحال له على سبيل الجهل ، من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق .

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب فعنى واحد . لأنه كله مئة من الله عز وجل ونعمة منه ، وله أولٌ يكون عنه ، وقد ينفرد أوله فلا يكون عجباً .

فأما أوله الذى يكون عنه العجب : فالاستكثار والاستعظام للعمل ، والاستحسان للعلم والرأى الصواب فعنى واحد ، لأنه كله مئة من الله عز وجل ، فإن استكثر العبد عمله واستعظمه تعظيماً للنعمة ، والمئة عليه به أوجاء ثوابه ، وأنه لا يستحق الثواب ولا كان أهلاً أن يمن عليه به ، ولا هو أهل أن يقبل منه ، ولكن عظمت عليه النعمة به ، ورجاء التفضل بالقبول له لا غير ذلك فليس يعجب به ، ولكن إذا استكثر عمله واستعظمه ، واستحسن علمه ورأيه ، فأضاف ذلك إلى نفسه ، وحمدها عليه ، ونسى نعمة ربه عز وجل عليه ومئته بذلك ، فقد أعجب بعمله وعلمه .

فجملة العجب بالدين حمد النفس على ما عملت أو علمت ، ونسيان النعم من الله عز وجل عليك بذلك ، فحمد النفس ونسيان النعم هو العجب بالدين .

إلا العمل الذى يريد أن يقوم به العبد ولم يقم به بعد ، فإن فى ذلك معنى زائداً ، وهو الاتكال على نفسه ، بالنسيان للتوكل على الله عز وجل ، وذلك أيضاً من النسيان للنعمة ، لأنه إذا نزل ما يناله بمئة الله عز وجل ، علم أنه لا مقوى له لما ينال غير الله عز وجل ، فإن من الله عز وجل عليه بذلك ناله وإلا لم ينله .

قلت : فعلى أن أكون ذاكرًا لكل نعمة ينعم الله عز وجل بها علىّ في الدين فلأن نسيت شيئاً منها كنت معجباً .

قال : لا ، ليس عليك فريضة الذكر لكل نعمة إنها نعمة إذا كنت معتقداً في جملة إيمانك أن جميع النعم في الدين والدنيا من الله عز وجل ، وإن ذكرت الله عند كل نعمة وعلمت أنها مئة من الله عز وجل ، كان أفضل لك عند الله عز وجل ، وأبعث لك على الشكر ، وأبعد لك من العجب ، فلأن نسيت ذكر النعمة فسهوت عنها ، ولم تُضيف الفعل إلى نفسك ، مع الحمد لها على ما أنعم عليك من العمل والعلم ، لم تكن معجباً ، وكنت ناسياً لتلك النعمة كنسيانك سائر النعم في غير عملك ، إلا أن تحمد نفسك على ذلك ناسياً لنعمة الله عز وجل ، فتكون حينئذ معجباً .

باب إضافة العمل إلى النفس

قلت : وكيف يمكن ألا أضيف الشيء إلى نفسي ولم يعمل ذلك العمل غيري . ولو لم أعلم أني أنا الذي عملته ما عدته نعمة ، ولا رجوت ثوابه من الله عز وجل . قال : أجل ليس العجب علمك بما عملت وعلمت ، ولكن الإضافة إلى نفسك بالحمد لها ونسيان منة المولى بذلك ، فأما إذا علمت أن ذلك كان بمنة الله عز وجل ، وأن نفسك لو تركتها وعجبتك لركنت إلى خلاف ذلك ، فتفرد الله عز وجل بالمنة في ذلك فليست معجبا . قلت : بين لي فرقاً بين معرفتي أن العمل أنا عملته ، وبين إضافتي العمل إلى نفسي وحمدي إياها عليه .

قال : معرفتك بأنك عملته معرفة قائمة في الطبع بالاضطرار ، لا تقدر أن تجحد أنك عملته ، ولا تحتاج إلى ذكر ذلك ، ولا مخاطبة نفسك به ، والعجب ذكر هاتج مخاطبك به نفسك ، ويتزع به عدوك وذلك أن يهيج استعظام عملك واستكثاره على أن تقول في نفسك : لقد قويت وصبرت وتخلصت ، أو جودت أو جاهدت أو فهمت ، مستعظماً لذلك ، فرحاً من نفسك بقوتها ، ونفاذ بصيرتها ، معظماً لها على ذلك ، وقد مخاطبها بدون ذلك فتقول : قرأت كذا ، صليت كذا ، لم أفطر منذ كذا ، صُمت في يوم شديد الحر ، مع نسيان النعمة ، فذلك استكثار لعملك بإضافتك إياه إلى نفسك ، وجملة ذلك إذا هاج فرحك بقوتك على ما عملت ، وكذلك ما لم تقم به من العمل مضيئاً إليها القوة والصبر ، ترى أنك تقوم بذلك ، ناسياً ، لا تنظر منة الله عز وجل بذلك ، ولا تترك الاتكال على قوتك ، فلو كان الله عز وجل لم يمن عليك بشيء من ذلك أكننت تقوى على ذلك ، أكننت تقول في قلبك لنفسك ، وترى لها من القدر في القوة والنفاذ أكثر من ذلك ؟ فهذا الفرقان بين معرفتك بما من الله عز وجل عليك به من العمل ، وبين العجب من نفسك بعملك وعلمك .

قلت : أجيد ما تقول يعترض لي ، وأجده زائداً على المعرفة بعمل ، لأني لو قلت ذلك لنفسي خوفاً مني أن تجهل أنها عملت ذلك العمل ، حتى ترى أن غيري عمله ، كنت ذاهب العقل ؛ إلى أخاف أن تجهل نفسي أن تكون هي عملته وترى أنه عمله غيرها ، وأنها كانت كافة

لم تُحرك لعل ، حتى ترى أنها إذا كانت مصلية أنها نائمة ، أو إذا كانت صائمة أنها مفطرة . وأن غيرى صام وصلّى ، فلما لم يجر أن يكون ذلك منى كذلك ، فقد علمت أنى لم أقله لأعرف نفسى ما جهلت ، إنما كان ذلك تعجباً من شدة قوتها على العمل ، وتخلّصها وحسن بصيرتها ، فقد تبين لى أن ذلك هو العجب لا غيره إذا أضفت إليها ذلك بالحمد لها ، مع نسيان نعمة ربّه عزّ وجلّ . ولكن أريد مع ذلك دليلاً من العلم أن ذلك هو العجب ، ليكون أعون لى على نفسى . إن عارضنى بالتشكيك فيه معارض وإن استدلى على مستدلّ فلم يقنع بدون الحجّة فيه بالعلم . كان أدعى له إلى القبول .

قال : نعم ، إن العجب بالخير لا يكون إلا من المطيعين لله عزّ وجلّ المريدين له ، فن ذلك ما يروى ابن أبى الزناد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عبّاس أنه قال : ما أصاب داود عليه السلام الذنب إلا ياعجب أعجبه من نفسه ؛ أن قال :

ياربّ ما تأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم وما يأتى يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى حديث حجاج : ما تمرّ ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك : إما يصلى وإما يصوم وإما يذكر ، فأضاف العمل بالليل والنهار إلى آل داود ، وكان هو أولهم فى ذلك ، وأقومهم به وداعيمهم إليه ومقومهم عليه ، فاستعظم ذلك ، لأن قوله ما تأتى ليلة . مستعظم ذلك ، لأن العرب لا تعرف فى لغتها مثل هذا إلا الاستعظام للشيء من نفسه . فأضاف العمل إليها وحمدها عليه ، وقول الله عزّ وجلّ يدل على ذلك ؛

وقال ابن عبّاس رضى الله عنه ؛ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : ياداود إن ذلك لم يكن إلا بى . ولولا عوفى إياك ما قويت على ذلك ، وسأكلك إلى نفسك ، وفى حديث آخر «وعزّى وجلالى لأكلنك إلى نفسك» ؛ فلو كان ذاكرّاً للنعمة فى ذلك لما ذكره ما هو له ذاكر ، ثم يعاقبه عليه . فتركه ونفسه ، ولكن ذكره النعمة التى كان لها ناسيا ووكله إلى نفسه التى أضاف العمل إليها وحمدها عليه فكان يعملها معجباً ، وسماء ابن عبّاس معجبا من نفسه . وأخير أنه أصاب الذنب من أجل عجه بطاعة الله عزّ وجلّ .

فطاعة الله أعجب بها فأدركته العقوبة على ذلك ، حتى أصاب ذنباً أورثه الندم والحزن أيام حياته والتبّة فى الآخرة . حتى يستوهبه الله عزّ وجلّ من أورياء^(١) كما جاء فى الحديث . فأعظم بالعجب بليّة وأعظم به آفة .

(١) لعلها : من أوزاره .

ومن ذلك ما قال الله عز وجل في كتابه العزيز في يوم حنين لأصحاب محمد ﷺ وهم خير عصابة على وجه الأرض ، بل لا عصابة تعبد الله عز وجل غيرهم ومن تبعهم ، غضابُ الله عز وجل ، ينصرون دين الله عز وجل مستجمعون لقتال أعداء الله عز وجل ، فقال الله عز وجل : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ (١)) .

وذاك أن قائلاً قال منهم : « لن تغلب اليوم من قلة » فلما أعجبوا بكثرتهم واتكلوا على قوتهم وسوا الله عز وجل في ذلك ، رفع الله عز وجل في ذلك الوقت النصر عنهم ليعلمهم أن كثرتهم لا تغني عنهم شيئاً ، وأن الله عز وجل الناصرُ الغالبُ لهم عدوهم لا عددهم ، ثم عطف الله عز وجل عليها بالنصر ، إكراماً لنبيه ﷺ ، ولهم ونصراً لدينه ، ثم أنزل بذلك قرآناً فعرفهم به ما كان منهم ، وما قال من قال منهم ، وهذا هو العجب بالكثرة .

ومنه أيضاً ما روى ابن عبيّنه أن أيوب صلوات الله عليه قال : « إلهي أني ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا أثرت هواك على هواي ؟ ونودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب ، أني ذلك ؟ أي من أين لك ذلك ؟ قال : فأخذ رماداً فوضعه على رأسه ، فقال : منك يارب » .

أفلا ترى إلى رجوعه عما قال ، ناسياً أن يضيف نعمة العمل إلى ربه جلّ وعزّ ففرغ إلى الذكر بالذل والاستكانة ، والإقرار بالنعمة أنها من الله عز وجل ، فقال منك يارب .

وفي هذا أو في حديث داود عليه السلام معنى من الإدلال بالعمل ، سآينته لك إن شاء الله عز وجل عند ذكر الإدلال بالعمل .

باب الإدلال بالعمل

قلت فأخبرني بالإدلال ما هو؟

قال : إن الإدلال معنى زائد في العجب ، وهو أن يعجب بعمله أو علمه . فيرى أن له عند الله قدراً عظيماً قد استحق به الثواب على عمله ، فإن رجاء المغفرة مع الخوف لم يكن إدلالاً ، وإن زایل الخوف ذلك فهو إدلال ؛ كما قالت امرأة من المهاجرات وهي عند عائشة رضي الله عنها : « يا بعت رسول الله ﷺ ألا أشرك ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي بيهتان أفتره بين يدي ورجلي ولا أعصيه في معروف ، فوفيت لربي عز وجل . ووفى لي . والله لا يعذبني ربي ، فأوتيت في النوم فقبل لها : أنت المتألية على الله ألا يعذبك ؟ فكيف بقولك فيما لا يعنك ومنعك ما لا يغنيك ؟ »

وفي حديث آخر « أنها ملك فقال لها : كلامك تزجين . وزيتك تبدين . وخيرك تكدين ، وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين ، ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها فقال خمس بخمس ولو زدت لزدناك ؛ قال : فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها . فهذا الإدلال على الله عز وجل . وإيجاب الثواب عليه على العقلة والنسيان والجهل عليه .

قلت : فما الدليل أنه قد رأى أن له بذلك عند الله عز وجل قدراً عظيماً ؟

قال : على ذلك دلائل كثيرة من قلبه ولسانه ، فمن ذلك أن يناجي الله عز وجل باستعظام عمله كما قال داود عليه السلام . أو يستكثر أن ينزل به بلاء . أو ينصر عليه غيره . أو يرد دعوته وهو يعمل مثل ذلك العمل .

ومثل ذلك . ما روى عن أيوب صلوات الله عليه حين قال : إلهي أني ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي ؟ فإذا استنكر العامل أن لا تجاب دعوته . أو ألا يفعل به ما يحب ، أو أن يتلى . أو يُسَلَّم لعدوه أو لهلكة من مهالك الدنيا . فهذا معجب بعمله . مدلل به . كأن له على الله عز وجل مئة بما عمل ، يجب على الله عز وجل مكافأته . ولولا تفضل الله عز وجل على خلقه ما جعل لهم عملاً . لأن العمل منه بفضله ونعمته . والشكر من العباد ضعيف . والشكر بعينه نعمة من الله عز وجل . والذنوب كثيرة

ألا تراه يقول جل ثناؤه : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ^(١)) .

فقال النبي ﷺ لأصحابه - وهم خير الناس يومئذ وإلى اليوم « ما منكم من أحد ينجيه عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته » وقال : « لو يؤخذني الله أنا وعيسى بن مريم بما نصيب بهاتين لعذبنا » .

ثم أصحابه من بعده - فضلهم وبرهم - يتمنون أنهم كانوا خلقوا بغير خلق الإنس ، لعظيم الخوف ، أبو بكر رضي الله عنه يود أنه لو كان قريباً ، وعمر رضي الله عنه يتمنى أنه لو صار تبة . وأبو عبيدة وعمران بن حصين وغيرهم . فله ، عز وجل الحجة البالغة على عباده ، وله الفضل والطول والمنة عليهم ، ولا منة لهم عليه ، وما عملوا من خير فنه وبه قلت : وما الدليل على ذلك إنه الإدلال ؟

قال : ما يروى عن قتادة في قول الله عز وجل : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » قال : لا تُدِلْ بعملك ، وقد اختلف في تفسير هذا الحرف ، فقال بعضهم : لا تهدي حتى يهدي إليك ، إلا أن قتادة ذهب إلى أنه الإدلال بالعمل .

وقول أيوب وداد عليهما السلام في الحديث الذي يروى : أن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه . وقال : لأن تضحك وأنت معترف بذنوب خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك . فهذا العجب بالإدلال .

فأما إذا انفرد العجب ولم يخالطه الإدلال فهو ما أخبرتك من حمد النفس ونسيان النعم . وسئل رباح القيسي قيل له : يا أبا محاضر ^(٢) ما الذي أفسد على العمال أعمالهم ؟ فقال : حمد النفس ، ونسيان النعم .

(١) ٢٤ : ٢١ .

(٢) وفي نسخة : يا أبا مهاجر

باب العجب بالرأى الخطأ

قلت : والعجب بالرأى الخطأ ، لم أسمعك أدخلته في هذا الجواب .
قال : إنه ليس بنعمة فيوصف بنسيان النعم فيه ، ولكنه بلاء وخذلان ونقص ، أمّا ما كان في الضلال والبدع قبلية وخذلان ، وما كان في الأحكام فقد يكون خذلانا وإثما وقد يكون نقصاً في الدين دون الإثم .

فإذا كان الرأى على غير الكتاب والسنة والإجماع فعن العجب كان ، وهو الذى أهلك عامة العباد ، حتى ضلوا وكفروا وابتدعوا وأخطأوا في دين الله عز وجل .

وقد ذمّه النبي ﷺ وأخبر أنه يغلب على آخر هذه الأمة ، وعنده يكونون قد عمّوا وصمّوا فلا ينتفعون بموعظة ، قال أبو ثعلبة الحشني : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل :
(عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)^(١)

فقال : يا أبا ثعلبة ، ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيت شعثاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك ، فأخبر أن معناها إذا غلب على أهل الدنيا إثارة الدنيا والعجب بآرائهم .

وذم أصحاب النبي ﷺ العجب بالرأى والعلماء بعدهم ، وأخبروا أن فيه الهلكة ، ألا ترى إلى ما وصف الله عز وجل ، من قال عليه غير الحق ؟ فقال :

(وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)^(٢) .

وقال عز وجل : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(٣) ؟

فأخبر أن القوم معجبون بما يدينون به من الضلال والكفر والكذب على الله عز وجل ؛ وكذلك جميع أهل البدع لولا أنهم معجبون بآرائهم ما اعتقدوا البدع ولا أقاموا عليها .
فبالإعجاب بالرأى الخطأ هلك عامة الكفار وأهل البدع من أهل الإسلام وأهل الخطأ في الفتيا .

(١) ٥ : ١٠٥ .

(٢) ١٨ : ١٠٤ .

(٣) ٣٥ : ٨ .

لأنهم تأولوا فأعجبوا بتأويلهم ، وظنّوا أنه الحقّ اليقين ، وقاسوا على غير القياس فأعجبوا بقياسهم وظنّوا أنهم قد أصابوا الحقّ وقد تركوه ، ودانوا بغيره وخالفوه .

قلت : قد أعظمت ضرره ويئست كثرة الآفات فيه ، فأخبرني ما هو ؟
قال : الاستحسان بالرأى الخطأ من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظنّ أنه حقّ يظنه بغير يقين .

قلت : ممّ كان ذلك ؟ فإنه لا يمكن أنه كان إلا عن إغفال وجهل .
قال : أجل .

قلت : ممّ كان ذلك ؟

قال : من ترك تهمة النفس ، واستحسان الرأى بغير علم وضح له ، ولا دليل عليه من الله عزّ وجل ، وتلك بليّة عظيمة لا نعمة ، ولو ذكر النعمة عند ذلك لما انتفى العجب بذلك ، بل يستحكم العجب بذلك فيقلب عليه . وإنما أعجب حين رأى أنها نعمة ولم يعدّه بليّة فيترع عنها . أو يظنّ أنها بليّة فيتهم نفسه ، فيثبت حتى يتبين له العلم فيعتقده أو ينفيه . فإنما أعجب به حين عدّه نعمة .

باب ما ينفي به العجب بأعمال الطاعة

قلت : فم ينفي العجب بالدين حتى يسلم منه العبد؟ قال : أما العجب بالحق والطاعة من العمل والعلم والرأى الموافق للحق والصواب . فيذكر النعمة فيه أن ذلك بمنّة الله عز وجلّ وفضله . ولولا منته بذلك لما نال ذلك أحد أبداً من نفسه . لأن النفس لو تركت لما فعلت ذلك . ولا كان منها . لأن محبتها كانت في خلاف ذلك حتى نبه الله عز وجلّ العقل . فقهر به هوى النفس . وعزم له على الرشد . فخالف محبة النفس وشهوته ، لأن العبد لا يكاد يأتى برّاً إلا وشهوته في ضده . إن قام الليل فشهوته في راحتها من التعب وفي نومها فراراً من السهر . وكذلك إن صام فشهوته في الإفطار . لما بُنيت عليه من حب الغذاء : من الطعام والشراب . وحبها الراحة إلى النكاح وغيره . وكذلك جميع أعمال الطاعات . فلم تكن لتعمله لو تركت فيذكر ويعترف إنما العمل من الله عز وجلّ نعمة أنعم بها عليه . لا ابتداء من نفسه . وأن عليه في ذلك الشكر ، وأنه غير قائم بالشكر على ذلك ، مقصر عن شكره . لم يستأهل مامنّ عليه به . بل يستأهل أن يسلبه . لتضييعه شكر نعم الله عز وجلّ عليه .

قلت : قد يكون من البرّ ما لا تعب عليها فيه . كالسكوت عن الخوض في الباطل . وكغضّ البصر . وترك الغيبة ، في الآثام والفضول . والفكر في القلب والذكر .

قال : إن ذلك كله يثقل عليها . لأنه وإن لم يكن لها متعباً فإنه مشغل عن محبتها وهواها . لأن راحتها في محادثة الخلق واستراحتها . لتخرج ما يحول في القلب . وكذلك غضّ البصر عن النظر إلى ما تهواه وتشتهيه . وكذلك الفكر والذكر بالقلب للآخرة . شاغل عن النظر في راحة الدنيا والفكرة فيها . فذلك يثقل عليها . ويشغلها عن راحتها ومحبتها . فقد صح لأولى النهى أن ما نالت من البرّ والطاعة كان يخالف محبتها : للتعب الذي يدخل عليها . أو منعيها من راحة أولدة تنالها . فهذا دليل بين وشاهد واضح عليها . أن الذي أدخلها في خلاف محبتها غيرها . وهو مليكها المتفضل عليها بذلك ، فله الحمد والشكر وحده . فإن رجعت إلى صاحبها بالدعوى منها : أنها هي التي عملته وانتحلته ، فحمدتها على صبرها وقوتها ، فليرجع إليها بهذه المعرفة التي يجدها في نفسه وطبعه . وكفى بإخبار الله عز وجلّ عنها أنها أماراة بالسوء إلا ما رحم الرب وتفضل به

المولى . فليرجع إليها بهذه المعرفة . وأنها مبطلّة فيما تدعى . ماهيّة نه . وكيف حاز لها ادعاء ما كانت تحبّ خلافه . ويثقل عليها فعاله . وكانت جاهدة أن تصدّ عنه . فكيف تدعى أن منها ما كانت تأباه وتحصر على خلافه . وتنازع بعد الدخول فيه إلى قطعه وترك تمامه . فذلك منها بهت . ومن تصديق العامل لها جهل وحمق

قلت . فقد نجد العامل لله عز وجلّ القوى العزم . الراهذ في الدنيا . نشاطاً من نفسه للطاعة . وشهوة منها لها . لا تكاد تصبر عنها . كأنها طبع منها . بل قد يكون في بعض الحالات أكثر من الطبع وقد نجده نحن أيضاً . مع تخليطنا في بعض أحوالنا في أعمالنا

قال : إن ذلك لم يكن منها ابتداء . ولا هو موافق لها في الحلقة في ضعفها . ولا في حال قوتها . وقد كانت أولاً جاهدة حريصة أن لا يكون ذلك منها . فلما وهب الله عز وجلّ للعبد قوة العزم . والمواظبة على مجاهدتها والقمع لها . فيثبت أن ينجيها إلى محبتها . وقهر الطبع منها قوة العزم ونور الحق . وغلبت عليه هموم الآخرة وأحزانها . سكنت عن دعائها . وانقطعت عن طلب عاداتها . وهي مع ذلك على خلقتها وهيبتها . ولو وجدت منه فترة لرجعت إلى أسوأ أحوالها . ولرفضت أكثر طاعتها لربها عز وجلّ

أفرايت من لم يتقدّ إلا بالكُره . ولم يحب إلا بالوعيد والزجر . ولم يدعن إلى الإجابة إلا إن قهره لك غيرك وأعانك عليه . وأنت مع ذلك لا تأمر رجوعه عن إجابته . وترك طاعته لك . وانقلابه إلى شر أحواله ، لما تعلم ، أن محبته لم تتغير . وأن شهوته لم تذهب ولكن قهر فاجاب وغلب فأطاع ، ولو وجد سبباً أو سبيلاً إلى ما يحب ويهوى ركن إليه سريعا ، وولّى معرضاً ، أكنت له حامداً على طاعته ! أو كنت مزلا منه ذلك لمحبة منه لإجابتك ؟ أو هل تكون له ذاماً لما تعرف من محبته وخلاف إرادته لطاعتك ؟ . وهل كنت تحمد إلى الذي أعانك عليه . حتى قهره وعلمه لك حتى استعملته

ومثل ذلك كأسير من بلاد العدو . استأسرته وهرقت بينه وبين ماله وأهله وولده وأرضه ووطنه . وقد كان جاهدك قبل الأسر على أن يكون هو المستأسر لك . حتى أتاك من أعانك عليه . فشده لك بكثافاً . وأمكنك منه فلم يزل بعدما أمكنك منه يجاذبك إلى الرجوع إلى بلاده . ويطلب منك غفلة ليقتلك أو يستأسرك . فيرجع بك معه إلى منزله ووطنه . فلم تزل تضربه وتقهره حتى انقاد لك من الخوف . وسارع إلى خدمتك . وأنت مع ذلك متخوف أن يجد فرصة فيرجع ويتركك . ويرفض ما في يديه مما استرعيته من عملك أكنت له حامداً . أو في أمره متريثاً

فكذلك نفسك قد كانت حريصة على الركون من قبل إلى الدنيا وإيثارها على الآخرة . فكانت جاهدة أن نستأسرك بهواها ، فتكون به عاملا . ولطريق نجاتك إلى الآخرة تاركاً . فأبى الله عز وجل إلا أن يوقفك ويسددك ، فقوى ضعفك ، ونور قلبك . وأعانك عليها . حتى رفضت كثيراً مما تهوى ، وتركت كثيراً مما تحب . وما انقادت إلى خلاف ذلك إلا بالكراهة والجبر ، ثم وجب لك زجرها ومعاتبتها ، وقوى عقلك على هواها ، وعلمك على جهلها ، ووقفك لدوام ترك إجابتها ، حتى أيسست منك أن تنال محبتها ، وانكسرت عما كنت عودتها ، فأجابت مسرعة على غير انقلاب من طبعها ، ولا تغيير عن غريزتها ، وأنت مع إجابتها لك متوقع لرجوعها ، تسأل الذى تولى معونتك عليها ، وقهرها حتى انقادت لك طائعة . بعد امتناعها أن يديم ذلك لك ، ولا يسلبك هو خشية أن يتبرى منك ، فتنب عليك فترجع بك إلى جميع ما تحب وتهوى ، فيكون فى ذلك هلاكك فى دنياك وآخرتك ، فهل تجد بينها وبين الأسير فرقاً ؟ بل هى أشد بلاء من الأسير وأعظم فتنة .

قلت : قد أجد بينها وبين الأسير فرقاً ، لأن الأسير لا يرى أن الخير فيما يراد به وهى قد علمت أن ما يراد منها خير لها .

قال : فقد ساءت الأسير فى مخالفتها وفضلت عليه فى الشر . إنها أبت وعصت عن معرفة وبيان ، والأسير أبى وعصى عن جهالة وعصى ، ولعله لو علم ما يراد به : من الإسلام والفرق بينه وبين الكفر ودار الحرب التى أهلها محاربون لله عز وجل ولدينه ، لأجابه طائعا ، وأبغض الرجوع إلى بلاده ، فهى شر وأعجب عصياناً وإباء من الأسير ، إذ عصت بعد العلم بأنك إنما تدعوها إلى نجاتها . وتجانس بها هلكتها ، وقد نجد بعض الأسراء مشبها لها فى جميع أمورها ، لأنه قد يكون الأسير يعرف الإيمان وفضله ، كما وصف الله عز وجل به بعض أهل الكتاب ، أنهم يعرفون الحق ويحانبوه بعد العلم ، فقال :

(فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) (١) .

ووصف إبليس أنه اعترف له بالربوبية ثم عاند بعد علم ، وقال عز من قائل :
(وَإِنَّ قَرِيْقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَآرِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ) (٢) .

(١) ١٠ : ٩٤ ، وأدل من هذا : « قلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

(٢) ٨ : ٥ ، ٦ .

فكذلك هي : تأتي بعد علم وبيان ومعركة ، فهي تساوى شرّ الأسارى وتوافق كل أسير جاهل أو عالم ، فلا فرق بينهما في الشبه من قبل الإباء والعصيان ، فالحمد لله وحده ، والذم لها ، والحذر والخوف منها . وترك الطمأنينة إليها لمعرفتك بها فن عرف نفسه زال عنه العجب . وعظم شكر الرب عز وجل واشتد حذره منها والثقة والطمأنينة إلى المولى عز وجل . والمقت لها . والحب للمتفضل النعم .

أرأيت لو صحبتك صاحبان فأراد أحدهما . وأنت نائم أن يرضخ رأسك بصخرة فأيقظك الآخر ، وقد أمسك يده على الصخرة وهو رافعها ليرميك بها . فأراك ما هم به وما أراد أن يقتلك به . أو لو صنع لك سمّاً في طعامك ليقتلك به . فأراك الآخر بالتجربة على بعض الهائم ما أراد أن يقتلك به من السم . حتى عرفت أنك لو أكلت ماهياً لك من الطعام كان في ذلك عطبك . من قتله بذلك السمّ للبيمة التي جرب عليها . ألم تكن تردّد له مقتاً وبغضاً ، وللذي أنقذك من مكيدته حباً ومودة وأنساً ومنة . وللذي أراد بك السوء حذراً . وللذي حال بينك وبين ذلك ثقة وطمأنينة . رجاء أن ينقذك من أمثال ذلك . وخوفاً من الآخر أن يقتلك بمثل ذلك . فإن ادعى المريد لك بالسوء أنه هو الذي أنقذك منه . هل كنت ناسياً للذي أنقذك ؟ ومضيفاً نجاتك إلى الذي أراد بك المكيدة بالسوء ؟ كلا ما كنت فاعلاً أبداً ذلك ما صحّ لك عقلك . فكم من بلية قد أرادتها بك نفسك فعزم الله عز وجل لك على تركها . وأيقظك فعصمك منها . وقد كان فيها عطبك بالنار أعظم من الميتة بالحجر والسم ، وكم من حق لله عز وجل قد هممت بتضييعه . فأبى الله عز وجل إلا أن وفقك لخلاف ما هممت به . فقد وجب عليك المقت لنفسك والحذر منها . وترك إضافة العمل إليها بالحمد لها . والحب لربك عز وجل . والطمأنينة إليه . والثقة به . والحمد له خالصاً وحده . والشكر له على منته بكل ما نلت من بر وطلاعة قلت : قد تبين لي بوصفك هذا - وقد كان عندي في الجملة هكذا - أن نفسي لو تركها ربّي عز وجل لأهلكتنى ، وأن الذي تولى ذلك له المنة علىّ بذلك ، حتى نلت ما نلت من بر وطلاعة ، هو وحده لا شريك له .

باب ما ينفي به العجب بالرأى الخطأ

قلت : أفرأيت نفي العجب بالرأى الخطأ إذا كان ليس بنعمة فأذكر مئة الله عز وجل بذلك ، ولا أضيف ذلك إلى نفسى فهم أنفيه ، اذ تبين لى أنه بليّة وخذلان أو نقص فى الدين ؟ قال : قد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه ، وترك الاستحسان لشيء من رأيه إلا بدليل بين وحجة واضحة من الكتاب والسنة أو قياس عليها واستنباط حكم فى نازلة . قلت : وكيف يتهمها ؟ وما الذى ينال به تهمة ؟

قال : لمعرفته ما بنيت عليه فى الحلقة أن من شأنها السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مراراً كثيرة ، فى كل ذلك يرى أنه مصيب لا يشك عند نفسه فى ذلك ، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط وكان استجابة لذلك من قبل الهوى وتزيين الشيطان ، ولو لم يبعثه على تهمة إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق : من غلطهم وقولهم فى دين الله عز وجل بغير الحق ، وكلهم يزعم فيما يدعى الحق وهو على باطل ، وهو - مع ما هو عليه من الباطل - لا يشك أنه محق صادق ، وأن من خالفه مبطل كاذب ، من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأى .

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض ، بل كلها لا تعزى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم عليه السلام ، بنيت كبنيتهم ، وغريزته كغريزتهم ، ومع ذلك فإن المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغى لهم الزلل والعصيان ، فإذا أثبت فى قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها ، ولم يعجل بما يستحسن دون النظر فى الكتاب والسنة أو مساءلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم ، ولم يزالوا متهمين لأرائهم ، خائفين من أنفسهم ، ومن ذلك ابن مسعود ، اختلف إليه شهراً فى مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها صداقاً ، فلم يحيم شهراً مخافة الخطأ فى إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك ، تهمة لنفسه وخشية لخطئها ، ثم قال لما لم يجد بدا من القول فيها ، قال : أقول فيها برأى ، فإن كان صواباً فمن الله عز وجل وإن كان خطأ فمن نفسى .

وروى عن أبى بكر رضى الله عنه مثل ذلك .

وقال عمر رضي الله عنه : إن الرأي كان من رسول الله ﷺ صواباً ، لأن الله عز وجل كان يريه ، وهو من الظن والتكلف .

وقال أبو سعيد رضي الله عنه : قال الله عز وجل لهم وهم أصحاب نبيه ﷺ :
(لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَسْتُ) (١) .

فكيف فيمن دونهم من الناس ؟ . وقال قتادة في قوله عز وجل : لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، فأنتم أطيش أحلاماً ، فإثمهم رجل رأيهم وانتصح كتاب ربه عز وجل .
وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : يقول الله تعالى لنبيه ﷺ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، وقال : ونحن أصحابه فأنتم أعجز رأياً .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أيها الناس اتهموا الرأي ولقد رأيتني وأنا أهم أن أضرب بسيفي في معصية الله عز وجل ومعصية رسوله ﷺ . وقال سهل بن حنيف أيها الناس اتهموا آراءكم . وقال عمر رضي الله عنه اتهم رجل رأيهم ، ولقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ ، يعني يوم صالح النبي ﷺ قريشا يوم الحديبية في إجابته إياهم ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، وتركنا ذكرها كراهية التطويل .

قلت : فإن ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيهم ، كيف يثبت حتى لا يخطئ ؟

قال : تعلم أن من كتاب الله عز وجل آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها . ومنه ما يشبه ويمكن فيه التأويل ، وذلك الذي اختلف فيه ومنه مشتبه ، ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل أنهم يبتغون بتأويله ابتغاء الفتنة ، لما في قلوبهم من الزيغ والضلالة . وكذلك سنة النبي ﷺ بهذه المنزلة .

فليعلم العبد المريد للصواب : ليدين الله عز وجل به . أن من الكتاب والسنة محكماً بين التلاوة مفسراً بإجماع ، وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ولا يجب على النفس المهمة في قبولها واجتنابها إياه ، وأن الذي يمكن فيه الخطأ والصواب لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلة وغلبة هواه له ، وتزوين عدوه له : ما اختلف فيه ، أو حارجه يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والإجماع ، فعند ذلك يتهم نفسه ، ويثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكناً ، فالعجلة وترك الثبوت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله

لغير الحق ، فلا يعجل ، ويثبت ولا يجترى ، ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وَزَيْنَ في عقله إلا من كتاب أوسنة أو ما اجتمعت عليه الأمة أو تأويل فيما اختلف فيه مشبه للكتاب والسنة والإجماع أو قياس مساوٍ لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر ، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر في أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالاً من حرام ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم ، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء إذا سألوهم عند الحاجة ، وذلك كالأعجمي وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز . وإن كان من المشابه الذي وجب على المؤمنين الإيمان به . ووكل علمه إلى الله عز وجل . وقَفَ وعلم أنه ليس له تأويله . وبذلك وصف الله عز وجل الراسخين في العلم والإيمان به ، وترك تأويله ، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به . فهذا ما ينبغي عنك العجب بالرأى الخطأ ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ في دين الله عز وجل . من غلط تأويل ولا قياس

قلت : فالعمل الذي لم يُؤمن به على كيف العجب فيه ؟

قال : الاتكال على قوتك وصبرك لما جربت من نفسك . ونسيانك انتظار منة الله عز وجل

بذلك .

وقد روى الأحنف بن قيس عن النبي ﷺ أن داود عليه السلام قال : يارب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، قال ابن عباس في هذا الحديث : إن داود صلى الله عليه وسلم حدث نفسه أنه إذا ابتلى يستعصم . وقال محمد بن كعب والمقبري في هذا الحديث : إن الله عز وجل قال : إني ابتليتهم فصبروا . قال : يارب وأنت إن ابتليتني صبرت ، قال : أما إني ابتليتهم ولم أخبرهم بأى شيء ابتليتهم ، ولا في أى شهر ولا في أى يوم ، وأنا مخرك في سنتك في شهرك هذا ، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء ، فاحرز نفسك .

باب العجب بالدنيا والنفس

قلت : فالعجب من قبل الدنيا ما هو ؟

قال : العجب بالنفس ، والعجب بالمال ، والعجب بالحسب ، والعجب بالكثرة من الخدم والولد والمولى والعشيرة والأصحاب .

قلت : فالعجب بالنفس ما هو ؟

قال : هو العجب بالجمال والجسم ، بعظمته وتماحه والقوة والعقل والعمل وحسن الصوت ، فأما بالجمال والجسم فاستحسان ذلك من نفسه ، ونسيان ما يلزم العبد : من الشكر لله عز وجل على ذلك ، ونسيان القدر في البداءة وما يتقلب فيه من الآفات ، ومصير الجمال والجسم إلى الفناء والبلى ، حتى يتكبر ويتبختر ويتعرض بجماله للفجور ، ويفتخر به على غيره .

قلت : فبم يننى ذلك ؟

قال : بذكره النعمة وما وجب عليه من الشكر ، وما ضيّع منه ، للمنعم مما يستحق بخلافه وتضييعه للشكر ، أن يغير جماله بالشين بآثار عذاب الله عز وجل وأن النار تأكل حسن الجسم وتماحه ، وبمعرفة قدره : مما كانت بدايته من التراب والنطفة ، وما يتقلب فيه : من الأقدار التي لا يمتنع منها : من الغائط والبول ، ومصير جسمه وجماله إلى التراب ، وأن التراب سيمحو صورته ويبيد جسمه ، فإذا عرف نفسه وقدره ومصيره ، وما عليه من الشكر ، وما ضيّع منه ، وما وجب عليه بتضييعه الشكر من العقاب ، زال عنه العجب واهتم بالشكر وتواضع للمنعم .

قلت : فالعجب بالقوة ؟

قال استعظامها ونسيان الشكر والاتكال عليها ، ونسيان الاتكال على الله عز وجل ، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا : من أشد منا قوة . فأعجبوا بقوتهم واتكلوا عليها ، وظنوا أنهم بها يتخلصون من عذاب الله عز وجل ، وكما اتكل عوج على قوته ، فاقتطع من الجبل قطعة ليطبقها على عسكر موسى عليه السلام فتفحقها الله عز وجل حتى صارت في عنقه .

وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما وصف النبي ﷺ قول سلمان عليه السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة . فلما لم يقل : إن شاء الله لم يكن ما أراد من الولد ، فيتكلم العبد على قوته وينسى التوكل

على ربه عز وجل ؛ ومنه قول داود عليه الصلاة والسلام : « إن ابتليتني صبرت ، وقد يجترى أيضاً بما أعطى من القوة على الحروب في معاصي الله عز وجل . ويسارع بالضرب والقتال إلى من نازعه . لما يعرف من قوته . عجباً ، بها واتكالا عليها . ويُعير غيره بضعفه ويفتخر عليه بقوته . قلت : فيم يننى العجب بها ؟ .

قال : بمعرفته أنها من الله عز وجل نعمة ، فضله بها لينظر كيف استعماله لها في طاعته ، وأن عليه الشكر فيها إذ فضله بها على غيره من الضعفاء ، وأن الله عز وجل هو الذي قواه بها ، ولو شاء هذها بعاة أو بسقم أو ضعف فليُرم نفسه وجوب الشكر عليه ، ويخاف إن استطال بها واستعملها في معصية الله عز وجل أن يهذها أو يكسرهما بعقوبة منه ، فإذا ألزم قلبه ذلك انتنى العجب ، بها واهتم بأداء الشكر فيها .

قلت : فالعجب بالعقل والذهن والفطنة ؟

قال استحسان ذلك واستعظامه . ونسيان النعمة بالتفضل به والاتكال عليه أن يدرك به ما يريد وما يؤمل : من علم أو رأى . أو أحكام دين الله عز وجل . أو دنيا . وترك التوكل على الله عز وجل في جميع ذلك ، حتى يخرج ذلك إلى قلة التثبت لإعجابه بعقله ، حتى يخطئ في دين الله عز وجل . ويقول عليه بغير الحق ويخرجه أيضاً إلى ترك التفهم ممن علمه أو أمره أو ناظره ، حتى يحرم الفهم للحق ويأبى إلا القول بالخطأ والغلط . ويخرجه إلى حقيرة من دونه : ممن لم يُعط من الفطنة مثل ما أعطى ، وإن كان أروع منه وأفضل عملاً ، حتى يُسمى كثيراً ممن هو أروع منه وأفضل منه جهلاً حمقى ، وإبراهيم كالحمير التي لا تعقل . إذ فضل عليهم بالفطنة والذهن . ويستطيل عليهم ، ويرى أن لا قدر لهم . ويستصغر ما عملوا من خير ويرى أنه خير منهم وإن ضيع العمل لفطنته ولعقله

قلت : فيم يننى ذلك ؟ .

قال : بمعرفته يجهلها مهما أعطى من الفطنة ، وبسهوه وغفلته وقلة ما يدري بعقله . وإن كان قد أعطى من الفطنة أكثر مما أعطى غيره ، فقد وجب عليه في ذلك الشكر ، وإنما فضل بالذهن لتعظم الحجة عليه ، وتوكيد الطاعة باللزام لها ، ولينظر الله عز وجل كيف استعماله لعقله في الفهم عنه والاشتغال به ، وإن ما أعطى من العقل بيد الله عز وجل . لو شاء أن يغيره ويزيله ببعض الآفات ، كما رآه فعل ذلك بمن هو مثله ومن هو فوقه لفعل فلا يأمن من أن يسلبه الله عز وجل عقله . فإذا عرف ضعفه وجهله وقلة ما يدرك بعقله . وأن ما فضل به منة منه . عليه فيه

الشكر وعظيم الحجة ووجوب الحق ، وأنه لذلك مضيع ، فإذا عرف ذلك علم أن من لم يؤت من
الفطنة مثل ما أوتى ، أحسن حالا منه ، إذ لم يشكر الله عز وجل على ما فضله به عليه ، وأن
الحجة عليه أعظم منها على من دونه .

وقد يرى كثيرا ممن هو دونه في الفطنة أطوع لله عز وجل ، منه ، وأنه مع ذلك لا يأمن أن
يسلبه الله عز وجل عقله إن ضيع القيام لله عز وجل به فيما وجب عليه من الفهم عنه ، والعقل عنه
والعمل به .

فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة زال عنه العجب ، وخاف عظيم الحجة وواجب الحق ، واهتم
بالشكر وأداء الحق .

باب العجب بالحسب

قلت : فالعجب بالحسب ؟

قال : استعظام القدر من أجل الآباء والأصل ، فإن كانوا من أهل الشرف في الدنيا من الذين شرفوا في الدنيا بالدين ، فيستعظم قدره من أجلهم ، وينسى منه الرب عز وجل إذ خلقه من الكرام الصالحين ، ورفع عنه محنة ضعة ، القدر ، لعله لوجعله ضيعاً في الحسب لسخط ذلك ، وانتمى إلى غير آباءه وأنف منهم ، فينسى ما رفع الله عز وجل عنه من المحنة ، وما تفضل به من المنة ، بأن جعله من ذرية أوليائه وأهل طاعته فيغفل ما عليه من الشكر وما وجب عليه من الحجة ، وأنه مأخوذ بعمله ، فيعجب إذا استعظم قدره من أجل آباءه ، وأغفل الشكر ووجوب الحجة ، حتى يجيل إليه بل قد يقطع بعضهم أنه ناج بغير عمل ، وأنه مغفور له ، وإن كثرت ذنوبه ، وإن لم يتب منها فيستطيل بذلك ويتكبر ، ويفتخر على غيره ويحقره ، ويأنف منه إن كان ذا قرابة أو جاراً أو غيره ممن هو دونه في الحسب ، ويختال في مشيته ، ويرى أن الخلق شبيهه بالعبيد ، بل قد يرى بعضهم أن الأمة عبيد له ، فيخالف آباءه في فعالهم ، ويريد أن يكون عند الله عز وجل مثلهم ، وذلك الاغترار بالله عز وجل والجهل بأمره .

قلت : فبم ينشئ ذلك ؟

قال : بمعرفته ما وجب عليه من شكر الله عز وجل على ما من به عليه إذ جعله من ذرية من تولاه وأحبه وأنه مجزى بعمله دون عمل آباءه ، وأنهم إنما نجوا بالطاعة وشرفوا بها ، وقد ساواهم في الحسب غيرهم فلم يؤمنوا ولم يطيعوا ، وكانوا عند الله عز وجل شراً من الخنازير والكلاب ، وأنه وإن خالف طريقهم فحكمه أن يخالف به إلى غير دارهم وهي النار ، لن ينجوا إلا بعمله ، وأورحمة الله عز وجل ، من ذلك قول الله عز وجل :

(إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ^(١)) .

وذلك أن الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وخالد بن أسيد لما أذن بلال يوم الفتح على

الكعبة أنكروا ، وقال الحارث بن هشام هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فأنزل الله عز وجل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » رواه ابن أبي حسين .

ومنه قول النبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية يعنى كبرها ، كلكم بنو آدم وآدم من تراب .

فيرى أن أصله وأصل بنى آدم كلهم واحد ، وأنه فضل عليهم بالحسب والصلاح في الآباء لينظر كيف شكره ، وأنه إنما ينفعه عمله دون عمل آباءه ، ومن ذلك قول النبي ﷺ : « يا معشر قريش لا يأتى الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم . تقولون : يا محمد يا محمد فأقول هكذا » يعنى أعرض عنكم .

وقال حين أمره الله عز وجل أن ينذر عشيرته الأقربين : فناداهم بطنا بطنا ، حتى صار إلى أن قال « يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا » رواه أبو هريرة وغيره عن النبي ﷺ :

فيلزم ذلك قلبه ، فإذا فعل ذلك وألزمه قلبه عرف نفسه ، وزال عنه اغتراره وعجبه ، واهتم بالشكر وخاف من الذنب وخاف أن يكون من دونه ينجو ، ويهلك هو ، إذ كان أتقى لله عز وجل منه ، فإذا عرف نفسه بهذه المعرفة ، وأنزلها بهذه المترلة ، قلّ فخره وخيلاؤه وحريته غيره ، بل يتواضع لهم ويتشبه بآبائه ، فإن الله عز وجل إنما رفعهم بتواضعهم له في خلقه ، وخافتهم على أنفسهم .

قلت : فقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال - في عقب قوله يا فاطمة ويا صفية اعملا لأنفسكما فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا - إلا أن لكما رحما سألها بيتا لها ، وقال : « أيرجى نسلهم شفاعتى ولا يرجوها بنو عبد المطلب » ؟ فقد دلّ بهذا القول أنه سيخص قرابته بالشفاعة ، فكذلك كل صالح على هذا القياس يشفع لأقربائه .

قال : إن ذلك ينبغى له أن يرجوه ، ويعلم أنه لا يشفع النبی ﷺ ولا أحد من الصالحين إلا لمن لم يغضب الله عليه ، وأراد أن يكون سبب رحمته له شفاعته نبيه ﷺ . وبعض أوليائه . ومن غضب الله عز وجل عليه لم يؤذن لنى ولا لأحد في الشفاعة له ؛ ألا تراه حين ذكر ملائكتك قال : ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ؟ قال قتادة : يوم القيامة . وقال مجاهد إلا لمن رضى عنه . ومن شفع فيه بغير علم أخبر أنه قد غضب الله عليه ؛ ألا ترى إلى قول النبي ﷺ فيؤمر بقوم من أصحابي ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فهو

وإن رجا الشفاعة فهو خائف أن يعصى الله عز وجل فيغضب عليه . ويكون قد غضب عليه فيما كان منه ، فلا يشفع له شافع ، ولا يؤذن لأحد أن يشفع له ، ومع ما يرجو من شفاعة النبي ﷺ . فإن جميع المسلمين يرجون شفاعة النبي ﷺ . وإن كان قد خص بالشفاعة أقرباءه . ولكن لا تأمن الغضب والمقت من الله عز وجل .

فإذا ألزم قلبه هذا خاف ورجا ، فلم يعجب ولم يغتر ولم يفتخر ولم يتكبر ، وكيف يعجب ويتكبر وهو لا يأمن أن يكون عند الله عز وجل مغضوباً عليه . شراً من القردة والخنازير ؟ وكيف يأمن ذلك وما أمته أهل الحسب في الدين والدنيا ، وخير الخلق بعد النبي ﷺ . حين غبطوا الهائم وتمنوا أن يكونوا مثلها في الحلقة ، خوف عذاب الله عز وجل وغضبه ؟ وإنما يعجب بأنه منهم فإذا خافوا هم هذا الخوف ولهم السابقة والفضل ولا سابقة له ولا فضل عنده ولو كان عنده فضل كان أولى به الخوف من الله عز وجل كما كانوا خائفين من ربهم عز وجل قلت : رأيت من كان له الحسب في الدنيا ، وليس له آباء صالحون أكثر من الأصل عند الناس في الحسب ما العجب به ؟ .

قال : العجب به استعظام القدر حتى يخرج به إلى الكبر والخيلاء . والفخر والاستطالة على الناس ، والمحقرية لهم ، حتى يُعيرهم بأحسابهم . ويقتابهم ويقع فيهم . ويرى لنفسه الفضل عليهم .

قلت : فم ينفي ذلك ؟

قال : يعلم أن أصله في البداية أصل الناس كلهم ، وخلقته كخلقهم . ولم يفضل عليهم في الحلقة بشيء . إذ الخلق واحد والأب واحد والأم واحدة . والموت والبلاء في رقبته . والحساب عليه ، والثواب والعقاب أمامه ، وأنه قد استوجب العذاب بذنبه . وأن عليه الشكر إذ جعله في موضع لا يشينه فيكون عند الناس وضعيفاً ، فعليه في ذلك الشكر ، وأن آباءه من تقدم منهم في الشرك غير معجب بهم ، ولا يليق بهم الإعجاب ، ولا لهم عند الله عز وجل قدر . بل الكلاب عند الله تعالى خير منهم ؛ كما قال النبي ﷺ : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صارت فحماً في جهنم ، أو ليكونن أهون على الله عز وجل من الجعلان التي تذوق بآنفها القدر » .

والحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام ؛ قال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى علم عشرة معه ، فمن أنت ؟ فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام : قل للذي افتخر بآبائه تسعة من أهل النار أنت عاشرهم في النار » ؟ .

وإن كان من آبائه من له صلاح ودين فهو على ما وصفتُ لك :
قلت : فإن كان آباؤه ليس لهم أصل في العرب . ولا سابقة في الصلاح والطاعة إلا أن لهم
الشرف في الملك والسلطة المتقدمة ، ما العجب بذلك ؟ .

قال : استعظام القدر ، ونسيان ما صار إليه آباؤه من العذاب ، وأن ما كانوا فيه عار عليهم
عند أهل العقل . وشين عند الله عز وجل ، ويرى أن له الفضل على غيره ويحتقره ويتكبر عليه ،
وينسى عاقبة ما كانوا فيه ، ويضيع الشكر إذ أخرجه الله عز وجل منهم ، وخصه بالإسلام والمنّة ،
وأبدله بشرفهم شرف الإسلام ، وجعل دينه الإيمان ، فيتكبر ويفتخر ، ويحقر من دونه في
الحسب ، حتى يرى أنه خير ممن تقدمت له السابقة في الصلاح ، وربما أورثه ذلك غشاً
للإسلام ، وعداوة للدين ولهم ، لأنهم هزموا آباءه وغلبوهم ، وورثوا أرضهم وديارهم بالحق
ونصرة الدين .

قلت : فبم ينق ذلك ؟

قال بمعرفته بما كانوا فيه : من السطوة على عباد الله عز وجل . والفساد في أرضه والكفر
والجحاد به ، وما صاروا إليه من العذاب والهوان ، وما من الله عز وجل عليه به . إذ أخرجه منهم
ولم يجعلهم مثلهم ، وأبدله شرف الإسلام ، وزينة الإيمان ، لأنه لا فخر بأهل النار ولا بكثرتهم .
وإن كان لهم مع ذلك كرم في الدنيا في الرأي والقول وحسن المداراة لمن استرعوه ، حمد الله تعالى
إذ زال عنه أن يجعله ممن يعير به ، كالزنج وغيرهم ، وعليه في ذلك الشكر ، إذ لم يعترضه -
لفتته - الضعة في قدر الدنيا ، ومع ذلك إن العجب بآبائه عنه زائل . للمعرفة بقدرهم عند الله
عز وجل وعند أوليائه من المؤمنين ، لا يُعظم إلا من عظم عند الله عز وجل ، ولا يُصغر إلا من
صغر عند الله عز وجل .

باب العجب بكثرة العدد

قلت : فالعجب بكثرة العدد من الولد والخدم والمولى والعشيرة والأصحاب والأنباع ؟ .
 قال : الاستكثار بهم ، والاتكال عليهم بالتحرز بهم ، والغلبة لغيرهم ، والتزين بهم ،
 والاتكال على عددهم ، ونسيان الاتكال على الله عز وجل ، كما فعل بعض أصحاب النبي ﷺ
 يوم حنين ، فأنزل الله عز وجل : (إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ^(١)) .
 إذ قال قائلهم لن نغلب اليوم من قلة فاتكل على الكثرة وأغفل ذكر الله عز وجل ، فعوتبوا
 على ذلك وعلى الافتخار بالكثرة والعزة بهم .
 وقد يكون ذلك من المؤمنين ومن الكافرين ، كما قال الكافرون « نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا »
 فيستطيل المعجب بالكثرة على الناس ، ويحتري على المشاتمة والقتال والضرب لغيره ، متكلا على
 كثرتهم لينصروه ويمنوه ، ويحمله ذلك على جحد الحقوق والجور والظلم ، بالاتكال على الكثرة .
 وبالعجب ظلم أكثر من ظلم واستطال .
 قلت فم أنى ذلك ؟

قال : بمعرفتك بضعفك وضعفهم ، وأن من لم ينصره الله عز وجل فلا ناصر له ، ومن لم يقه
 الله عز وجل فلا واق له ، وأن الاتكال عليهم دون الاتكال على الله عز وجل يستأهل به صاحبه
 الخذلان من الله عز وجل ، حتى لا ينفعه جمعهم ولا كثرتهم ، وقد يعجل ذلك له ، فإن لم
 يعجل ذلك له لم يفتروا توقع ذلك سريعا : أن لم ^(٢) يُقْلِلْهَا أَهْلَ حُنَيْنٍ ، وهم خير عصابة على وجه
 الأرض ، وكيف يقلها العاصي الظالم المسرف على نفسه ، ^(٣) ومعرفته أن الجمع سيتفرق عنه وأنه
 سيخلو بترع الموت وحده ، ثم يموت فيسلمونه إلى البلى ، ولا يغنون عنه من الله عز وجل شيئا .
 وأن كل من استعان بهم فأعانوه عليه ، أو استطال أو ظلم بقوتهم أن ذلك كله مثبت عليه محزى
 به . حين يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . ومن يعجب بهم جميعا بل يتمى يوم

(٣) يعنى ينق ذلك أيضا بمعرفة ..

(١) ٩ : ٢٥

(٢) أى لم يتجاوز عما لأهل حنين .

٢٩٣

القيامة . إن لم يعفُ الله عزَّ وجلَّ عنه . وأنهم فداؤه من النار . وأن الشكر عليه فيما أعطاه من
كثرة . وجعله من أهل الكثرة . وأنه إن ضيَّع الشكر أغضب الله عزَّ وجلَّ بذلك . ولم يغنوا عنه
من الله شيئاً ولم يدفعوا عنه ما قدر في دين ولا دنيا . فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة زال عنه العجب
بذلك ، واهتمَّ بالعمل . وخاف المقدور . واتكل على الربَّ عزَّ وجلَّ لا على غيره .

باب العجب بالمال

قلت : فالعجب بالمال ما هو ؟ .

قال استكثاره والانتكال عليه . حتى يخرج إلى الاستطالة به والافتخار به كما قالوا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً » ويحقر به الفقير ، ويطلب له الشهوات التي لا تحل ويحترق به على الظلم . ويتعظم على الفقراء ويتعذرهم ، كما روى عن النبي ﷺ : أنه رأى رجلاً غنياً قد قبض ثيابه وكفها أن تصيب ثياب رجل فقير إلى جنبه . فقال له النبي ﷺ : أخشيت أن يعدو فقره على غناك ؟ ! .

قلت : فم ينفي العبد ذلك ؟ .

قال : بمعرفة أنه إنما ابتلى به للفتنة والامتحان ، وأن الحقوق عليه أكثر وأوجب منها على الفقير . وأنه قد عرض للعطب ، إلا أن يشكر ربه عز وجل . فيرحم نفسه من كثرة . ويشفق منها ، ويرى للفقير عليه فضلاً ، إذ أزيلت عنه الفتنة ، ووجب كثرة الحقوق عليه : من الحج والزكاة والصلة للرحم وإقراء الضيف ومواساة الجار وغيره ؛ وقد أشفق الصالحون من كثرتها وأشفق عبد الرحمن بن عوف وخجّاب وغيرهما من ذلك ، وقال النبي ﷺ يرويه عنه أبو ذر : « ما يسرنى أن لي مثل جبل أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله تأتى عليه ثلاثة وعندى منه قيظاً أو قيراطان » فراراً من الكثرة ، لمعرفة بها ، وزهداً فيها . وقال ﷺ : الأكثرون هم الأقلون إلا من قال بين عباد الله بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه .

فإذا ألزم ذلك قلبه حقر نفسه وخاف عليها ، وعظم الفقير لأنه أقلّ بلاء منه ؛ ألا ترى إلى ما لى من أخرجه العجب بالكثرة إلى ما لا يحل له ، من ذلك ما وصف الله عز وجل به قارون في تجرّيه واختياله ، حين خرج على قومه في زينة ، فخسف الله عز وجل به الأرض .

وقال النبي ﷺ : « بينا رجل يتبخّر في حلة له . أو قال في بُردين له ، وقد أعجبت نفسه ، إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . فيخاف ما يؤدي إليه العجب بالمال والزينة من العقوبة ، فأوضع من يرى عنده خير منه ، إذ لم يتل بمثل ما ابتلى به ، ألا ترى إلى حديث أبي ذر قال : كنت مع النبي ﷺ فلخل المسجد فقال لي : « يا أباذر ، ارفع رأسك

فانظر أرفع رجل تراه في المسجد » فرفعت رأسي فإذا رجل يتبختر في حلة . فقلت هذا . فقال :
 « ارفع رأسك فانظر أوضع رجل في المسجد » فإذا رجل عليه خلقان له ، قلت هذا ، فقال :
 « يا أباذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا » لأنه ليس يُرفع عنده إلا بالطاعة لا بالمال
 وغيره .

فإذا ألزم قلبه هذا ، خاف من كثرة ماله ، ورأى أن الفقير خير منه ، وأنه إنما فضل عليه
 بالبلاء والفتنة وكثرة واجب الحقوق ، ويعلم أن الله عز وجل قد من عليه بالمال لينظر كيف
 شكره ، وأنه لا يعرف أنه شكر الله عز وجل كما يحق له ، فيشفق من ذلك ويزول عنه العجب
 بالمال إن شاء الله .

قلت : فقد رأيت أكثر العلماء يسمي من تكبر معجباً ويصف العجب بصفة الكبر .
 قال : إن أول بُدُو الكبر العجب ، فمن العجب يكون أكثر الكبر . فنه سمي بالكبر ،
 ولا يكاد المعجب أن ينجو من الكبر ، فلما كان العجب هو الذي أخرج إلى الكبر وعنه كان فإنه
 يسمي به ودلت أخلاق الكبر عليه ، لأنه قد يستعظم ما أعطى من دين أو دنيا ولا يتعظم به على
 أحد فذلك العجب إذا نسي منة الله عز وجل بذلك ، فإذا تعظم به على غيره وأنف منه فحقه
 فقد تكبر لأنه إذا أعجب بنفسه ولم يحقر غيره كان معجباً ولم يكن متكبراً فإذا أعجب بنفسه ثم نظر
 إلى غيره وقال في نفسه أنا خير منه محترماً له مزدرياً به سمي حينئذ الكبر عجباً ، من أجل أنه هو
 أهاجه على الكبر .

وليس الكبر هو العجب .

کتاب الکبر

باب وصف الكبر وشعبه وشرح وجوهه

قلت : وما الكبر ؟ وممّ يكون ؟

قال : إن الكبر عظيم الآفات ، عنه تشعبُ أكثر البليات ، يستوجب به من الله عز وجل سرعة العقوبة والغضب ، لأن الكبر لا يحقّ إلا لله عز وجل - ولا يليق ولا يصلح لمن دونه - إذ كل من سواه عبد مملوك ، وهو المليك الإله القادر ، فعظم عند الله عز وجل الكبر دنياً ، إذ كان لا يليق بغيره ، فإذا فعل العبد ما يليق إلا بالمولى عز وجل واشتد غضب المولى تعالى عليه ؛ ألا ترى ما يروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

إن الله عز وجل يقول : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني فيها أدخلته ناراً » فيستحق المتكبر أن يقصمه الله عز وجل ويحقره ويصغره - إذ جاز قدره وتعاطى ما لا يصلح للمخلوق ؛ وكما يروى عن النبي ﷺ وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : « من تواضع لله عز وجل رفعه الله هكذا ، ومن تكبر هكذا وضعه الله هكذا » .

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما من بنى آدم أحد إلا وفي رأسه حكمة ^(١) بيد ملك ، فإن تواضع لله رفعه الله إلى السماء السابعة ، وإن أراد أن يرفع نفسه وضعه الله في الأرض السابعة .

وعن عبد الله بن سلام قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » وعن سلمان الأغرعني أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : « الكبر ردائي والعظمة أزارى ، فمن نازعني أحدهما قذفته في النار » .
وعن كعب : « ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع رفعه الله وقال : انتعش نعتك الله ، وإن تكبر وضعه وقال : انتضع وضعك الله » .

فيستأهل المتكبر أن يضعه الله ويحقره ويصغره في الدنيا والآخرة ؛ ألا ترى أن الله عز وجل

(١) ما يحكم به القوس .

يقول: (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ) إلى قوله (وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) ^(١).
ثم قال تعالى لأهل النار: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) ^(٢).
ثم أخبر عز وجل أن أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً ^(٣) على الله عز وجل وأنهم المتكبرون .
وتحمل عليهم أوزارهم وأوزار الضعفاء الذين اتبعوهم ، قال الله عز وجل حين ذكر جثأهم حول
جهنم :

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) ^(٤) .
قيل في التفسير بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً ،

وقال الله عز وجل: (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)
ثم قال جل قاتلاً :

(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ^(٥) .
وقال عز وجل: (وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: كَلَّا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) .
وقال الله عز وجل يصف به قوم صالح :

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا
مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟) ^(٦) .

فأخبر أن المستكبرين هم أهل الجحد لله تعالى والخلاف عليه ، وأهل الصد عن سبيله
للضعفاء ، وأهل الخلاف على الرسل والأنبياء ، وقال الله عز وجل :
(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) ^(٧)
يعني صاغرين وكذلك يحشرون ، وقال ابن عمر : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورِ
النَّارِ يَتَوَاطَأُ هَمُ الْخَلَائِقِ » .

فحمل الكبر أكثر العباد على الرد على الله أمره والجحد به ، وهو إلى المعاصي أقرب وأسرع ،
ولم يجعل الله عز وجل للمتكبرين موضعاً في جواره ، إنما يجاوره من تواضع لجلالة وهيئته .
ألا ترى إلى ما يروى عن النبي ﷺ يرويه عنه ابن مسعود أنه قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي

(١) ١٦ : ٢٥ .

(٢) ٧ : ٧٥ .

(٣) ٤٠ : ٦٠ .

(١) ٦ : ٩٣ .

(٢) ٤٠ : ٧٦ .

(٣) جراءة

(٤) ١٩ : ٦٩ .

قلبه مثقال حبة من خردلة من كبره وذلك قول الله ، عز وجل :
(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) الآية (١)
قال ابن جريج : علواً : تعظماً تكبراً ، فأنخبر أن القليل منه لا يدخل صاحبه الجنة من
أجله ، وكفى بذلك بلية .

ويستأهل أيضاً المتكبر أن يزيل الله عنه النعمة التي تكبر بها لأنه لا يتكبر إلا بنعمة الله عز
وجل ، ومن ذلك حديث خلع بنى إسرائيل حين أنف منه عابدهم فحبط أجره وغفر للخليع ،
وتحوّلت الغمامة على رأس الخليع .

ثم مع ذلك إنه يستحق من الله عز وجل ألا يفهمه العلم ولا يفقهه في الدين ومن ذلك قوله
عز وجل :

(سَاءَ صَرِفُ عَنِ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

قيل في بعض التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفسير سأحجب قلوبهم عن
الملوكوت ، يعنى عن النظر إلى ما غاب باليقين ، وما شاهدوا من العبر ، وكفى بذلك بلاء
وخذلانا ، قال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا .

وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام ، أنه قال : « إِنَّ الزَّرْعَ إِنَّمَا يَنْبِتُ فِي السَّهْلِ وَلَا يَنْبِتُ
عَلَى الصَّفَا ، وكذلك الحكمة : تعمر في قلب المتواضع ، ولا تعمر في قلب المتكبر ، ألا ترى أنه
من شمع برأسه إلى السقف شجّه ، ومن تطأطأ أظله وأكته » . مثل ضربه للمتكبر : إنه إن تكبر
وضعه الله وأزال عن قلبه فهم الحكمة ، وإن تواضع أفهمه الله ، عز وجل . حكته ونفعه بها .
فالتكبر يتعرّض للمقت من الله عز وجل ، وسرعة المعالجة بالعقوبة . ألا ترى إلى ما يروى
أبو عمران الجوني ، وفي رواية أخرى عن مالك بن دينار « أن سليمان . عليه السلام . أمر
الريح ، فقال : ارفعيها ، فرفعتهم ، حتى سمعوا زجل الملائكة بالتقديس ، ثم قال لها : اخفضينا ،
فخفضتهم ، حتى مسّت أقدامهم البحر ، فإذا منادٍ ينادى من السماء : إن الله . عز وجل .
يقول : « لو أعلم من قلب صاحبكم مثقال خردلة من كبر لحسفت به أبعد مما رفعته » .

قلت : الكبر ما هو ، وممّ يكون ؟ وأبدأ بما يكون عنه الكبر ؛ وممّ يتشعب ؟
قال : الكبر يتشعب من العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء ؛ وأصل ذلك من جهل

معرفة القدر ، فإذا جهل العبد قدره تكبر .

قلت : قولك تكبر ما معناه ؟

قال : إذا جهل قدر نفسه عظم قدرها عنده ، فتعظم على الخلق ، وأنف ؛ فالكبر التعظم ، وعنه يكون أخلاق الكبر ، وأخلاق الكبر كلها تسمى كبراً ؛ وقد يكون عن الحقد ، والحسد ، والرياء ، والعجب ؛ إلا أن أوله في القلب استعظام القدر ، فإذا استعظم العبد قدره تعظم فإذا تعظم أنف وحمى ، وتغزز واقتخر ، واستطال ، ومرح واختال .
فالكبر .. التعظم .

قال عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله ، عز وجل :

(إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَالِيهِ ^(١)) .

قال : عظيمة لم يبلغوها ، وقال ابن جريج . (علواً في الأرض) .

تعظماً ؛ فأخبر ابن عباس أن الكبر هو التعظم ، وعنه تكون أخلاق الكبر ، وأخلاق الكبر كلها تسمى كبراً ، ألا تسمع إلى قوله عز وجل :

(إِنِّي عَدْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ ^(٢)) .

وقال ، عز وجل : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ^(٣)) .

قلت : قد أراك ذكرت أخلاقه بوجه شتى ، ويتشعب من وجوه شتى ، ففسره لي : فسر لي كل وجه من أخلاقه على جهته ومعناه .

قال : إن الكبر على وجهين :

أحدهما : بين العباد وبين ربهم ، عز وجل ، وهو أعظم الكبر .

والآخر : بين العبد وبين العباد ، فأما ما كان بين العبد وبين ربه عز وجل . فقوله . عز

وجل :

(إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ^(٤)) .

وقال عز وجل :

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) .

(٣) ٤٠ : ٣٥ .

(٤) ٤٠ : ٦٠ .

(١) ٤٠ : ٥٦ .

(٢) ٤٠ : ٢٧ .

وذلك الأنف عن الكبر - وهو من الكبر : خلق عظيم شديد عند الله - عز وجل - قال :
(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا : وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَنْسُجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ^(١)) .
وقال أيضًا : (.. نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ ..)

ومن ذلك استكبر إبليس على آدم - حتى خرج به إلى المعاندة وترك السجود لطاعة ربه عز وجل : وكذلك يروى عن النبي ﷺ : « إن إبليس إذا رأى ابن آدم ساجدًا قال يا ويله - أمر هذا بالسجود فسجد وأمرت أنا بالسجود فلم أسجد » .

وقد كان الأنف من الركوع عند العرب قديمًا يأنفون منه من أجل التحنية - لأن التحنية عندهم قبل أن يبعث النبي ﷺ كانت ضعة يأنفون منها - ومن ذلك قول حكيم بن حزام :
بايعت النبي ﷺ أن لا أخرج إلا قائمًا ، فبايعه النبي ﷺ على ذلك ، ثم فقه بعد - رحمه الله -
وقال أبو سفيان : يا معشر قريش - إن الله لا يصنع بتحنيثكم شيئًا ، وذلك عندهم قديمًا يأنفون منه - يعرف ذلك منهم - ويعرفونه من أنفسهم - حتى إن كان أحدهم ليقع منه الشيء فيدعه ولا يأخذه بأي أن يخزله - ومن الناس اليوم من تقطع نعله - فتقع ، فيأنف أن ينكس فيأخذها أنفًا أن يحني فينكس لأخذها ، فأنفوا من السجود - إذ كان عندهم ضعة من أجل التحنية - ومن ذلك ما يروى عن حبيب عن يحيى ابن جعدة - قال : « من وضع جبهته لله ساجدًا فقد برئ من الكبر » يعني الكبر بينه وبين ربه - عز وجل -

وقد يجمع هذا الباب من الكبر بينه وبين ربه الرد على الرسل فيرد أمره - ويعانده ويخالفه في أمره - فأنفوا أن يتبعوا الرسل عليهم السلام - ويكونوا لهم أتباعًا فعاندوا الله - عز وجل - في أمره وردوا كتابه - وجحدوا حجته - ومن ذلك قولهم :

(أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) ؟

وقال : (وَلَكِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذْن لَخَاسِرُونَ) .

فأنفوا أن يكونوا تبعًا لمن هو مثلهم في الخلقة - وقالوا :

(لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ؟)

قال الله عز وجل : (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا) - (وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) ، (وَقَالُوا : لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ؟) وَقَالَ فِرْعَوْنُ :
(أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)

وقال الله عز وجل : (وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) ^(١) .

فأنف أن يكون عبد الله عز وجل ، يعبدته حتى ادعى الربوبية .

وقال وهب : قال له موسى عليه السلام : آمن ولك الجنة ولك ملكك ، قال : حتى أشاور هامان . فشاورة وأخبره بما قال له موسى عليه السلام . قال له : بينا أنت ربّ تعبد إذ صرت عبداً تعبد !! فأني حيثنذ إلا المعاندة لموسى عليه السلام : واستكبروا أن يخضعوا لبشر مثلهم ، وأرادوا أن يبعث إليهم من هو أعظم منهم . وأظهر في الحلقة استكبارا . كما قال الله عز وجل : (لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ) .

ومنه أيضاً حقريتهم لمن أتبع الرسل أن لا يكونوا مثلهم . ولا يدخلوا في مشاركتهم . وقالوا

لنوح ^{عليه السلام} :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ) .

قال عطاء الخراساني عن ابن عباس رضى الله عنه : بادی الرأي : ما ظهر ، فقال لهم : يخبر

أنهم يأنفون منه . وأنه ليس بالظاهر يصغر العباد عند الله فقال :

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ) .

فأخبر أنهم ازدروهم كبراً واستعظاماً عليهم . فلم يتبعوه . وردوا على الله عز وجل . وكذبوا

رسله . وجحدوا بآياته .

وقالت قريش : (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) ؟

قال قتادة : هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي . يريدون أن يتبعوا من هو أعظم في

الرياسة والدنيا من النبی ^ﷺ ، لأنهم قالوا : غلام يتيم بعثه الله إلينا ؟

قال الله عز وجل : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ^(٢)) .

وقالوا - ازدراء لمن اتبعه - : (لو كان خيراً مأسبقونا إليه) .

أى إننا أكبر منهم ، وأحق بالخير أن نوتاه منهم ؛ ومنها قول قارون :

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ^(٣) عِنْدِي) .

فأروا بما يعتقدون : من ارتفاعهم عليهم قبل أن يبعث الرسول ^ﷺ أنهم أحق أن يخصوا

٣٠٥

بالخير . وأنهم . من حقيرتهم لهم . لا يستحقون أن يُخَصَّصُوا بالخير من بينهم ؛ قال الله عز وجل :
(لَيَقُولُوا : أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) .

استكباراً من أجل حقيرتهم لهم ، وتعظيمهم عليهم . فردُّوا على الله عز وجل أمره . وخالفوا
رسول الله ﷺ استكباراً وأنفاً . حتى جحد كثير من أهل الكتاب الحق ، وهم يعلمون أنه
الحق ، كبراً وأنفاً ؛ ومن ذلك قول الله عز وجل :

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ^(١)) .

وقال عز وجل : (وَجَحَلُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ^(٢)) .

وقد اختلف في تفسير ذلك ، ثم أخبر الله عز وجل ما الذى حملهم على ذلك فقال :
(ظُلُمًا وَعُلُوًّا) .

أرادوا العلو وهم ظالمون فى ذلك ؛ ألا ترى أنه يقول :

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ^(٣)) .

وقالت قريش : يا محمد يجلس إليك عبيدنا فى قصة طويلة . فأنزل الله عز وجل :
(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشَى يُريدُونَ وَجْهَهُ ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) .

إلى قوله : (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ^(٤)) .

وَقَالَ : (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ ^(٥) الدُّنْيَا) .

يقول : تريد رفعة فى الدنيا ، وقالوا حين دخلوا جهنم يخبرنا الله عز وجل عنهم أنهم سيقولون
ذلك :

(مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ) .

يخبرون عن أنفسهم أنهم كانوا يحقرونهم ويزدرونهم . قيل : أبوجهل : يعنى بقوله عماراً
وبللاً وصهياً والمقداد رحمهم الله عز وجل .

وأما الوجه الآخر من الكبر الذى بين العباد ، فهو التعظيم عليهم .

(٤) ٦ : ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) ١٨ : ٢٨ .

(١) ٢ : ٨٩

(٢) ٢٧ : ١٤

(٣) ٢٨ : ٨٣

قلت ما حقيقة التعظم عليهم ؟ قال : خصلتان :
إحداهما : الحقرية لهم والأنفة منهم . وذلك أنه يرى أنه خير منهم فهو ينظر إليهم بالازدراء
والحقرية لهم .

والخصلة الثانية : رد الحق عليهم أن يقبله منهم وهو يعلم أنه حق ، إن أمره بعضهم بخير ،
أو نهاه عن منكر ، أو ناظره في دين فيرد الحق وهو يعلم . كما وصف الله عز وجل عن بني
إسرائيل . قال :

(وَجَحَلُوا بِهَا وَاسْتَيْقَسَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (١) .

وقال : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) .

فإن ناظر أحداً كان هيمته الغلبة والرد وترك الفهم . أنفاً وتعزراً أن يتعلم من غيره . وحقرية
له . وجباً للغلبة . كما وصف الله عز وجل عن الجاحدين . فقال عز وجل .

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) (٢) .

فإن أمره بخير أنف وأخذته العزة ، فرد الحق بالغضب ، استعزازاً للكبر الذي في قلبه ؛ ألم
تسمع إلى قوله عز وجل : (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) (٣) .

وروى عن عمر أنه قرأها فقال : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) قام رجل فأمر بالمعروف فقتل .

وقال :

(وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ) .

فَيَقْتُلُ الْمُتَكَبِّرُ مِنْ أَمْرِهِ وَمَنْ خَالَفَهُ كِبَرًا ؛ ألا تسمع إلى قول الله عز وجل :

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (٤) .

وقال عبد الله بن مسعود : كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك أنت

تأمرني ؟ قال النبي ﷺ لرجل : « كل يمينك » قال : لا أستطيع فقال النبي ﷺ :

« لا استطعت » ما متعك إلا الكبر . قال : فأرفعها بعد ذلك إلى فيه . رواه عنه سلمة بن

الأكوع .

فمن رأى نفسه أنه خير من غيره ، مزدرياً به . حاقراً له . أو رداً حقاً وهو يعلم أنه حق فقد

(٢) ٢ : ٢٠٦ .

(١) ٢٧ : ١٤ .

(٤) ٢٦ : ١٣٠ .

(٢) ٤١ : ٢٦ .

تكبر بينه وبين الخلق ، وقد يؤول به هذا الكبر بينه وبين الخلق إلى أن يتكبر بينه وبين الله عز وجل ، كما فعل إبليس ، قال ابن عجلان : مازاد إبليسُ على أن قال : أنا خير منه ، فلما رأى أنه خير منه أنف أن يسجد له ، وقد علم أن ذلك مهلكة ، إذ رد على الله عز وجل أمره ، وعانده بقوله : لا أسجد ، أياً على الله عز وجل ، معانداً الله سبحانه للأنف ، إذ رأى أنه خير من آدم ، لأنه عند نفسه كان خيراً أصل من آدم عليه السلام ، لأن أصله النار وأصل آدم عليه السلام : الطين ، والنار أقوى من الطين ، لأنها تأكل الطين ، قال ذلك جهلاً بالله عز وجل ، وأنفاً من آدم عليه السلام ، فأخرجه الكبر على آدم ، إلى أن رد على رب العالمين عز وجل . فكفر بذلك ، فجعله لعيناً ملعناً ، ويجمع ذلك كله قول المصطفى ﷺ ، حين سأله ثابت بن قيس بن شماس ، فقال : « يا رسول الله إني أمرؤ قد حَبَبَ إليَّ من الجمال ما ترى ، أفن الكبر هو ؟ » قال : « لا ، ولكن الكبر من بطر الحقِّ وغمط الناس » يعنى : ازدراء الناس . وفي حديث آخر « من سَفَهَ الحقَّ وغمض الناس » يعنى : ازدراء الناس وحقَرهم ، فمن تعظَّم ، وأنف أن يقبل عن الله عز وجل أمره ، وأن يذلَّ ويخضع لطاعته ، فقد تكبر بينه وبين ربه جل وعلا ، ومن رأى أنه خير من أخيه حقيرة له وازدراء به ، أو ردَّ الحقَّ وهو يعرفه ، فقد تكبر بينه وبين العباد ؛ فأصل الكبر التعظُّم ، وحقيقته الأنف وازدراء العباد ، وردَّ الحقَّ بعد علم به ، فذلك جاع الكبر .

باب الكبر عن العجب وتفسير الكبر بالعلم

قلت : ما الكبر الذى يكون عن العجب ؟ .

قال : الكبر الذى يكون عن العجب فى الدين ، بالعلم والعمل ، فإذا كان من قبل العلم ، فإن العالم إذا أعجب بعلمه ، أخرجه عجه إلى الكبر تعظماً على العباد . فيتكبر على العوام . وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل منه ، وذلك الذى يخافه عمر رضى الله عنه على العلماء . حين قال : تواضعوا لمن تعلمونه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم ، أى لا يذكرو عند الله إذا تكبرتم به .

فإذا تكبر العالم بعلمه حقر من دونه فى العلم ، وازدراه وأقصاه وأبعده ، واستذله وانتهره واستخدمه وامتن عليه بما يعلمه ، وتعظم على العوام ، وانقبض عنهم لبيدوه بالسلام ، ويتسخروهم ويغضب عليهم إن استخف بشيء من حقه أو لم تقص له حوائجه . كبرا ، لأنه يرى أنه يستحق ذلك منهم ، وأن ذلك له عليهم واجب لازم ، لعظم قدر نفسه عنده ، وإن حاج أو ناظر أحدا منهم رد الحق على علم ، وإن وعظ عفف وإن وعظ عفف تعززا من التعظيم والكبر ، وكذلك روى معاذ عن النبی ﷺ أنه قال : ومن العلماء من إن وعظ عفف وإن وعظ عفف ، ويغضب أن استخف بشيء من حقه أو رد عليه بعض قوله ؛ - ووصف فى هذا الحديث أن العلماء سبع طبقات - لأنه فوقهم وهم دونه تعظما وأنفا أن يقل منهم إن أمروه ، أو علموه أو وعظوه ، ويأنف أن يرفق بهم إن علمهم ، أو وعظهم ، أنفا أن يحتمهم بالسوية ، لأنهم عنده ليسوا مثله ، محترقا لمن دونه فى التقى ، ولن فوقه فى التقى ، وينظر إليهم كأنهم الحمير التى لا تعقل ، لا يرى أن أحدا منهم ينفعه علمه وإن نفعه فهو حقير عنده ، كل ذلك جهلا بالله عز وجل ، وهم أعلم بالله تعالى منه ، لأنهم أخوف لله تعالى منه ، لأنهم ينظرون إليه بالتعظيم وهو ينظر إليهم بالازدراء بهم ، فهو الوضع وهم الرفاء المتواضعون ، لأن الله عز وجل يضع ويحقر من تكبر ، ويرفع من تواضع له ، فيتكبر عليهم حقيرة لهم ، يفتخر عليهم بعلمه ويعبرهم بجهلهم ، مضيقا لحقوقهم ، فهو مزدريهم ، ممتن عليهم ، إن علمهم فهو جبار فى علمه ، غير متواضع لله عز وجل .

ومنهم من يتقى بعض هذه الحلال ويتكبر ببعضها ، فن أوتى من العلم شيئاً فقد يعترض له
النعظم على من دونه ، ومنهم من يتكبر بغاية الكبر في علمه ، ومنهم من يتواضع في خلق ويتكبر
في آخر ، على قدر عقله عن ربه عز وجل ، وقدر معرفته بالحجة عليه لله عز وجل في علمه .
قلت : العلم يزيد العبد تواضعاً فقد زاده العلم كبراً وجهلاً .

قال : إن العلم ، كما قال وهب : العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً ، فتشربه
الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طوموها ، فتزداد المرة مرة ، وتزداد الحلوة حلوة ويكثر
ماؤها بالحلاوة ، ويكثر ماء المرة بالمرارة ، فكذلك العلم ، تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها
وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبراً ، لأن من كانت همته الكبر فهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد
ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل جاهلاً وهو يخاف من الله عز وجل ، ويعلم أن حجة الله
تعالى له لازمة وإن كان جاهلاً ، فإذا حفظ العلم وفهمه ازداد خوفاً ووجعاً كما قال معاذ : « من
ازداد علماً ازداد وجعاً ، فإذا ازداد وجعاً لعظم الحجة عليه لما علمه الله عز وجل ، ازداد ذلاً
وتواضعاً ، وإشفاقاً وخوفاً ، وإذا كانت همته وهواه الدنيا والتعظيم ، ازداد بالعلم كبراً وأنفاً ،
وحقرية لمن دونه ورداً على من مثله ومن فوقه كبراً وأنفاً وجباً للقلبة .

قلت : فما يعترض للعامل سواء أكان عالماً أو لم يكن عالماً ؟

قال : يحقر من دونه بمن لا يعمل مثل عمله سواء أكان أعلم منه أو أجهل منه : إن كان
أجهل منه قال في نفسه مضيقٌ جاهل ، وإن كان أعلم منه قال في نفسه : الحجة عليه عظيمة وهو
مضيق للعمل ؛ ويحقر من دونه في العمل ، وينظر إليهم بالازدراء ، أو يتعظم عليهم وينقبض
عنهم ، ليدمونه بالسلام فلا يبدأهم ، ويبروه ولا يبرهم ، ويزورونه ولا يزورهم ، ويعودونه
ولا يعودهم ، يريد أن يأخذ بفضلهم عليهم ، وينهرهم ، ويستخدم من خالط منهم ويسخرهم ،
ويأنف إن وعظوه ، لأنه فوقهم في العمل ، وهم مضيقون مفرطون ، فإن بدأ أحداً منهم
بالسلام ، أو رد عليه أو قاومه ، أو داخله ، أو أجابه إلى دعوته ، أو أنس به رأى أنه قد صنع
إليهم معروفاً ، وأنه قد فعل بهم مالا يستحقونه من مثله ، ولكن يفعل ذلك عنده بفضلهم عليهم ،
فقد تفضل عليهم بذلك عند نفسه ، وينظر إليهم بالاستصغار وإلى نفسه بالتعظيم ، ويرجو لنفسه
أكثر مما يرجو لهم ، ويخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، بل لا يكاد إذا رآهم أو ذكرهم أن
يذكر الخوف على نفسه ، ولا يذكر إلا الخوف عليهم ، يرى أنهم هالكون ، كأنه قد أتاه من الله
عز وجل الأمان بأنه لا يعذبه ، وذلك هو الهلاك منه .

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ : « إذا سمعت الرجل يقول : هلك الناس فهو أهلكهم » يرويه عنه أبو هريرة ، وصدق ﷺ لأنه متكبر مزدر بالخلق مغتر بالله عز وجل ، آمن غير خائف ، فأخرجه كبره وحقرته إلى هذه الأخلاق المذمومة عند الله عز وجل .

وكذلك قال النبي ﷺ : « كفى بالرجل من الشر أن يحقر أخاه المسلم » لأن الحقيرة لهم أخرجته إلى هذا كله وإلى غيره مما يطول ذكره ؛ فإذا نظر إليهم بالاستصغار ، وخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ، ورجا لنفسه أكثر مما يرجو لهم - وينظرون إليه بالتعظيم ، وإلى أنفسهم بالاستصغار ، وخافوا على أنفسهم أكثر مما يخافون عليه ، بل يظنون أنه ناج وأنهم هالكون ، ورجوا له أكثر مما يرجون لهم ، كانوا هم أعبد لله عز وجل وأطوع فيه منه فيهم . فقد تعرض للمقت من الله عز وجل وجبّ الأجر في الآخرة ، واستحق أن يسلبه الله عز وجل ما تكبر به عليهم من العمل ، وقد تعرضوا هم للرحمة من الله عز وجل ، بتواضعهم ، وجبهم له ، واستصغار أنفسهم ، وتعظيمهم له ، لأنه يأنف من مجالستهم والكيونة معهم . وهم يتقربون إلى الله بقربه والدنو منه ، ولولا حب الله عز وجل وتعظيمه ما أحبوه ، ولا عظموه . فقد عظموه وأحبوه لحب الله عز وجل . ورجاء القرية من الله عز وجل به . فقد تعرضوا للرحمة والمغفرة . وأن ينقلهم الله عز وجل إلى مقامه في العبادة والاجتهاد ، وقد تعرض هو لحبط عمله وأن ينقله إلى شر الأحوال ، إذ تكبر بما من الله عز وجل عليه به من العمل - وحقر عبادته وأنف منهم - واغتر بالله عز وجل ، وجعل الخوف منه عليهم ، ونسى نفسه أن يكون عليها أخوف وأشفق ، فلا يؤمن ذلك عليه . كما روى عن الشعبي وروى أيضاً عن أبي الجلود بن أيوب : أن رجلاً من بني إسرائيل كان يقال له خليع بنى إسرائيل ، فر الخليع بالعابد وعلى رأسه غمامة تظله فقال الخليع في نفسه : أنا خليع بنى إسرائيل ، وهذا عابد بنى إسرائيل - فلو جلست إليه لعل الله أن يرحمني به - فجلس إليه فقال العابد في نفسه : أنا عابد بنى إسرائيل - وهذا خليع بنى إسرائيل ؛ يجلس إلى ؟ فأنف منه وقال له : « قم عني » فأوحى الله عز وجل إلى نبي ذلك الزمان : « مرهما فليستأنفا العمل - فقد غفرت للخليع ، وأحببت عمل العابد » .

وفي حديث آخر : « فتحولت الغمامة على رأس الخليع » .

وإنما أراد الله عز وجل من عبادة قلوبهم - فتكون جوارحهم تبعاً لقلوبهم - فإذا تكبر العالم أو العابد وأنف ، وتواضع الجاهل أو العاصي - وذلك هيئة الله عز وجل وقرقا منه - فهو أطوع لله عز وجل من العابد والعالم بقلبه في ذلك المعنى ، ومنه الحديث : أن رجلاً من بني إسرائيل أتى عابداً

من بنى إسرائيل - فوطىء على رقبته وهو ساجد - فقال : ارفع رأسك فقال له العابد : فوالله لا يغفر الله لك ، فأوحى الله إليه : « أَيُّهَا الْمَتَأَلَّى عَلَى - بَلْ أَنْتَ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا تَأَلَّى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْفِرُ لَهُ - لِعَظَمِ قَدْرِ نَفْسِهِ عِنْدَهُ - وَأَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيمَةٌ لَا يَغْفِرُهَا اللَّهُ لِعِبَادَتِهِ وَسُجُودِهِ لِأَنَّهُ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ عَظِيمُ الْقَدْرِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - فَجَمَعَ عَجَبًا وَكِبَرًا - وَاعْتَرَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وكذلك المتكبر المزدري للعباد - كأنه الناجي من بينهم - كما يروى : أن رجلاً ذَكَرَ للنبي ﷺ ، فأقبل ذات يوم فقالوا : يا رسول الله هذا الذى ذَكَرْنَا لَكَ . فقال : إني أرى في وجهه شعبة من الشيطان ، فلم ، ووقف على النبي ﷺ وأصحابه . فقال له النبي ﷺ : « أَسَأَلُكَ بِاللَّهِ حَدَّثْتُكَ نَفْسَكَ : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ » فقال : اللَّهُمَّ نَعَمْ - فبَرَى كَأَنَّهُ النَّاجِي مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَفَضَّلَهُ عَلَيْهِمْ مَشْمُورًا يَنْقَبِضُ عَنْهُمْ ، كَأَنَّهُ يَمْنُ عَلَيْهِمْ بِعَمَلِهِ ؛ كَمَا قَالَ الْحَرِثُ بْنُ جَرِيرٍ الزَّبِيرِيُّ صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ : « يَعْجِبُنِي مِنَ الْقَرَاءِ كُلِّ طَلِيقٍ مُضْحَاكٍ - فَأَمَّا الَّذِي تَلْقَاهُ يَبْشُرُ بِوَيْلِكَ بِعَبُوسٍ ، يَمْنُ عَلَيْكَ بِعَمَلِهِ فَلَا أَكْثَرَ لِلَّهِ فِي الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ هَذَا - وَلَوْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْضَى هَذَا مِنْ أَحَدٍ ، مَا قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

وقال تعالى :
(قَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١)) -
ووصف أولياءه الذين يحبونه ويحبهم فقال :
(أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢)) -
فَلَا قَدَرَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عِبَادِهِ - عَابِدًا كَانَ أَوْ عَالِمًا -

ومن العباد قوم ضلال ، قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل غيرهم ، وأنه لا مهتدٍ في الأرض غيرهم - وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق - وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ - والذين يكذبون بالقدر - والذين ينكرون أن الله عز وجل يرى في الآخرة ، والذين يُغْلَطُونَ الموازين ومنهم الرافضة (٣) ، والمرجئة ،

(٣) الرافضة : هم الشيعة .

(١) ٣ - ١٥٩ .

(٢) ٥ : ٥٤ .

والحرورية^(١) ، والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ﷺ ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين ، المبرأة من الإفك رحمها الله ، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم ، فكل هذه الفرق آفة جائرة عن الطريق ، لا يرون أحداً يقول بالحق ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلاً بالله عز وجل . وتكبراً على عباده . كما روى العباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

يكون قوم يقرءون القرآن لا يماز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن . فن أقرأ مثاً ؟ ومن أعلم مثاً ؟ ثم التفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال : « أولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار » .

باب ما يكون من الكبر عن الرياء وما يورث من الأعمال المذمومة

قلت : فما يكون منه عن الرياء ؟

قال : يرد الحق على من ناظره أو أمره ، وإن كان عند نفسه دونه أو خيراً منه ، فيرد الحق أنفًا أن يخطأ فتضع منزلته ، أو يقال : فلان غلب فلانًا أو خطأه أو قهره ، فيخرجه الرياء إلى أخلاق الكبر ، وإن كان يعلم في قلبه أن الذي ناظره أو أمره خير منه ، ولكن يظهر الأنفة والتعزز رياءً لا كبراً من قلبه .

قلت : فما الذي يخرج إليه الحق من الكبر؟ قال : يأنف أن يستحل ممن حقد عليه إن ظلمه أو سبه أو صارمه : أنفًا أن يبدأه بالسلام ويرد عليه الحق عداوة وحقداً ألا يراه أنه قبل منه ، أو يرى ذلك أحد منه ، فيحمله الحقد والعداوة على أن يستعمل الكبر في رد الحق ، أو يؤدي حقه ، فما كان من الرياء والحق فقد يتخلق بأخلاق الكبر وهو يعلم أنه دون من يرائيه ومن حقد عليه وعاداه .

إلا أن العجب هو الذي يكون عنه الكبر بالقلب ، فيأنف ويرى أنه خير ممن لم يؤث مثل ما أوتي ، يزدريه ، ويجمع ذلك الدين والدنيا ، من العلم والعمل ، فكلماً فضلاً بنعمة على غيره أعجب بها وتكبر ، جهلاً وتضييعاً للشكر ؛ فلا يأمن التساك ذلك على أنفسهم ، لأن العجب والكبر إنما يعترى من قبل النعم ، فكلماً كثرت النعمة وعظمت كان العجب والكبر إليها أسرع . ولا سيما ما بان منه على العامة بعلم أو عمل كان الكبر إليها أسرع .

ألا ترى إلى ما رواه ابن بريدة عن ابن عباس أن عمر قال : « ما زال يعرف في طلحة بأواء منذ أصيب إصبعه مع رسول الله ﷺ يوم أحد » والبأواء عند العرب هو الكبر ؛ وكذلك يروى عنه ابن عباس حديث حميد بن عبد الرحمن عن ابن عباس - أن عمر رضوان الله عليه قال : وقال له ابن عباس أين والبأواء عند العرب هو الكبر ؛ وكذلك يروى عنه ابن عباس حديث حميد بن عبد الرحمن عن ابن عباس ، أن عمر رضوان الله عليه قال : وقال له ابن عباس : أين أنت عن طلحة؟ قال : ذاك رجل به نخوة ، وعدهم واحداً واحداً ، وذلك أن طلحة يوم أحد

بان على أصحاب رسول الله ﷺ ، إذ وقى رسول الله ﷺ بنفسه ، حتى ضربت كفه ليتخلى عن النبي ، فجذب إصبعه تحت قدمه ، ثم أكب على رسول الله ﷺ فأخبره عمر أنها عرفت فيه بعد ذلك ، وما بلغنا أن ذلك أخرجه إلى حقيرة مسلم بحق يعرفه . ولكن - إذا كان الأختيار لا يعرفون منه فنعن المساكين أولى أن نخذره في كل حال وإلا هلكنا . إذ قال النبي ﷺ :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال خردلة من كبر » .

كذلك فيما يظهر من اللباس إن لبس الرجل الصوف ، يتكبر به على من هو دونه في اللباس ، ألا ترى إلى قول الحسن : حتى إن صاحب الصوف أشد كبراً من صاحب مطرف الخنز في خزة . وصدق رحمة الله ، إنما يتكبر لابس الخنز على من دونه من أهل الدنيا ، ويتواضع لأهل الدين . والذي يلبس الصوف على الدين قد يتكبر على صاحب الخنز ، وصاحب الخنز إذا رآه عرف له الفضل عليه ، وذلك في نفسه له ، لما يرى عليه من لباس الصالحين وآثار الزاهدين في الدنيا . فالعجب والكبر لا يأمنها عاقل على حال فكل ما بان به العبد على غيره كانت الفتنة إليه أسرع ؛ ومن ذلك أن تلميذاً الدارياً أستاذ عمر في القصص ، فأبى أن يأذن له ، وقال له : إنه الذبح ، وأستاذته رجل كان إمام قومه أنه إذا صلى وسلم من صلاته ذكرهم فدعا بدعوات فأبى أن يأذن له ، وقال : إني أخاف أن تنفخ حتى تبلغ الثريا ، فخشي عليه الكبر ؛ وصلى حذيفة بقومه فلما سلم قال لتلميذتين إماماً غيري أو تصلون وحدانا ، وقيل في حديث آخر : إنه قال : إني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني .

فما أقل من يخص بنعمة يبين بها على غيره إلا غلب عليه الكبر - إلا من قواه الله عز وجل وسدده ، وبالله عز وجل الاعتصام .

باب الكبر بالدنيا

قلت : قد وصفت الكبر بالدين فما الكبر بالدنيا ؟

قال : الكبر بالدنيا : الكبر بالحسب - والجمال - والقوة - والمال - وكثرة العدد .
فأما الكبر بالحسب فإذا تعظم بحسبه حقر من دونه في الحسب - وإن كان أفضل منه عملاً -
حتى يبلغ التكبر ببعضهم إلى أن يرى أن العامة له خول كالعبيد - ويأنف أن يخاطبهم - ويفتخر
عليهم - ويعيرهم عند الغضب ؛ وقد يعترى ذلك الرجل الصالح إذا كان حسبياً عند غضبه ؛
ومن ذلك ما يروى عن أبي ذر أنه قال : « قاوت رجلاً عند النبي ﷺ . فقلت له : يا بن
السوداء . فقال النبي ﷺ :

يا أبا ذر . طفء الصاع . طفء الصاع . ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل
وذلك أنه رآه خيراً منه . بأن كانت أمه سوداء . وأم أبي ذر بيضاء . وقول النبي ﷺ :
« إنه ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل » يدل أنه رأى أنه خير منه . فتعظم عليه . قال
أبو ذر : فاضطجعت ثم قلت للرجل : « قم فطأ على خدتي » . ليدلّ بدلاً مما قال له
فقد يعترى ذلك الرجل الصالح عند غضبه وعند غفلته . لمن دونه في الحسب - حتى يغتابه -
ويذكره بحسبه - بضعه بذلك ، ويتقصه بذلك ، كقول الرجل : خوزي وسندي ونيطي .
ينقصه بذلك ، وقد يعيره بذلك ويفتخر عليه مع التعير . فيقول : أنا خير منك وأكرم أصلاً .
وأنا ابن فلان ابن فلان . ومن ولد فلان . من أنت ومن أبوك ؟ وإنما أنت كذا وكذا . ويقول
له : تجترئ أن تكلمني ؟ أو مثلك ينظر إلى ؟ أو مثلك يضع نفسه معي ؛ ومن ذلك ما يروى : أن
رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ . فقال أحدهما للآخر : « أنا فلان ابن فلان . فمن أنت ؟ لا أم
لك ، فقال النبي ﷺ :

افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان ابن فلان حتى عدت تسعة .
فأوحى الله عز وجل إلى موسى أن قل للذي افتخر بآبائه تسعة : من أهل النار أنت عاشرهم .
ومن ذلك قول النبي ﷺ : « ليدعن قوم السخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم .
أوليكونن أهون على الله عز وجل من الجعلان التي تذوق بآنافها القدر .

ومن ذلك قوله : « إن الله عز وجل قد وجل قد أذهب عنكم عية الجاهلية فلا تفاخروا » .
وكذلك التكبر بالجمال ، يحقر من دونه ، ويعيره ، ويقبحه ، ويفتخر عليه . ويعيه من
خلقه ؛ ومن ذلك ما يروى أن أم المؤمنين عائشة قالت : « دخلت امرأة على النبي ﷺ . فقلت
بيدى هكذا ، فقال لى النبي ﷺ : اغتبتها .

فيعيب من دونه فى الجمال ويسخر منه ويحكيه .
وكذلك القوة ، يتكبر بها ، ويحقر الضعيف ، ويعيره بضعفه ، ويفتخر عليه بقوته .
ويستطيل عليه لضعفه .

وكذلك المال ، يستطيل به ، ويفتخر به ويفتر به . ويتبخر بالزينة فى لباسه بطراً وكبراً
ومرحاً ، بكثرة ماله ولباسه ؛ ومن ذلك ما وصف الله عز وجل عن قارون فقال عز وجل :
(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) .

فقال قوم : (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) .

إلى قوله تعالى : (يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

وكذلك الكبر بالولد والخدم والعشيرة ، يتكبر بهم ، ويستطيل بهم ، ويحقر من قلة عشيرته ،
أو قلة مواليه ، أو عبيده ؛ وذلك كله مبدأه العجب ثم يصير كبراً .

قلت : قد أراك تسمى الكبر بما تسمى به العجب ، فما الفرق بينهما فى الدين والدنيا ؟
قال : أما فى الدين فقد يعجب بعمله . فيحمد نفسه عليه . وينسى مئة ربه بذلك ،
ولا يتكبر على أحد ، وربما أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره : فيحقره ويزدره ويأنف
منه . فيكون حينئذ متكبراً معجباً . وأما بأمر الدنيا فقد يعجب بجماله أو ماله أو حسيه أو قوته .
ولا يتكبر ، وما أقل ما ينفرد العجب بالدنيا دون أن يُخرج صاحبه إلى الكبر والمرح والخيلاء .
ألا ترى إلى قول النبى ﷺ : « بينا رجل يتبخر فى بردين له قد أعجبت نفسه » فوصفه بالعجب
فى تبخره وخيلائه .

فيجمع المتكبر بالدين والدنيا خصالاً يفيضها الله عز وجل : حبّ العلو والأنف من الخضوع
للحق ، والنفور من قبول الصواب ممن هو دونه : فلا يكلم من دونه إلا بالذبر . ولا ينظر إليهم
إلا شزراً : ينظر إليهم بالاحتقار ، ويحاورهم بالاستصغار .

باب نفي الكبر وتعريف العبد قدرة

قلت : فيم ينفي العبد الكبر ؟ .

قال : بمعرفته بقدره في الدين والدنيا .

قلت : فيم يعرف قدره ؟ .

قال : يعرف قدره بمعرفته ببدايته وحياته وعاقبته .

أما بدايته فقد مضت الدهور ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً ، وأوجده الله عز وجل بعد العدم إذ لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأوجده الله عز وجل ميئاً وبدأه بموته قبل حياته ، لأنه خلقه من تراب ، ثم من نقطة ، ثم من علقه ، ثم من مُضغَة ، ثم جعله عظماً ، ثم كسا العظام لحماً ، فبدأه بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سماعه ، وبكّمه قبل نطقه ، وبمجوعه قبل شبعه ، وبعرية قبل ستره ، وبضلالته قبل هدايه ، وبفقره قبل غناه .

ثم أحياه بعد ما كان ميئاً ، وأسمعته بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان لا يبصر له ، وقواه بعد أن كان ضعيفاً ، وعلمه بعد أن كان جاهلاً ، وأغناه بعد أن كان فقيراً ، وأشبعه بعد أن كان جائعاً ، وكساه بعد أن كان عارياً ، وهدهاه بعد أن كان ضالاً ؛ فابتدأه بهذه الأحوال الدنيا ، ثم نقله إلى هذه الأحوال الرفيعة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحياً بعد الموت ، وناطقاً بعد الخرس ، وسميعاً بعد الصمم ، وبصيراً بعد العمى ، وقوياً بعد الضعف ، وغنياً بعد الفقر ، ومهتدياً بعد الضلالة .

فالأحوال الأولى ابتدأه بها يعرفه بها نفسه ، ليشهد عليها بالذلة ، والضعف والقلة والحاجة والمسكنة ، ليعرف بذلك صغر قدره ، ولتردعه معرفة ذلك عن الكبر والفخر والبطر والخيلاء والمعجب بنفسه ؛ فما بدأه من صغر القدر ، وضعة المنازل ، عليه فيها من الله عز وجل ، نعمة سابغة ، إذ عرّف بها نفسه ، فردعه ذلك أن يحوز قدرها ، وحجزه - إن عقل - عن الكبر والفخر والبطر .

والنعمة الثانية عليه من الله عز وجل سابغة إذ عرف بها ربّه الذي نقله من الأحوال الدنيّة

المذمومة ، إلى الأحوال الرفيعة ؛ فكلتا النعمتين سابغة من الله عز وجل ، بالأولى عرف نفسه وبالثانية عرف ربه عز وجل ، فبالأولى يصغر قدر نفسه عنده ، وبالثانية يعظم قدر ربه عنده ، فيخضع ويدل لمولاه شكراً إذ رفع خسيسته بعد الضعة وصغر القدر والمهانة ، فمن كان بُدُوهُ هذا البدو ، وأحواله هذه الأحوال فإنه عن الكبير بعزل ، كما قال لقمان لابنه : يا بني ما للترابي ولل كبير ؟ ! وصدق رحمه الله : من كان أصله مما يداس بالأقدام - ومع ذلك إنه خمر طيبته حتى صارت حمأ مسنوناً - كيف يتكبر وأصله دني وضع عند الخلق ؟ لأنه إذا أراد أن يصغر بقدر غيره ، قال : أنت أهون علي من التراب الذي أطؤه بقدمي ، ولأنت أنتن من الحمأة . وأصل ابن آدم من التراب الذي يوطأ بالأقدام ، وحمأ مسنون قد أسن فأنتن ثم صار بعد الأصل من نقطة قدرة ، ومنها فصله ، وإذا عبر الرجل الرجل - وأراد أن يصغر بقدره ، قال : لا أصل لك ولا فصل ، والأصل عند العرب الجذ والفصل الأب ، فكان أصله التراب وفصله النطفة ، لأن جذه هو التراب وأبوه هو النطفة وهو بعد أبيه من نطفة ، فالأصل يوطأ بالأقدام والنطفة تغسل منها الأجساد والثياب ، فخلق من دناء وضعف وأقذار . ألم تسمع إلى قول الله عز وجل :

(قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ، مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُهُ) ^(١)

وقال عز وجل : (من ماء مهين) ^(٢) .

وقال النبي ﷺ : يقول الله عز وجل : « أَيْعِزُّنِي ابْنُ آدَمَ ؟ وَإِنَّمَا خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ » ويزق النبي ﷺ في كفه . فخلق الإنسان من أقذار ، وسكن في أقذار ، وخرج من أقذار ، لأنه خرج من صلب ، ثم من ذكر من مجرى البول إلى الرحم ، ثم خرج منه من مجرى القدر ؛ كما قال أنس بن مالك : كان أبو بكر رحمة الله عليه يخطبنا ، فيقول في خطبته : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين ، حتى يقدر إلى أحدنا نفسه .

فأول ابن آدم من تراب ، ثم من نطفة موات ، ثم من علقه موات ، ثم من مضغة موات ، ثم من جسم موات ، لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يعقل ولا يتحرك ، لما به من الذلة والمهانة ، ثم نفخ فيه الروح ، ثم أخرج إلى الدنيا بعدما نقله من هذه الأحوال ، فأخرجه حياً ضعيفاً صبيهاً صغيراً ذليلاً ، ثم وكل به الأقدار : الرجيع في بطنه ، والبول في مثانته ، والمخاط في أنفه ،

(١) ١٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ٨٠ .

(٢) ٢٠ : ٧٧ .

والبزاق في فمه ، والوسخ في أذنيه ، ثم التث والأقذار تسرع إليه ، إن تهاون بنفسه أن يغسلها أو ينظفها ، صار أنتن من اللواب ، ووكلت به الأمراض والطبائع المختلفة المتضادة ، لا تفارقه ، من الحيرة والبلم والريح والدم ، وهو مع ذلك عبد ذليل أمره إلى غيره ، يجوع كرهاً مقهوراً ويعيش كرهاً مقهوراً ، ويغلبه النوم كرهاً مقهوراً ، لا يملك لنفسه في ذلك ضرراً ولا نفعاً ، يُعَلَب في المكروهات ، يريد من نفسه ما لا يقدر : يريد أن لا يجوع ولا يعطش ولا يظلم ولا يمرض ، فيترل به من ذلك خلاف مراده ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء فيذكره .

ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يكون تلفه فيما يريد ويحب ، ولعله يكون تلفه في شبعه أو نومه فلا يقوم منه .

عبد مملوك ذليل ، يقبله غيره ، ولا يأمن في ليله ونهاره أن يُسلب سمعه وبصره وجميع جوارحه وعقله ، أو بعض ذلك ، حتى يرد إلى بعض أحواله في بداءته من العمى أو الصمم أو البكم أو الجهل ، حتى يذهب عقله ، وقد رأى الله عز وجل فعل ذلك بكثير من خلقه . ثم هو مع ذلك لا يضر بقلبه ، ولا يترك جارحة من جوارحه ، ولا يكتسب ولا ينفق ، ولا يأكل ولا يشرب ، إلا وعليه من يحمي ذلك كله عليه ، حتى يحاسب به وينظر فيه . ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يسلب ملكه ، فعليه في ملكه مالك ، وليس هو لنفسه بمالك ، ولا على ما أراد فيها بقادر ، وهو مع ذلك مخالف للملكه ومولاه غير شاكر له ، وناس غير ذاكر له ، وقد ركب كثيراً مما قد نهاه عنه ، وضيع كثيراً مما أمره به ، قد استوجب بذلك من العذاب ما إن لم يُعَف عنه كانت الخنازير والكلاب خيراً منه وأفضل وأنظف وأطهر وأطيب وأرفع منه ، لأن الخنازير والكلاب تصير تراباً ، وهو يصير معذباً أبداً ، لو وجد الخلائق نتن ريحه لانتوا من نتنه ، ولو رأوه لصحقوا من وحشة خلقته ، ولو قطرت قطرة من شرابه - الذي يشربه ويفزع إليه ليسكن به عطشه - على جبال الدنيا لأذابتها ، مخد في غاية الذل والخضوع والمسكنة والموان والعذاب .

فن هو في الدنيا بهذا الوصف وأعظم منه قد وجب في رقبته واستحقه وحكم عليه به كيف يكون ذله وتواضعه ؟ كيف ينبغي لمن كان هذا الوصف قد وجب عليه أن يتقلب بين العباد ؟ وهل يمتنع هذا إن عقل أن يكون في نفسه ذليلاً مهيناً ؟ أرأيت من وجب عليه حكم ألف سوط وهو في سجن يستظر أن يخرج إلى العرض فيمضي فيه من الضرب ما قد حكم عليه به ، كيف ذاته في

السجن ، وتوقعه في كل وقت ، إلى أن يخرج إلى العرض فيقضى فيه الحكم ، أفليس هوف الدنيا وهو في السجن وقد وجب عليه العذاب ، لا يدري متى يخرج من الدنيا إلى العرض ليحكم عليه بالعذاب ؟ إلا أن يعفو الكريم .

وهو مع ما قد وجب عليه يتوقع الموت ، فالموت خاتمة عيشه ، لأنه قد علم أن آخر حياته إلى الموت ، فيعاد كما كان بدء خلقه ، ميتا بعد أن كان حيا ؛ ألم تسمع إلى قولهم :
(رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (١)) ؟

أى كُنَّا أَمْوَاتًا فِي أَصْلَابِ آبَائِنَا ، ثُمَّ أَحْيَيْتَنَا ، ثُمَّ أَمَتْنَا بعد الحياة ، فيصير ميتا كما بدأ الله عز وجل خلقه ، فيعمى بعد البصر ، ويصم بعد السمع ، ويكف بعد النطق ، وتقطع أوصانه ، ويصير جيفة تقذره الدواب والحلّاق ، ثم يثلى فينخر عظمه ، ويصير ترابا ، إلا عجب الذنب ، كما قال النبي ﷺ « يلى من ابن آدم كل شيء إلا عجب الذنب » .

فيصير ترابا ، فيرجع إلى أصله الذى خلق منه أبوه الأول ، فيصير معدوما بعد أن كان موجودا ، كما كانت الدهور قبله ولم يكن فيها شيئا مذكورا ، ثم يحياه الله عز وجل بعد طول البلى ، فيخرجه إلى أهوال القيامة فتحلق به كلها : من سماء ممزقة وأرض مبدلة ، وجبال مسيرة ، ونجوم منتثرة ، وشمس وقر مطموسين ، زفير جهنم في سمعه ، وركوب الصراط لا بد له أن يركبه بضعفه ، ثم يمرض على مولاه ، فيسأله عن كل عمله ، ثم الحكم الذى وجب عليه أن يصرفه من بين يديه بعد السؤال إلى عذاب لا يتقطع ، في غاية الهوان والذل والخضوع ، فيصرفه إليه إن لم يعف عنه .

فإذا تذكر العبد وتفكر : كيف كان بلوه ، وما أصله وفصله ، وفي ضعفه ومسكنته وصغر قدره في نفسه مما يتقلب فيه من المكروهات ، من غير مؤامرتة ، ومما لا يكاد أن ينفك منه من الأسقام والغموم ، والوجع والجوع والظما ، وما وجب عليه من العذاب والهوان ، وما يصير إليه من الموت والبلى ، وما بعد الموت : مما يعاين من الأهوال وما يخاف أن يصير إليه من العذاب ، زال عنه الكبر ولزمه الخضوع والذلة والتواضع للمولى عز وجل ، والشكر للمنع تعالى ، والانكسار للخوف من العقاب .

فإذا عرف ذلك عرف قدره وصغر قدر نفسه في الدين والدنيا عنده ، وأمثال ذلك كثيرة .

وليس كمثله في صغر القدر مثل بدو ابن آدم إذا تفكر فيه ، فصغر قدره عند نفسه كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم ، أخبره بذلك والده وكذبه في خبره ، فكانت نخوة الهاشمية في نفسه ، متعظم متكبر بحسبه ، يحقر من دونه ، ويتفخر عليه ، لأنه لا يشك أن الذي حدث به والده عن أصله وحسبه قد صدقه فيه ، فيينا هو في نخوته وكبره وتعظمه ، إذ أتاه رجلان أو عدة رجال ممن يثق بهم ، ولا يشك في صلقتهم ، أصدق عنده وأبر من والده عن علم ، يخبرونه عن كبر أسنانهم ، وقديم معرفتهم بأصله ، وأخبروه بينه وبينهم أنه من الخوز أو النبط أو السند ، فصلدقهم ولم يشك في قولهم ، وأن أباه قد كذبه وأخبره بالباطل ، هل كان يمتنع أن يذل في نفسه ، وتنكسر تلك النخوة من قلبه ؟ وإن أظهر غير ذلك إذا أيقن أنه على خلاف ما كان يرى ويظن . وكذلك ابن آدم ، يتكبر ويتعظم ، حتى كأنه ليس أصله التراب والنفقة والضعف والمهانة والذلة والمسكنة والضّر والزمانة ، فإذا تفكر وصدق نفسه عن الخبر بالتذكر عن بدوه وأصله ومما هو وكيف كانت أحواله ، لم يمتنع أن يذل في نفسه وينكسر عن نخوته وكبره .

ومثل حياته وصحته وما يقلب فيه من ملكه وغناه ، مثل رجل كان عند نفسه حرًا لا يشك فيه ، ثم مات والداه ، وأورثاه مالا كثيرًا ، فكان يتعظم ويتكبر ، بشبابه وحسن جسمه وهيأته وغناه وملكه ، وهو مع ذلك في سعة : من المنازل والنظافة والطيب والمنعة والحرز والأمن ، فيينا هو كذلك متكبرًا متعظمًا في نفسه ، إذ قدم عليه قادم من بعض البلدان ، فأخذه وأقام عليه البيعة العادلة بأن أبويه كانا مملوكين له ، وأن ما كان في أيديهما من مال فهو له ، فحكم عليه الحاكم بذلك ، وعلمه أيضًا صدق ذلك ، وأطمأن قلبه إلى ما شهد به الشهود ، هل كان يمتنع في نفسه أن تزول عنه نخوته وكبره إذ علم أنه عبد مملوك ، ليس لنفسه بمالك ولا لما بيده من المال ، وأن مولاه إن أراد أن يأخذه أخذه منه ، وأنه لا يقدر أن يفعل شيئًا إلا بإذن مولاه وإرادته ؟ ونظر مع ما أيقن به من العبودية ، فإذا في منزله من الهوام والحياة وغير ذلك مالا يأمن أن تلتف نفسه - أغفل ما يكون - ولا بد له من سكنى ذلك المنزل ، لأن مولاه ألزمه ذلك لئلا يضيع ذلك المنزل وما فيه .. كيف يرى كان يكون في نفسه لذلة العبودية والانحلال من ملكه وما يخاف من تلف نفسه - أغفل ما يكون - ولم يكن ذلك المنزل أحد إلا كان آخر مصيره إلى التلف ، هل كان يعد لنفسه مالا وهل كان يعد لنفسه منزلا أو قرارًا ؟ فكذلك ابن آدم إذا تكبر وتعظم وهو ناس لحالته التي وضع عليها ، وناس بضعته التي وضع بها ، فتذكر وتفكر في العبودية أنه عبد ذليل مملوك ، لا يملك نفسه ولا ماله ، متوقع للمتألف أن يعترض بعضها له أغفل ما كان في لذته وقلبه ، وإن

آخر مصيره إلى أن يتلف فيخرج من الدنيا ويحول عنه كل ما هو فيه ، هل كان يمتنع - إذا صدق نفسه عن الخبز بالذكر والتفكير في ذلك - من أن يذل في نفسه ويخضع لمولاه ، ويخضع له ، ولوضعه الذي وضعه به من الخوف للمتألف .

ومثل العاصي لله عز وجل ، الذي وجب عليه العذاب في حياته ، كمثل عبد مملوك ، له سيد شديد النعمة ، شديد السطوة ، وهو يملك الأرض ، لا يأمر بأمر إلا نفذ ، وقدر عليه ؛ فوكله سيده بعمل ، ونهاه عن أشياء تفسد ذلك العمل ، وأعطاه مالا ينقذه على عمله ، فغفل وسها وجعل ، فضيع أكثر العمل فلم يعمل ، وعمل قليلا منه فأدخل فيه من الفساد والنقصان مما نهاه عنه مولاه ، وأتقى المال في لذة نفسه وشهوتها ، وهو في ذلك مرح فرح بطر أشد متكبّر يتقلب لذاته ، غير مكترث لما ضيع من عمل مولاه ، ولا ما أفسد مما عمل له ، ولا ما أتلف من الما الذي أعطاه ، فاتاه خير صادق : أن مولاه مرسل إليه من يخرج من كل ما هو فيه ، عرباً ذليلاً ، حتى يلقيه على بابه في الشمس والحرّ زماناً طويلاً ، معذباً بالشمس والحرّ ، حتى إذا بلغ ذلك منه غاية المجهود ، دعا به فعرضه عليه ، وأمره برفع حسابه ، ونظر في عمله ، ما ضيع منه ، وما أفسد منه ، وما أتلف من ماله ، ثم يأمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروّج عنه ساعة ، ولا يخرج من سجنه ذلك أبداً ، وقد علم أن مولاه قد أخرج كثيراً من عبيده إلى العذاب والهوان ممن فعل كفعله ، وقد عني عن بعض .. هل كان يمتنع مع هذا الحظر إذا بلغه هذا الخبر فتفكر فيه وتذكر ولزم قلبه تصديقه أن ذلك كائن إلا أن يعفو عنه مولاه وأن ذلك واجب عليه والعفو شك لا يدري أيكون أم لا ؟ ألم يكن ينكسر عن شره وبطره وفرحه وتكبره حتى يكون أذل الناس في نفسه ، وأشدّهم خضوعاً وذلاً ومسكناً لما قد حكم به عليه مولاه ، ولما يتوقع في السرعة والمعالجة أن يؤخذ بغتة حتى يمضي فيه كل ما حكم مولاه عليه به ، فما كان يمتنع من ذلك كله أن يذل ويخضع فكذلك ابن آدم ، إذا تذكر في تضييعه كثيراً من عمل مولاه مما أوجب عليه وما أفسد مما عمله فيه مما أدخل فيه من الرياء والعجب وغير ذلك ؛ وما ذهب من عمره فيما أفناه من اتباع هواه ونسيان مولاه ؛ وأن الموت نازل سريعاً عاجلاً ، فيخرج إلى قبره ، فيبلى فيه ، ثم يخرج إلى القيامة فيوقف ، حتى يبلغ به غاية المجهود فيعرضه مولاه ، ثم يحاسبه بكل ما عمل وضع وأفنى من عمره ، ثم يأمر به إلى عذابه الذي لا يشبه عذاب الدنيا ولا عقوبتها لا يشك أن العذاب قد وجب عليه ، وإنما يرجو العفو على شك لا يدري أي فعل ذلك به أم لا ، فإنه إن عفا عنه فهو لا شك أنه سيعرض ويحاسب ، ويوقف على ما ضيع من العمل وأفسد ، وما أتلف من

عمره ، وما أنفق فيه ماله ؛ أترأه كان يمتنع من أن يذل في نفسه ؛ ويروى عنه تعظمه وتكبره ؛ وبذلك يروى الحديث في المسألة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزول قدما ابن آدم من بين يدي الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيم أبليت ؛ وعمرك فيم أفنيت ؛ ومالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته وعملك ماذا صنعت فيه » فإذا تفكر في ذلك العاقل اللبيب ذلَّ وخضع وزال عنه الكبر والفخر .

ولو لم تكن إلا خصلة واحدة من هذه الخصال التي ينشأ بها الكبر من البدو ، ومن الحياة ، وما وجب عليه بمعصيته ، ولو خلق من خير الأشياء ، وساعدته الأقدار ، فلم يسقم ، ولم يمرض ، ولم يعتوره قدر في جسمه ، ولا فاقة نازلة به ، ولا يحل به موت ، ولا عذاب عليه في الآخرة ، ما كان الكبر مع هذه النزاهة والطهارة يصلح للعبد ، ولا يليق به لأنه عبد مملوك ، فذل العبودية ضد الكبر ، فلا يليق بالعبد الكبر ، وكيف وهو مع العبودية صغير القدر في البدو تعتوره الآفات في حياته مستوجب للعذاب مذ عصى ربه ، ثم إلى الموت مصيره ، والحساب أمامه ، والعذاب جزاؤه ، إلا أن يغفو عنه مولاه ، ولو لم يتذكر العبد هذه الخصال ، كان تذكره أن الله عز وجل نهاه عن الكبر ، وأنه يمقت عليه ، كفى بذلك نافياً للكبر . فكيف إذا ذكر هذه الخصال مع خوفه لمقت الله عز وجل أن يطلع على قلبه ، وقد عقد على الكبر فيمقته بذلك .

ومما يدل ذلك أن الله عز وجل يمقت عليه ، قول الله عز وجل :

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

ومن لم يحبه الله فهو له مبغض ماقت .

وقول النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » وإنما يحرم الله عز وجل جوارحه من يمقته ويغضب عليه ، فبواحدة من هذه الخلال ينشأ العبد اللبيب الكبر .

باب التكبر بالعلم والعمل خاصة

قلت : قد تبيّنُ بما وصفتَ من ذلك أنه نافعٌ للكبر بالحسب والجمال والجسم والمال والكرّة والعمل والعلم ، إلا أنى أجد للعمل والعلم فتناً تعترض فيهما مع ذكر صغر القدر ، فقد تغلب على العالم والعامل حتى يتكبر ، فما الذى يدفع به تلك العوارض التى تبعثه على الكبر ؟ قال : إن العلم والعمل لكذلك ، ومن ذلك ما يحده العباد من أنفسهم ، لأن فتنها أعظم الفتن ، لأن قدرهما عند الله عزّ وجلّ وعند العباد أعظم من قدر الحسب والمال والجمال ، بل لا قدر للحسب ولا للجسم ولا للجمال ولا للمال عند الله عز وجل إلا أن يكون مع ذلك عمل وعلم ، وكذلك العباد : العامل والعالم فى صدورهم أكبر قدراً من كل حسب ومن كل مال وجمال ، فعظمت فتنها إذ عظم قدرهما عند الله عز وجل وعند العباد ، ألا ترى إلى قول حذيفة رضى الله عنه : اتقوا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فبعظم قدر العلم والعمل عند العباد افتتن الجاهل ، حتى لقد اتبع العالم فى زلته والعابد فى خطئه .

وقال النبي ﷺ : « ثلاث كائنات : زلة العالم ، إذا زلّ زلّ بزله الناس » . وقد روى عن عمر أنه قال لعيم الدارى : ما زلة العالم ؟ قال : « إذا زلّ زلّ بزله عالم من الخلق » وقال : « ثلاث بين يهدم الزمان إحداهن زلة عالم » .

وقال معاذ : « احذروا زلة العالم ، فإن قدره عند الخلق عظيم ، يقلدونه ويتبعونه على زلته » ، وروى عن كعب أنه قال : « للعلم طغيان كطغيان المال ، فكما أن قدرهما (١) عند الله عز وجل عظيم إن اتقياه ، فكذلك إثمها عند الله عز وجل عظيم إن لم يتقياه ، لأن العامل إذا لم يتق الله عز وجل ، فأراد العباد بما يعمل من طاعة الله عز وجل ، كان عند الله عز وجل أعظم بليّة ممن ضيّع العمل ، لأنه ضيّع العمل إذ لم يُرد الله تعالى به ، لأنه لم يعمل لله عز وجل ، وإنما عمله لغيره ، فشارك المضيّع فى تضييعه ، وفضله فى الشر بريائه وكبره وعجبه وحسده .

ألا ترى إلى المنافقين ؟ أنهم فى الدرك الأسفل من النار ، وقد تركوا الإيمان ، مع سائر الكفار

(١) يعنى قدر العالم والذى .

وأظهروا رياءً للعباد ، فجعلهم في الدرك الأسفل من النار ، فكذلك المفسد للعمل شر من ضييع العمل ؛ وأما العلم فكذلك الحامل للعلم المضييع لأمر الله عز وجل أشد بلاءً وأعظم إثمًا ممن ضييع أمر الله عز وجل على جهل .

ألا ترى إلى إبليس لما علم أمر الله عز وجل ، واعترف له بالريوية ، ثم عاند أمره ، بعد علم وبيان واعتراف ، لعنه الله عز وجل إلى يوم الدين ، وصار شر الخلائق ، وقطع رجاءه من التوبة أبدا .

أولا ترى أن اليهود اليوم لا يدعون الله ولداً ولا شريكاً ، وهم عند جميع أهل الإسلام شر من النصارى الذين يدعون لله الولد والشريك ، لأن الله عز وجل وصف عامتهم بالجحد بعد المعرفة ، فقال عز من قائل :

(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ^(١)) .

وقال جل وعلا : (لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ^(٢)) .

وقال تعالى : (لَيَكْفُرُوا بِالنَّاصِرِ وَلَيَكْفُرُوا بِالنَّاصِرِ^(٣)) .

فكانوا عنده أعظم بلاء إذ جحدوا الحق بعد علم ومعرفة ، كما قال الله عز وجل :

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ^(٤)) .

وقد عصى الله عز وجل من جهل ولم يعرف أمره مالا يحصى ، فلم يضرب له الأمثال التي ضربها للعالم الذي يعرف أمره فضرب المثل للكافرين المشركين ، من العرب الذين لا علم لهم ، فقال : (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) .

وضرب مثل من آتاه العلم وعرف الحق ، ثم جانبه بعد علم ومعرفة ، كمثل الحمار والكلب ، فقال :

(مثل الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كمثل الحمار) .

وقال في بلعم بن باعورا :

(وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا)

فبدأ ذكره بأنه قد آتاه آياته حتى بلغ

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ^(١)) .

قيل في التفسير : إن حملت على الكلب بالعصا لهث ، وإن تركته فلم تحمل عليه لهث ، يريد أنه يلهث على كل حال ، فضربه مثلاً للعالم الذي أوتى العلم فضيغ أمر الله عز وجل ، كما ضيغ الجاهل ، وقال ابن مسعود : بلم بن برق ، وقال ابن عباس : بلم بن باعر ، أوتى كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض « ولو شئنا لرفعناه بها » قال : بعلمه ، وقال مجاهد : هذا مثل من يقرأ الكتاب فلا يعمل بما فيه ، وقال ابن عباس في حديث عكرمة عنه : أخلد ركن إلى شهوات الأرض ولذاتها وأموالها ، لم يتضع بما جاءه من الكتاب .

وقيل في قوله عز وجل : (إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ) .

قال : يقول الله عز وجل سواء على هذا العبد آتيته الحكمة أو لم أوته ، فضرب الكلب له مثلاً .

ثم قال النبي ﷺ : يخبر أن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار ، استعظماً منهم لشدة عذابه ، يخبر أنه أشد عذاباً منهم ، وقال أسامة بن زيد : سمعت النبي ﷺ يقول : « يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه ، وقال بعضهم أفياده فيدور به كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون : مالك ؟ فيقول كنت أمر بالخير ولا آتبه ، وأنهى عن الشر وآتبه » .

وروى عن أبي الدوداء أنه قال : « ويل للذي لا يعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه ، وويل للعالم سبع مرات » .

فإذا عرض للعامل أو العالم ذكر عظم القدر والتكبر ، رد على نفسه أنه على خطر أن يكون قدره عند الله عز وجل وعند خلقه أصغر قدرًا من المضيق للعمل ، والجاهل بالعلم ، إذ كان أعظم بليته ، فإذا رجع إلى نفسه : إني كما عرضت لأعظم الأجر وأكبر القدر ، فكذلك عرضت لأعظم الإثم وأصغر القدر ، وإن تكبري يا نفس تكوني أصغر قدرًا من الجاهل والمضيق للعمل ، فهو كرحل قيل له : إن لك قدرًا ما لم تر لنفسك قدرًا فإن رأيت لها قدرًا فلا قدر لك عند الله عز وجل ، وهو كذلك ، لأن الله عز وجل يضعه ويؤدله إذا تكبر .

فإذا عقل عن الله عز وجل ، علم أنه إن تكبر وضع قدره ، وإن نفي الكبر وذل رفع قدره ،

وإذا ألزم العبدُ قلبه ذلك ، انتفى الكبير عنه عاملاً كان أو عانماً ، لأن خطرها جميعاً عظيم : أما العابد فكثير آفاته ، وكثير أخطاؤه في عمله ، وكذلك العالم ، وهو أعظمها خطراً وأشدّها بلاء . ألا ترى إلى ما روى عن أبي ذرّ : أن مولاه جعل يسأله عن العلم ، فقال له أبو ذرّ : أما إنك لا تسألني عن شيء إلا زادك الله به بلاء .

وصلى رحمة الله عليه ، تعظم عليه الحجة عند الله عزّ وجل ، ويعظم منه الذنب ، وتكثر آفاته . ومع عظيم الحجة وكثرة الآفات إنما يؤثر عليه إذا عمل به بنية قلب أو فعل ؛ ألا ترى إلى قول معاذ بن جبل : « اعلّموا ما شئتم أن تعلموا ، فإن الله عزّ وجل لا يأجركم على علم حتى تعملوا » .

ونيتّه للعمل به عند طلبه للعلم عمل ، فبمعرفة تعظم الخطر يذلّ وينكسر ، وبمعرفة بعظم الحجة عليه يزولّ عنه الكبير . أن يتكبر على من دونه ، ولو لم يعظم خطره ولم تعظم الحجة عليه ، وأيقن أن الله عزّ وجل قد رفعه بعلمه على من دونه . لكان حرباً - إن كان بالله عزّ وجل عالماً - ألا يتكبر على من دونه . فيزول عن منزلته ، ويتضع عن رفعة . إذ علم أن الله عزّ وجل واضح بالكبر من تكبر على من دونه ومذله ومصغره .

وإنما كررت هذا عليك لتفهّمه ، وتعرف أن الكبير لا يليق ولا يصلح ولا ينبغي لأحد سوى الله عزّ وجل . إذ كل ما سواه مملوك ذليل لربه عزّ وجل ، كما يروى عن أبي هريرة أن رجلاً كان لا يعدى عليه . وكان يمرّ بدابته لا ينظر إلى أحد ، فعرض له أبو هريرة فأخذ بلجامه ، وقال له : « ما رأيك إلى شيء لا يصلح إلا الله عزّ وجل يجعله لنفسك ؟ » قال فانكسر الرجل وما رأى منه بعد ذلك إلا خيراً وتواضعاً .

قلت : فإذا تدكّر هذا وتفكّر فيه حتى يلزم قلبه معرفته ، فذلّت نفسه لصغر قدرها عنده ، وزال الكبير عن قلبه ، حتى لا يرى أنه خير من دونه من المسلمين . ولا يزدريه ولا يأنف منه ، هل يجزى ذلك عنه فيما يستقبل من عمره ؟ .

قال : لا . لأن النفس قد تعطى العزم على التواضع وترك الكبير . إذعاناً منها للحق ، إذ بهرتها معرفته . فعرف العبدُ صغر قدر نفسه . فلما عرف صغر قدر نفسه ذلّ وخضع ، فتعطى النفس العزم عند هذه المعرفة . ثم تسهوا أو تنفل في غير ذلك الوقت فتتكبر وتعظم . فتقصر ما أعطت من العزم وتغير عن حالها تلك ، من الخضوع والذلة فتكبر وتعظم .

باب بم يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصدق ولا خدعة منها ؟

قلت : فيمَ يعلم أنها قد وفّت بعزمها ، أو أنها ناقضة لها ؟
قال : بتفقدتها عند الداعي من القلب إلى الكبر ، وعند الأعمال التي يأنف منها المتكبرون ،
ويتعظمون عنها ، فأما الداعي من القلب إلى الكبر ، فمثل الخطرة تهيج بالإعجاب بالنفس ،
تدعو العبد إلى أنه خير من أخيه المسلم ، وأن ينظر إليه بعين الأزدراء والقصعة ، فعند خطرة الداعي
بذلك ، يكون حذرًا متيقظًا ، رادًا لما خطر بقلبه من ذلك ، فإن أبت نفسه ذلك ذكرها صغر
قدرها ، وما وجب عليها ، وخاتمة حياتها ، وما تخاف من سوء عاقبة الآخرة ، وأنه لذلك
مستوجب ، وأما بالجوارح ، فإن أمره أمير ، أو نهاه ناه ، أو ناظره مناظر ، فتبين له أن الحق
ما قال من أمره أو نهاه أو ناظره ، منع نفسه الرد لقوله ، وحملها على القبول لقوله ، والخضوع
للحق إذ تبين له .

وكذلك إن أنف من اكتساب الحلال من الأسباب الوضيعة حملها على ذلك ، فإن أبت
ذكرها ما وصفت لك : من صغر قدره وغيره .

وكذلك إن أبت حمل ما ينفعها مما يأنف من حمله المتكبرون ، كالشيء يحمله لنفسه أو لأهله
حملها على حمله وذكرها صغر قدرها .

وكذلك إجابة دعوة الرجل المسلم ، وإن كان عبدًا أو فقيرًا أو دنيّ الحسب ، وكذلك المشي
معه لحاجته أو زيارته أو عيادته أو معاملته ، كان قريبًا له أو بعيدًا ، حملها على ذلك إذا كان ذلك
نافعًا له في دين أو دنيا ، وكذلك تعليم الحق أو سؤال عنه لمن دونه ، وكذلك الانتماء إلى أصله
ومواليه ، لأنه قد يُخرج به الكبر إلى أن يتسمى إلى غير أصله ، أو يدعى إلى غير مواليه ، أنفًا وكبرًا
عن أصله ومواليه ، وذلك عند الله عز وجل عظيم .

وروى عن سعد عن النبي ﷺ أنه قال : « من أدعى إلى غير مواليه فالجنة عليه حرام » .
وقال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه : « كفر بالله تبرئ من نسب وإن دق » ، وكذلك

يأنف من لبس الثوب الدنيّ ، فيدع ماوجب عليه كالصلاة وغيرها ، أو إتيان حق من قرابة أو غيرهم .

وقد روى : أن أبا موسى رحمة الله عليه قيل له : إن أقوامًا يتخلفون عن الجمع من أجل ثيابهم ، فلبس عباءة فصلّى بالناس فيها .

وهذا الباب كله قد يجامع الكبر الرياء فيه ، فبذلك يحقق جملة ما عزم عليه من نفي الكبر ألا ترى ما يروى عن النبي ﷺ قال : « من اعتقل العتر ولبس الصوف فقد برىء من الكبر » وقال :

« إنما أنا عبد ، آكل بالأرض ، وألبس الصوف ، وأعتقل القز ، وألحق أصابعي ، وأجيب دعوة المملوك ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » ، والحديث : « إنه من حمل لأهله الفاكهة والشئ فقد برىء من الكبر » والحديث عن أبي سنان : أنه قال له رجل : هات حتى أحمل عنك هذا اللحم ، فقال : لا ، ثم قرأ (إنه لا يحب المستكبرين ^(١)) .

ولا يرضى أهل العلم والمعرفة بما أعطت أنفسهم : من العزم على ترك الكبر دون أن يلوها ويختبروها عند الأعمال ، حتى ينظروا ، تحقق ذلك أم تنفضه ، ومن ذلك ما يروى : أن عبد الله ابن سلام حمل حزمة من حطب ، فقبل له : يا أبا يوسف ، قد كان في غلمانك وبنيك مايكفونك ، قال : أجل ولكنني أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك ؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنف حتى يجربها ، أتصدّق في ذلك أم هي كاذبة .

وقد يعترض للعبد مع الكبر في مثل هذا كله الرياء ، فيجامع الكبر الرياء ، وهو ما أخبرتك في أول الجواب عن مسألتك : أن الكبر يعترض من الرياء ، فيعترض في ذلك الرياء مع الكبر ، أنفا أن يقولوا فقيراً أو ضيقاً أو مسكيناً ، فينظروا إليه بعين الازدراء : من الفقر أو الكسب الدنيّ ، أو صحبة الرجل الدنيّ ، أو زيارته من القرابة وغيره ، أو أن يقبل الحق من غيره ، فيقال : فلان خطاه أو علمه ، أو يقول : من غلبه في نفسه خطأته ، أو علمته .

فاذاً اعترض الرياء مع الكبر ، فليقارب بالفكر بين صغر القدر ، وما وجب عليه من العقاب ، وكراهية الرياء المحبطة لعمله في يوم فقره وفاقته ، إلى صافي الحسنات ، لينجو بها من عذاب ربه عز وجل ، ويستحق بها ثوابه ورضوانه ، فيذكر صغر القدر وما وجب عليه من العذاب ، ويذكر مصيره إلى الموت والحساب .

وبالحكم بالجزاء ينفي الكبر ، وبالكراهة للرياء ينفي الرياء ، لأنه قد ينفي الكبر إذا عرض له الأنف من الأعمال التي تقربه إلى ربّه عز وجل ، لضعة أسبابها ، فيتواضع ويعلم أن الكبر لا يليق به ، وتجنز نفسه بعد معرفته بصغر قدرها ، أن تُدَمَّ ، وينظر إليها بالازدراء ، فهو في نفسه وضيع ، ولا يجب مع ذلك أن يكون عند الناس وضيعاً .

ومما يدل على ذلك : أنه قد يكون من بعض الخلق أن العبد يدعى إلى حسب شريف ، كادعائه أنه من أهل بيت النبوة ، أو من قریش ، أو العرب ، وهو عالم أن أصله غير ذلك ، فهو عند نفسه وضيع الأصل ، وهو يجب أن ينظر إليه الناس بعين التعظيم ، ويكره أن يعلموا بأصله وينظروا إليه بالازدراء ، وكذلك يظهر أنه غني وهو فقير ، فذلّ الفقر في قلبه لمعرفته أنه لا غنى عنده ، وهو يجب أن ينظر إليه بالغنى ، ويكره أن يرى بالفقر ، وكذلك يوهم العباد أنه يحسن من العلم ما لا يعلمه ، ويكره أن يفتنوا بجهله فيزدروه ، ويجب أن ينظروا إليه برفعة العلم ، فهو عند نفسه ذنّي الحسب قليل المال جاهل ، وهو يوهم العباد أنه على غير ذلك ، لحبّ الحمد وكراهة الذم .

وكذلك هذا الذي اعترض له الكبر مع الرياء ، قد ينفي الكبر ويستعمل الرياء ، فيدع ما هو أولى به وأقرب إلى ربّه عز وجل ، ولعله أن يغلط فيرى أنه بنفيه الكبر قد نفي الرياء ، فيكون عند نفسه مخلصاً متواضعاً ، وهو عند ربه عز وجل مرء ، ولعل نفسه عند ذلك أن تحيل إليه أن ذلك حياء منه ، وإنما تركه للحياء ، ولم يتركه للكبر ولا للرياء .

وكذلك قد ينفي الرياء فيعلم أن العباد لن يضره ذمهم ، ولن ينفعه حمدهم ، فيكره ذلك ، وتأبى نفسه أن يفعل شيئاً من ذلك ، كبيراً في نفسه ، وأنه لا يصلح ذلك لثله ، ولو رفعه الناس بذلك .

وقد رأينا من قد يتكبر بالحسب مع الدين ، كمن هو من أهل بيت النبوة أو من قریش ، يرفع نفسه أن يصلّي خلف العامة ، فيدع الجماعة أنفاً وكبراً ، وقد علم أن العباد يذمونه ، يعلم ذلك منهم ، ويلغى عن بعضهم ، ويسمعه من بعضهم ، ونفسه تأبى إلا كبيراً ، وأنه لا يصلح له في قدره أن يؤتمه غيره ، فقد لزم قلبه الكبر مع معرفته أن ذلك يزيل حمد العامة له ، وهو متكبر لا مراى بذلك ، وكذلك لا يختلف إلى الفقهاء والمحدثين أنفاً وكبراً أنه أحق أن يتعلم منه ، من أن يتعلم هو من غيره ، لأن العلم إنما جاء من أصله وآبائه ، ولعله جاهل لا يحسن أن يقيم صلاته أو بعض فرضه .

فقد تبين بهذا أن العبد إذا قارن الرياء بالكبر أنه قد ينفي الكبر ، ويعتقد الرياء ، وقد ينفي الرياء ويعتقد الكبر ، فلا ينجيه إذا تقارنا أن ينفي أحدهما بما ينفي به الآخر ، إلا أن يكون عبداً قوياً خائفاً ، فيذكر اطلاع الله عز وجل على ما في قلبه ، فينصرف عنهما ، وذلك إذا كان عارفاً بهما وبما ينفيان قبل العارض ، فأما من لم يكن يعرف ما ينفيهما به فلا غنى به عن معرفة ذلك عند اعتراضهما ، وذلك إذا كان يعرف - من قبل أن يعرضاً - بم ينفيهما به ؛ ثم إن لم يكن عنده خوف وقوة يقين وإجلال لله عز وجل لم يكده أن يخرجه ذكر اطلاع الله أو ذكر عقابه ، لغلبة الهوى وضعف العزم واليقين ، حتى يخاصم نفسه ويعاتبها ، ويورد عليها أضداد ما ادّعت : من عظيم القدر ، ويرد عليها ما أرادت من رياء المخلوقين ، بذكر سوء عاقبة الرياء في معاده ، أفقر ما يكون إلى أن يقبل الله حسناته .

فإذا نفي الرياء والكبر إذا اجتماعا في القلب بما وصفت لك من ذكر صغر القدر ، وما وجب عليه في حياته ، وما تكون خاتمة أمره ، فيتنبى بذلك الكبر ، وينفي الرياء بالكراهية والإباء له ، لخوفه من حبط عمله حين لا ينجيه إلا الخالص من العمل ، فقد نفي الكبر حيثئذ والرياء جميعاً ، وسلم منها بإذن الله عز وجل .

باب ما يجب من التواضع للمطيعين والعاصين لينفى به العجب والكبر

قلت : قد أمرت بالغضب والبغضة للعاصين ، والمجانبة لهم والمقت لهم ، ومعرفة النعم التي بها عصمت من كثير من أعمالهم ، فقد يمكنني أن أذل وأتواضع للمطيعين ، وأعرف لهم قدرهم وما رفعهم الله عز وجل به علي ، وأني دونهم ، فكيف يمكنني أن أذل وأتواضع لمن أمرت بمقتة وبغضه ، وبمجانبته ومعرفة النعمة التي بها فضلت عليه .

قال : لا يمنعك ذلك من التواضع لله عز وجل ، والذل في نفسك ، مع القيام بذلك كله . قلت : ما أجدني أحسن أن أميز بين هذين : أن أتواضع لمن أنا له مبعوض ، وعليه غضبان وله بجانب ، أحمد الله على العصمة من مثل عمله ، وكيف لا أرى أني خير منه وقد فضّلني الله عز وجل عليه ؟ فقد التبس علي معنى ما وصفت في نفي العجب فإني لا أمتنع أن أعلم أن الله عز وجل رفع قدرى فوقه وأني قد علمت ما لم يعلم ، وتورّعت عما لم يتورع ، وأما ما وصفت من نفي الكبر فليست أمتنع منه - إذا كنت أعلم أن الله عز وجل قد فضّلني عليه بأمر كثيرة - أن أنظر إليه بعين المقت والبغضة كما أمرت وندبت .

قال : إن ذلك ليلتبس علي من هو أعلم منك وأقوى : ومن ذلك أوقى كثير من الديانين ، حتى أعجبوا وتكبروا ، وظنوا أنهم قد أطاعوا الله عز وجل بذلك ، لأن الكبر على المطيع شرّ مقرر بعينه ، لا يلتبس إلا على الغافلين ، والكبر على العاصين يمازجه ويشوبه الغضب لله والمجانبة له ، والاعتراف بالنعم التي فضل بها عليهم ، والتبس واشتبه لهذه الشائبة حتى خلع بها كثير من المتعبدين ، وظنوا أنهم بذلك مصييون لله عز وجل مطيعون .

وسأبين لك ذلك حتى تميز بينهما ، فتغضب وتمقت وتجانب لله وتعرف ما فضلت به من النعم ، وتزایل العجب والكبر بالعلم ، وما يمكن في النظر لمن عقل عن الله عز وجل أمره ، فإن ميزت بينهما نجوت من الكبر والعجب ومقت الله عز وجل بالغضب له وعرفان نعمه ، وإذا لم تميز بينهما خدعتك نفسك وعدوك بالطاعة ، فألقتك في المعصية لما شابهها من الطاعة .

شرح المسألة المتقدمة : اعلم أن الناس عندك فرقان : فرقة مستورة لاتعرف منها سوءا

ولا جرماً ، فتلك الفرقة أفضل منك عندك ، إذ لم تتبين منها مكروهاً .
والفرقة الثانية مختلفون في ذلك ، فمنهم من هو عندك مهتوك في ذنب أو ذنبين أو أكثر من ذلك . إلا أنه أقل مما تبين لك من نفسك من الذنوب في طول عمرك فهو لا أفضل منك عندك .
إذ كنت تعرف من نفسك أكثر مما تعرف منهم .

وفرقة قد ظهر لك منها من الذنوب أكبر وأعظم مما قد ظهر لك من نفسك .
فأما الكثرة فلا تقدر أن تحصيها من غيرك كما تحصيها من نفسك ، لأنك خالٍ بنفسك في كل حال في عمرك كله ، ولا تقدر أن تصحب غيرك في طول عمرك فلا تفارقه ، كما لا تقدر أن تفارق نفسك ، ولا تطلع على سرائره وضميره كاطلاعتك على سرائر نفسك وضميرها ، فذنوبك عندك أكثر من ذنوب غيرك .

فأما العظم فقد يظهر لك من غيرك ذنوب عظيمة كالقتل والسرقة والزنا وغيره من غيرك فقد يكون بعض مظاهر لك ذلك منه ليس عنده من المعرفة والعلم ، ما عندك ، فالحجة عليك أعظم منها عليه ، والحساب عليك في سؤال القيامة بالعلم أشد ، فأنت تخاف على نفسك العذاب ، على قدر تضييعك مع العلم والمعرفة ، فتتقن عنك الكبر بذلك وقد يكون لبعض من ظهر لك ذلك منه من العلم مالِك أو أكثر ، وقد ظهر لك من الذنوب أعظم مما أتيت به ، فهو أعظم عصيانياً منك .
فهذا الذي سألت عنه ، إن عقلت وأردت التمييز بين الغضب لله عز وجل والنجاة من العجب والكبر .

فالذي عليك فيه : أن تعرف نعمة الله عز وجل عليك ، إذ عصمك من مثل عمله ، وتغضب لله عز وجل وتجنبه وتحفه ، غضباً لربك تعالى ، فلا تنس الخوف على نفسك حتى ترى أنك ناجٍ وأنه هالك دونك ، وأنت لا تدري بم يختم لك ولا بما يختم له ، وإنما وكَّلت بالخوف على نفسك من ذنبك ، ولم توكل بالخوف عليه من ذنبه ، إلا من طريق الإشفاق عليه . فأما ما نذبت إليه ، ووجب عليك : أن تخاف الله عز وجل وترهبه وتتوب إليه ، وتخاف ألا يقبل منك صالح عملك ، لما سلف من ذنوبك ، ولما تخاف أن يكون قد دخل عليك في عملك من الآفات التي تفسده ، وأن تخاف من سوء عواقب الخاتمة ، وسابق العلم فيك ، فإنما أمرت ووجب عليك الخوف على نفسك ، لأنك المأخوذ بذنبك لا بلذنب غيرك . ألم تسمع الله عز وجل يقول :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

(وَلَا تُكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا) .

فَأَنْتَ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكُونُ : قَدْ غَضِبَ عَلَيْكَ ، فَأَنْتَ عِنْدَكَ شُغْلٌ عَنِ الْخَوْفِ عَلَى غَيْرِكَ ، وَلَا تَدْرِي بِمِ يَنْجُتُكَ لَكَ ، وَكَمْ قَدْ رَأَيْتَ رَاحِمًا لَغَيْرِهِ مِنَ الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَدْ رَجَعَ إِلَى الْمَعَاصِي وَتَابَ الْمَرْحُومَ عِنْدَهُ وَرَجَعَ هُوَ حَتَّى مَاتَ عَلَى شَرِّ أَحْوَالِهِ ، وَمَاتَ الْآخِرُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّشْمِيرِ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ غَيَّبَ عِلْمَ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَأَعْمَالَ الْعِبَادِ عَنْهُمْ ، فَلَا يَدْرِي أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا الرُّسُلَ الَّذِينَ بَيَّنَّ لَهُمْ ، فَلَا يَدْرِي الْعَبْدُ عَلَى مَا يَمُوتُ ، وَبِأَيِّ حَالٍ يَنْجُتُ لَهُ بِهَا ، فَالْخَوْفُ عَلَى نَفْسِكَ أَوَّلَى بِكَ مِنَ الْخَوْفِ عَلَى غَيْرِكَ .

فَإِذَا لَمْ تَتْرَكِ الْخَوْفَ عَلَى نَفْسِكَ لِمَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِكَ ، وَبِمَا يَنْجُتُكَ لَكَ بِهِ ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ عَارِفٌ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ الَّذِي عَصَمَكَ مِنْ سُوءِ فِعْلِ غَيْرِكَ ، وَغَضِبْتَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَجَانِبْتَ وَأَنْتَ غَيْرُ نَاسٍ لِلْحَذَرِ ، وَلَا تَارِكَ لِلْخَوْفِ عَلَى نَفْسِكَ ، فَلَسْتَ بِمُسْتَكْبِرٍ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مُسْتَكْبِرًا عَلَيْهِ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ بَعِينَ الْأَزْدَرَاءِ وَالْحَقَرِيَّةِ ، وَقَدْ غَلَبَ عَلَى قَلْبِكَ أَنْتَ الْنَاجِي ، وَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَلَا تَذْكُرْ مَا سَلَفَ مِنْكَ ، وَلَا بِمِ يَنْجُتُكَ لَكَ ، فَحِينَئِذٍ تَجْمَعُ عَصِيَانًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكِبْرًا ، إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ بِالْأَزْدَرَاءِ ، وَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْهُ ، غَيْرُ خَائِفٍ عَلَى نَفْسِكَ ، أَوْ أَنْفَتَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُ حَقًّا أَوْ تُوْدَى إِلَيْهِ حَقًّا أَوْجِبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَلَيْكَ ، وَقَدْ قَطَعَ قَلْبَكَ عَلَيْهِ بِالْهَلَاكِ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ النِّجَاطُ لَكَ فَحِينَئِذٍ قَدْ تَكَبَّرْتَ عَلَيْهِ وَأَعْجَبْتَ بِنَفْسِكَ ، كَمَا صَنَعَ عَابِدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُخْلِيعِهِمْ .

فَلَا تَدْعُ ذِكْرَ النِّعْمَةِ الَّتِي بِهَا فَضَّلْتَ ، وَلَا بِمِجَانِبَةِ الْفَاسِقِينَ ، وَلَا تَنْسَ سَالِفَ ذُنُوبِكَ ، وَعَظِيمَ الْحِجَةِ عَلَيْكَ فِي عِلْمِكَ وَعَمَلِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَعْرِفَتِكَ ، وَبِمِ يَنْجُتُكَ لَكَ ، خَائِفًا أَنْ يَنْجُتَ لَكَ بِشَرِّ الْأَعْمَالِ ، وَأَنْ تَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِلْمِهِ شَقِيًّا ، فَقَدْ عَظُمَ خَطَرُكَ ، وَفِي ذَلِكَ شُغْلٌ لَكَ عَنِ الْكِبَرِ عَلَى غَيْرِكَ ، وَلَا تَأْنَفْ أَنْ تَقْبَلَ الْحَقَّ مِنْهُ ، وَلَا أَنْ تُوْدَى الْحَقُّ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ قَرَابَةً أَوْ غَيْرَهُ .

قُلْتُ : فَأَنَا أَيْضًا لَا أَدْرِي بِمِ يَنْجُتُكَ لَهُ .

قَالَ : أَجَلٌ ، وَإِنَّمَا وَكَلْتُ بِالْخَوْفِ عَلَى نَفْسِكَ ، وَالْإِشْفَاقِ مِنْ سُوءِ الْخَائِفَةِ لِعَمَلِكَ ، وَلَوْ خَتَمْتُ لَكَ وَلَهُ بِأَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَدَخَلْتُمَا جَمِيعًا النَّارَ مَا كَانَ لَكَ فِي الْخَوْفِ عَلَيْهِ رَاحَةٌ وَلَا فَرَحٌ ، فَالْغَمُ لِنَفْسِكَ وَالْحَذَرُ عَلَيْهَا أَوَّلَى بِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ بِكَ قَرَحَةٌ تَضْرِبُ عَلَيْكَ وَبِغَيْرِكَ أَكَلَةٌ ، كُنْتَ لِمَا بِكَ مِنَ الْقَرَحَةِ أَشَدَّ غَبًّا وَهَمًّا مِنْكَ لَغَيْرِكَ ، فَمِنْ كَانَ عِنْدَكَ مُسْتَوْرًا أَوْ مَهْتَوَكًا

بدون^(١) ما عندك به ، فقد تبين لك أنه خير منك ، ومن كان عندك مهتوكاً بأعظم مما عندك به ففى ما عندك شغل عن الفراغ لحقيرته وازدراؤه والخوف عليه ، وخوف سوء الخاتمة على نفسك أولى أن يغلب على قلبك ، لأن البلاء إليك يصل إن لم يرض الله عز وجل عنك ، ولعلك أعلم منه ، فالحجة عليك أعظم ، وعلى أى حال عندك من الذنوب فى الدين : من الكبر والعجب والرياء والحسد فى الدين مالىس عنده .

وقد روى عن وهب بن منبه ما يبين هذا ، أنه قال : ماتم عقل امرئ حتى يكون فيه عشر خصال ، فعد تسع خصال حتى بلغ العاشرة ، فقال والعاشرة ، وما العاشرة ؟ ! هى التى ساد بها مجده ، وعلا بها ذكره ، إنه يرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم حالاً فقال : يرى ، ولم يقطع ، ثم فسر ذلك فقال : وإنما الناس عنده فرقتان أو رجلان ، فرقة هى أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى ، فهو يتواضع للفرقتين جميعاً بقلبه : إن رأى من هو خير منه شكره وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، أفلا تراه خائفاً من العاقبة ؟

ثم قال : ولعل بر هذا باطن ، فذلك خير له لا يدرى لعل عنده خلقاً كريماً فيما بينه وبين ربه جل وعلا ، يشكره له فيرحمه به ، فيتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال .
ثم قال وبرى أنا ظاهر فذلك شرى ، فلا يأمن ألا يكون سلم فيما أظهر من الطاعة أن يكون قد دخلها من الآفات ما يبطها .

ثم قال فحينئذ كمل العقل وساد أهل زمانه ، وصدق ، لأنه يتواضع لها جميعاً بقلبه مقراً معترفاً أن من لم يبد منه أعظم مما يعرف من نفسه ، فهو خائف على نفسه الهلاك وأن يختم له بشر من عمله ، أو لعله لم يتقبل له حسنة ، وأنه عند الله عز وجل شر منه مما سلف من ذنوبه ، ولعله يختم له بشر الأعمال ، فهو متواضع للفرقتين جميعاً ، غير متكبر على واحد منها ، غير تارك للغضب لله عز وجل والمجانبة لمن أمر بمجانبته والغضب عليه ، إذ لم ينس الخوف على نفسه ، خائف أن العذاب واصل إليه ، ولعله شر من يرى وسينجو ويختم له بنجر الأعمال .
ألا ترى إلى حديث : أن عابداً كان يتعبد فى جبل ، فأثى فى النوم فقبل له : لايت فلاناً الإسكاف فأسأله أن يدعو لك ، فأثاه فأسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويتكسب

فيتصلق ببعضه ويظم عياله ببعضه ، فرجع وهو يقول : إن هذا الحسن ، فأما كالفرغ لطاعة الله عز وجل فلا ، فأق في النوم فليل له : ليت الإسكاف .. فأسأله قتل له : ما هذا الصغار في وجهك ؟ فأناه فسأله ، فقال له الإسكاف ، مارفع لى أحد من الناس إلا ظننت أنه سينجو وأهلك أنا ، فقال له العابد : بهذه نجوت .

وبهذا وصفهم الله عز وجل ، فقال :

(يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)^(١) .

ولم يصفهم بالإشفاق والخوف على غيرهم ، وهل يبلغ أحد من البراءة من الذنوب ، ودوام الدروب والاجتهاد ، بغير فترة ولا سامة ، ما بلغت الملائكة ، وقد أخبرنا الله عنهم : أنهم يسبحون الليل والنهار ولا يفترون ، وأنهم من خشية ربهم مشفقون ، فتى زایل الإشفاق والوجل قلبك ، ونظرت إلى غيرك بالازدراء ، والحقرة والأنفة منه ، وأنت خير منه ، من غير حذر ولا خوف لسوء العاقبة ، وسابق العلم ، أو رددت عليه حقاً أنفاً أن تقبل منه ، أو منعه حقاً يجب له عليك ، كصلة رحم وغيره ، أنفاً أن تأتيه أو تعلم أنه لك قريب ، ازدراء به وأنفاً منه ، فقد تكبرت عليه ، ومتى ذكرت نعمة الله عز وجل ، التي عصمك بها مما أتى غيرك من الذنوب ، وأنت غير تارك للوجل والإشفاق ، خائف على نفسك ، لاتقطع لك بالنجاة وعليه بالهلاك ، وأنت مع ذلك غضبان لله عز وجل ، بجانب له ، فقد نجوت من الكبر ، وقت بما أمرت فيه ، ولم تنس النعمة عليك ، ولكن أخاف عليك أن تُخدع بذكر النعمة ، فتتظير إليه وأنت لاتكاد تشك أنك الناجى وهو المالك ، وإن جلس إليك أو قاربك في موضع جانبته ، تريد التزاهة والغضب لله عز وجل ، وأنت مع ذلك معظم لنفسك ، تأنف من مثله أن يقارب مثلك ، وأنت خير منه ، لاتذكر الخوف على نفسك ، كأنك لاتشك أنه مغضوب عليه وأنت مرضى عنك ، ناجر لا محالة ، فتجمع نزاهة الدين وكبراً ، فتخدع باسم الغضب لله عز وجل والتزاهة ، فتتكبر وأنت لاتعلم .

ألا ترى إلى قول عون بن عبد الله ، ووصف المؤمن فقال : ليس دنوه خدعة ولا خلافة . ولكن دنوه ليغم^(٢) ، ولا تأيه^(٣) عمن نأى عنه كبراً ، ولكن نزاهة منه ليسلم .

(٢) أى ابتعاده .

(١) ٢٣ : ٥٧ .

(٢) ليغم ثوباً أو ليغم رضا الله .

٣٣٧

فاحذر العدو ان يزئِن لك البرّ ليلقيك في الإثم ، أو يَمِنَ الله عز وجل عليك بطاعته فيحسدك العدو عليها ، فيزئِن لك إنمّا يخلط به الطاعة . فتكون حينئذ غير شاكر لما من به عليك من طاعته ، فاحذر إذا ذكرت النعمة التي فضّلت بها عليه أن تجمع مع ذلك كبراً ، فاذكر النعمة وأنت من العواقب مشفق وجل . ولنفسك بما خالفت مولاك مستصغر مبغض ماق

باب في بيان الكبر على أهل البدع وغيرهم من أهل الكفر والشرك

قلت : قد تبين لي كيف أجنب الكبر في أهل المعاصي من المسلمين ، فأخبرني عن أهل البدع الذين يتدينون بغير السنّة ، ويضلونّ العباد عن الله عزّ وجل . أعداء لسنن رسول الله ﷺ . همّهم إطفاء نورها وإحياء الضلالة ، ومذلة أهل الحق وإعزاز أهل الافتراء والكذب ، بالتأويل على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ .

قال : إن أهل البدع يجب عليك البغض لهم والمجانبة لإلّا من وجب له عليك حقّ توديه إليه فتؤدّيه إليه وقلبك له مبغض ومنه نافر ، كائن من كان إلّا أن قلبك لا ينسى ما في رقبته من الذنوب وما تقدم فيك من علم . علام الغيوب ، بالشقاء أو السعادة أو سوء الخاتمة ، وتعلم مع ذلك أن الله عز وجل قد فضلك عليهم ، بما عصمك منه : من التدين بأديانهم غير غافل حتى تقطع أنك خير منهم في الآخرة ، ترى أنك ناج وهم هالكون قد غيّب الله عز وجل عنك العلم فيك وفيهم ، لا يدري أحد منهم على أي حال يموت ، وعلى أي حال تموت ، ولعله أن لا يغفر لك ولا له فتدخل النار جميعاً ، فإذا كان عاقبة أمرك دخول النار فعندك شغل عن استصغاره والظنّ في نفسك أنك خير منه ، فإذا دنت الله عز وجل ببغضه وخالفته ، وعلمت ما من به عليك مما عصمك مما يدين ولم يغفل قلبك حتى يغلب عليك أنك ناج وهو هالك ، فقد نجوت من الكبر ، وإن غلب على قلبك أنك ناج وهو هالك ، فقد تكبرت في نفسك واغتررت بربك عز وجل .

فهذا بيان ما سألت عنه من الكبر ، ونفيه عنك في أهل البدع . قلت : إن أهل البدع وإن كانوا ضلالاً فهم معتقدون للتوحيد ، ولكن رأيت من لاشك فيه أنه عدو الله عز وجل ، كافر به ، إن مات على كفره فهو في النار ، لا يرحمه الله عز وجل أبداً ، لا يمتنع قلبي من أن أعلم أني خير منه ، وأنه هالك لا محالة ، وأنه ليس عنده من الخير مما يرضى الله عز وجل به ، أو يقبله مثقال خردلة ، وأنه لاحسنه له عند الله عز وجل في الآخرة . قال : هو كما ذكرت إلّا أن يمين الله عز وجل عليه بالتوبة ، فإن من الله عز وجل عليه بالتوبة

قبل الموت قاله أحق بالفضل عليه ، وإن لم يمن الله عز وجل عليه بالتوبة فهو الظالم الخاسر ، فأما الكبر على أحد من الناس فلا يجوز لك : ولكن لك ولكل مسلم جائر - بل هو فضل وخير وقربة إلى الله عز وجل - أن تعلم أن الله عز وجل فضلك عليه ، وأنه لا خير عنده ، وأن الحكم عليه من الله عز وجل بالعداوة والغضب ، إلا أنك قد غيَّب الله عز وجل عنك عاقبتك وعاقبته على ما يموت وعلى ماتموت ، فعليك - وإن كنت عارفاً بضلالته وكفره ، وأن الله عز وجل فضلك عليه بأن عصمك من كفره ومنَّ عليك بتوحيده ، أن تكون شاكاً في عاقبة أمر لا تدري على أى حال تموت وعلى أى حال يموت هو ، وأن تكون خائفاً من العواقب التي ينتج بها العمل للعباد ، فأنت لا علم لك لعله يموت أعبد أهل زمانه ، وتموت أنت أكفر أهل زمانك ، فكان لذلك متخوفاً .

ومما يدلُّك على ذلك : أن الله عز وجل ابتعث نبيه ﷺ أفضل ما صلى على أحد من خلقه - فأجابه في أول مادعى إلى توحيده قوم ، وتأخر عن الإجابة آخرون ، فكان ممن أجابه أبو بكر وعلى وبلال وخباب رحمة الله عليهم وغيرهم ، وعمر وغيره كفار ، وقد كان ممن أسلم مع النبي ﷺ : مثل عمرو بن عبسة وبلال وغيرهما ، ينظرون إلى عمر ، ويعرفون أنه ضال كافر ، لا يدرون بم ينتم له ، فوهب الله له الإسلام حتى فاق كل من أسلم قبله إلا أبا بكر وحده ، فلم يكونوا يعلمون ما يكرمهم الله عز وجل به ، وكانوا مؤمنين وكان هو كافراً ، ثم أسلم ففضلهم وكذلك غيره ممن تقدم إسلامه وتأخر إسلام آخر بعده إلى عصرنا هذا .

وقد ارتد قوم أسلموا على عهد النبي ﷺ فقتلوا كفاراً يوم الردة ، وأسلم من كان كافراً وهم مؤمنون ، فحسن إسلامهم ، ثم قتلوا مؤمنين شهداء .

فإذا كنت متخوفاً على نفسك العاقبة والخاتمة ، لا يغلب على قلبك نجاتها ألبتة ولا أنه ميت على كفره ، فقد نفيت الكبر ، ولم تغتر ولم تأمن على نفسك من التخيير والزوال اللذين يورثانك العذاب .

كتاب الغيرة

باب الغرة بالله عز وجل

قلت : ما الغرة بالله عز وجل ومم تكون ؟

قال : إن الغرة بالله عز وجل تكون من الكافرين ومن العاصين من المسلمين ومن الديانين النساك ، وكل من اغتر بشيء من الأشياء فقد ضيع أمر الله عز وجل ، وقل حذره منه وخوفه فالغرة بالله عز وجل إما هي خدعة النفس بصنع الله عز وجل بالعبد ، أو باسم رجاء الله عز وجل ، أو ببعض العبادة والعلم ، فيغتر كثير من العباد ببعض ذلك ، حتى يعصى الله عز وجل ، وهو يرى أنه من المحسنين ، أو يكفر بالله تعالى وهو يرى أنه من المهتدين ، أو يغتر فيعصى على علم وهو يرى أنه مغفور له ناج لا يعذب ، فأما الغرة من الكافرين فهي خدعة من أنفسهم وعدوهم بظاهر الدنيا عن الآخرة .

قلت : فم يغتر ؟

قال : إن الغرة غرتان : غرة بالدنيا عن الآخرة ، وغرة بالله عز وجل وبالآخرة فأما الغرة بالدنيا عن الآخرة فإثارة الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة ، وهو قول الله عز وجل :
(فَلَا تَعْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ^(١)) .
وقول الله : (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ^(٢))

قلت : عن الغرة بالله عز وجل أسألك ، وما الذي يغتر به العباد ؟

قال : أما ما اغتر به الكافرون عن الله عز وجل ، فهو ما رأوا من فعل الله عز وجل بهم : من إكرامه لهم بالدنيا ورفعته وسعته ، فظنوا بذلك أن ذلك لم يكن من الله عز وجل إلا لمتزلتهم عنده ، وأنهم أحق بالخير من غيرهم ، ثم هم بعد ذلك على وجهين : فرقة منهم شكك في الآخرة يقولون في أنفسهم وبألسنتهم : إن يكن لله عز وجل معاد فنحن أحق به من غيرنا ، ولنا فيه النصيب الأوفر ، اغتراراً بما ظهر لهم من خير الدنيا وكرامتها ، ألا تسمع ما حكى الله عز وجل عن

(٢) ٣ ١٨٥ .

(١) ٣١ : ٣٢ .

الرجلين اللذين تحاورا ؟ فقال الكافر منها للمؤمن المحاور له :

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) .

أى : لا أوقن بأن الله عز وجل بعثاً وثواباً وعقاباً ، فإن كان فإن لى عنده خيراً مما أعطانى فى الدنيا ، غرة بالله عز وجل ، وظناً أن الله عز وجل لم يكرمه فى الدنيا إلا وهو كريم عليه ، فإن كان الله عز وجل بعث ودار فيها ثواب وعقاب ، فسيجيره من العقاب ، ويكرمه فى الآخرة كما أجاره من الفقر والضيق فى الدنيا ، فحاور المؤمن الكفار بذلك .

وفى التفسير لما كان بينهما قصة طويلة - وهما فيما يروى فى التفسير اللذان قال المؤمن منها فى الآخرة : «إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين؟ !» إلا أن المحاور كانت بينهما فى جملة أمرها : أن الكافر بنى قصرًا بألف دينار ، واشترى بستانًا بألف دينار ، وخدمًا بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار ، وفى ذلك كله يعظه المؤمن ، ويقول له : اشتريت قصرًا يخرب ويفنى ، ألا اشتريت قصرًا فى الجنة ، واشتريت بستانًا يخرب ويفنى ، وخدمًا يموتون ويفنون ، وتزوجت زوجة تموت وتفنى ، ألا اشتريت بستانًا لا يفنى ، وخدمًا لا يموتون ، وتزوجت زوجة لا تموت ؟ !! وفى كل ذلك يرد عليه الكافر : ما هناك من شىء ، وإن كان ليكون لى فى الآخرة خير من هذا . وكذلك وصف الله عز وجل لنا قول العاص بن وائل ، إذ يقول : (لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا) قال الله عز وجل : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَحَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ؟)^(١) .

روى عن خباب بن الأثر أنه قال : كنت رجلاً قيناً^(٢) وكان لى على العاص بن وائل دين ، فبحثت أتعاضاه فلم يقضنى ، فقلت إنى آخذ منك فى الآخرة ، فقال لى : إذا صرت لى الآخرة فإن لى هناك مالا وولداً ، فأقضيك منه ، فأنزل الله عز وجل : (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا)

فاغتر الكافر بالله عز وجل ، وظن أن الله عز وجل لا يعذبه فى الآخرة .

وقال الله عز وجل :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ

إلى رَبِّى إِنَّ لى عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى)^(٣) .

قال ابن جريج عن مجاهد : ليقولنَّ هذا لى بعملى وأنا محقوق بهذا يغترُّ بما أذاقه الله عز وجل : من رحمته فى الدنيا ، ألا تسمع الله عز وجل يقول عن قول المغترين بإنعام الله عز وجل عليهم فى الدنيا :

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ^(١))

أى أن الله عز وجل أنعم علينا بنعمه لكرامتنا عليه ، فهو لا يعذبنا ، وقالوا : لو كان خيراً ماسبقونا إليه ، ويغترون أيضاً بما فضلهم الله عز وجل بنعم الدنيا على غيرهم ، فيرون أن ماخص الله عز وجل به أهل الإيمان أنه لو كان عند الله هدى ماوقف الضعفاء له وتركهم ، فيغترون ، ويحانبون الهدى ، أن لو كان هذا هدى لكنا نحن أحق أن نؤتاه ممن هو دوننا .

ويغتر الكافرون بنعم الله عز وجل فى الدنيا فلا يرون أن الله عز وجل أخذهم بعقوبة فى الدنيا ، وأنه إنما أعطاهم ما أعطاهم من الدنيا لما علم منهم من الخير ، وأنهم عنده بالمرتلة العظمى ، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل إخباراً عن مقال قارون وموسى عليهما السلام : يخوفه بأس الله عز وجل فقال :

(إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي .)

قال قتادة : على خير عندى ، قال الله عز وجل :

(أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ^(٢))

أى لم يمنع الله عز وجل ما أعطاهم من نعيم الدنيا ، إذ لم يطيعوه ، أن يعذبهم ، فلم يعلم قارون أن الله عز وجل قد فعل ذلك بغيره ، وذلك من الله عز وجل استدراج لمن أراد أن يهلكه ويعذبه ليغتر بنعم الله عز وجل .

ألا تسمع إلى قوله عز وجل : (سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ^(٣)) .

قيل فى التفسير : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة .

وقال : (فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ^(٤)) .

وقال فى قارون : (إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي .)

قال سبحانه : (بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ)

ثم قال : (قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^(١))

فأخبر أن الدنيا فتنة ، بلوى واختبار ، وأنها ليست بدليل على رضا الله عز وجل عن العباد ؛
لم تسمع قوله تبارك وتعالى :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) .

إلى قوله : (رَبِّي أَهَانَنِ ^(٢))

قال الله عز وجل : كلاً ، قال الحسن : كذبتها جميعاً يقول : ليس هذا بكرامتي ولا هذا
بهواني ، ولكن الكريم من أكرمه بطاعتي على أي حال كان : فقيراً كان أو غنياً ، والمهان من
أهنته بمعصيتي على أي حال كان ، فقيراً كان أو غنياً ، فاعتز الكافرون بظاهر نعم الله عز وجل ،
وظنوا أن ذلك من كرامتهم على الله عز وجل ، وكذلك وصفهم فقال :

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ^(٣))

وقال الحسن : إن المنافق أساء وتمنى ، وإن المؤمن أحسن وأشفق ، ثم قرأ :

(وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنَى ^(٤))

وقد يعزى ذلك كثيراً من المسلمين ، حتى يحيل إليه أنه إذا وسع الله عليه في الرزق ، فإنه
لعمل صالح عمله ، فكفرى به ، وأن الله تعالى يحبه ، فلذلك وسع عليه ، كما وصف به ابن
آدم ، فقال :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) .

فقد شارك المسلم المغتر بذلك الذي يظن أن ذلك كرامة له من الله عز وجل وأنه بمنزلة له عند
الله عز وجل ، الكافرين في اغترارهم ، وإن لم يشك في البعث والحساب .

ويعتز الكافر أيضاً باستسجار العقوبة عنه ، وإن خوفها لم يخف ، فيظن أن العقوبة لم تتأخر عنه
وهو أهل أن يعاقب ، وأنه على الحق .

قال أبو جهل : اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة قال الله عز وجل :

(وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) .

(١) ٥٠ . ٣٩

(٢) ١٦ . ٨٩ . ١٥ . وآما إذا ما ابتلاه فقد ربه عليه ربه يقول ربى آهاس .

(٣) ٥٦ . ٥٥ . ٢٣

(٤) ٥٠ . ٤١

٣٤٧

ومن ذلك أن قارون دعا موسى عليه السلام إلى أن يلاعنه ، فخرج ، فبدأ قارون فلم يُجب . ثم دعا موسى فأجيب ، فدعا قارون موسى إلى الملاعة اغتراراً بالله . والفرقة الأخرى من الكفار يغترُّون بما زَيَّن لهم من سوء أعمالهم ، بعبادات يعبدون بها غير الله عزَّ وجلَّ يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فالغرة من الكافرين خدعة من النفس ، بالظن أن له عند الله عزَّ وجلَّ قدرًا لما أكرمه به من الدنيا أو عمل ضلال يحسبه هدًى .

باب الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم

قال : وأما الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم فهي خدعة من النفس والعدو ، يذكرون الرجاء والجلود والكرم ، يُطَيِّبون بذلك أنفسهم ، فيزدادون بذلك جرأة على الذنوب ، فيقيمون على معاصي الله عز وجل ، يظنون أن ذلك رجاء منهم ؛ كما قال وهب بن منبه لابنه : يا بني إياك والغرة بالله عز وجل ، فإن الغرة بالله عز وجل المقام على معصيته وتمنى مغفرته ، فيقيمون على المعاصي ويتمنون المغفرة والرحمة ، ويظنون أن الذي طيب أنفسهم الرجاء ، وإنما طيب أنفسهم الغرة ، فتمنوا وظنوا أن ذلك منهم رجاء لرئهم عز وجل ، وإنما أمكن أحدهم ذكر للرجاء ، حتى ظن أنه رجاء للتوحيد ، أو لذكر آباء صالحين مع التوحيد أو عمل ضعيف ، فيغتر بذلك الرجاء ويظن أنه رجاء ، فيقيم على المعاصي طيب النفس ، غير نادم ولا مقلع ، لا يشك أن ذلك رجاء منه لرئ عز وجل فيطيب نفسه بذلك ، فيقل حذره وخوفه من الله عز وجل ، ولو كان ذلك رجاء لقد كان وُضع الرجاء في غير موضعه ، وذلك الرجاء الكاذب .

فألغرة من الموحد خدعة من نفسه يتمنى المغفرة مع المقام على المعصية ، وذلك الرجاء الكاذب يظنه منه رجاء صادقاً ، كما قال سعيد بن جبير الغرة بالله عز وجل المقام على معصية الله عز وجل وتمنى مغفرة الله عز وجل .

باب التمييز بين الرجاء والغرة

قلت : بين لى الرجاء من الغرة ، حتى أعرف أحدهما من الآخر .
قال : الرجاء لله عز وجل في معنيين ، أحدهما حسن الظن بالله عز وجل حيث وضعه الله عز وجل ، لأن رجاء المذنبين من عباده ألا يقنطوا ، وأن يتوبوا إلى ربهم من ذنوبهم ، قال الله عز وجل :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ)
إلى قوله تعالى : (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا^(١) لَهُ)

وقال : (وَأَنِيبُوا لَعَفَا لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى^(٢)) الآية .
وقال : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ : أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ^(٣)) .
قال عكرمة : نزلت في عمر رضى الله عنه ، حين كلم عتبة بن ربيعة وغيره من المشركين أبا طالب : أن يكلم النبي ﷺ : أن يطرد بلالا وعمارا وغيرهما فقال عمر للنبي ﷺ : لو طردتهم حتى ننظر ما يريدون ، فلما نزلت :

(وَلَا تُطْرِدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ^(٤)) الآية

جاء عمر يعتذر من مقالته ، فنزلت :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) الآية .

فرجى الله عز وجل العبد المغفرة على التوبة ، وإن عظمت ذنوبه وكثرت ، ألا يمنعه كثرة ذنوبه وعظمتها أن يتوب إلى ربه عز وجل ، ولا يخاف خوفاً يقنط معه حتى يقول : لا يغفر لى ولا يقبل توبى ، فيقيم على المعصية خوفاً ألا يقبل له توبة ، فيزيده قنوطه مقاماً على المعاصى ، فيزداد بقنوطه معصية إلى معاصيه ، لأن القنوط معصية لله عز وجل ، يمنع من التوبة عن المعاصى

(٣) ٦ : ٥٤ .

(٤) ٦ : ٥٢ .

(١) ٣٩ : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) ٢٠ : ٨٢ .

ويزداد به العاصي عصياناً ؛ كما قال عبد الله بن سعود : « الكبائر أربع أحدها القنوط من رحمة الله عز وجل » .

فرجى الله عز وجل العاصي من عباده المغفرة على التوبة : ألا يقنطوا من أجل ذنوبهم ، فیدعوا التوبة إلى ربهم عز وجل ، وينقطعوا عن طاعته ، فهذا أحد المعنيين .

ورجى الجنات والمنازل العالية والقرية منه عز وجل في درجات العاملين له من عباده ، فقال عز من قائل :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) .

إلى قوله عز وجل : (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ)^(١) الآية .

وقال عز وجل : (وَلَنَّمَا تُؤَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(٢))

فأخبر أن الجزاء والثواب أجور العمال على الأعمال ، ليرجوا ذلك الجزاء ، فيعملوا تلك الأعمال رجاء أن ينالوا ذلك الثواب .

ثم أخبر أنهم الراجون دون المغترين ، فقال عز وجل :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ)^(٣))

فأخبر أن العاملين هم الراجون رحمة الله تعالى لا المغترون .

فالمغتر بذكر الرجاء يظن أن الغرة منه رجاء ، فيقيم على معاصي الله عز وجل ، ويظن ذلك

حسن الظن منه ، وليس ذلك بحسن ظن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة .

وقيل للحسن : إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ويضيعون العمل ، فقال : هيهات هيهات .

تلك أمانهم يترجحون فيها ، من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه

ودخل رجل على مسلم بن يسار ، فقال مسلم : لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي .

فقال الرجل : إنا نرجو الله عز وجل ، فقال مسلم : هيهات هيهات من رجا شيئاً طلبه ومن خاف

شيئاً هرب منه .

فالرجاء هو ماهاج من الطمع والأمل في الله عز وجل ، فسحا نفس العاصي بالتوبة وحال بينه

وبين القنوط ، وبعث العبد على الطاعة لله عز وجل ، والتشمير والاجتهاد ، رجاء ما وعد

العاملين ، والغرة خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد ، أو بالآباء الصالحين ، أو بعمل قليل ضعيف ، فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهون عليه ذنوبه ، لظنه أنها مغفورة ، فيتمنى المغفرة فيقيم عليها ولا يتوب ، فهذا فرق ما بين الغرة والرجاء ، وذلك موجود في فطر العباد في دنياهم : أنهم إذا ضيعوا العمل عدلوا أنفسهم وعدلوه منهم تفرطاً ، فإن قعدوا عن الأعمال وهم يظنون أنهم يعطون الأجر عدلوا ذلك من أنفسهم حمقاً وغرّة

قلت : فأين أضع الرجاء حتى لا يكون غرّة ؟

قال : إن الله عز وجلّ خوّف العاصين بغضبه وعقابه ، ليخوفوا أنفسهم بما خوّفهم فيتوبوا إلى ربهم ، ورجى الله عز وجلّ التائبين من عباده على تركهم الذنوب ، لئلا يقنطوا فيقيموا على ذنوبهم ، ورجى العاملين ليعتكم الرجاء على الأعمال التي تقرب إليه .

فعلى المؤمن بالله عز وجلّ العاقل عنه أمره ، أن يضع الخوف حيث وضعه الله عز وجلّ ، فإذا همّ بمعصية خوّف نفسه ما خوّفه الله عز وجلّ به من عذابه ، فإن غلبه هواه فأتاها فأبت نفسه إلا المقام عليها ، خوف نفسه بما خوّفه الله عز وجلّ : من غضبه وعقابه ، ليدع المعصية ويتوب منها بعد ركوبها ، فإذا همّت نفسه بمعصية أو عصت فأبت إلا المقام على العصيان ، عاتب نفسه وقال لها : إن الله شديد العقاب ، وإن غضبه لا دواء له ، وإن عذابه لا صبر عليه فخوّف نفسه بما خوّفه الله ، حيث أمره أن يخوّف نفسه ليقطع ويتوب ، وإذا أراد التوبة فعارضه القنوط الصاد له عن التوبة ، ذكرّ نفسه الجود والكرم ، فرجّأها عفو الله عز وجلّ وكرمه وفضله ولطفه ورأفته ورحمته ، وما وعد التائبين : أنه : « غفار لمن تاب وآمن » ، وأنه غفور رحيم لمن أناب إليه .

ألا تسمع قوله لولد سبياً :

(كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ^(١))

فعضمت علينا بذلك النعمة إذ أخبرنا الله عز وجلّ أنه رب غفور ، وإذا قلنا عثراتنا . وبسط لنا التوبة ، ووعد عليها المغفرة ، أرايت أن لو كان يأخذنا بأول ذنب أو لا يقبل منا توبة بعد مرة أو بعد مرتين أو بعد ثلاث مرّات ، فإن الناس أكثر ما يردّون العذر والتوبة من بعضهم على بعض بعد ثلاث مرّات ، أن يقول أحدهم للآخر قد عفوت عنك ثلاث مرار ، أو أقللتك ثلاث مرار . فلا أكثر من ثلاث ، فلو كان ربنا عز وجلّ كذلك ما هنا عيش . ولكن لو أذنب عبده ألف ذنب

يعود فيه ألف مرة ، ثم تاب توبة نصوحاً يعلم الله عز وجل صدقها من قلبه ، غفر له ماضى من ذنوبه ، ولم يعذبه بما سلف من جرمه ، فيذكر الجود والكرم وسعة العفو والرحمة : إن عارضه قنوط عند إصابة الذنب ، ليقطعه عن العمل بالطاعة عارضه بالرجاء للمغفرة والقبول . لسعة رحمة الله عز وجل ، ولما رجاى التائبين من عبادته ، ولما حرّم من الايأس عن التائبين المذنبين والمصرّين من الموحّدين أن ينقطعوا بالقنوط عن العمل ، ويكتسبوا بالقنوط ذنباً ، مع تضييعهم لطاعة ربهم عز وجل ، كما قال ربنا عز وجل :

(وَلَا تُقْنُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) .

قال البراء بن عازب : هو الرجل يذنب الذنب العظيم فيقول : لا يغفر لى ، فيمسك عن النفقة في سبيل الله عز وجل ، فنها عن ذلك ، فإذا ذكر نفسه العقاب عند الذنوب ، تخويفاً لها ليتوب من الذنوب ، وذكرها الرجاء عند التوبة ، ليردع نفسه عن القنوط . وتسخر بالتوبة لرجاء المغفرة عند اعتراض القنوط القاطع عن العمل أنه لا يتقبل منه ، فرجا القبول وغفران الذنوب . نسخا بالتوبة نفساً وبالعمل ، الرجاء والرحمة والعفو والصفح والتجاوز ، فقد وضع الخوف والرجاء بالموضع الذى وضعها الله عز وجل به . وأدّب نفسه بأدب الله عز وجل فى كتابه . ولم يغتر ولم يقنط من رحمة ربه عز وجل .

ومن قلب هذين المعنيين : من الخوف والرجاء ، وذكر الرجاء عند الذنوب ، ونسى الخوف والحذر ، فطّيب نفسه بذكر الرجاء ، فقلّ خوفه وزال حذره . فأقام على المعاصى متمنياً ، فذلك المغتر بالله عز وجل . المتأدب بغير أدبه ، والواضع الرجاء فى غير موضعه . والتارك لاستعمال الخوف فى موضعه عند الحاجة إليه ، فهذه صفة المغترين من العاصين الموحدين .

وإنما مثله فى ذلك مثل عبد له مولى ، إذا عاقب مملوكه عاقبه بأشد العقوبة وأعظمها . وهو مع ذلك رحيم عظيم الرحمة ، يعفو كثيراً ، ويعاقب فيبالغ فى العقوبة ، فعقوبته على قدر عفوّه ، فقال لعبده مع عظيم هذا الخطر : إن أنت أتيتنى غدا يوم السبت رضىت عنك ، وأعطيتك من المال كذا وكذا ، وأعتقتك وزوّجتك وأخدمتك ، وإن تأخرت إلى بعد غد ، يوم الأحد ، فأتيتنى يوم الأحد لم أعطك ، من ذلك شيئاً ، وغضبت عليك وعذبتك عذاباً شديداً ، وسجّنتك سجناً طويلاً ، فعرضت للبعد لذة . إن أصابها اشتغل عن مولاه أن يأتيه يوم السبت وتأخر الذهاب إلى يوم الأحد ، فاشتغل بلذته ، ورجّى نفسه عفو مولاه ورحمته ناسياً مع ذلك شدة عقوبته . وإن ذكرها ذكرها بغير تعظيم ذكرها لا يمنعه عن الشغل يوم السبت وتأخير الذهاب إلى يوم الأحد ، لما

غلب على قلبه ، من حلاوة لذته ، فآثر إصابته لذته على طاعة مولاه ، في إتيانه يوم السبت الذى وعده فيه بالرضاء والثواب ، فأخر الذهاب إليه إلى يوم الأحد ، لئلا تفوته لذته ، وقد علم أنه قد توعده إن أتاه يوم الأحد أن يغضب عليه ، ويحرمه ما وعده ، ويعاقبه بأشد العقوبة . فتشاغل يوم السبت بلذته ، وهو طيب النفس بما تذكره نفسه من الرجاء ، فقد قطعه ذكر الرجاء عن خوف العقوبة ، تاركاً للذهاب في اليوم الذى وعده فيه الثواب ، ويرجو الثواب والعفو مع التأخير للذهاب في اليوم الذى توعده فيه بالغضب والعقاب ، وهو ناس للعقوبة ، تارك للذهاب ، لينجز ما وعده من الثواب في يوم السبت ، متمن لعفوه ، يقول لنفسه اذهب يوم الأحد ، فيعفو عني مولاي ويرضى ، ويعطيني ما وعدني من المال ، ويزوجني ويختمني . قد أنساه هذا الذى تُرجيه نفسه خوف مولاه وحذره ، ولم يترك لذته القاطعة له عن طاعة مولاه . ألم يك هذا مغروراً بنفسه ، مخاطراً ببدنه ، تاركاً للوثيقة والاحتياط لنفسه ، معرضاً نفسه لهلكتها ، مضيقاً لطلب رضا مولاه وتنجز ثوابه ؟

وكذلك لو قال له مولاه : إذا عملت كذا وكذا محكما تاماً أعطيتك ألف دينار ، وإن أفسدته لم أعطك شيئاً وضربتك ألف سوط ، فترك إحكامه للذة شغلته ، وأفسده على عمد للذة آثرها ، لا ينالها إلا بفساد ذلك العمل ، فآثرها وهو يعلم أن العمل يفسد ، كراهة الشغل عنها بإحكام ذلك ، أو كراهة تحمل مكروه : من تعب على بدنه ، أو قلة في غذائه . وهو مع ذلك طيب النفس ، يطيبها ويرجئها ألف دينار غير خائف لما توعده به من ضرب ألف سوط ألم يك مغروراً قد غرته نفسه ، فوضع الرجاء في غير موضعه ، وأزال الخوف الذى يبعثه على طاعة مولاه عن موضعه ، ولم يضع وعد مولاه وتوعده كل واحد منهما في موضع ينتفع به .

فكذلك المغتر بالله عز وجل ، أقام على ما أوجب عليه حرمان جواره والحلول في عذابه . طيب النفس راجياً للثواب ، غير خائف من العذاب ، أليس هذا مغترّاً مخاطراً بنفسه ؟ وإن كان مولاه عظيم العفو قد يفعل ذلك له وقد لا يفعل ، ألم يك قد اغتر وخاطر بنفسه . وغرته نفسه وخدعته ، لأن العقاب في الحكم عليه يقين لاشك فيه ، والرجاء للمغفرة من غير توبة مع الإصرار شك لا يقين فيه ، فهو تارك للوثيقة ، مغرر بنفسه ليس لها خلف : لا يأمن أن يبدو له من الله عز وجل غير ما يحتسب ، وذلك أن الذى وجب عليه لا يشك فيه ، كما وصف الله عز وجل المغترين . فقال :

(وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالَمَ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ^(١))

قيل في بعض التفسير : أعمال كانوا يرون أنها خيز قصارت شراً ، فذلك رجاء كاذب . قلت : أليس الرجاء مبسوطاً للموحدين وإن عظمت ذنوبهم ، والإيأس محرم عليهم ؟ قال : أجل ، وليس هذا موضعه الذى وضع فيه ، ولكنه موضع خوف من الله وقد يكون العبد عاصياً مغترأ ، فإن عارضه القنوط قعه بالرجاء ، من أجل التوحيد ، فقمع به القنوط الذى هو معصية لمولاه ، لئلا يجمع معصية وقنوطاً فيكونا ذنبين ، فإن طيب بعد ذلك نفسه بذكر الرجاء ، فجزأه على المقام على معاصى الله عز وجل ، فقد اغترأ بالله عز وجل لأن الله عز وجل جعل الرجاء مزيلاً للقنوط الذى يمنع من التوبة ، والعمل ، باعثاً على الطاعة والقرية إليه ، وجعل الخوف مانعاً من الأمن والاغترار ، مزيلاً عن الإقامة على الذنوب ، مانعاً لمواقععتها عند الهم بها .

ألم تسمع إلى قوله عز وجل :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ^(٢))

فالخوف مانع من الذنب قبل مواقفته مهيج على التوبة بعد إصابته .

فهذا فرق ما بين الرجاء والغرة بالله عز وجل .

ولقد أعلمنا الله عز وجل على لسان النبي ﷺ أن الغرة تشتمل في آخر الزمان على آخر هذه الأمة ، بذكر الرجاء في غير موضعه ، فذمهم النبي ﷺ بذلك ، وأخبر أن ذلك عند ذهاب الحق وأهله ، وغلبة الباطل على آخر هذه الأمة ، رواه عنه معقل بن يسار أنه قال ﷺ : « يأتى على الناس زمان يخلق (أى يبلى) فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان ، يكون أمرهم كله طمعاً لا خوف معه ، إن أحسن أحدهم قال : يُتَقَبَّلُ مَتًى ، وإن أساء قال : يغفرلى » فأخبر ﷺ أن ذلك عند ذهاب الفهم والعقل عن الله عز وجل من قلوبهم حتى يخلق فيها فهم كتابه ، والأخذ فيه بأدبه ، يقلبون آدابه فيضعون الطمع موضع الخوف والإشفاق والوجل .

وبذلك وصف الله عز وجل النصارى في كتابه فقال - بعدما فرغ من إخباره عن بنى

إسرائيل - فقال :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) قال مجاهد : هم النصارى ، يأخذون ما أشرف لهم من الدنيا من حلال أو حرام يشتهونه ، يأخذونه ويتمنّون المغفرة وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه . وقال سعيد بن جبیر : يعملون بالذنوب ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، قال الذنوب .

وقال ابن عباس رضى الله عنه ألا يقولوا على الله إلا الحق ما يتمنون على الله عز وجل من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، يخبرك أنهم يغتفرون فيصيبون الذنوب . ويغفرون فيقيمون عليها ، ويعاودونها ، يرجون المغفرة ، يعدونها أنفسهم مع معاصي الله عز وجل . وعلى ذلك عامة عصاة المسلمين من غير قطع بالمغفرة ، ولكن غرة تطيب بها أنفسهم ، يظنونها رجاء صادقاً وهى غرة بالله عز وجل ، وخدعة عن طريق النجاة ، كما وصف المغترين من هذه الأمة أنهم إن أذنبوا قالوا ؛ يغفر لنا ، فلا يفزعون ، ولا يرهبون فيتوبوا ، وإن أحسنوا قالوا : يتقبل منا فلا يشفقون ، ولا يوجلون ، فزال الخوف عنهم ، فلم يخافوا عقوبة على ذنوبهم . ولم يشفقوا على إحسانهم فيحذروا على أعمالهم ، لتخلص بالقبول إلى ربهم عز وجل .

باب الغرة من أهل النسك وأصنافهم واختلافهم ، وغرة أهل العلم

قلت : فإلّا الغرة من أظهر النسك وعدّه الناس وعدّه هو نفسه من الديانين ؟ ..
قال : أولئك في الغرة أصناف مختلفون : فغتر بالعلم ، وغتر بالقليل من العمل ، وغتر
بالبصر بالحجاج والجدال ، وغتر بالستر والإمهال وغتر بالثناء من الناس والتعظيم منهم له . وغتر
بذكر آبائه الصالحين .

فأما المغترون بالعلم فهم فرق شتى على قدر منازلهم فيه .
- فمنهم فرقة تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل ، وتحيل نفسُ
أحدهم إليه وعدّوه أن مثله لا يعذب ، لأنّه من العلماء . وأئمّة العباد الحافظين على المسلمين
علمهم ، ويعمّي عليه أكثر ذنوبه ، فلا يرى أن مثله قبيحاً بلغ من العلم يرأى ولا يعجب ولا يتكبر
ولا يحسد ، وإنما يفعل ذلك الجهال الذين لا يعرفون العلم ولا يحفظونه . فيقلُّ خوفه وحذره من
عذاب الله عز وجل ويُعْطِلُ التفقّد لنفسه ، إذ كان يرى أن مثله لا يعمل بالأخلاق الدنية ، لأنّه قد
ارتفع بالعلم عن ذلك ، فلا يَنُتَمُّ نفسه ، فإذا لم يَتَمَّها لم يتفقّد من نفسه الأخلاق المذمومة عند
الله عز وجل ، ولم يحذرهما ، لأنّه إنما يتفقدها الجاهل ، فأما مثله فقد ارتفع بالعلم عن ذلك .
فيضمّر ما يكره الله عز وجل : من الرياء والعجب وغيره ، ويغتاب ويهمز ويلمز . ويتكبر على
العباد ، ويُسِيءُ بهم الظنَّ ، ويشمت بالمصائب والبلاء . وهو يرى أنه برىء من جميع ذلك ، إذ
لم يضع نفسه موضع التهمة ، فيتفقدها عند دعائها إلى ما كره الله عز وجل . فلو تفقّد نفسه علم
ذلك كله حين تعرض بالدعاء إلى ما كره الله . عز وجل . فهو يعدُّ نفسه من الورعين العالمين
بالله ، عز وجل ، وهو عند الله . عز وجل . من الفاجرين والجهال به . الذين لا يخافونه
ولا يحذرون عقابه .

وقد يعلم بعض هذه الفرقة بكثير من ذنوبه . فلا يفزعه ذلك ، ولا يرهّب من الله . عز
وجل ، من أجله . يرى أنه قد قام مقاماً من العلم لا يعذب مثله ، فهذه الفرقة الفاجرة من حفظ
العلم وأكثر روايته .

قلت فيمَ يَنْفِي ذلك ؟

قال ينفيه بمعرفته أن العلم حجة عليه ، وأن الله ، عز وجل . حَبَّلَهُ ما أعظم به عليه حجته ، وشَدَّدَ عليه به في القيامة المسألة ، فإن ضيَّعَ العمل فلم يَقم بواجب الحق لله ، عز وجل . ويترك ما نهى عنه في ظاهره وباطنه ، كان عند الله ، عز وجل ، أعظم وأشدَّ عذاباً من الجاهل ، وإنما جعل الله ، عز وجل ، العلم وعَلَّمَهُ عباده . ليعرفوا به ما أوجب عليهم وأحبَّ فيقوموا لله . عز وجل ، بذلك ، وليعرفوا ما حَرَّمَ الله ، عز وجل ، فيجانبوه ، ويعرفوا ربهم فيخافوه ، وجزيل ثوابه فيرجوه ، وعظيم عذابه فيحذروه . فإن لم يغلب الحذر على قلبه والخوفُ من الله . عز وجل . فهو جاهل في العلم ، لأن الله ، عز وجل . وصف العلماء بذلك فقال . عز وجل :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ^(١))

قيل في التفسير : أعلمهم بالله ، عز وجل . أشدَّهم له خشية .

وقال خالد الربيعي : فاتحة الزبور . ورأس الحكمة ، خشية الله عز وجل .

قال عبد الله : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن إنما العالم من خشى الله . عز وجل .

وقال عبد الله بن مسعود : كفى بخشية الله ، عز وجل ، علماً ، وكفى بالاعتزاز بالله جهلاً ، أى

أن العالم هو الخائف من الله ، عز وجل ، وأن المغتر هو الجاهل . حفظ العلم ورواه أو لم يحفظه .

كما قال في كتابه حين ذكر بلعم بن باعورا :

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ : إِنْ تَخَمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ)

قيل في التفسير : يقول الله عز وجل : سواء على هذا العبد : آتيتُه الحكمة أو لم أوتِه .

وقال داود ، عليه السلام : « إلهي ما علِّمُ من لم يخشك ، وما حكمة من ضيَّع أمره ؟ ! » .

فمن ضيَّع أمر الله ، عز وجل . بعد علم فهو جاهل بالله . عز وجل إذا كان أعظم جرأة من

الجاهل على الله ، عز وجل ، فلو كان هذا عالماً بالله . عز وجل ، لما اجتراً بأعظم من جرأة

الجاهل ، فلا علم للمغتر ، بل هو أشدُّ جهلاً بالله ، عز وجل ، من الجاهل الذي لا يعرف العلم

ولعله لو عرف كما عرف هذا المغتر الذي أكثر الرواية للعلم . ما ضيَّع أمر الله . عز وجل ، فهو شرُّ

من الجاهل .

كما روى عن أبي الدرداء . ويل للذى لا يعلم مرة . ولو شاء الله لعلمه ، وويل للعالم سبع

مرّات ، أى الحجة عليه أضعاف . وكذلك العذاب .
فإذا تذكر هذا وأمثاله حذر الله ، عزّ وجلّ ، وازداد مع العلم وجلا وحزنا ، كما قال
أبو الدرداء : من يزدد علما يزدد وجعاً .
وقال الله عزّ وجلّ :

(إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ..) إلى قوله (وَيَخِرُّونَ
لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ^(١)) .

وقال ، عزّ وجلّ : (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ^(٢)) .
فوصف العلماء من قبلنا ومن هذه الأمة بالوجل والإشفاق ، والدليل على ذلك : البكاء مع
سجودهم إذا تلى عليهم آياته ، وهى أعظم العلم وأشرفه وينبى اغتراره الذى عمّاه عن ذنبه حتى
ينخيل إليه أنه لا يعتقد مثله الأخلاق الممنومة عند الله ، عزّ وجلّ ، لما حفظ من العلم .
فينبى غرته بذلك : أن يعلم أن حفظه للعلم لن يميزه دون معرفة معانيه ، فيما دلّ عليه من
المحجوب لله ، عزّ وجلّ ، والمكروه ، حتى يعرف معانى العلم فى المحجوب لله . عزّ وجلّ .
والمكروه ، وأنه إن عرف معانيه لم يميزه معرفته بذلك دون القيام بما أوجب الله ، عزّ وجلّ ، بعد
معرفة به والانتها عما حرم الله ، عزّ وجلّ ، عليه ، فإن علم أن ذلك لا يميزه ؛ فالزّم قلبه طلب
معرفة معانى العلم ، وحمل نفسه بعد المعرفة على القيام بما أحبّ الله . عزّ وجلّ . وترك ماكره
الله ، تعالى ، عرف أنه معطل من معرفة معانيه دون القيام به ، فلم يغتر ، وعلم أن ما علم ، عليه
وبال . إذ شارك الجاهل فى جهله بعد معرفة العلم . وعظمت عليه الحجة ، إذ جهل معانيه بعد
علمه بحفظ تلاوته وروايته ، فهو أشدّ بلاء من الجاهل الذى لم يعرف تلاوة العلم ولا حفظ
روايته ، وقد شارك أيضا الجاهل فى تصحيحه السبل به بعد حفظه العلم .
فإذا ألزم قلبه انتفت عنه الغرّة بما حفظ من العلم ، واهتم بطلب معانيه ، والتفكر فيه .
والقيام به ، فلم يغتر بما حفظ ، وعدّ نفسه جاهلا بالعلم بعد حفظه له . وأسوأ حالا بمن لم يحفظه
ولم يدرسه ولم يروه

باب الغرة بالفقه

والفرقة الثانية : يغتر أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام ، وبالبصر بالفتيا والقضاء . فهو يغتر كغرة الحافظ بالعلم وأعظم غرة ، حتى لا يرى أن أحدا أعلم بالله عز وجل منه ، لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء ، فهو القائم للأمة بديها ، ومقرعها إليه ، ولولا مثله ضاع الدين . وما عُرف حلال من حرام ، واستصغر أهل الرواية والحفظ ، إذ لم يفقهوا الحلال والحرام . ويعلموا الحكم والقضاء ، فهو عند نفسه القائم بالدين دون غيره ، وأن الله عز وجل لا يعذب مثله ، وأنه لا يعتقد ما كره الله عز وجل ، لأن مثله لا يركن إلى ما كره الله عز وجل ، ولا يطعم الشيطان في مثله ، إنما يطعم فيمن جهل حلال الله وحرامه . فيغتر بذلك ، فيقل حذره من الله عز وجل ورهبته له ، وتعمى عليه أكثر ذنوبه مما لم يفقه عن الله عز وجل في تركها والقيام في حقه فيما أحل وحرم .

قلت : فيم ينفي ذلك ؟

قال : بمعرفة أن الفقه عن الله عز وجل فيما عظم من نفسه ، وأخبر به من جلاله وهيبته . ونفاذ قدرته ، وما وعد من ثوابه وتواعد به من عقابه . أعظم الفقه وأشرفه . وأنه لن ينفع الفقه في الحرام والحلال إلا بالفقه في ذلك . لأن من فقه عن الله عز وجل فيما أخبر من عظمته وجلاله ، وهيبته ، ونفاذ قدرته ، وملكه للأشياء في الضر والنفع دون غيره وما وعد من ثوابه وتواعد به من عقابه ، هاب الله عز وجل ، وأجله واستحياءه ، وعنده كأنه يعاينه ، لما فقه عنه من عظمته وجلاله وعظم ربوبيته ، ونما فقه عن الله عز وجل في وعده ووعيده ، حتى كأنه يشاهد الجنة والنار بقلبه ، أشتد خوفه من الله عز وجل ورهبته به . لما عاين بقلبه من أليم عذابه . وأشتد شوقه إلى جواره والقرب منه ، لما استقر في قلبه من عظيم ثوابه وكرم النعم في جواره . فحيثئذ يهاب الله عز وجل ويخافه فيترك كل ما فقه فيه من حرامه ويرجو الله عز وجل ويشتاق إلى جواره ، فيتحمّل كل مكروه في القيام بحقه الذي ينال به ما وعد من جزيل ثوابه . فهو تارك لما كره الله عز وجل ، عامل بما أحب الله عز وجل ، لما قر في قلبه من الفقه عن الله عز وجل . لأنه مزعج له عن كل ما كره مولا ، باعث له على القيام بحقه ، فإذا فقه في ذلك عرف أنه معطل من

الفقه ، وأنه إنما فقه فيما وجب عليه به الحجة . وأنه ليس من الفقهاء عن الله عز وجل لقوله سبحانه : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)

وأن الفقيه الخائف لله عز وجل كما قال تعالى : (قد فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقَهُونَ)^(١) وقال النبي ﷺ : « من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين » فمن أراد الله عز وجل به حيراً وفقه للفقه عنه والفقه فيما أحل وحرّم فخافه ورجاه ، فجانّب ما علم من الحرام ، وقام بما علم من واجب الحق لله عز وجل عليه ، ومن ضيّع حق الله تعالى وركب ما نهى عنه بعد معرفة به ، فلم يوفق للخير ، ولكن ابتلى بما عظمت عليه فيه الحجة ، واشتدّ عليه به البلاء ، وصار به من فجّار العلماء بالحكم والفتيا مع التعرض لغضب الله عز وجل .

وقد يطلب بما يفقه الدنيا لا الآخرة ، فإذا عرف ذلك لم يعد نفسه فقيها بغير خشية لله عز وجل كما روى عن الشعبي أنه قيل له : افتنا أيها العالم . يدلك هذا أنهم يعلمون أنه عالم بالفتيا ، فأجابهم : إن العالم من فقه عن الله عز وجل ما توعده به فخافه . وقال : إنما العالم من خشي الله

وقيل للحسن البصري : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك في شيء استفتي فيه . فقال لسائله . وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله والصائم نهاره الزاهد في الدنيا ، يخبرك أن الفقيه من فقه عن الله عز وجل فأزعجه ذلك إلى كل ما أحب ربه عز وجل حتى زهد في الدنيا فجانّبها بما فقه عن الله عز وجل في فئاتها . وشدة الحساب عليها . ونقصان من ركن إليها من أوليائته من الثواب . وعذاب من ركن إلى حرامها من أعدائه ، وفقه عنه ما أخبر به من دوام نعيمه وجزيل ثوابه ، فأسهر ليله وصام نهاره ورفض الدنيا ليناله .

وروى عنه أيضاً أن رجلاً سأله عن شيء فأفتاه فيه بفتيا ، فقال له الرجل : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال الحسن : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه يدارى ولا يمارى . ينشر حكمة الله عز وجل ، فإن قبلت حمد الله تعالى وإن ردّت حمد الله تعالى ، يخبرك أن الفقيه من فقه عن الله عز وجل فعظمه بقلبه ، وأيقن أنه لا نافع ولا ضارّ غيره ، فهان عليه شأن الخلق ، فلم يخفهم ، فبداهم ، فيكتم ما علمه الله من حكمته ، ولكن أظهرها ، فإن قبلت حمد الله عز وجل ، إذ أخذ عنه ما يؤجر فيه ووفق عباده لقبول الحق ولم يفرح لقيام المنزلة عندهم ، وإن ردّت حمد الله

عز وجل ، إذ وفقه لنشر الحق فأجره ، وإن رده الخلق ، لم يهتم لسقوط منزلته عندهم . ولا ذمهم ولا خافهم دون ربه عز وجل . قائم بما عليه حامد له على كل حال . متوكل عليه دون خلقه فإذا عرف العبد ذلك وألزمه قلبه . اهتم بالخوف من الله عز وجل فيما فقه وعلم . فإذا اهتم بالخوف من الله عز وجل فيما فقه وعلم . اهتم بالعمل فيما علمه الله عز وجل وفقه . فإذا اهتم بطلب الخوف والعمل لله عز وجل ، اهتم بالفقه عنه بطلب الخوف منه . فحيث يجد نفسه من الجهال المضيعين ، حتى يرى نفسه خائفة راجية قائمة بأمر الله عز وجل ، في نفسه وفي خلقه ، لأن الفقيه الأمر عليهم أعظم منه على الجهال ، لأن الله عز وجل أوجب عليهم أن يقوموا به في أنفسهم وفي الخلق . لأنه أخذ عليهم الميثاق فيما علمهم أن يثبتوه للناس ولا يكتُموه . فإذا علم ذلك زال الغرار بالله عز وجل فلزم قلبه الحذر والخوف فيما علم ليقوم لله عز وجل به ، ويتفقد حق الله سبحانه في ظاهره وباطنه ، وعلايته وسريته ، واهتم بمعرفة ذلك من نفسه فلم يُعم عليه ذنوبه دون معرفتها ، ولم يقنع بمعرفتها دون تركها من خشية الله عز وجل . فهو مهتم بالعمل فيما علم وفقه . خائف من المسألة من الله عز وجل عن ذلك ، فلا يكون عنده حجة . كما يروى عن أبي الدرداء أنه قال : ما أخاف أن يقال لي : يا عويمر ماذا علمت . ولكن أخاف أن يقال لي : يا عويمر ماذا عملت فيما علمت ، ولن يؤتى الله عز وجل أمراً علماً فيه الدنيا إلا سأل عما عمل فيه يوم القيامة . وروى أيضاً أنه قال : إن قلت : علمتُ قيل لي فما عملت فيما علمت ، فإذا أنا لاحجة لي . فبذلك ينفي الفقيه العثرة بربه تعالى .

باب الغرة بعلم العمال لله تعالى من علم الصدق والإخلاص ونفى الرياء والأخلاق المذمومة ووصف الخوف والرجاء والحب

ومنهم فرقة علمت العلم وعملت بمعانيه في حقوق الله عز وجل التي تحق لله عز وجل على عباده . من حقّه وجبه وخوفه ورجائه وحسن التوكل عليه والرضا بقدره ومعافى ما ذمّ الله ونهى عنه من الأخلاق الدنية والمذمومة عنده . كالرياء والعجب والكبر والحسد وسوء الظن وأشباه ذلك من أعمال القلوب . ومن الكذب والغيبة . فحسنت عبارتهم بذلك ، ويصفون تعظيم الله عز وجل وجبه والحياء منه وخوفه ورجاءه والتوكل عليه والرضا عنه والإخلاص له . فيذمّون الأخلاق المذمومة عنده من أعمال القلوب والجوارح ، فلا يشك أحد منهم عند نفسه أنه لا يصف خلُقاً مما يقرب إلى الله عز وجل إلا وهو قائم به ، ولا خلُقاً ذمه الله إلا وهو بجانب له ، لأنه علّم أنه لم يعبر بلسانه إلا عما في قلبه فيظن أنه لم يعظم الله بلسانه إلا وهو معظم له بقلبه ، إذ كان إنما يؤدي لسانه عن قلبه

وكذلك الحياء من الله عز وجل وجميع الأخلاق الكريمة فلولا أن هذه الأخلاق ساكنة قلبه لازمة له معتقداً لها بالعمل بها ما علمها ، ولا أحسن أن يصفها ، إذ كان وصفه بلسانه إنما هو نرحمة عما في قلبه ، ولولا أن ما يصف من حقوق الله عز وجل والقربة إليه ساكنة قلبه وأنه قائم بها لما ألزم معرفتها قلبه ولا عبر عنها بلسانه

وكذلك ما يصف : من تضييع حقوق الله عز وجل ، وما نهى عنه . مما ذمّه وأحبط العمل من أجله ، مما لا يعرف إلا شدة التفقد له ، ولولا أنه تارك بجانب له لما ألزمت معرفته ذلك قلبه ، ولا ذمّه بلسانه . أما المغتر . فهو يرى أنه من الخائفين لله عز وجل وهو من الآمنين ، ومن الراجين له وهو من المغترين المضيعين . ومن الراضين عنه وهو من الساخطين عليه ، ومن المتوكلين عليه وهو من المتوكلين على غيره قليلة بالله ثقته ، ومن المخلصين له وهو من المرائين ، حتى أنه لقد يصف الإخلاص بترك الإخلاص ليقال مخلص ويصف الرياء ليقال قد فطن إلى مذهب الرياء قلبه ،

فقرّه حسن وصفه ، وبيان عمارته بلسان ومعرفة قلبه بجملة ذلك كله ، وإنما ذلك كله لمعرفته بعير اعتقاد نية ، ولا عمل بضمير ولا جارحة ، إلا الشيء اليسير الذي لا يعرى أن يناله عامة المسلمين .

قلت : وكيف عرف بقلبه ووصف بلسانه ماهو منسلخ من العمل به ؟
قال : تلك معرفة اللسان من الكتاب والعلم ، وحفظ كلام المتكلمين : ممن عمل منهم بما يقول : فهو يصف الإخلاص لمعرفته يحملها ويصف الخوف لمعرفته ما الخوف ، لا أنه تكلف الخوف حتى خاف الله وحذره ، ثم وصف الخوف بعد القيام به ، وكذلك جميع أخلاق الدين ، وكذلك يصف الرياء بجملة المعرفة له ماهو في العلم ، وما دلّ عليه العلماء ، من غير تفقد له من قلبه حذرًا من الله عز وجل أن يطلع على قلبه وهو معتقد للرياء ، فيمقته ويحبط في القيامة عمله ، فيكون قد تفقده بحذر من الله عز وجل ونفاه واتقاه وجانبه ، ثم وصفه بعد حذره من الله عز وجل من أجله ، ونفيه إياه عن قلبه ولكن يصف ما عرفه : من العلم من محبة الله عز وجل وما يكره ، من غير تفقد منه لنفسه ولا قيام لله بما يجب في جميع ذلك .

قلت : هذه الغرة المستحكمة ، كيف له أن ينفي الغرة بذلك من بعد علم أنه مغتر وما الدليل عنده أنه مغتر بجميع ذلك غير قائم به ؟

قال : إن الوصف للعلم غير العمل به فليلب نفسه عند العمل بذلك فإنه يبين له أنه مغتر ، لأنه إنما خاف من الله عز وجل وسكن الخوف قلبه فيما يرى أن يعذبه بذنبه كما قال على رضى الله عنه : لا يخاف أحدكم إلا ذنبه ، وإن كان الله عز وجل يستأهل أن يخافه العبد وإن لم يذنب ذنبًا ، كما خافته الملائكة وإن لم تذنب ذنبًا ، لأن أول منازل الخائفين الخوف من الذنوب ، فإذا بلى نفسه واختبرها عند أول منازل الخائفين فافتقد الخوف منها ، فلم يحده علم أنه اغتر بما يصف بلسانه وأنه ليس من أهله فإذا عرض له فرض في باطنه أو ظاهره سرًا أو علانية نظر هل تسارع نفسه إلى القيام به حذرًا من الله عز وجل من تضييعه ؟ وإذا عرض له ذنب مما يسخط منه ربه عز وجل نظر ، هل تسارع نفسه إلى تركه خوفًا من الله عز وجل أن يحل به غضبه فإذا تفقد نفسه عند القيام بالفرض وترك الذنب ، فوجدتها مضیعة لفرض الله عز وجل غير خائفة ، وراكنة إلى الذنب غير فازعة منه ، علم أنه لو كان الخوف ساكنًا قلبه قائمًا به حذرًا من ربه عز وجل ، لاشتد هيجانه عند تضييع الفروض وركوب الذنوب إذ ادعت نفسه أنها تخاف الله ، وأن ما يصف من الخوف هو ساكن فيها وإذا لماج الخوف أعظم مما كان يحده عند وصفه له ، من غير أن يعرض فرض

ولا ذنب ، إذ كان في ذلك غضب الله عز وجل وإيجاب النار عليه ، فلما افتقد ذلك ، ولم ير من قلبه فرعاً من الله عز وجل ، ورأى نفسه متادية متسوفة ، علم أن الأمن هو الساكن في قلبه إذ كان هو المستولى عليه عند حاجته إلى الخوف ، والخوف قد زايله عند حاجته إليه ، وأولى حال أن يكون الخوف من الخائفين الحال التي توعده الله ، عز وجل ، فيها بسخطه وعقابه ، فلما فقد الخوف عند تقصيع الفرض وركوب الذنب ، علم أن الخوف زائل عن قلبه ، وأن الأمن حال فيه . وكذلك جميع ما يصف بلسانه .

وإن هو قام ببعض وضع بعضاً ، علم أنه لم يلزم قلبه من الخوف إلا بقدر ما حفظ من حق الله عز وجل ، وأن الخوف فيه ضعيف ، بخلاف ما كان يرى .

وكذلك يصف الزهد في الدنيا ، حتى إذا أوقى منها شيئاً تشاغل به عن نفسه وآثر به هواه ولذته ، وأخرجه رياء للعباد ، فعلم أن الزهد لو كان ساكناً قلبه لرفض الدنيا ونبذها عند الظفر بها ، وما آثر على الله عز وجل وعلى الآخرة ، ما هو زاهد فيه ومبغض له .

وكذلك يصف الحب لله عز وجل ، وهو عامة ليله ونهاره ، ناس له عند اعتراض محبته ، وإن أراد نفسه على الخلوة والأنس بربه عز وجل استوحش ذلك وثقل عليه فإن خلا بخير . لم يحد للخلوة بمنجاة ربه عز وجل ، نوراً في قلبه ولا حلاوة لذكره وإن عرض الأنس بالخلقين استراح إلى ذلك ، وملأ قلبه حلاوته .

فهل رأيت حبياً ينسى حبيبته ويؤثر محبة نفسه عليه ، أو يستوحش من الأنس به ويستأنس بغيره ، وإن كان حائلاً بينه وبينه ؟ هذا كذب من الحب غير صادق صاحبه ، إلا حب التوحيد الذي لو زال عنه كان كافراً .

ويصف التوكل عليه إن واثته الدنيا وأعطاه الله ما يحب ، فإن خولف هواه بضيق العيش . أو عرض له خوف مخلوق أو طمع لما في يديه ، اضطرب قلبه ، فخاف غير الله . وطمع لما في أيدي العباد ، واهتم لإبطاء رزقه وتسخط ما قل منه ، هل يتعلق هذا بشيء من توكل الواقفين بالله عز وجل ؟ وإنما يحتاج إلى التوكل عند هذه الحال .

وكذلك يصف الإخلاص ، فإذا عرض العمل حاج الرياء وافتقد الإخلاص . وإنما يحتاج إلى الإخلاص عند العمل ، ونفى الرياء عند العمل من العمل لئلا يحبط الله عز وجل ، العمل عند الفقر في القيامة إليه ، فلما افتقد الإخلاص عند الحاجة إليه وهاج الرياء عند ذلك . وغلب عليه علم أن الإخلاص لم يكن ساكناً قلبه ، ولو كان لما افتقده عند الحاجة إليه . إلا عند الغفلة ثم

يفزع إلى الرجوع ، كالحائذ عن الطريق الذى يؤم المسير عليه .

وكذلك يعرض له عند العمل العجب والكبر وغيره ، فيركن إلى عامة ماكره الله ، عز وجل ، عند العمل ، كالعجب والكبر وجميع ما كان يذم بلسانه ، فإذا افتقد عامة ما كان يصف : من الأخلاق المحمودة المقررة إلى الله عز وجل ، عند موضع الحاجة إليها ، وغلبت عليه الأخلاق المذمومة عند الحاجة منه إلى مجانبها ، علم أنه كان مغترًا بما كان يصف بلسانه .

قلت : كيف يصف بلسانه ما ليس فى قلبه منه شيء إلا معرفته فيغتر بذلك ؟ قال : إن أصول ذلك فى قلبه ، فى عقد إيمانه ، لأنه يحب الله عز وجل ، حب التوحيد الذى لو فارقه كان كافرًا بالله تعالى .

وكذلك لا يأمّن الله عز وجل ، لإيمانه أن له عقابًا وعذابًا . ولو لم يعلم أن له ذلك كان كافرًا معاندًا .

وكذلك يُخلص الله التوحيد والفرص ، لا يعبد إلها غيره ، عقده على ذلك . وكذلك يؤمن أنه مالك للضر والنفع مدبر الأشياء ، ولو لم يعلم ذلك كان كافرًا . فلما لزمته هذه الأصول التى هى عقود التوحيد قلبه ، ووصف معالى منازل الخائفين والراجين ، والحين والمتوكلين والمخلصين ، مع معرفته بذلك ، مما وجده فى العلم وما وصف عن القائمى لله عز وجل ، بجميع ذلك ، ظن أنه لم يصف شيئًا من ذلك ولم يعرفه إلا أنه من أهله ، وإذا رجع إلى قلبه لم يجد به يعرى من أن يدين فى عقود إيمانه بجميع ذلك ، فاجتمعت هذه الجملة من الإيمان فى قلبه مع معرفة المنازل العالية التى كانت عن هذه الأصول ، ووجد عنده منها الشيء اليسير ، فلما وصفها بلسانه لم يشك أنه من أهلها ، والقائمى لله بها ، دون عوام المسلمين إذ لم يعرفوها ولم يصفوها إلا الشيء اليسير منها الذى يناله كثير من عوام المسلمين

فلما تفقد نفسه عند الحاجة إليها فرآها له مفارقة لم يبق فيه منها إلا عقود تدن الإيمان ، علم أنه من شر عوام المسلمين ، وأنه زائل عما كان يصف : من معالى الدرجات ومحامد الأخلاق ، وراكن إلى ما كان يصف من الذم ، ويحتمل إليه أنه تارك له ناج منه ، فغرف غرته بذلك عند تفقده ذلك من نفسه .

فإن كان مع ذلك ممن يدعو العباد إلى ما كان يصف بلسانه ويعرفه ، من غير قيام لله عز وجل ، به كما وصفت لك ، علم حين تفقد ذلك من نفسه أنه أشد بلاء وقرّة ممن كان لا يدعو العباد إلى ذلك ، وأنه كان مغترًا بما يصف ويعرف ، فيعلم أنه شر منه ، لأنه أظهر الدعاء إلى الله

عز وجل وهو فار منه ، وأنه كان يَحْشَى بالله وهو له آمن ، ويذكر بالله وينساه ، ويقرب إلى الله عز وجل ، ويتباعد منه ، ويخص على التوكل على الله وهو غير واثق به ، وعلى الرضاء عنه وهو ساخط عليه ، وعلى الإخلاص له وهو معامل لغيره .

فحينئذ تعظم حسرته ، وتشتد ندامته ، ويحق له .

ألم تسمع ما يروى أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى بالعالم يوم القيامة ، فيرمى به في النار ، فتندلق أفتابه ، فيدور به كما يدور الحمار بالرحى ، فيطيف به أهل النار ، فيقولون له : مالك ؟ فيقول : كنت آمر بالخير ولا آتية ، وأنهى عن الشر وآتية ولا انتهى عنه »

وقال النبي ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه : « مررت ليلة أسرى بي بقوم تقرض شفاهم بالمقاريض ، فقلت لجبرائيل : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء خطباء أمّتك بأمر من الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب . أَفَلَا يَعْلَمُونَ »

وروى عن الحسن أنه قال : مكتوب في التوراة : ابن آدم ، أتذكرني وتنساني ، وتدعو إليّ وتفرّ مني ؟ ! » .

وفي حديث غير الحسن : « لأن عدت إلى هذا الثانية لاجعلتك نكالا بين العابدين » . فالمغتر بجملة معرفته بما يصف بلسانه وإن لم يدع العباد إليه ، عظيم البلاء . إذ خيل إليه بل كان عند نفسه موقناً أنه قائم بعامة ما يعرف ويصف ، فما تفقد نفسه عند مواقع الأعمال التي ينال بها رضاء الله ، وافقد ذلك من نفسه ، علم أنه بالله ، عز وجل ، عظيم الغرة ، حقيق بشدة الحسرة والندامة .

وهذا الذي جمع مع غرته عن الله عز وجل بذلك دعاء العباد إلى ذلك ، حتى قام مقام الدعاء إلى الله ، القائمين بحقه عند نفسه وعند العباد هو أعظم حسرة وندامة وتأسفاً على ما قطع من عمره بالغرّة والغفلة عن الله عز وجل .

وإنما أطلت الوصف في هذه الفرقة لأنها عظيمة غرّتها ، قد غلب ذلك على كثير من يتعبد ويرى أنه من النساك العاملين لله عز وجل .

باب الغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد وغيره

وفرقه ممن ترى أنها من أهل العلم يحفظ أحدهم كلام المذكرين وأحاديث الزهد والذم
للدنيا ، لا يعرف معنى ما يقول ولا ما يذكر به من الحديث ، أكثر من أنه قد حُبب إليه ذلك
وخفَّ عليه .

فمنهم من يذكر به الناس .

ومنهم من يذكره لجلسائه وإخوانه غير عارف بما يقول ، وهو مع ذلك معتزُّ بذلك ، يرى أنه
من العاملين لله عز وجل . والعلماء به ، والعارفين لذم الدنيا ، يرى أن مثله لا يعذب وهو مع
ذلك تعمى عليه أكثر ذنوبه . لا غتراره بما يقول ويروى ، ويرى أنه إذ حفظ من الذكر
ما حفظ ، ومن الأحاديث في الزهد ما حفظ قد جاوز مرتبة أهل الدنيا والرغبة فيها ، وأنه غير مُراءٍ
ولا متكبر ولا معجب ، ولا يأتي كثيراً من الذنوب وإنما يفعل ذلك العوام الذين لا يعرفون ما يعرف
هو ، فهو مغتر بما يقول ويروى ويكتب .

قلت : فيم ينشئ الغرة بذلك ؟

قال : يرجع إلى نفسه ، فينظر : أين خوفه مما يذكر من الخوف والرقعة ؟ وكيف حفظه لجوارحه
عما كره الله عز وجل ؟ وهل قلبه طاهر من كل ما يسخط الله ، عز وجل ، عند دواعيه ونوازعه ؟
أهو كما يصف به القلوب من الطهارة ونفى الأذناس عنها ؟ وهل هو كما يروى من الحديث في
خشيتها ورقتها ؟ وهل يراه مؤثراً للدنيا على محبة ربِّه ، عز وجل ، فيما أوجب فعله وأوجب تركه
ونذب إلى القربة به ؟ فإنه حينئذ يرى نفسه تغلبه إلى استعمال جوارحه فيما كره الله عز وجل : من
الكلام بلسانه ، والنظر بعينه ، وسائر جوارحه : من المشي وغيره فيما عليه ولا هو له ، وكذلك
قلبه ، يجده ينازعه إذا تفقده عند دواعيه إلى الرياء والكبر والعجب والحسد وغيره ، وكذلك يجد
نفسه مؤثرة للدنيا على محبة ربِّه ، عز وجل ، في أكثر أحواله .

فإذا علم بذلك من نفسه ، علم أنه كان يصف الخوف لله عز وجل ، وهو غير خائف منه ،
ويصف طهارة القلوب ورقتها وقلبه دنس قاسٍ ، ويصف الزهد في الدنيا ويروى الآثار فيه ، وهو

في الدنيا راغب ، ولها على الآخرة مؤثر فيعلم بذلك أنه كان مغترًا بما يصف ويروى ويكتب ،
من حسن القول وآداب الصالحين والزهد في الدنيا والذم لها ، فيزول عنه بذلك غرته ، ولا يقنع
بذلك من نفسه دون أن يراها كما يصف ، أو الغالب عليها مطالبة ذلك ، ليظفر بذلك إذا علم أنه
كان منسلخًا من أكثر ما كان يصف ويقول ويروى ويكتب .

باب الغرّة بالجدل وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان

وفرقة جدلة خصمة مغترّة بالجدال والردّ على المختلفين : من أهل الأهواء وأهل الأديان . يتأول في ذلك أنه لا يصح لعبد عمل حتى يصح إيمانه والقول بسنة نبي الله ﷺ ، فليس عند أحدهم أحد يعرف ربه ، ولا يقول عليه الحقّ غيره ، أو من كان مثله . ثم هم فرقتان : فرقة ضالة مضلة لا تظن لضلالتها ، لاتساعها في الحجاج ، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة بالردّ على من خالفها ، فهم عند أنفسهم من القائلين على الله . عز وجل بالحق ، والرادين لكل ضلالة ، لا أحد أعلم منهم بالله ، ولا أولى به منهم ، وكل الأئم ضالة سواهم ، وأن الله عز وجل ، لا يعذب مثلهم ، بل لا ينجو أحد في زمانهم غيرهم . وغيرهم : من المغترين يدعى ذلك ويتحلّه ويشهد عليهم بالإكفار ، فهم فرق كثيرة يكفر بعضها بعضاً ، وكل فرقة منها مغترّة ، لا ترى أن أحداً يقول عليه بالحق غيرها .

والفرقة الثانية من المغترّة بالجدل والبصر بالحجاج ، تقول بالحق ولا تدين بغيره . وقد اعترت بالجدل ، ترى أنه لا يصحّ لها قول دون الفحص والنظر وقيام الحجّة على من خالفها ، وقد اغترت بذلك ، حتى قطعت أعمارها بالاشتغال عن الله عز وجل ، وعسى عليها أكثر ذنوبها وخطأها وهي تظن أن ذلك أولى بها وأقرب لها إلى ربها ، وهي أيضاً لاتسلم في مجادلتها من أن تخطئ في تأويلها وقولها ، إلا أن اعتقادها السنة مع اغترارها .

قلت : فبمّ ينفيان الغرّة بذلك ؟

قال : أما الفرقة الضالة فإنها تنفي ذلك بأن ترجع إلى أنفسها ، فتعلم أن القرآن محكماً ومتشابهاً ، وكذلك من السنة ، فلا يقضى بمتشابه على محكم ، وليقضى بالمحكم على المتشابه . وأن الخطأ في التأويل لا يحصى ، فتتهم نفسها ، وتعلم أن الله عز وجل سائلها عما تدّين به ، وأن الجماعة قد مضت على الهدى وسنة نبيها ﷺ ، ولا تخرج من إجماعها ، وإن حسن ذلك في عقولها فإن تثبتت كما وصفت لك أبصرت ضلالها ، ولم تغتر بشدة حجاجها ، إذ علمت أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج بصير بالجدل ، وهو عندها ضالٌّ مُضِلٌّ ، فكذلك لاتأمن أن تكون عند الله عز

وجل ، كذلك ، وإن أبصرت الجدل والخصومات ، فإن اتهمت نفسها على الآراء والتأويل ، وثبتت عند المشابهة فقصت بالحكم عليه ، وأوقفت فيما لم يجعل الله لها النظر فيه ولم يخرج من إجماع من مضى ، زالت عنها غرَّتْها ، وثابت إلى ربها من ضلالتها .

وأما الفرقة المصيبة للحق ، مع غرَّتْها عن الله عز وجل ، بالخصومات والجدل عما هو أولى بها فإنما تنفى غرَّتْها بذلك بأن تعلم أن الله عز وجل ، تعبد من مضى بما تعبد بها به وقد أدرك كثير منهم من أهل البدع والأهواء ، فما جعل عمره ولا دينه غرضاً للخصومات ، ولا اشتغل بذلك عن النظر لنفسه ، والعمل ليوم فقره ، إلا أن يرى موضع حاجة يظن أنه إن تكلم بالحق قيل منه ، فيقول بالحق ويحذر أن يخطئ على الله عز وجل ، فيرد الباطل بالباطل ، فكانوا على ذلك ، وذو الجدل والخصومات ورووا ذلك عن نبيهم ﷺ ، رواه عنه أبو أمامة أنه قال :

« ماضل قوم قط إلا أوتوا الجدل »

وذم الله عز وجل ذلك فقال : (وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ ^(١))

وقال تعالى لقريش : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ ^(٢))

فدم المراء والجدل ، فليرجع المؤمن إلى نفسه فيقل لها : إنما تدعين إلى الاتباع والسنة بمجذلك لأهل الأهواء ، ودعاؤك لهم بالجدل والمراء ترك للسنة لأن النبي ﷺ نهى بسته عن الجدل والخصومات ، وغضب على أصحابه ، حتى كأنما فقيء في وجهه حب الرمان ، حمرة من الغضب ، إذ خرج عليهم وهم يختصمون ، وهم كانوا أولى الخلق بالفهم والبصر بالحجاج فقال : « أبهذا بعثت أم بهذا أمرتم : أن تضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض ؟ انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا به ، وما نهيت عنه فانتهاوا عنه .

ثم هو في نفسه ﷺ قد بعث إلى جميع أهل الأديان ، فما جادلهم إلا بما تلا عليهم من التنزيل ، ولو شاء كلمهم بالمقاييس ودقيق الكلام ، ولو كان ذلك هدى كان هو أولى به وعليه أقوى ، فلم يُقم الحجة إلا بالتنزيل ، وأضرب عن جلهم بالدقائق ، وعلم أن ذلك لله عز وجل رضى ومحبة ، فترك الجدل والخصومات من السنة .

ويرجع إليها أيضاً بأخرى من التذكرة : إني لو نجوت وعطبت أهل الأرض من أهل الأهواء ماضرتني ذلك ، ولو عطبت ونجوت ما نفعني ، فأقامني الحجة عليهم وتركني أن أقيم الحجة على نفسي

الله عز وجل في تضييعي أمره ، حتى أؤدى ما أمرني به ربى ، وأنتهى عما نهانى عنه وأربح أيام
 عمرى ليوم فقرى وفاقتى ، أولى بى ، فقد شغلونى عن نفسى وعن العمل فى نجاتى ، ومع ذلك
 ما يؤمننى أن أقم الحجّة ببعض التأويل والقياس ، أرى أنه هدى وهو عند الله عز وجل ضلال
 وكذب عليه ، وقد تبين لى ذلك فيما مضى من عمرى : قد كنت أقول القول ثم يتبين لى أنه
 خطأ ، فأرجع عنه ، فما كانت حالى عند ربى لو أقمت على حالى تلك ؟ وكذلك لا آمن مثلها ثم
 أموت عليها قبل أن أعرف خطئى ، فإذا أنا قد أهلكت نفسى بطلبى نجاتى غيرى .
 ومع ذلك أنه لو كانت المجادلة من السنّة ولم أكن أشتغل بها عن العمل لآخرتى وأمنت الخطأ
 فى حجاجى ، لما كان لكلامهم موضع فيه مزدجر فى آخرتى ، إذ لم أر أحدا منهم رجع عن
 قوله ، ولا تاب من بدعته ، فلو كان ذلك كذلك لكنت معنياً بنفسى ، فكيف وقد نهيت عن
 الجدل وهو يشغلنى عن العمل لنجاتى ؟ ومع ذلك أتعرض للخطأ على الله عز وجل ، والكذب
 عليه أو فى دينه وأنا لا أشعر .
 فإذا رجع إلى نفسه بذلك أبصر غرته ، واهتم بنفسه وعلم أنه كان فى غرور وزخرف من رأيه ،
 وأنه قد مضى عمره بترك ما هو أولى به ، فحينئذ يهتم للعمل ويتفقد عيوبه ويقدم التوبة منها قبل
 لقاء ربه عز وجل .

باب الغرة بالعبادة والعمل

قلت : فالغرة بالعبادة والعمل كيف هي ؟

قال : منهم فرقة تتكلف الرضاء والزهد والتوكل والحب لله عز وجل ، على غير حقيقة ولا معرفة بما هو أولى بها ، يتقلب أحدهم من اللباس والطعام زهداً في الدنيا ، وبعضهم يخرج إلى الحج بغير زاد ويدع المكاسب ، يؤم التوكل بذلك ، ومنهم من تحيل إليه نفسه أنه يشاق إلى الجنة ، ومنهم من يدعى حب الله عز وجل ، يلهج بذلك ويحالس عليه ويصعق عند ذكره ، وكل هذه الفرق مغتررة بالله عز وجل ، تتكلم بما يكره الله تعالى وهي لاتشعر ، وترأى بما تعمل ، وتتكبر وتعجب ، وتأتى كثيراً مما يكره الله عز وجل ، وهي لاتشعر ، لم تعرف التقوى إلا بالاسم ولم تكلفها في جوارحها وباطنها ولا تعلمها ولم تطلبها ، وهي ترى أنها قد قطعت التقوى ، وصارت إلى الزهد والتوكل والرضاء ومعالى الدرجات الكبرى ، وهم عامة قراء زمانك ، الغالب عليهم اتباع أهوائهم في طاعتهم وتقشفهم .

قلت : هذه الفرقة أولى بالرحمة من الفرق التي وصفت قبلها ، إذ كابدت أهواءها ، وحملت المكروه على أبدانها ، ووسمت بالتشهير عند العباد ، وظننت ذلك من أنفسها ، لأن كل الفرق اغترت من غير كثير مؤنة تحملتها ، ولا إدخال المشقة على أنفسها ، وهذه قد رفضت الدنيا فيما ترى وحرمتها أنفسها ، وهي راكنة إلى بعض الدنيا وهي لاتشعر فهي أولى بالرحمة من غيرها ، وقد خشيت أن يكون الغالب على أهل زماننا .

فكيف لها بأن تعرف غرتها ، وتنفيها وتجانها بعد معرفتها ؟ والنبي بعد المعرفة على هذا أيسر ، إذ عرفت غرتها ، لأنها قد تحملت من المكروه ما هو أشد من النفي .

قال : لاتفعل فإن بجانب الهوى مع العمل اليسير ، أعظم وأشد على النفس من تحمل المكروه والشدائد في الأعمال الكثيرة إذا كان معها الهوى .

قلت : فبين لي غرتها فإنها على حال نفى الغرة عليها أسهل .

قال : أجل ، لأنها أسخى المغترين أنفسهم بالأعمال ، وأشدهم تحملاً للمكروه في ظاهر الطاعات ، فالذى تعرف به غرتها أن ترجع إلى أنفسها ، بدعائها إلى العزم على طلب التقوى ،

وتعريف النفس أنها أصل الطاعات ، ولا تزكو الأعمال إلا بها ، حتى إذا عرفتها ماهى في السر والعلانية ، امتنحت أنفسها عند دواعيها إلى كل خير وشر في باطنها حتى تعلم :

هل طهرت قلوبها من كل مكروه يكره الله عز وجل ؟

وهل طهرت جوارحها من معاصي الله عز وجل ؟

وما الذى هو أولى بها أن تبدأ به في الوجوب من الفروض عليها ؟

فمن كان منها متقللاً من الدنيا ، من غذائها ولباسها ، نظر كيف صحة معاشه ، فإن كان صحيحاً طبيئاً نظر : هل ترك شيئاً يجب عليه فضيحه مع تقلله ، وكيف ضميره وحركات جوارحه في ليلة ونهاره ؟

فإن رآه غير قائم بحق الله ، عز وجل في ذلك أو في عامته ، علم أنه : قد كان يرى أنه كان من الزاهدين وهو عند الله عز وجل من الفاجرين ، فإذا تفقد نفسه علم أنه كان مضيقاً للتقوى مع تزهد ، وأنه كان مخدوعاً مغروراً .

ثم ينظر : ماذا كان يريد بتقلله ، وكيف كان ارتياح قلبه بعلم إخوانه وغيرهم بتقلله ؟ وبمحمد حين يسمعه أو يبلغه عنهم ؟ وهل كان قائماً على قلبه بتقوى ذلك خوفاً من الله عز وجل . فإن رأى قلبه أنه قد كان أغفل ذلك ، علم أن الغفلة كانت عليه مستحكمة ، قد علق قلبه بأعلى الدرجات فيما يرى ، واشتغل عما هو أولى به منها ، ثم لم يخلصها أيضاً مع ما اشتغل بها عما هو أولى به منها ، فحق الله عز وجل كان عنده مضيقاً ، وعمله لا يأمن أن يكون عند الله عز وجل محبطاً ، وقد كان يرى أنه قد منّ عليه بالزهد أو ببعض الزهد ، ولعل غذاءه الذى كان يتقلل منه حرام أو شبهه ، قد كان أولى به تركه كله للورع ، فهو آخذ للقليل الذى ينبغي له أن يتركه ورعاً ، وهو يرى أن يأخذ القوت ، ويقدم الفضل زهداً في الدنيا ورفضاً لها . فإذا تبين له ذلك زالت عنه بإذن الله عز وجل غرته ، واهتمم بالتقوى وإخلاص العمل لربه عز وجل .

وكيف لا تزول عنه غرته بعد معرفته بنفسه ، وقد كان يعدها من قبل معرفتها أنه قد جاز أهل الورع ، وهو عنهم منقطع ، لأنه لم يكُ يأق عليه يوم من أيامه إلا والله عز وجل مطلع فيه على ما يكتن في صدره ، مما كره مولاه ونهى عنه ، من الرياء وغيره ، وكذلك جوارحه ، قل يوم إلا وقد يكون من بعضها مايكره مولاه ، فإن سلمت جوارحه لم يكد يسلم قلبه ، فلا يقيم على الغفلة بعد هذه المعرفة عاقل عن ربّه عز وجل .

وأما المغتر بترك الأعمال والخروج بغير زاد ، فإن نظر بصحة النظر لطلب الاتباع للائمة الراشدين وحذرًا من خوف المحدثات ، فلم يعرف أحدًا من السابقين سبقه إلى ذلك ، وتدبر الآثار . فإذا هي تحض على ترك ماتدين به من العمل وحمل الزاد وأن الفضل في العمل وحمل الزاد مع اليقين بأن الأرزاق إلى الله عز وجل . ولا رازق إلا الله عز وجل ، اتباعًا للنبي ﷺ ولائمة الهدى ، وقطع عن النفس خطراتها إلى طمع المخلوقين ، وأن يكون هو المأجور في نفسه بما يغدوها به دون غيره ، فيكون له ذلك الأجر الذي يؤجر فيه غيره ، فإذا علم ذلك علم أنه كان لطريق الصالحين وأئمة العباد في تدبيره وقوله مخالفًا .

وأيضا أن لو كان ذلك جائزًا نظر : هل أحكم ماسواه من التقوى في باطنه وجوارحه ومطعمه وملبسه ؟

وكيف كان إخلاصه فيما كان يظهر من توكله ؟ .

فإذا عرف أنه كان على مخالفة الاتباع ، وأنه مع ذلك قد كان مضيعة لكثير من حقوق الله في باطنه وجوارحه ، زالت عنه غرته ، واتبع واهتم بما هو أولى به ، فإن كان متقيًا في باطنه وظاهره من قبل ، علم أنه كان على حال قد كان مغترًا بما كان يتدين به من قوله ، إذ لا يعرف له إمامًا سبقه إلى قوله ، وإذا الآثار تدل على خلاف قوله .

وكذلك جميع الفرق من المتشككين على غير الصدق ولا التقوى فعلى نحو من ذلك التفقد لأنفسها ، حتى تعرف غرتها فتحاف الله عز وجل بما هو أولى بها .

باب الغرة بالورع في المطعم والملبس دون سائر الأشياء في أعماله الباطنة والظاهرة

ومنهم فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في غذائها : من المطعم والملبس :

فلما نظرت وحملت أنفسها عليه ، ظننت أنها إذا بلغت أصعب الدرجات من الورع وأعزها في زمانها ، قد أحكمت التقوى وقامت به ، فعصى ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها .

قلت : فيم تنفي ذلك ؟

قال : أن تعلم أن الله عز وجل لم يرض منه بالحلال وحده ، وأنه قد يعذب من طاب مطعمه إذا لم يخف الله عز وجل في غير ذلك ، وأنه قد يغضب مما يقول أو يُضمر أو يستمع إليه أو يخطو أو يبطش .

فإذا عرفت ذلك زالت عنها غرتها .

باب الغرة بالعزلة والفرار من الناس

وفرة قد غلب عليها الاستيحاش من الناس والخلوة ، وهى مع ذلك تتصنع بفرارها وتحب أن تشتهر به ، وترتاح قلوبها بذكر العباد لذلك منها ، مع تكبر على العامة وعجب بأعمالها ، قد عُمى عليها أكثر ذنوبها ، إذ عدت أنفسها أنها أنيسة بالله عز وجل مستوحشة من خلقه .

قلت : فم تنفى غرتها بذلك ؟

قال : تتفكر في عظيم حق الله عز وجل ، وواجب طاعته ، وكثرة عدد ما يلزمها من مجانبه ما كره ربها عز وجل ونهى عنه ، في ظاهرها وباطنها ، هل أحصت ذلك كله ، حتى لم تضع الله عز وجل حقاً ، ولم تركب نهيًا مما نهى الله عز وجل عنه ، فإذا تفكر أحدكم في ذلك علم أنه لم يقيم بحقوق الله عز وجل كلها في طول عمره ، ولم يسلم مما كره أن يأتيه بمجارحة أو بقلب . وأن القليل من عمله الذى يعتز به ، تتوره الآفات التى تفسده أو تحبطه : من الرياء والعجب والكبر والحسد وسوء الغذاء ، أو بعض ما يحقت الله عز وجل عليه فيحبط به العمل : من تضييع الفرض وإتيان ما نهى الله عز وجل عنه ، وقد تهدد بذلك المؤمنين من عباده فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) .

إلى قوله : (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ^(١))

فتهددهم بحبط أعمالهم إن جهروا بالقول للنبي ﷺ . حتى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يكلمه فيستعيده الحديث مراراً ، ما يفهم عنه النبي ﷺ . وقال : والذى بعثك بالحق لا أكلّمك إلا كأخى السرار ، وهو صديق الأمة . خوفاً مما تهدد الله عز وجل به

فمن يأمن بحبط عمله بعد قوله ذلك لخير الخلق بعد النبي ﷺ وتهدده إياهم بهذا ؟

وقال النبي ﷺ « إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب »

وقال : « من ترك صلاة العصر حبط عمله »

فمن يأمن أن يحبط عمله بتضييع بعض ما أوجب الله عز وجل وافترضه

وروى عن ابن عباس : « لا تقبل صلاة من رجل في بطنه لقمة من حرام » .
وروى عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم من حرام لم تقبل منه صلاة حتى يضعه عنه » .

فأي مال ينجو في زماننا من أن يخالطه الحرام ؟ .
فلو سلم عمله القليل من الآفات التي تفسده ، لم يأمن أن يكون قد عمل عملاً قد يغضب الله عز وجل عليه به ، فأحبط عمله أو أحبط بعض ماضى من عمله ، وإن لم يغضب الله عز وجل عليه . هذا لو سلم من الآفات التي تفسد ببعضها ، كالرياء الذي لا يقبل الله عز وجل الأعمال إذا كان فيها .

بالكتاب والسنة ثبت ذلك عند أهل العلم والمعرفة : أن الرياء يحبط للعمل إذا اعتقد عامله ، أو العجب كما جاء أن صلاة المدلّ لا ترتفع فوق رأسه ، أو كالحسد الذي جاء : إن الحسد يأكل الحسنة ، كما تأكل النار الحطب .

فحقوق الله عز وجل عظيمة ، والطاعة واجبة ، والمعاصي في الظاهر والباطن كثيرة ، التي لا يكاد يسلم منها ، والقليل من عمله تعوره الآفات التي تخالطه ففسده ، وبتضييع بعض الحقوق الواجبة لا يأمن العبد في تضييعها إياها أن يحبط عمله ولو خلاص من الآفات ، وسلم من الذنوب ، ولم يضيع حقاً ، ولا ركب نهياً ، ولا غفل غفلة يخاف الزلل منها وهو لا يشعر - وذلك يكاد يستحيل من مثلنا - لكان في عظيم ما يطلب : من النجاة من العذاب والفوز بجوار الرحمن عز وجل عمله يسيراً حقيراً في جنب ذلك ما لا يقوم عمله بشكر بعض نعم الدنيا دون نعم الدين ، فعمله صغير عندما أنعم الله عز وجل عليه ، وعندما يطلب .

ولو أن أهل السموات وأهل الأرضين سخرهم الله عز وجل له ، قدأبوا واجتهدوا له ، لكانت النجاة من عذاب الله عز وجل أعظم وأكبر من عملهم له ، وكذلك الحلول في جوار الله عز وجل ، فكيف بعمله الضعيف مع كثرة الزلل والخطأ ، وغلبة الغفلة والنسيان عليه في طول عمره ، مع أنه لا يأمن من الآفات التي تفسد عمله عليه فلذلك أشق أولونا رحمهم الله فالرياء لا يشك أن الله عز وجل لا يقبل العمل إذا اعتقده عامله .

وأما العجب وما سواه فأخاف أن يحبط الله عز وجل به الأعمال ، ولا أقطع به .
ولتعرض هذه الفرقة وجلها وشفقتها على وجل السابقين : أين وجلهم منه .

باب الغرة بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار

ومنهم فرقة اغترت بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار ، فقد خيّل إلى أحدهم أنه من عمّال الله عز وجل ، والمشتغلين به والذّابّين عن محارمه ، فقد عُمي على أحدهم ذنبه ، فهو غير مصحح لمطعمه وملبسه من الشبهات وغير ذلك ، وجوارحه منتشرة عليه في أكثر عمره فيما يكره ربه ، عز وجل ، وهو غير متفقّد لنفسه ، لا يخيّل إليه أنه ينبغي لمثله أن يتفقّد نفسه ، وإن علم منها ببعض التفريط هان عليه لما عنده من العبادة والعلم والغزو والحج . وهو مع ذلك غير متفقّد للإخلاص فيما يعمل . ولا عارف به دون تفقّده .

قلت : فمِمّ تنفى ذلك ؟

قال : بتفقّدها أنفسها ، حتى تعرف أنها كانت مشغولة بالنوافل عن واجب الحق والقيام بالفرض ، فإذا تفقد ذلك أحدهم من نفسه ، علم أنه كان يعدّ نفسه ممن جاز التقوى ، وعلا في درجات النوافل ، يخيّل إليه أنه لا يعذب مثله ، وأنه خاصة الله عز وجل من خلقه ، هو ومن كان مثله ، وقد كان مع ذلك مضيّعاً للخوف من الله عز وجل فيما أوجب ونهى عنه ، فحينئذ يهتم بالتقوى ويزداد إن قدر على ما كان يعمل ، رجاء أن يكفر ماضى من التضييع لحق الله عز وجل والتصنّع بعمله .

باب الغرة ممن أَمَّ التقوى وأحسن التفقد لظاهره وداخله

ومنها فرقة أهل بصر ونظر وتفقد لجوارحها ، ولكثير من خطرات قلوبها ، يؤمنون التقوى ويريدونها ، ولا يحبون أن يبدوا بشئ من الأعمال غيرها ، فهم مع ما خصوا به من بين العابدين في زمانهم يغترون بها ، قد زایلهم الوجل والإشفاق ، يحيل إلى أحدهم أن العذاب إنما يرفع عن العباد به ، ويدعو الله عز وجل والغالب عليه أنه مستحق للإجابة ، غير وجل ولا مشفق أن يكون من أعداء الله ، لبعض ماسلف منه ، أو لبعض مايكون منه في ضميره وجوارحه ، أو بأمر يختم له به ، فيشقى فيموت وهو عدو لله عز وجل على شر أحواله .

قلت : فكيف يغترون وهم معتقدون للتقوى ويطلبونها ويؤمنونها ؟

قال : أعجبوا بتفقدهم فظنوا أنهم ناجون ، واستصغروا من سواهم لمعرفتهم بتضيع العباد لحق الله عز وجل في زمانهم .

قلت : فكيف تنفي غرتها بذلك ؟

قال : تعرض وجلها وشغفتها على وجل السابقين ، فتنظر أين وجلها من وجلهم ، فإنها تجدهم قد تمتوا - مع ما قد قاموا به لله عز وجل مما لم يأت بأقل القليل منه - أنهم كانوا بها ثم إعظاماً للأمر وخوفاً من الرب عز وجل .

وبذلك وصفهم الله عز وجل فقال : (يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)

فليشكروا ويتذكروا أي رب يعبدون وأي ثواب يطلبون ، ومن أي عذاب يهربون ، وما بين أيديهم من الأهوال وعظيم الخطر ، وما أحصى عليهم من الذنوب وسابق علم الله عز وجل فيهم ، فلأنهم إذا تفكروا في ذلك كانوا - مع معرفتهم بتضيع العباد لحق الله عز وجل في زمانهم ، وبما من الله عز وجل عليهم من الطاعات والتقوى - يرون أنهم شر أهل زمانهم ، كما روى عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال : لا يبلغ عبداً حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في ذات الله عز وجل . ثم يرجع إلى نفسه فيكون عنده أحقر حافر .

وكيف لا يكون كذلك والرب جلجلجلاله لا يؤدّي حقه ، ولا يبلغ قدر عظمته ولا تحصى

نعمه ، وعذابه عذاب لا يقام له به ، وثوابه ثواب لا صبر عن دونه ، حتى لو أن أحدهم كشف له عن عبادات الملائكة ، لعلم أنهم مقصرون عما يحقُّ الله عزَّ وجلَّ وعلى قدر يوم القيامة بأهواله وزلازله وشدائده فكيف بضعيف عمل أحدهم ؟ فحينئذ تزول عنهم غرَّتهم ، ويغلب على قلوبهم مع إحسانهم الشفقُ والوجلُّ والحزن والحذر وترك الطمأنينة والسكون إلى شيء من أعمالهم . إنما يرجون الله عزَّ وجلَّ وتجاوزه ، وإن لم يفعل ذلك بهم عطبوا ، إذ الله عزَّ وجلَّ الفضل عليهم على كل حال ، وأنه قد كان منهم ما قد استوجبوا به العذاب ، وإذ هم لا يشهدون لأنفسهم بالسلامة في أعمالهم ، لما يجدون من كثرة منازعة أنفسهم إلى ما يفسد أعمالهم ، ولما يعرفون من كثرة غفلاتهم ، خوفاً من إحصاء الله عزَّ وجلَّ عليهم ما قد كانوا عنه يغفلون ، وإياه ينسون ، فيبدو لهم مالم يكونوا يحتسبون ؛ كما وصف الله عزَّ وجلَّ به المغترِّين ، قيل في التفسير أعمال كانوا يرون أنها حير صارت شراً .

فبذلك ونحوه ينفون الغرَّة بأعمالهم .

باب الغرة بتقديم العزم بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دناءة الأخلاق

ومنهم فرقة الغالب منها تقديم العزم لله سبحانه بإخلاص العمل له فى كل ما يعمل ، والعزم على الرضاء والتوكل وما أشبه ذلك ، وترك الكبر والعجب وسوء الظن والكذب والغضب ، وإشفاء الغيظ بما لا يحل ، فلما سخت أنفسها بالعزم على ذلك ونحوه ، عدت أنفسها من أهله ، والقائمين لله عز وجل به ، بعزمها على الإخلاص ، فإذا عرض العمل سهت وغفلت فراءت ، وكذلك سائر ما كره الله عز وجل ، إلا القليل من ذلك تنبه له فتدعه .
غرثها عزومها ، فحكمت لأنفسها بذلك ، فلم تتفقد أنفسها عند ذلك ، ولم تهتمها عند تضييعه ، إذ رأتها قد سخت بالعزم على ذلك ، فلم تف بما عزم عليه ولم تصدق فى أكثر ما عاهدت ، غفلة وسهوا .

قلت : فيم تنفى غرثها بذلك ؟

قال : بمعزفتها أن العزم على العمل ليس بالعمل ، وأن العزم على العمل أقل مؤنة على النفس من العمل ، لأن العزم لا تعب فيه ، ولا مؤنة على النفس ، ولا ترك لذة بعد مقدرة عليها ، وأن النفس قد تعزم ثم تضيع العمل ، كراهة تحمل المؤنة والتعب ، وقد تعزم على ترك اللذة ثم تواقعها عند الظفر ، لأن المحنة عند المقدرة أشد على النفس ، لأن شهوتها تهيج إذا أحست بلذتها ومحبتها وظفرت بها ، فإذا علمت أن ذلك كذلك ، لم تحكم لأنفسها بذلك دون الوفاء لله عز وجل بالعمل بما أوجب ، والترك لما كره ، وأن العزم المتقدم طاعة منها ، وإنما يكون العازم عليها من أهلها إذا قام لله عز وجل بها كما عزم ، فلا يحكم لنفسه أحد منهم بالحلم إلا عند الغضب ، لأن العزم الأول على الحلم نية أن يحلم لا يحلم ، ولا بالإخلاص إلا فى العمل ، لأن العزم الأول على الإخلاص ، نية الإخلاص إذا عمل عملا أن يخلصه ، لا إخلاص فى العمل ، وكذلك جميع الأعمال التى تقدم العزم عليها ، إلا ما كان من أعمال القلوب التى ليس فيها للجوارح عمل ، كاعتقاد السنة والتدين بها وما أشبه ذلك ، فأما العزم على العمل فلا يغتر به ، فيغفل عن نفسه ، فيضيع العمل ، ويركن إلى ما عزم على تركه ، دون أن يتفقد نفسه ويأخذها بالوفاء بما عزم عليه ، وبذلك وصف الله عز وجل أوليائه فقال : (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) .

باب الغرة بطول ستر الله تعالى وإمهاله للعبد

ومنهم فرقة اغترت بطول ستر الله عز وجل عليها وإمهاله لها ، فلما دام لها السر فلم يظهر للعامة منها إلا خير ، وأثبت عليها وعظمتها ، اغترت بذلك ، وظنت أن ذلك لم يكن إلا ولها عند الله عز وجل منزلة عظيمة ، وأنه يحب لها ، وهى مع ذلك كثير تخليطها ، كثيرة التصنع للعباد ، ولا تعرى من العجب بعملها والكبر على من دونها ، قليلة الفطنة لكثير ذنوبها ، قليلة الوجع والإشفاق ، لما رأت من السر وحب الإخوان وثناء العوام ، فاعترت وظنت أنها ناجية وأن الله عز وجل عنها راضٍ ، وأنه لو كان سخط عليها بما أسلفت من الذنوب لما ستر عليها ، ولا حببها إلى كثير من الناس ، ولا نشر لها الثناء ، فهى مغترّة بذلك غير متفقدّة لأنفسها ، ولا تكاد تظن بها أكثر ذنوبها ، قليل خوفها وحذرهما .

قلت : فبم ينبنى أحدهم ذلك ؟

قال : بمعرفته بنفسه وأن السر عليه حجة من الله عز وجل عليه ، ليعلم أنه لم يُعجل عليه ولم يهلك ستره ، ليستحى من ربه عز وجل ، الذى ستر قبيحه ، وأظهر له من الجميل ما لم يعمل به ؛ فالستر عليه حجة من الله عز وجل ، ليس بغرة ، وثناء الناس إنما كان لستر الله عز وجل عليه ، ولو أظهر الله عز وجل لهم ما يعلم منه لأبغضوه ومقتوه ، وهو لا يجب أن يعلموا منه ما يعلم الله عز وجل منه من ذنوبه فيمقتوه ، والله عز وجل أولى أن يخافه . أن يكون قد مقته بما سلف من ذنوبه ، أو قد مقته ببعض ما هو عليه مقيم .

وإنما أثنى الناس عليه لستر الله عز وجل عليه ، ولو علموا منه ما علم الله عز وجل منه ما أثنوا عليه ، فتناوهم عليه طاعة منهم لرهبهم عز وجل ، بحسن ظنهم به فهو لا يغيره ظنهم على غير يقين منهم بما عنده ، حتى ينسبه ما يعلمه يقيناً أن الله عز وجل يعلمه منه ، فلا ينسى اليقين من نفسه لظن الناس به بخلاف ما هو عليه ، وذلك عبادة منهم لرهبهم عز وجل ، وحسن ظن منهم به ، فكيف يحل إليه ويرى أنه كما يقولون ، وهو عالم من نفسه بخلاف ما يظنون ؟ كما قال على عليه السلام إذ أثنى الناس عليه أو كما قال غيره :

اللهم أنت تعلم وهم لا يعلمون ، فلا تؤاخذنى بما يقولون .

ومر مطرف وابن أون برجل . فقال الرجل : من أحب أن ينظر إلى رحلي من أهل الجنة
فلينظر إلى هذين . فقالا : اللهم أنت تعرفنا ولا يعرفنا . أى أنه يتكلم بالظن على غير علم ، وأنت
عالم

وكان أبو البخترى الطائى وأصحابه إذا أثنى على أحدهم ، وضع شقه نحو الأرض وقال :
تواضعت لرئى أنى أذل أن أكون كما يقولون . تواضعا لله عز وجل أن يرى أن له قدرا بما سمع من
ثنائهم عليه . فلا ينسبه ظنهم بيقينه بنفسه ، ومع ذلك لا يأمن أن يكون ثنائهم عليه استدراجا من
الله عز وجل ليغتر بالثناء ويستأنس إلى الستر والإهمال ثم يأخذه بغتة بعقوبة ، أو يهلك ستره عنه ،
أو يموت على ذنبه ولم يتب منه ، فلا يأمن ذلك ، إذ علم أنه على خلاف ما يشنون عليه
كما يروى عن أبي تميمه الهجيمى : أنه قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : بين ذنب . والله
ما أدري ما فعل فيه : أغفره وعفا عنه ، أو غضب على من أجله ؟ وثناء من هؤلاء الناس والله
ما أستأمله ولا أنا كذلك .

ولا يأمن أن يكون استدراجا من ربه عز وجل إذ علم من نفسه خلاف ما يشنون عليه به . والله
عز وجل يعلم خلاف ما يقولون فيه . فهو لا يأمن مقتله على ما يعلم أنهم لو علموا به لمقتوه وأنقضوه
عليه

فلا يعد الستر إلا توكيدا للحجة عليه . واستدراجا له
فبذلك ينفي الغرة بستر الله عز وجل وإمهاله له وثناء العباد عليه

كتاب الحسد

باب في ذكر الحسد ووصفه وتفسير محرمه من مباحه

قلت : ما الحسد ؟ وما الدليل عليه من العلم ؟
قال : إن الحسد في الكتاب والسنة على وجهين ، وهما موجودان في اللغة .
فأحدهما غير محرم ، فبعضه فرض ، وبعضه فضل ، وبعضه مباح ، وبعضه يخرج إلى النقص
والحرام .

وأما الوجه الآخر فمحرم كله ، ولا يخرج إلا إلى ما لا يحل .

قلت : فما الحسد الذي ليس بمحرم ؟

قال : المنافسة .

قلت : ما الدليل على أن المنافسة حسد ؟

قال : قول الله عز وجل : (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ^(١))

وقال تعالى : (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ^(٢))

وقال : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ^(٣))

ولا تكون المسابقة من العبد إلا أن يسابق غيره .

وقال علي ، عليه السلام ، وذكر العامل لله عز وجل . فقال : ويباهي العباد بعبادة ربه ،
يعني بنافسهم ويسابقهم ، كما يرى العبد من عبيد أهل الدنيا يتباهيان عند مولاهما ألا يخطئ
أحدهما قبل الآخر ، جزعاً أن يسبقه إلى محبة مولاه ويقصر هو عنها فتكون منزلته عند مولاه أحسن
من منزلة الآخر ، نفاسة أن يسبقه إلى الخطوة عند مولاه ، ولا ينال هو الخطوة معه عند مولاه ، كما
نالها هو عند مولاه .

وقال النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين » فهني عن الحسد وأخبر أنه لا يجوز عند الله عز

وجل . إلا فيها ، فقله : إلا في اثنتين أى الحسد فيها جائز .
وقال النبي ﷺ : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله . عز وجل . مالا فسلطه على
هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله . عز وجل . علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس » .
تم فسر في حديث آخر لأبي كبشة الأنصاري عنه : كيف ذلك الحسد ؟ فقال ﷺ « مثل
هذه الأمة : مثل أربعة : رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً ، ورجل آتاه الله . عز وجل . علماً ولم
يؤته مالا . فيقول رب العلم : لو أن لي مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله . فها في الأجر
سوا . ويقول رب المال لو أن لي مثل علم فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله »
فذلك هو الحسد الذي هو منافسة ، أحب أن يلحق به ، وغمه أن يكون دونه ، ولم يحب له
شراً ، وقد تُسمّى العرب الحسد المحرم منافسة . لأنها جميعاً في اللغة حسد ، فيقول الرجل
للرجل : نَفَسْتُ عَلَى : أى حسدته .

وقال قثم بن العباس والمطلب بن ربيعة لما أرادا أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على
الصدقة لعل الله رضى الله عنه حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمر كما عليها . فقالا ماذا إلا نفاسة
منك والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك . أى هذا منك حسد وما حسداك على تزويجك
فاطمة .

قلت : ففسّر لي هذا الحسد الذي هو منافسة تفسيراً تميز به بينه وبين الحسد المحرم .
قال : هو أن يرى بغيره نعمة في دين أو دنيا . فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك
النعمة ، فيحب أن يلحق به ويكون مثله . لا يغتم من أجل المنعم عليه نفاسة منه عليه . ولكن
غمّاً ألا يكون مثله .

فهذا الحسد الذي هو منافسة .

فإن كان الذي رأى بغيره من النعم قياماً بفرض الله . عز وجل . وانتهى عما حرم الله عز
وجل . فعسد على ذلك ، وأحب أن يكون مثله وتمنى ذلك وسأل الله عز وجل ذلك . كان
ذلك عليه فرضاً واجباً أن يحاسده على ذلك ليؤدي فرض الله تعالى . لأنه إن لم يغتم ويحزن بتخلفه
عمن قام بفرض الله . عز وجل . عليه واجتنب ما نهى عنه . ولم يحب أن يكون مثله . كان
عاصياً مقيماً على تضييع الفرائض وركوب المحارم . ولا يغتم بتركها . ولا يحب أن يطيع الله عز
وجل . كما أطاعه الوريثون في القيام بحقه .

وإن كان مارأى بغيره من نعم الدين فضلاً تطوعاً فاغتم أن يقصر عن مثله . وأحب أن

يلحق به ويكون مثله ، فذلك فضل منه وتطوع ، إذ أحب أن يتقرب إلى الله - عز وجل - كما تقرب غيره ، واغتم أن يقصر عن القربة إلى الله ، عز وجل ، بما يحب من طاعته . وإن كان ما رأى بغيره من النعم مباحا له فيما يتقلب فيه من لذته ونعيمه بالفضول فيما أحل له ، فاغتم ألا يكون له مثله ، وأحب أن يلحقه به ، فيوسع عليه كما وسع على من نافسه . وأن يلحق به فيكون متنعما مثله ؛ فذلك مباح له وليس بمحرّم عليه - إلا أنه نقص من الفضل ومن الزهد ، إلا أن يخرج إلى السخط على الله - عز وجل ، فيكون السخط على الله ، عز وجل لا يحل له ، لا أن السخط منافسة ، لأنه يحب السعة والتنعّم بجلال الله - عز وجل - وليس محبته تلك بسخط وإن كانت محبته نقصا من الفضل .

وإن كان ما يرى من غيره محرّما لا يحلّ له كاكسباب الحرام وإنفاقه المال فيما لا يحلّ به . والعمل بالمعاصي ، في التلذّذ بها ، فاغتم أن لا يكون مثله ، وأحب أن يكون مثله ، ويصيب من المال واللذة مثل ما أصاب من ذلك ، فذلك منه لا يجوز له ، ولم يحسده الحسد المحرّم من قبل الغش له ، ولكن حسده حسد منافسة في الحرام الذي لو كان ما نافسه فيه حلالا أو طاعة لحاز ذلك الحسد له ، وإنما أتى ما لا يجوز له من قبل محبته للحرام . لا من قبل أنه حسده حسدا غشا له وحبا للشر ، وكراهة الخير أن يراه به .

وإنما كان ذلك الحسد لا يجوز من قبل تمنيه للحرام ومحبته له وكذلك يروى أبو كبشة الأنصاري عن النبي ﷺ قال : « ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في معاصي الله عز وجل . ورجل لم يؤته الله - عز وجل - مالا فيقول : لو أن لي مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله . فهذا في الوزر سواء »
فدّمه النبي ﷺ من قبل تمنيه الحرام . لا من قبل حسده للمسلم - غشا له وكراهية أن يرى به خيرا من الدنيا .

فهذا أحد الوجهين من الحسد . وهو كراهة التقصير عن منزلة غيره ومحبّة المساواة والحق به . مع ترك الغنى أن يزول عن من نافسه حاله التي هو عليها .
وأما الوجه الثاني فهو المحرّم كله ، قد ذمه الله - عز وجل - في كتابه والرسول ﷺ في سنته . واجتمع علماء الأمة عليه .
قال الله عز وجل :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ^(١)) .

وقال : (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ؟ ! ^(٢))

وقال . (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)

إلى قوله : (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ^(٣))

قيل في التفسير : حسداً .

وقال : (وما تفرقوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) .

فأنزل الله عز وجل العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، فأمرهم أن يجتمعوا بالعلم ويتآلفوا به ، ولا يفرقوا ، فتحاسدوا واختلفوا وتفرقوا . حسداً بينهم ، كل أراد أن يكون له الرفعة والرياسة ، وألا يكون تابعا لغيره ، وأن يُقبل قوله منه ويتبع ، وأحب أن يزول غيره عن الرفعة ، وكره رفعة المتزلة له ، فردَّ بعضهم على بعض ، وخالف بعضهم بعضاً بغياً ، كما قال الله عز وجل ، فتركوا الحقَّ وعاندوه حسداً بينهم .

قال ابن عباس : كانت اليهود قبل أن يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا : نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله ، إلّا مانصرتنا ، فكانوا ينصرون ، فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل وعرفوه كفروا به ، بعد معرفتهم به أنه الذي كانوا يستنصرون الله عز وجل به فقال الله عز وجل :

(وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعَنَّ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، بِشَيْءٍ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا)
أى حسداً بينهم .

وقالت صغية بنت حيي للنبي ﷺ : « جاء أبي وعمي يوماً من عندك . فقال أبي لعمي : ماتقول فيه ؟ قال :

أقول : إنه النبي الذي بشر به موسى . قال :

فا ترى ؟ قال :

أرى معاداته أيام الحياة »

وبذلك وصفهم الله ، عز وجل أنهم على علم كفروا به ، قال .
(يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

وقال : (يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وروى وهب بن منبه : إن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : « الحاسد علو لنعمتي ، راد لقضائي ، ساخط لرزقي الذي قسمت لعبادي غير ناصح لهم » .

وأما السنة في ذلك فإن النبي ﷺ قال : « لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » يرويه عنه عبد الله بن عمر وأبو هريرة ، ثم أخبرهم أن الحسد سيكون فيهم كما كان في الأمم من قبلهم . فقال النبي ﷺ :

« دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمِّ : الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ »

فأخبر أنه سيكون فيهم من الحسد ما كان في الأمم ، وأنه داء الأمم من قبلهم وأنهم منه أتوا ، وبه هلكوا ، ولم يزل ذلك في الكافرين ممن مضى وفي بعض المؤمنين .

وقد روى عن الحسن أنه قيل له : أيكون المؤمن حسوداً .

قال : لا أبا لك ، ما أنساك بنى يعقوب فعلوا بأخيهم ما فعلوا .

وقال أبو قلابة : ما قتلوا عثمان ، رضى الله عنه ، إلا حسداً .

وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة في المؤمن » فذكر إحداهن الحسد .

والحسد المحرم الذي ذمّه الله ، عز وجل في كتابه ، والرسول ﷺ في سنته . كراهة النعم أن

تكون بالعباد ومحبة زوالها .

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : أن يكون العبد إذا رأى بعبد مسلم نعمة في دين أو دنيا ، أو بلغه أنها به كرهها ،

وساءته وأحبّ زوالها عنه .

ومما بين ذلك : قول الله عز وجل :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ ، كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِهِمْ^(١)) .

فأخبر أنهم يودّون أن تزول نعمة الإيمان عن المؤمنين .

وقال : (إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ ^(١)) .

قال ابن عباس : هذه في غزوة تبوك ، وقيل في التفسير : هذا الحاسد

« وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها قيل هذا الشامت » .

وقال : (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ^(٢)) .

قال : (وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) .

ثم أخبرك عن إخوة يوسف حين حسدوا فعبروا بالسنتهم عما في قلوبهم من حسده فقالوا : (لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبُهُ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ^(٣)) .

فكروا اختصاصية أبيه له بالحب من بينهم ، وأرادوا أن يزيلوا حب أبيه له ، وبره به وتفضيله إياه عليهم ، بأن يغيوه عنه ، فيقبل بالحب عليهم والبر ، ويزول ذلك عن يوسف ، فقالوا : (يَجْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ) ليكون لهم إذا غاب حسداً له على حب أبيه وبره وتفضيله إياه . وقول أبي قلابه : ماقتلوا عثمان إلا حسداً ، أي حسدوه على الخلافة فأحبوا أن يزيلوها عنه .

وقال الله عز وجل : حين ذكر الأنصار .

(وَلَا يَجْلُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ^(٤))

أي لا تضيق صدورهم ، ولا يفتنون بما أوتوا من خير حسداً لهم فأننى عليهم بذلك .

باب من الحسد وليس بالحسد بعينه

ومن الحسد ، وليس به بعينه ، المحبة ألا يصير إلى من يحسده خير .

كما قال الله ، عز وجل :

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ^(١))
فالمحبة ألا يصير إليه خير والتمنى له البلاء ، فعل من العبد يكون عن الحسد ، فإن طلب علماً لم
يجب أن يتم له ، وكذلك إن طلب خيراً من خير الدنيا والآخرة لم يجب أن يتم له من ذلك شيء .
وذلك قبل نزول النعم بالعبد .

وأما الحسد : فكراهة النعم وحب زوالها ، بعدما يُمنّ بالنعم على العبد ، فيعلم الحاسد بالنعم
عليه من الله ، عز وجل ، فيغتم لها حيثئذ ، ومحب زوالها .

قلت : فأخبرني عن الحسد الذي هو منافسة مم يكون ؟

قال : ما كان في الدين فن حب طاعة الله ، عز وجل ، والعزم على القيام بها لو أعطى
أسبابها التي بها ينال ، وما كان من دنيا فن حبه الدنيا وحب سعتها والنعم بها .

قلت : فمم يكون الحسد المحرم ؟

قال : يكون من الكبر والعجب ، والحقد للعداوة والبغضاء والرياء وحب المنزلة والرياسة أن
يعلوه غيره ، وشح النفس بالخير عمّا يحده العبد على قلبه ، إذا رأى النعم بغيره في كثير من الناس
من قرابته أو أشكاله أو أمثاله وغيرهم ممّن هو مثله وفوقه ودونه لانسحو نفسه بالخير لهم .
قلت : فبين لي ذلك كله .

قال : أما ما كان من الكبر فإنه يأنف أن يعلوه من كان دونه أو يساويه . أو يعلوه من هو مثله
في دين أو دنيا ، كما قالت قريش : غلام يتيم .

(وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)

وقال الله تعالى يصف كفار قريش :

(لَيَقُولُوا أَهْلَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا^(١)) .

فإذا أنف منه وازدراه ورثه ذلك الحسد له ، فأحب أن تزول عنه نعمة الله ، عز وجل ، غمًا أن يراها بمن لا يستأهلها عنده ، وأنفًا أن يكون من دونه مثله أو فوقه ، فيحب لذلك أن تزول عنه النعمة التي فضل بها لئلا يصير إلى المترلة التي يعلوه بها أو يساويه ، حقيرة له وازدراء له ، لأنه لا يستأهل عنده تلك النعمة ولا تلك المترلة ، ويحمله الحسد له أن يرد الحق حسدًا أن يعلوه به فيرفعه عليه .

باب ما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة

وأما الرياسة والمنزلة عند الناس بالعلم ، فإنه يورث ردُّ الحق وتركه على علم ، كما تفرق أهل الكتاب : حسداً بينهم أن يعلوا بعضهم بعضاً في العلم ، كل واحد منهم يحسد صاحبه الرياسة أن تكون له دونه ، وكذلك المنزلة عند الناس ، فرد الحق أن يقبله وابتدع فقال بغير الحق - ليتبعه الناس على قول هو خلاف قول من يحسده ، وخطأه فيما يقول وإن كان حقاً - وأظهر أن الحق في غيره ، ليصد الناس عنه ، ويطفىء نوره - حسداً أن ترتفع منزلته - أو ينحصر له فيكون عليه رئيساً .

كما كفرت علماء اليهود بالنبي ﷺ ، وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله - عز وجل - ، حسداً أن يرئسوه عليهم ، وتذهب رئاستهم في اليهود ، فيكونوا أتباعاً بعدما كانوا متبوعين . وكذلك في العبادة يكره أن يترأس بها فوقه ، ويُعظم عليه ، فيقع العالم في العالم والعابد في العابد ، خوفاً أن يترأس عليه ، أو يكون فوقه ، أو يعظمه الناس ويجب أن يبتك الله ستره ، وأن يعصى الله عز وجل ، فيفتضح بذلك ، وأن يخطئ على الله - عز وجل - ، في دينه - ويقول عليه بغير الحق ، لئلا تثبت له رئاسة ولئلا تقوم له منزلة ، فيحب أن ينزل به كل ما فيه زوال الرئاسة عنه والتعظيم من الناس .

وكذلك في الرئاسة والمنزلة في غير العامة ، يتحاسد الصاحبان في الحب والمنزلة عند من يصحبانه ، فيحب أحدهما ألا يُفضل عليه في عمل ولا علم ، ولا يرفعه عليه ، فيخطئه فيما يقول ، ويجب أن يهتك ستره عند صاحبه ، ويقع فيه ، ويُقطنه إلى سوء الظنون فيه ، ويضع أمره لئلا يكون أحب إليه منه ، وأن يكون الحب والمنزلة له عنده دون صاحبه . وكذلك الشجاعان في الحرب يُجبن أحدهما الآخر ويقع فيه ، لئلا يعلوه في المنزلة عند من يعرفها ، فيعظم بذلك دونه ، فيقع فيه حسداً ، أو يُغضبه إلى غيره ويحبته عند اللقاء في الحروب .

باب ما يكون من الحسد عن الحقد والعداوة والبغضاء

وأما ما كان عن الحقد والعداوة والبغضاء : فهو أشد الحسد ، وذلك ما وصفه الله عز وجل عن الكفار وعداوتهم وبغضهم للمؤمنين .
فقال : (وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ : مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مِّنْ اللَّهِ عِلْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، إِنَّ تَمَسُّسَكُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ) .
فأخبر أنهم مبيغضون للمؤمنين ، يسوءهم ما يرون بهم من نعمة . حسداً لهم ، لبغضهم وعداوتهم ، فأخرجتهم العداوة والبغضاء إلى الحسد والشهامة ، وكذلك وصف الله عز وجل قلوب المبيغضين .

وقال : (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ) .

قال ابن جريج : يودُّون ما عنتوا في دينهم ، (قد بدت البغضاء من أفواههم) .
وكذلك قوله : (إِنَّ تَمَسُّسَكُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ)

قيل في التفسير هو الحاسد .

(وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) .

فالمبغض لا يجب أن يرى بمن يُبغضُ ، نعمةً عليه من الله عز وجل ، ويجب أن يراه بأسوأ الحال في الدين والدنيا ، فإن نزلت به نعمة ساءته وكرهها ، ولو قدر أن يزيلها عنه لأزالها ، فيتمنى لمن يعاديه ويبغضه البلاء ، ويكره ما به من النعم ، ويجب أن يزول عنه ، ويفرح بما نزل به من بلاء أو ضرر .

والمبغض المعادي لا ينفك من الحسد والشهامة ، إلا من عصم الله ، عز وجل ، وقد يكون عن الحسد الذي عن العداوة والبغضاء القتل وأخذ المال ، والسعاية بمن يحسده وهتك ستره ، وغير ذلك فالمبغض حسده أعظم الحسد وأشدّه .

باب ما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا

وما كان من حب الدنيا : أن ينال ما يرى بغيره من حب أو بر من قرابة أو غيره ، كالإخوة يتحاسدون ، أو أخ يحاسد الأخ عند أبيهما أو أمهما أو قرابتهما . وكذلك الصاحبان أو الشريكان ، فيحسده على ما يرى من حب أبيهما أو أمهما أو برهما أو من صاحبهما أو شريكهما ، ويجب أن يؤثر بذلك دونه ، فيحسده فيقع فيه ويغضه ، ليصرف وجه أبيه أو غيره إليه بالبر والحب .

وكذلك المرأتان والضرتان :

وذلك كما وصف عن إخوة يوسف حين حسدوه في حب أبيه له دونهم . وإيثاره إياه عليهم . إذ قالوا : (كَيْسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ) .

إلى قوله :

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ^(١))
وكذلك بنو الأم وبنو العم ، يتحاسدون ليحظى أحدهم دون الآخر .

وكذلك الرجلان يجرى عليهما قرابة أو غيره ، فيتحاسدان . وكل واحد منهما يحسد صاحبه ، ويجب أن تتضع منزلته عند من يجرى عليهما أو يصلها ، وقد يخرج الحسد الذي يكون من حب الدنيا كالملك والشرف حتى يقتلوا فيقتل بعضهم بعضاً ، حسداً أن ينال من ملك الدنيا أو شرفها أو عزها أو لإكرام أهلها مالا ينال صاحبه .

وكذلك التاجران والصانعان ، يحسد أحدهما الآخر ويجب أن يزول عنه المباع والمستاجر فيبایعه دون صاحبه ويستأجره . فيحب أن خرفاءه صاروا إليه وتركوه . وأن من يبایعه أو يستعمله يدعه وينصرف إليه ، فيقع فيه أو في متاعه أو صناعته . ليغضه إلى من يعامله فينصرف إليه ويدعه .

باب ما يكون من الحسد عن العجب

وأما ما كان من الحسد عن العجب ، فما أخبرنا عن الأمم الماضية فقالوا للرسول عليهم السلام :
(مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) .

وقولهم : (أَنْتُمْ لَيْسَرَيْنِ مِثْلَنَا)

وقولهم : (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ)

فجزعوا أن يفضل عليهم بشراً مثلهم ، فحسدوه وردّوا الحق ، وقالوا :

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ) .

جزعاً وتعجباً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة والنسب فقالوا يتعجبون :

(أُبَيِّتَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟)

وقالوا : (لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ؟) (١))

تعجباً وإنكاراً أن يفضلهم من هو مثلهم .

وقال الله عز وجل عن قول نوح وهود لقومها :

(أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ) (٢) ؟

فحسدوه فردّوه الحق وعاندوا الإيمان .

وكذلك الحسد في الأشكال والأمثال . في النسب أو في القدر أو في الغنا أو في التجارة أو في

الصناعة أو في الولاية يتحاسد بنو الأم والأب وبنو الأعمام والإخوة أكثر ذلك دون سائر الناس .

فيحسد بعضهم بعضاً ولا يكادون يحسدون غيرهم من الغرباء .

وكذلك العالم يحاسد العالم ولا يكاد يحاسد غيره .

• وكذلك العابد يحسد العابد ولا يكاد يحسد العالم . بل يخضع له ويذل . ويحسد المتعبد مثله

لأن العالم ليس مثله فيحسده .

وكذلك أهل التجارات ، يسرع الحسد من أهل كل تجارة إلى من شاركهم فيها دون سائرهم

من التجار ، كالبرازين ، يحسد البرّاز البرّاز مثله ، يسوءه ويغمّه مايرى من نفاق سوقه وأرباحه ، ولا يكاد يحسد الجزائريين والصيارفة وسائر الباعة ومن ضامه في سوقه من أهل تجارته كان الحسد منه إليه أسرع ممن تباعد عنه وإن كان من أهل تجارته .

وكذلك من دنا منه من القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه .

ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى أبي موسى : إن الأقرباء يتزاوون ولا يتجاوون .

ومن ذلك : أن أهل نجران أتوا عمر ، رضى الله عنه فقالوا : إنا قد تجاورنا ففسد ما بيننا فأجلنا عن بلادنا .

فالقرب من المجاورة وغيره في الحسد أسرع ، والأشكال والأمثال . الحسد من بعضهم إلى بعض أسرع منه إلى غيرهم ، يحسد القوم عالمهم ويعظمون العالم الغريب لأنه ليس مثلهم ولا يساويهم في النسب أو الجوار .

ومن ذلك ما يروى : أن كعباً قال لأبي مسلم الخولاني : كيف أنت في قومك ؟ قال : مُطاع ، قال كذبتني إذا التوراة ، ما من حكيم في قوم إلا حسدوه وكبروا عليه .

ومن ذلك ما يروى هشام بن عروة عن أبيه قال : كان يقول لنا : يابني إنه كان يقال : إن أزهد الناس في العالم أهله ، فقد يكون ذلك من الحسد ويكون من غيره وقد يزهّد القوم في الرجل ، يكون منهم حسداً له فيحسد القوم العالم منهم إنكاراً وتعجباً ، كيف يفضلهم من هو مثلهم ومنهم ؟ .

وكذلك الشركاء ، وكذلك من النساء الضرائر ، ومنه قول أم رومان لعائشة : قالت لها : لما رماها أهل الإفك يابنية خفّضى عليك الشأن ، أى هونى عليك هذا الأمر ، فإنه قلّ امرأة وضيفة عند رجل لها ضرائر إلا أكثرت عليها .

وكذلك المشتركات في عامة الأشياء من النسب والتجارة والبضاعة والشجاعة والجمال والقوة والصوت والعمل والعلم ، يسرع الحسد من بعضهم إلى بعض مالا يسرع منهم إلى غيرهم . فهذه مذاهب الحساد .

فجملة الحسد المحرم من الحاسد كراهة مايرى من غيره من النعم وحب زوالها عنه . وجملة الحسد الذى ليس بمحرم إلا أن يستعمل الحاسد بعضه فيما لا يحل ، كالمنافسة في الحرام ، وهى المنافسة في خير الدنيا والآخرة : أن يحب مايرى بغيره من النعم أن يكون مثله . وأن

يناله ماناله ، غبطة منه له ، فأحب أن يكون مثله فيما يغبطه ، ويكره أن يكون دونه في الخير ، ولا يكره له ما يرى به من النعم ، إنما يكره لنفسه أن يصغر به دونه ، فيحب للحق به ولا يحب زوال النعم عنه .

وأما شح النفس وقلة سخاها بالخير للعباد فذلك شر الحاسدين ، ولا يحسد لمخى عداوة ولا غيرها . أكثر من أنه لا تسخو نفسه للعباد بما من الله عز وجل عليهم ، غمًا يحده على قلبه أن رأى بغيره نعمة لغير عداوة يعرفها ولا غير ذلك ، أكثر من شح نفسه بالخير لهم نقاسة منه أن يصل إليهم خير .

قلت : فبم ينق الحسد المحرم الذى يكره صاحبه ما يرى من النعم بغيره ويحب زوالها عنه ؟ قال : يسير من الأمر أن تعلم أنك قد غششت من تحسده من المسلمين ، وتركت نصيحته ، وشاركت أعداءه : إبليس والكفار فى محبتهم للمؤمنين زوال النعم عنهم ، وكراهة ما أنعم عليهم به ، وأنت قد سخطت قضاء الله عز وجل ، الذى قسم لعباده ، فإذا علمت ما قد دخل عليك من هذا الضرر العظيم بغير منفعة فى دين ولا دنيا ، ردعك ذلك عن الحسد ، إن كنت مؤمنًا بالله عز وجل . خائفًا على نفسك من غضبه وعقابه . فلم تتعرض لوجوب غضبه عليك من غير اجترار منفعة فى دين أو دنيا صارت إليك . ولا هى إليك صائرة لو زالت النعمة عن من تحسده لأنها إن زالت عنه لم قصر إليك ، فلا يتعرض لهذا الضرر العظيم الذى يوجب سخط الله عز وجل . بغير منفعة فى دين ولا دنيا نالها مؤمن عاقل .

وأيسر من ذلك كله أن لو كان الذى تحسده أبغض الناس إليك وأشدّهم عداوة لك أنه لا تزول النعمة عنه بحسبك له ، لأن الله عز وجل لو أطاع الحاسدين فى المحسودين لما بقى عليهم نعمة ولكن يمضى نعمه وقسمه لعباده ، ولا ينظر إلى حسد الحاسدين ، ولو فعل بالمحسودين ما يحب الحاسدون لهم ، لما بقى على النبيين صلوات الله عليهم أجمعين نعمة . ولأفقر الأغنياء لحسدهم لهم ، ولأفضل المؤمنين لحسد الكافرين لهم ، ولكن الحسد على الحاسد ضرره والنعمة جارية على من أراد الله عز وجل أن يتمها عليه إلى الوقت الذى أراد وقدره ، ولا ينظر إلى حسد الحاسدين .

ألا ترى إلى قوله عز وجل :

(وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ^(١))

فبجنبهم أن يضلّ المؤمنين ضلّوا بذلك ، لأن تلك المحبة لهم ضلال لأنهم أحبوا أن يرجع المؤمنون ضلّالا ، وذلك هو الضلال : أن يكفر بالله عزّ وجل ، فمن أحب أن يكفر بالله تعالى ، فهو كافر ، فازدادوا كُفْرًا بحسدهم مع غشهم للنبي ﷺ والمؤمنين .

ولمّا مثل الحاسد فيمن عاداه أو باهاه أو تكبّر عليه أو تعجّب عليه أو تفصّل عليه ، مثل رجل أراد أن يرمى عدوّاً له بحجر ، فلما رماه له رجع الحجر على عين الرامي فأصابها . وأعاد الرمي فرجع الحجر أيضاً على عينه فأصابها . حتى فعل ذلك مراراً كل ذلك لا يصيب عدوه . ويرجع الحجر عليه فيقع بعينه . وكذلك إن رماه بسهم أو بغير ذلك . كل ذلك يرجع على عينه ولا يصيب عدوه ، فلم يك هذا أبداً ليرمي عدوه ، وقد علم وتبين له أنه لا يصيب عدوه . وإنما يصيب نفسه .

فكذلك الحاسد : قد كان في نعمة قبل أن يحسد من حسده . وهي نعمة السلامة من الحسد ، فلما حسد وأحب زوال النعمة عنه . زالت عن الحاسد النعمة التي كانت عليه . وهي نعمة السلامة من الحسد ، فتزول عنه سلامته من الحسد ونصحته للمؤمنين وينزل به من المكروه والإثم أعظم مما أراد بمن يحسده وتبقى النعمة على المحسود لم تزل عنه

فإذا كنت أردت زوال النعمة عن غيرك . وأن ينزل به المكروه بزوالها عنه فلم تزل عنه بإرادتك . ولم ينزل به مكروه لمحبتك له المكروه ، وتزول عنك النعمة بتلك المحبة وينزل بك أت المكروه من الإثم . ولعل الله عز وجل أن يسخط عليك بذلك . فأنزلت بنفسك ما أردت بغيرك . وربما كان أكثر مما أردت به ، لأنك إن أردت أن تزول عنه نعمة الدين وينزل به الإثم . فقد نزل بك ما أردت أن ينزل به . وسلم هو مما أردت به .

وإن كنت أردت أن تزول عنه نعمة دنيا وأن ينزل به مكروه في الدنيا فقد أنزلت بنفسك من الضرر أعظم مما أردت به . ولم تزل عنه نعمة ولا تنزل به مكروه مما أردت به .

وكذلك قال الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

فهل بينك وبين الرامي بالحجر لعدوه إذ رجع الحجر على عينه فرقان ^(١) ؟ بل أنت أعظم بلاء وضرراً . لأنك إذا حسدته فقد تعرضت لسخط الله عز وجل فيه . وأثمت برّتك ولم تزل عنه النعمة . ورجع عليك عقوبة الإثم . فصارت في عينك . فذهبت بها . وكُتِبَ عليك إثم تؤخذ

به في الآخرة ، وتستوجب به غضب الله عز وجل ، فلو رجع الحجر على عينك بدل الإثم ، كان خيراً لك ، لأن عينك ذاهبة بالموت والبلاء لا محالة ، وإثم الحسد لا يبلى ولا يمحي حتى يوقفك الله عز وجل عليه ، ويسألك عنه ، ثم لعله يكون آخره الطامة الكبرى ، غضب الله عز وجل عليك من أجله ، فلأن تذهب عينك في الدنيا خير لك من أن يكون لك عين في النار ، ثم لا تلبث أن يُعميها العذاب ، أيها أيسر حالك أو حال من رجعت رميته إلى عينه ولم تصب عين عدوه ؟ فهو أيسر منك حالا وأنت أشد منه بلاء وضرراً ، إذ لم تزل النعم عمن حسدته ، وزالت عنك النعمة التي كانت عليك من سلامة قلبك من الحسد للمؤمنين ، فأنزلت بنفسك ما أردت بخيرك أو أكثر ، ولم يُرك الله عز وجل ، فيه الذي تحب ، وبقيت النعمة عليه على الرغم منك والجزع منك ، وما دخل عليك من الضرر في دنياك أعظم عليك ، إذ لم تحف الآخرة إذ نزل النعم بقلبك ، كلما رأيت به حسنة أغممت بها وتعذب قلبك بالغم بها فإله عز وجل يُنعمه بطاعته أو بالدنيا وتعذب قلبك بحسده .

فأنت مغموم وهو مسرور ، فعذبت نفسك بنعم غيرك ، بغير منفعة دخلت عليك ، فأنزلت بنفسك الغم بخيرك ، وأثمت وتعرضت للعذاب والعقوبة ، فلن يحفل هذا الوصف عاقل . ولا يقيم على الحسد بعد هذا الوصف لييب ، إذا تفكّر فعقل ما يضره مما ينفعه ، إذا كان مؤمناً ، بل الكفار لو تدبروا هذا الوصف لردعهم ذلك عن الحسد ، وإن كانوا لا يؤمنون بالبعث والحساب ، إن علموا أن قلوبهم معذبة بالغموم لنعم الله عز وجل على خلقه ، والنعم على المنعم عليه جارية غير زائلة ، فلم يُعطوا ما أرادوا ، وعذبوا أنفسهم بالغم ، وتنعم أولئك بما يتعذبون به . فما من كافر لا يؤمن بالبعث يعرف هذا الوصف ، إلا ردعه عن الحسد ، إن كان له عقل ، من أجل دنياه دون آخرته ، فكيف من آمن بالبعث ، وعلم أن في الحسد الإثم الكبير ، وأنه لا يأمن غضب الله عز وجل في ذلك ؟ فذلك أولى ألا يعترض الحسد بقلبه لخطره ، فضلاً عن القبول له ، إذ كان بهذه المتزلة ، فذلك ينفي الحسد حين يعترض ، ومن كان معتقداً له عرفه ، وأعطى العزم ألا يعود فيه ، ويحذر فيما يستقبل .

وأيضاً مما يقوى على نفي الحسد من قلبك بعد قبوله ، وردّه حين يعرض في القلب أن تعلم أن الحسد في الدنيا والدين من حسد إبليس لك ، إن كانت نعمة من الدين بأحد من المؤمنين وكان المنعم عليه بها فوقك في الدين أو مثلك أو دونك ، فإن كان فوقك فلم تلحقه بعملك فتعمل مثل عمله أو تعلم مثل علمه كرهًا وحسدًا إذ فاتك اللحاق به في العلم أو العمل ، فتكون مثله ، فكره إبليس

٤٠٣

لك أن تحبه على ما وهبه الله من ذلك ، وحسدك أن تشركه بمحبتك له على ذلك ، فتضرب بالشركة معه إذا أحببته على ذلك لما صنع ، وأحبيت أن تكون مثله ، فألقى في قلبك الدعاء إلى حسده وحب زوال النعمة عنه لأن لا تضرب معه بسهم الحب إذ فأنك العمل والعلم ، فبغضه إليك وحبب إليك زوال النعم عنه ، لأنه علم أنك إن أحببته على ذلك ، وفرحت له بما أنعم الله عز وجل عليه ، شركته في الأجر ، فألقى في قلبك الكراهة لعمله وعلمه ، وحب زوال النعمة عنه لأن لا تلحق به بمحبتك إذ عجزت أن تلحقه بعملك .

ألا ترى إلى قول الأعرابي للنبي ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، حين سأل النبي ﷺ عن ذلك ، فقال النبي ﷺ : « هو مع من أحب » يرويه عنه صفوان بن عسال . والأعرابي الذي سأله عن قيام الساعة فقال : ماذا أعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله ، يعني على طاعتهم حباً لطاعتهم ، فقال النبي ﷺ : « أنت مع من أحببت » قال أنس : فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . يخبرك : أنه كان أوثق أعمالهم عندهم بعد الإسلام .

ومنه قول أبي موسى « قلت : يا رسول الله ، الرجل يحب المصلين ولا يصلي ، ويحب الصوم ولا يصوم ، حتى عد أشياء ، فقال النبي ﷺ : « هو مع من أحب » . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : إنه كان يقال : إن استطعت أن تكون عالماً أو متعلماً فكُنْ ، فإن لم تستطع فأحبيهم ، فإن لم تستطع فلا تبغضهم ، قال : سبحان الله ، لقد جعل الله عز وجل له مخرجاً .

فأراد العدو أن يصدك عن أفضل الأعمال لك ، مقصراً كنت أو عاملاً ، لأنك إن كنت عاملاً فأحبيت من سبقك من النبيين والصديقين فسررت بطاعتهم ، شركت معهم بالحب وكنت معهم ، كما قال النبي ﷺ .

وإن كنت مقصراً في العمل ففانك العمل ، لم يُفك أن تكون معهم بمحبتك ، فصلك عن ذلك إرادة ألا تلحق بهم بمعنى من المعاني ، ولم يرض أن عرضك لحرمان اللحاق بهم حتى دعاك إلى بغض فعلهم أن تكون منهم ، وإلى بغضهم ، والغش لهم ، وحب زوال الطاعات عنهم ، ففانك أن تلحق بمن حسده ، وازددت إثمًا ، وازددت في الدنيا غمًا ، فياليتك إذ فأنك اللحاق به وازددت غمًا في قلبك ، سلمت من الإثم ، ولكن مع ما فأنك من اللحاق به أئمت

فاستحققت أن تهلك فيما ينجو به من حسدته ، فأثمت ولم تكف ورعاً ، ولو كففت عن الحسد ورعاً لأجرت وسلمت ، فأثمت على ما يوجب به من حسدته .
وقد جاء الحديث : « أهل الجنة ثلاثة : المحسن والمحبُّ له والكافُّ عنه » وذلك أن تكف عنه ورعاً فتجب لك الجنة بذلك .

فلينظر الحاسد على من أدخل الضرر . ومن حرم الخير وزالت عنه النعم . ومن غبن . هو أو من حسده ؟ !

ولو كان يضرب المحسود حسد الحاسد له فيزيل عنه بحسده له النعم . لدخل عليك أعظم الضرر ، لأنك لا تعري أن يحسدك غيرك ، فلو كان الحسد يضرب المحسود لما بقيت عليك نعمة إذ كنت لا تعري أن يحسدك حاسد . فيحب زوال النعمة عنك ، فإن أردت ألا يطيع ربك عز وجل فيك الحاسدين فأنت أهل ألا تحسد عباده . اتباع محبته وشكره له على ذلك . ولو لم يكن في الحسد إثم لكان أهلاً أن لا تعصيه . إذ يتم عليك نعمه ويرجع الحاسدون بحسراتهم . منكسرة شهواتهم ، ومحبتهم وإرادتهم مردودة عليهم ، مع زوال النعم عنهم في دينهم ، تفضلاً منه وتكراً وامتناناً أن لا يعطى الحاسدين فيك ما يحبون ، فاشكره على ذلك .

فدع الحسد الذي لم يطع به غيرك فيك لو كان هو الحاسد لك ، فارض بما قسم لعباده ، فإنك إن لم تفعل خالفت محبته ، وبارزته بالخلاف فيما أوجب . وما آمن أن يزول عنك من النعم في الدنيا والدين سوى ما زال عنك من نعمة السلامة والنصيحة قبل أن تحسده فينزل بك ما تمنيت بغيرك ، عقوبة من الله عز وجل ، لأنه يقول تعالى :

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ^(١))

وذلك كالماكر ، إنما أراد أن يفعل سوء بغيره . فحاق به ما أراد بغيره ، وكذلك الحاسد : لا يأمن أن ينزل به من البلاء وزوال النعم مثل ما أحب للمؤمنين .

وقد يروى عن بعضهم أنه قال : ما تميت لعمان رضى الله عنه شيئاً إلا نزل بي . حتى لو تميت له قتلاً لقتلت .

فلو لم تدع الحسد - خوفاً من عقوبة الآخرة - إلا خوفاً من عقوبته في الدنيا أن ينزل بك مثل ما تمنيت لمن حسدته ، وساء لك ما أنعم عليه به ، فلا ينعم الله عليك مثل ما أنعم عليه به إذ

سأعك تفضل الله عز وجل عليه . فتخوف بلاء الدنيا وزوال النعم فيها . كان ينبغي لك أن تدعه لو أمنت عقوبة الآخرة . ومالك أن تأمن ذلك وقد ذمه الله عز وجل . والرسول ﷺ وسخطه الله عز وجل . وسخط على من اعتقده . أخبرك بذلك في غير موضع في كتابه . يذم أهل الحسد . ويخبرك أن الأمم الماضية هو الذي فرق بينها . وألقى الاختلاف في دينها . ولو لم تخف عليك عقوبة آخرة ولا دنيا ولم يكن عليك فيه إثم . كان ينبغي عليك أن تدعه لتعذيب قلبك بالغم من غير أن تصير إلى ما أردت لمن حسدته . فلو لم تدعه إلا لذلك . كنت حرراً أن تدعه من أجل ذلك إلا أن تكون معتوهاً لاعقل لك إذ عذبت قلبك بالغم ولم تدرك ماتريد .

وإنما فسرت لك هذه الخلال التي بها ينفي الحسد إن لم تسخ نفسك بترك الحسد بالخلة الأولى . فعسى أن تسخو أن تتركه بالخلة الثانية ، فإن لم تسخ بالثانية فعسى أن تسخو بالثالثة ، أو الرابعة فتدبر ذلك ، وناصح نفسك ، فإنه قد شمل عامة أهل الدين والدنيا . ولقد عجل لك بعض عقوبة الحسد في الدنيا ، بما لزم قلبك من الغم وضيق الصدر وكثرة الهم بغير اجتلاب دنيا ، مع ذهاب الدين بغشك بنفسك للعباد وبسخطك قسم الله عز وجل لهم وغمك بفرحهم .

باب متى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد ؟

قلت : قد بينت الحسد وعظمت ضرره . فأحب أن أنجو منه بعلم ، فما الدليل إذا ذكرت نفسي ما وصفت مما يُبنى به الحسد - أن أعلم أني قد نفيت عن قلبي وجانبته ؟ وقد أجدني أذكر نفسي بعض ما وصفت ، ومنازعٌ ينازعني من نفسي بالكراهة للنعمة التي أنعم الله بها عليه وحب زوالها .

قال : إنك لا تقدر أن تُسكِتَ عدوك إبليس ، ولا تغَيِّرَ طبعك ، فتجعلَ خلقَ نفسك خلقاً لا تنازعك إلى حسد من عاداتها ، أو اختص بشيء دونها ، أو تريد أن يكون لها دونها . فلا تكاد تملك نفسك إذا خطر العدو بتذكير الحسد ، أو لا يتحرك الطبع ، ولم تُكلف ذلك أن تجعل طبع نفسك بيئة لا يغفل ولا يسهو ، ولا ينازع إلى محبوب ، ولا مكروه ، فذلك طبع الملائكة . وإنما كُلفت أن تعقل بعقلك عن الله عز وجل ، فلا تمل إلى غير طاعته ، فإذا أردت بعقلك ، بما استودعه الله عز وجل : من المعرفة بضر الحسد على منازعة طبعك ودعاء عدوك . فكنت من قِبَل عقلك كارهاً لما نازعك إليك طبعك . أياً لذلك ، فلم تركز إليه من قِبَل عقلك كراهة له .

نجوت من الحسد .

وكذلك جميع ما نازع من دواعي الشر في القلوب ، فإذا كنت للحسد كارهاً أياً له من قِبَل عقلك ، فلا تضرك منازعة نفسك به وخطرات العدو .

وقد روى عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة في المؤمن ، له منهم مخرج : الطيرة . والحسد ، والظن ، فمخرجه من الطيرة ألا يرتد ، ومخرجه من الحسد ألا يبغي ، ومخرجه من الظن ألا يحقق » .

فأخبر النبي ﷺ : أن من لم يبغي فقد خرج من الحسد إذ لم يبغي له الشر ولم يحب زوال النعم عنه .

باب الرد على من قال إن الحسد بالجوارح وأنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم يیده بفعل جارحة ، وبيان خلافه للعلم

قلت : فما معنى قول الحسن ، وسئل عن الحسد ، فقال : غمّه ، فإنه لا يضرّك ما لم تبده ؟ قال : معنى ذلك صحيح ، لأنه إذا غمه ولم يیده فلم يدع إبداءه إلا من كراهيته له ، فذلك الذى وصفت لك من الردّ بالكراهية ، لأن الكراهية منته أن يیده ، فيستعمله بلسان أو جارحة ولو أنه لم يبال أن يیده ولم يغمّه ، كما قال الحسن ، ولكن لم يجد له موضعاً ولا أحداً يیده إليه ، وقد يكره ويسوءه ما أنعم الله به عليه ، ويحبّ زوال ذلك عنه ، لكان حاسداً ، لأن الحسد إنما هو بالقلب ، وإن يستعمله باللسان أو اليد كان أعظم ، لايمه ، كما فعل إخوة يوسف ليوسف .

فإذا استعمله بالكذب عليه والغيبة له ، أو الكلام أو الواقعة فيه عند من يقبل منه ، فيحرمه الخير : من علم يعلمه ، أو صلة يصله بها ، أو معونة يعينه بها ، أو الدعاء عليه ، أو الأذى له بالجوارح ، وذلك كله ليس بالحسد ، ولكن عمل عن الحسد ، بعته عليه الحسد ، حتى استعمل جوارحه بما يكره الله عزّ وجل ، فيمن حسده ، ولو كان هذا هو الحسد لكان هذا الفعل من العباد لرغبة أو خوف أو طلب دنيا حسداً كله ، فكان جميع إساءة العباد بعضهم إلى بعض حسداً ، فكانت معاصي العباد بعضهم في بعض حسداً ، فلم يعص أحد في أحد إلا بحسده ، وهذا ما لا يقول به أحد يعلم أو يعقل ، فالحسد بالقلب .

وكذلك وصفه الله ، عزّ وجلّ ، من الحاسدين ، فقال :

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ) .

وقال : (مَا يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ

رَبِّكُمْ)^(١)

وقال : (وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلَوْنَكُمْ)
 وقال : (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا)^(١) .
 قوله الح . ب كراهية القلوب للحسنات التي يمين بها على المؤمنين : من نصر أو فتح أو خير
 وحب أن يزول عنهم إيمانهم ، فأضاف الله عز وجل . الحسد إلى فعل القلب ووصفه به ، فهو
 بالقلب دون الجوارح .
 فإن غمّه وترك إبداءه كراهية له . فقد نفى من فابه أن يعمل به فأهلك جوارحه عن
 استعماله ، لما نهاه بالكراهية . وإن كان لم يقدر أن يسكت عدوه ولا يسكت طبعه أن ينازعه ،
 وكذلك قال الحسن ، لأن العبد لا يقدر على تغيير طبعه ولا إسكات عدوه . فإن غمّه وترك
 استعماله كراهية له وآيياً أن يقبله . فقد نفى الحسد عنه . فكف الجوارح أن يستعمله فيما نازعته
 نفسه إلى حسده . لما نهاه الله عز وجل عنه .
 وإنما فسرت ذلك لأن طائفة تقول : إن الحسد إنما يضرب إذا استعمله العبد بجوارحه . ويحتج
 بحديث الحسن هذا ، فيذهب قولها : إن الحسد بالجوارح لا بالقلب ، وقد دلنا الله عز وجل أنه
 بالقلب ، واستعماله بالجوارح عمل عنه .
 ألا ترى أن الله عز وجل يقول : (وَلَا يَجْنُونَ فِي ضُلُوبِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا)^(٢) .
 فذلك بذلك أن الحسد في النفس دون الجوارح واستعماله بالجوارح عمل عن الحسد لا الحسد
 بنفسه .

باب هل على الحسد مظلمة للمحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه له ؟ أو هو ذنب بينه وبين الله عز وجل

قلت : فإن ساءنى مارأيت من النعم وتمنيته ، زوالها ، فينزله به من البلاء ما يزول عنه كالغنى يزول عنه وينزل به الفقر ، أو الصحة ، فينزله به المرض - أو العلم ، فيحله به الجهل أو العصمة ، فيحله به الخذلان ، أو السر فيحله به هتك السر ، ثم ندمت على ذلك ، أياكون للمحسود عندى مظلمة يجب على التحلل منها ؟

قال : أما ما كان من عمل القلب ولم تستعمل به جوارحك . فذلك ذنب بينك وبين الله عز وجل ، عصبته به فى عباده . نهاك عنه وذمه إليك ، فليس عليك فى ذلك للمحسود تبعه ، ولا يجب عليك استحلاله .

فإن خرجت إلى غيبة أهاجك عليها الحسد الذى فى قلبك ، أو تكذب عليه ، أو تقتله بغائلة تحرمه بها منفعة ، أو تنزل به مكروها ، أو أخذ مال لا يحل لك من ماله ، فعليك الاستحلال من ذلك وما أشبهه .

وأما ما لم يعد القلب فهو ذنب عظيم ، لا يجرى مجرى المظالم التى فيها القصاص بين العباد فى عمل الجوارح فى النفس والأموال والأعراض ، ولرب شئ لا قصاص فيه أعظم من كثير مما فيه القصاص .

وقد جاء فى الحديث : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .
فالحسد ، كما أخبرتك بالقلب ، واستعماله بالجوارح عمل عنه ، ولو كان استعماله بالجوارح حسداً لكانت الغيبة حسداً ، والكذب والضرب حسداً ، والقتل حسداً والسرقة حسداً ، وذلك كله معاص ، وقد يكون عن الحسد ، وعن الكبر ، وعن الرياء ، وعن حب الدنيا وعن خوف الفقر ، فقد أخطأ مَنْ تأول ذلك ، وخرج من معقول الدين .

کتاب تادیب المرید وسیرته، وتحذیره

باب الفتنة بعد هدايته

قلت : كيف تكون سيرتي في ساعات ليلى ونهارى ، وكيف أحسب على قدر أحوالى ؟

قال : إن الله عز وجل يقول :

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) الآية (١)

قال ابن جريج : روح ونفس في جوف الإنسان ، بينهما في الجوف مثل شعاع الشمس . فإذا توفى الله عز وجل ، النفس - كان الروح في جوف الإنسان - فإن أمسك الله عز وجل ، نفسه أخرج الروح من جوفه ، وإن لم يمته أرسل النفس فرجعت إلى مكانها قبل أن يستيقظ .

وقال ابن عباس : مثل ذلك - إلا أنه قال : النفس العقل - فأخبرنا ربنا - عز وجل - أنه يتوفى الأنفس في النوم فوجب علينا الحذر من ذلك . ووجب علينا في الحذر التطهر من الذنوب ووجب علينا في التطهر أن نريد بذلك الله وحده لا غيره وشاهد إرادة الله ألا تهتك ستر المعصية ولا تقبل خاطراً يدعو إلى مخالفته - إذ كان هو المتولى لتحذيرنا من بغية الموت على غفلة منا عند منامنا - نعمة منه علينا ورحمة لنا .

وكان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال : « باسمك اللهم أموت وأحيا »

وكان ﷺ : « إذا نام قال حين يضطجع : اللهم إن أمسكت نفسي فاعفها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »
خائف أن يموت في منامه . يدعو بالمغفرة إن قضى موته في منامه ، وبالحفظ والتوفيق إن استيقظ حيا .

وكان بعض العلماء إذا أراد أن ينام قال لأهله السلام عليكم يا أهلاه ، فودعهم خوفاً ألا يستيقظ وأن يتوفاه الله عز وجل في نومه ذلك

فحقّ على المرید الخائف من الله عزّ وجلّ . ألا يأمن بغته الموت على كل حال . وفي منامه حين ينام . فيخاف أن يموت في منامه ، وألا يقوم منه . فإذا ألزم قلبه الخوف لذلك فحقّ عليه أن يحقّقه بالحدّز أن يقبض الله . عزّ وجلّ . روحه في نومه وهو مصرّ على بعض ماكره الله عزّ وجلّ ، من ركوب بعض نيه أو تضييعه بعض حقّه . فيعطى الله . سبحانه . التدمّ على ما كان منه ، والعزم على التوبة أنه إن أصبح حيّاً اجتنب كل ما يكره الله عزّ وجلّ ، وأداء ما وجب عليه وردّ ما أمكنه من المظالم إلى أهلها : من مال أو استحلال في عرض . فإن مات في منامه لقي الله عزّ وجلّ مغفوراً له ذنوبه إن شاء الله . وإن أصبح حيّاً كان عزمه على التوبة مهيجاً له على الحياء من الله عزّ وجلّ ، لأن العبد أقرب ما يكون من العزم أشدّ ما يكون من الله عزّ وجلّ حياءً إن عقل أن يقول لنفسه يانفس إنما عاهدت الله عزّ وجلّ البارحة أنتفضين عهدك إياه سرّياً ؟ لم تفّ له بعزمك يوماً واحداً ؟ ثم تجدد التوبة في القابلة إن عشت عند نومك .

فكلما أصبحت حملت الله عزّ وجلّ إذ أبقاك ولم يتوفّك في منامك ، كما كان النبي ﷺ يقول إذا استيقظ من منامه : « الحمد لله الذي أحياني بعد ما أمانتي ولم يتوفني في منامي » ثم تأخذ نفسك بالوفاء بالعزم . وتذكرها قرب العهد . وتهيجها على الحياء من الرب جلّ وعزّ . فكلما نمت جددت العزم وذكرت الموت للعبارة بالنوم . لأنك كالميت وقد سمّاه الله عزّ وجلّ وفاة ، وتخاف الله عزّ وجلّ أن يتوفّك في نومك .

فإذا أصبحت ذكرت النشور . والبعث والعرض على الله عزّ وجلّ . لأن الله عزّ وجلّ سمّاه بعثاً . وهو شبيه به . وكان النبي ﷺ إذا استيقظ ذكر النشور . فقال : « اللهم بك أحيأ وبك أموت وإليك النشور » .

فإذا استيقظت فأول ما يتبدى به حمد الله عزّ وجلّ ، إذ أيقظك ولم يتوفّك وتذكر النشور . ثم إذا أردت أن تقوم أخذت ثوبك فنويت به السرّ كما أمرت بالسرّ وحياء من الله عزّ وجلّ وملأته . وتسترّ من أعين الجن ومَن حضرك من الإنس . ثم تأخذ سواك إن أمكنك . فتستاك تنوى به طهارة فيك . ومرضاة ربك . واتباع سنّة نبيك ﷺ . ثم تتغوط إن احتجت إلى ذلك . لإلقاء الأذى عنك . لثلاث تصلي وهما يدفعا نيك . تتبع بذلك ما أمر به نبيك ﷺ ، فإذا دخلت الخلاء لحاجتك قلت كما كان النبي ﷺ يقول إذا أراد الخلاء : « بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا خرجت قلت كما كان النبي ﷺ يقول : « الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى في ما ينفعني »

ثم تتوضأ ، فتغسل يديك ، اتباعاً لسنة نبيك ﷺ . تستنجي بشمالك : مفاضة واتباعاً لمحبة ربك عز وجل . إذ يقول :

(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ^(١) .

لأنها نزلت في أهل قباء إذ استنجوا بالماء ، ثم توضئ أطرافك لأداء فرض الوضوء الذي أوجبه عليك ربك عز وجل . لتؤدى فرض الصلاة التي لا يقبلها الله عز وجل إلا به . ولما أوجبه الله عز وجل ، ولقول النبي ﷺ « لا تقبل صلاة بغير طهور » ففي هذا دليل على أنها بالطهور مقبولة ممن رحمه الله عز وجل

فلتلتزم قبلك مع أدائك الفرض الأمل والرجاء أن يقبل الله عز وجل صلاتك فكلاما استنشقت . أو تمصصت . أو وضأت طرفاً من أطرافك ، أملت كفارة ما أصبت من الذنوب بجوارحك ، كما قال النبي ﷺ : « إنه يكفر عن العبد المؤمن ما أصاب بموضع الوضوء من الذنوب » . لأنه قال : « إذا غسل يده كفر ما أصاب من الذنوب . حتى عد مواضع الوضوء من الذنوب » .

فإذا فرغت من وضوءك أتيت مسجدك . ونويت بإتيانك المسجد أداء الصلاة في الجماعة اتباعاً لسنة نبيك ﷺ . ومعاونة المسلمين على أداء الفرض ورجاء الرحمة بدعاء من يحضر معك من المؤمنين . وأنت زائر لله عز وجل وتأمل بزيارتك ما قال سليمان : « من أتى المسجد فهو زائر الله . وحق على المزور كرامة الزائر » . فتأمل أن يكرمك الله عز وجل . برضوانه عنك وجنته . فإذا قضيت صلاتك نظرت أيها أفضل . وأوجب لزومك المسجد ، أو دخولك منزلك ، أو غدوك لمعاشرتك ، أو لير واجب . أو تطوع . فأى ذلك كان أولى بك فإنه

فإن دخلت منزلك ذكرت الإشفاق الذى وصف الله عز وجل به أوليائه الذين أباحهم الله عز وجل جواره . وأدخلهم داره . إذ قالوا حيث استقرت بهم الدار : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » قد اغتبطوا في إشفاقهم وأهلهم . فالزم قلبك الإشفاق رجاء أن تأمن به في الجنة مع المشفقين من أوليائه . فإن زل أحد منهم نيتته لتضى أمر الله عز وجل فيهم : بأن تقيم نار جهنم

لقوله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) ^(٢)

قيل في التفسير : أدبهم وعلمهم .

فإن أردت أن تخرج في حاجة أو إلى سوقك ، فقدم النيات قبل خروجك . وإن قدرت ألا تدع شيئاً ترجو أن تطيع الله عز وجل في طريقك أو في حاجتك أو في سوقك أن تنوي به . فافعل . فإن أجرك على قدر نيتك

ألم تسمع إلى ما روى كعب : أنه وجد ثلاثة أسطر في كتاب الله عز وجل . « أن الشهيد ثلاثة : رجل خرج في سبيل الله يحسب ماله ويكثر جماعة المسلمين بنفسه . لا يريد أن يقتل ولا يقتل . أنه سهم غرب فقتله ، فذلك تغفر له ذنوبه بأول قطرة قطر من دمه . ويشفع في سبعين من أهل بيته ، ورجل خرج في سبيل الله يحسب ماله ويكثر جماعة المسلمين بنفسه . لا يريد أن يقتل ولا يريد أن يقتل . أنه سهم غرب فقتله ، فذلك ركبته مع ركة إبراهيم خليل الرحمن في الجنة ، ورجل خرج في سبيل الله يحسب بنفسه وبماله ويكثر جماعة المسلمين . لا يريد أن يقتل ويقتل ، أنه سهم غرب فقتله ، فذلك شاهر سيفه في الجنة قبالة عرش الله عز وجل . يشفع فيمن يشاء لاتعصى له فيها عزمه يعني كلمة » .

فساوى بين نفاقهم وخروجهم وسبب قتلهم ، كلهم أنه سهم غرب فقتله ، وفضل الثاني على الأول ، لأن الأول لم يرد أن يقتل ولا يقتل . وأراد الثاني أن يقتل ولا يقتل ، وفضل الثالث على الثاني إذ نوى أكثر مما نوى ، لأنه أراد أن يقتل ويقتل .

وقد قال كعب : هي ثلاثة أسطر في كتاب الله عز وجل ، فأخبر أن ذلك عن الله عز وجل . وروى بعض أصحاب ابن المبارك : أنه رآه يمشي في طريق مكة فقيل له ، فقال : أسر الجمال وأروح عن الجمل .

فكلما نويت أكثر كان لك الأجر أكثر ، فإذا خرجت فأنوكلما قدرت عليه مما يمكن : من النية ، فإن فعلته أجرت على نيتك وعلى فعلك ، وإن لم تفعل ذلك أجرت على نيتك . فإن خرجت إلى سوقك نويت : إن مررت ببعض المجالس أن تسلم عليهم ، وإن رأيت مظلوماً أن تنصره ، وإن رأيت منكراً فاستطعت أن تغيره غيره وإلا أنكرته بقلبك ، وإن مررت بأذى أن تبيطه عن الطريق .

وتنوي إن لقيت الأصحاب والمعارف ، أن تسلم عليهم وتسألهم عن حالهم لله عز وجل على قدر أقدارهم ممن تحبه لله عز وجل ، أو تعنى به لقراءة أو غير ذلك ، نويت أن تسأله عناية منك بأمره ، لتؤجر على سلامك وسؤالك وعنايتك به وتحمده لله عز وجل أو للرحم وصلة له ، ومن كان يسراً بأن تبشر به إن لم تكن تعنى به ، نويت أن تسلم عليه ، لإدخال السرور عليه . لتؤجر في

سلامك وإدخالك السرور عليه ، ومن كان لاتعلم منه سرورًا وكانت بينك وبينه خلطة ، سلمت عليه ، لأن تُعرضه للأجر أن يحمد الله عز وجل إذا سأله ؛ وكذلك يروى عن ابن عمر أنه قال ما أخرج إلا لأسلم ويسلم على ويُحمد الله عز وجل .

وروى الفضيل بن عمرو ولم يصل الحديث قال : « لقي رسول الله ﷺ يعني رجلاً فقال : كيف أصبحت ؟ قال : صالح ، قال : كيف أصبحت ؟ قال : صالح ، قال : كيف أصبحت ؟ قال : بخير أحمد الله ، قال : هذا الذي أردت » .

وقال عمر رضي الله عنه لرجل : كيف أنت ، قال : بخير والحمد لله ، قال : عمر إياها أردت : يخبرك أنه أراد منه أن يحمد الله عز وجل ؛ ومن كان يغم إن أعرضت عنه ولم تأمن عليه أن يعصى الله عز وجل فيك ، نويت أن تسلم عليه لئلا يكون للشيطان عليه سبيل ، فتقدم النيات فيهم كذلك ، فكلما لقيت أحداً منهم ذكرَكَ قلبك ما قدمت من النية ، وإن لم تذكر كانت النية الأولى مجزيتك ما لم يعترض لك خوف مذمتهم ، أو حب محمديتهم ، أو رجاء طمع تناله منهم ، فإن عرض شيء من ذلك بقلبك ، نفيت عن قلبك ، ومضيت على نيتك ، وسلمت وسألت لله عز وجل وحده .

وكن حذراً قبل الاعتراض من الخطرة بلواعي الرياء لأن العدو حين تلقى من تسلم عليه يخطر ببالك أنه يستخفك ، أو يحملك أو يحفوك إن لم تسلم عليه ليسبق إلى قلبك ذلك ، فيشغلك أن تحتسب الثواب في سلامك وسؤالك ، فتعتقد ما خطر به ، فلا تحتسب الثواب في سلامك ولا في سؤالك ، فلا تدع أن تنوى بإفشاءك السلام على المجالس في العامة الأجر والثواب ، كما أمرك النبي ﷺ حين يقول : « أفشوا السلام بينكم » .

وقال عمار : « ثلاثة من جمعهم جمع الإيمان ، إحداهن بذل السلام للعالم » وتنوى إن يُسلم عليك أن تردّ ، فتقوم بالفرض .

ومر على النبي ﷺ رجل ، فقال : السلام عليكم ، فقال : « عشر حسنات » ثم مر آخر ثم قال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال النبي ﷺ : « عشرون حسنة » ، ثم مر آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال النبي ﷺ : « ثلاثون حسنة » يرويه الحسن ومكحول عن النبي ﷺ إلا أن مكحولا قال : قال رسول الله ﷺ : « هكذا يتفاضل الناس » . وتنوى إن سُئلت عن حالك أن تحمد الله عز وجل ، فإن لم يُسلم عليك ولم تُسأل عن حالك كنت مأجوراً ببنتك التي قلعتها ، وإن سلموا عليك فرددت ، أو سألوك عن حالك فأجبت ،

ذَكَرْتُكَ نَيْتِكَ الْمُتَقَدِّمَةَ طَلَبَ الثَّوَابِ فِيهِمْ ، فَأَجْرَتْ فِي النَّيَّةِ وَالْعَمَلِ ، وَإِنْ سَهَوْتَ فَسَلِمْتَ أَوْ سَلِمْتَ عَنْ حَالِكَ فَأَخْبِرْتَ بِغَيْرِ طَلَبِ الثَّوَابِ ، كُنْتَ مُأْجُورًا عَلَى نَيْتِكَ الْمُتَقَدِّمَةِ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً » .

فَإِذَا سَلِمْتَ أَجَبْتَ بِعَقْلِ مُحْتَسِبٍ لِلثَّوَابِ ، وَلَا تَكُنْ كَمَنْ يُجِيبُ بِغَيْرِ فَهْمٍ وَلَا احْتِسَابٍ ثَوَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَجْرُوا الْمَسْأَلَةَ بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ عَنَاءٍ وَلَا حَسَبَةٍ ، فَالَسَّائِلُ لَا يَعْزِي وَلَا يَحْتَسِبُ ، وَالْمَسْئُولُ لَا يَرَى أَنَّهُ يُسْأَلُ لِعَنَاءٍ وَلَا حَسَبَةٍ ، وَلَا يَعْقِلُ عَمَّا يُسْأَلُ لِأَنَّهُ إِذَا سُئِلَ لَوْ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُسْأَلُهُ عَنْ حَالِهِ لِعَنَاءٍ مِنْهُ بِهِ لَعَلَّمَ كَيْفَ حَالِهِ لِأَجَابِهِ عَمَّا يُسْأَلُهُ عَنْهُ ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لِلْمَرِيضِ : كَيْفَ بَتَّ الْبَارِحَةِ ، أَوْ كَيْفَ تَجِدُكَ ، فَلَمْ يَجِبْ عَنْ حَالِهِ بِذِكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ أَوْ بِذِكْرِ مَا يَجِدُ مِنَ الْوَجَعِ ، لَمَا قُبِعَ مِنْهُ بِدُونِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ : كَيْفَ أَنْتَ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ لَمَّا قَنَعُوا مِنْهُ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ مَسْأَلَتَهُمْ إِيَّاهُ عَنْ عَنَاءٍ بِهِ ، فَأَمَّا لِلْأَصْحَاءِ فَعَامَّةُ سُؤَالِهِمْ وَإِجَابَتُهُمْ عَنْ غَيْرِ فَهْمٍ وَلَا عَقْلِ ، يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ، فَيَقُولُ لَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ، فَلَوْ عَقِلَ السَّائِلُ لَمَا قَنَعَ مِنْهُ بِذَلِكَ حَتَّى يَجِيبَهُ عَنْ حَالِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ ، أَوْ يُخْبِرَ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ، وَلَوْ عَقِلَ الْمُجِيبُ عَمَّا يُسْأَلُ لِأَجَابِهِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ ، بِذِكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَمْدِهِ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَحِقُّ مِنْهُ ذَلِكَ ، فَإِذَا قِيلَ لَكَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ أَوْ كَيْفَ أَنْتَ أَوْ كَيْفَ أَمْسَيْتَ ، قُلْتَ : بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

رَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : « مَنْ سَأَلَ كَيْفَ أَصْبَحْتَ فَقَالَ بِخَيْرٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ » وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ : « إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ ، كَيْفَ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : بِخَيْرٍ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ : أَثْنَى عَلَى عَبْدِي وَحَمَدَنِي » .

فَتَنَوَى أَنْ تَجِيبَ بِفَهْمٍ وَعَقْلٍ مُحْتَسِبًا بِذَلِكَ ثَوَابَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ : فَإِنْ سَلِمْتَ فَأَجَبْتَ بِعَشْتِكَ نَيْتِكَ الَّتِي قَدَّمْتَهَا عَلَى أَنْ تَجِيبَ بِعَقْلِ مُحْتَسِبٍ لِلثَّوَابِ ، وَإِنْ لَمْ تَسْأَلْ أَوْ سَلِمْتَ فَأَجَبْتَ بِغَيْرِ فَهْمٍ ، لَمْ تَحِبْ مِنْ نَيْتِكَ الْمُقَدِّمَةِ الَّتِي قَدَّمْتَهَا ، حِينَ أَرَدْتَ الْخُرُوجَ مِنْ مَنَزْلِكَ ؛ وَتَنَوَى أَيْضًا إِنْ رَأَيْتَ امْرَأَةً أَنْ تَغْضُضَ بَصْرَكَ ، وَإِنْ سَمِعْتَ لَهْوًا أَوْ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ تُصْنَعْ إِلَيْهِ ، وَأَنْ تَعْتَبِرَ بِمَا تَرَى بِعَيْنِكَ وَتَسْمَعَ بِأُذُنِكَ وَتَشْمَ بِأَنْفِكَ فَأَنْتَ مُأْجُورٌ عَلَى نَيْتِكَ ، فَعَلْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ لَمْ تَفْعَلْ .

وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَأْتِيَ سَوْقَكَ ، نَوَيْتَ أَيْضًا مَعَ هَذِهِ النِّيَّاتِ أَنْ تَأْتِيَ سَوْقَكَ أَوْ سَبِيًّا بِأَشْكَ : صَنْعَةً أَوْ وَكَالَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لَطَلَبِ الْحَلَالِ ، وَالْإِتْبَاعِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَلِلثَّوَابِ فِي نَفْسِكَ

وعمالك ، للاكتساب عليهم ، والاستغناء عن الناس ، والتعطف على الأخ والجار . وأداء الزكاة ، وكل حق فيه واجب ؛ تأمل بذلك أن تلقى الله عز وجل ووجهك كالقمر ليلة البدر ، كما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « ومن طلبها حلالا استغفافاً عن المسئلة ، وكذا على عياله ، أو تعطفاً على جاره ، لقي الله عز وجل ووجهه كالقمر ليلة البدر » .

وتنوى الورع في سوقك ، وأن تدع كل ربح وأجرة وإصابة تعرض لك وإن كانت الدنيا كلها إن عرض لك فيها مايكره الله عز وجل .

وتنوى الإخلاص في ورعك في تجارتك ، إذا ظهر للمشتري منك ، ومن تشتري أنت منه ، أو تعامله في صنعة أو غيرها ووكالة ، وتنوى عون المسلم في تجارتك إن استعانك لجأهك أو ببصرك أو بغير ذلك ، واعتبارك بأهل السوق وبما ترى فيه . وأن تذكر الله عز وجل في السوق محتسباً ، لما جاء به الحديث : « إن الله عز وجل يعجب من الذي يذكره في السوق » .

والحديث أيضاً : « ذاكر الله في الغافل كالشاهر بسيفه خلف الفارين » ، ومن ذكر الله في السوق كان له من الحسنات بعدد كل فصيح وأعجمي ، يعنى إنسان وبهيمة .

وحديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من أتى سوقاً فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يُحيى ويميت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألفي ألف حسنة ومحا عنه ألفي ألف سيئة وبني له بيت في الجنة » تقول ذلك ، فإن كنت ماراً فتذكر الله عز وجل ، وتراقبه ، وتستحي منه أن يطلع عليك في سوقك ولا يرى عليك أثر ماخصك به من العلم كالجهال حولك فلا ترضى من نفسك ألا يراك الله عز وجل متقبلاً له ، ذاكراً له عند خوض الخائضين ، كما قال عبد الله بن مسعود : وينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بورعه إذا الناس يخلطون ، وبصمته إذا الناس ينجسون ، فليبر الله عليك أثر العلم وما ألزمك من حجه ، فتنوى هذه النيات كلها إن استطعت ، فتربح حسنات كثيرة قبل أن تريح شيئاً من الدنيا حين تخرج من منزلك ، فتزجر على عقد نياتك ، كما قال كعب في الثلاثة .

وكذلك إن غدوت إلى شئ من تجارتك ، أو تقاضى دينك ، أو قضاء ما عليك ، أو شئ شئ ، لأهلك أو يبيع شئ تريد بيعه ، أو إلى صنعتك ، نويت كل ما قدرت عليه : بما

أمكنك فيه أن تأمل الله عز وجل فيه وترجوه ، فإن الله عز وجل معطيك على قدر حسبتك وأملك فيه ورجائك من ثوابه .

وكذلك إن أردت الذهاب إلى علم ، لم تدع ما أمكنك من النية والحسبة في الطاعات ، فتغلبوا أنت تنوى أن تتبع بذلك أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ ، تطلب العلم وما ينفعك في دينك ، لتستدل به على خير أو تنهى به عن شر ، وتأمل أن يسهل الله عز وجل لك بذهابك طريقاً إلى الجنة ، كما جاء الحديث عن النبي ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » .

وكذلك تأمل أن تضع الملائكة أجنحتها لك رضاً بما تصنع ، كما رواه صفوان بن عسال عن النبي ﷺ ، ولتراحم العلماء في حلق الذكر ، وكذلك تنوى أن ترتع في روضة من رياض الجنة ، كما جاء الحديث : « إذا مررت برياض الجنة فارتعوا قيل وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر »

وكذلك السلام على من تسلم عليه ومسألته على قدر ما أمكنك ، وكذلك زيارة أخ ، أو قضاء حاجة مسلم ، أو اتباع جنازة ، أو عيادة مريض ، لاتدع شيئاً من النيات مما جاء به العلم وأمكن أن تؤمل الله عز وجل له ، إلا نويته واحتسبته ورجوته ، فإن تم لك كل ما نويت ، أجرت على ما قدمت من النيات وعلى عملك ، وإن لم يتم لك ما نويت أن تعمل به ، أجرَكَ الله عز وجل بنياتك كلها ، لأن النبي ﷺ يقول عن ربه جلّ وعزّ : « إن الله عز وجل يقول أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي عبدي ما شاء » رواه عنه واثلة بن الأسقع .

فعلى قدر ظنك به أن يتفضل عليك تجده قريباً مجيباً .

باب ما يخاف العبد على نفسه بعد قيامه لله عز وجل بحسن الرعاية في ظاهره وباطنه

قلت : فما تخاف على بعد هذا من طريق العمل لغير الله عز وجل ؟ .
قال : أما ما دمت مشغلا بنفسك ، متفقدًا لها بما أجبتك به ، فلست أبخشي عليك إلا أن توثى
من قبل النصيح والرحمة ، فيأتيك إبليس من ذلك ، وتنازع النفس إلى محبتها ، فتدرك برغبتها إلى
ماتركت من حب ثناء العباد وحمدهم من جهة النصيح والرحمة للعباد ، وهي تريد قيام المنزلة
وشرف الرياسة ، فيفسد عليك عملك ، ألم تسمع إلى ماروي كعب بن مالك ، عن النبي ﷺ
أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غم بأفسد لها من حب الرجل للمال والشرف في دينه » .
قلت : وكيف ذلك ؟

قال : إن كثيرًا من المريدين إذا تَطَهَّرُوا من الذنوب ، وجانبوا الرياء ، واعتقدوا
الإخلاص ، ومنعوا قلوبهم أن تريد غير الله عز وجل ، لم يجد إبليس موضع طمع ولم يجد النفس
موضع راحة إلى الدنيا ، فبينما العبد في إخلاصه وقوته ، قد ضيق على نفسه الركون إلى الدنيا
لرغبتها فيها ، والتصمُّع في الدين لرغبتها في زينة الحياة الدنيا ، فلا يجد موضع طمع تتروَّح به إلى
الدنيا ، ولا يجد العدو موضع طمع يُزيل به العبد إلى الدنيا ، قالعبد على العزم والقوة ، والنفس
قد قُهرت ، فهي طائعة من غير انقلاب من غريزتها ، متطلعة هل يجد موضع طمع إلى الركون إلى
محبتها ، إذ نظر العبد إلى الناس صرعى في دينهم تضرب بهم المكثلات ، حيارى سكارى مرضى ،
أضنياء صم عمى موتى ، فغلبت على قلبه الرحمة لهم ، إذ كان عنده من الدلالة والمعركة ما يفتح
الله تعالى به أبصار قلوبهم ، وما يُشْفون به من مرض قلوبهم ، وما يَحْيَوْنَ به من بعد موتهم ، من
غير غرامة تدخل عليه ، بل له على ذلك الربح العظيم من الله عز وجل .

فما مثله إلا كمثل رجل كانت به علل كثيرة ، قد أسهرته في ليله ، وأقلقت في نهاره .
كالصربان في العين ، والآكلة في الجسد فيعالج بدواء لا غمرة فيه ، بغير ثمن أخذه فبراه من ذلك
وصح ، فنام الليل بعد طول سهره ، وسكن بالنهار بعد طول قلقه . وصار إلى الصحة والعافية .
فطابت بها حياته ، وصفا بها عيشه فنظر إلى عدة من المسلمين لهم من العلل مثل الذي كان به .

طويلٌ سهرهم ، شديد قلقهم ، منغصة حياتهم . فلما نظر إليهم هاجت الرحمة لهم من قلبه . وتوجه لهم رحمة لهم ، لمعرفة لما كان يلقي ، فلما استقرت الرحمة لهم من قلبه . ذكر أن دواءهم الذى يشفى الله عز وجل به سقمهم ، هو عارف به قادر عليه بغير ثمن ولا غرامة . فعزم على ذلك وبذله لهم .

فكذلك هذا العبد المريد ، لما نظر إلى عباد الله عز وجل معرضين عن الله عز وجل . قد مرضت قلوبهم ، وأعضل دأؤهم ، وهو عارف بما يحسبهم . وينشدهم من صرعتهم ، ويشفيهم من سقم قلوبهم ، بإذن الله عز وجل ، عزم على ذلك ، فدعاهم إلى الله عز وجل . وبصرهم عيوبهم وداءهم ودواءهم .

فلما رأى العلو ذلك ، وجد موضع دعاء إلى الفتنة بالرياسة والتصنع والرياء ، وتروحت النفس ، وعلمت أن العباد لن يمتنعوا من تعظيمه وتبجيله وبره ، فانتشر عليه طبعها ، وحسنت من الإصابة من الدنيا والكرامة لأكثر مما رفضت من الدنيا ، لأنها كرامة ومترلة فوق منزلة الأمراء ، فنصحهم عند ذلك وقد قويت نفسه وفرحت وارتاحت ، ووجد عدوه موضعاً لدعاء النفس إلى حب تعظيمهم وبرهم ، وذلك أنهم إذا كانت توبتهم وشفاه أمراض قلوبهم على يديه ، صار أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم فأثروه بأبدانهم وأموالهم ، فصاروا له خولا كالخدا ، يتقربون بذلك إلى الله عز وجل ، وخصوه بأشرف المنازل ، وعظموه في السلام ، وأكرموه وبروه ، وكل ذلك بخدعة نفسه وعدوه ، إنك تجرهم وتشوقهم إلى الله عز وجل ، وقد ركنت النفس إلى أكثر مما تركت من الدنيا ، فلن تعرى من المحن والبلوى والاختبار ، فإن رُدَّ عليه شيء من قوله ، أو خطيء في عمله ، جاشت النفس فخيلت إليه وخيل إليه علوه : أنه غضب الله عز وجل ، لأن لا ينقطع المريدون عنه ويدعوا طريق الحق ، فأخرجه الغضب إلى الوقعة فيمن عابه ، لئلا يصدق في عيه ، فخرج إلى المعصية في العباد بالغيبة ، بعد تركه لأكثر الحلال الواسع ، فإن فترة عن قيام ليل أو صيام نهار ، أو كانت منه فلتة من ضحك أو غيره ، جزعت النفس أن يطلعوا على فترته وسهوه ، حتى يتكلف لهم بعض العمل . ويخيل إليه العدو أنه إنما يريد بذلك أن لا يفتروا وينقطعوا عن العمل ، فتخيل له نفسه أنه يجزع من أن يتركوا الطريق بتركه هو الطريق ، فترك طريق الآخرة .

وإنما ذلك خدعة من النفس ، لتتم رياستها . ولا ينصرفوا عن تعظيمها ولا يمتنعوا عن

تبجيلها وإكرامها ، فيجزع أن يفتنوا لفترته ، حتى قد يعتذر بالكذب وبالصدق ، كأنه إنما كان لهم يعمل ، لا لربه جل وعز .

فإذا فعل ذلك انقطعت من الله عز وجل عصمته ، ورفع عند توقيفه ، فرجع متحيراً ممرجاً لنفسه من حيث لا يعلم ، غير متفقد لها ، أخذ لها بالألا يزول عنه مظهر لهم منه ، وعن تحقيق ما يدعوا إليه ، لثلاث زول رياسته ، ولا تنضع منزلته ، فيرجع إلى معاصي الله عز وجل ، فتصير عامة طاعاته لغير الله عز وجل ، فيبقى في الدنيا كذّاباً ، يدعو العباد إلى الله عز وجل وهو فار منه ، ويذكر بالله عز وجل وينساه ، ويُظهر الزهد في الدنيا وأنه قد خربها بظاهره ، وقد رغب فيها وعمرها بباطنه ، يتحجب إليهم بما يُظهر ويتبغض إلى الله عز وجل بما يخفى ، يُظهر إلى العباد الانقطاع إلى الله عز وجل وهو عنه منقطع في باطنه .

فتعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى ، ومن العمى بعد البصر ، ومن الإعراض عن الله بعد الإقبال إليه ، ونسأله السلامة والعون على ما يجب ويرضى .

قلت : فمن أين يصح للعبد المريد النصح للعباد إذ كان كما ذكرت ؟
قال : إنى لم أقل إنه لا ينصح أحداً إلا رجع عن الصدق ، ولكن أخبرتك بما أخاف عليك إن لم تصدق الله عز وجل .

قلت : فتى يصح لي أن أنصح بغير زوال ؟

قال : إذا عرفت لنفسك أن الله عز وجل قد منّ عليك بالقوة ، وصار شأن المخلوقين عندك صغيراً ، وكان الغالب عليك نفي خطرات حمدهم وذمهم والطمع لما في أيديهم ، وسخت نفسك بعييهم لك فيما يحمذك الله عليه ، من غير محبة عصيان الله جل وعز فيك ، فغلب على قلبك اليقين بالمقدور ، فزال طمعهم عن قلبك ، فعزمت على النصح لهم . بعد معرفة منك بما يصلحهم عن كتاب ربك عز وجل وسنة نبيك ﷺ فانصحهم وأحذر أن ينتشر عليك طبعك . فكل خاطر يدعو إلى كراهة مذمة أو حب محمدة أو طمع في دنيا فارده عنك وإن خيل إليك أنك تجترهم بذلك ، فإن ذلك خدعة أن تطلب نجاتهم بهلاكك وأنت ترى أنك ناجٍ . فإذا قويت بهذه القوة ، وتفقدت هذه الخطرات فلم تقبلها ، ولم تغضب أن يستخف بشيء من حقك ، أو يردوا عليك شيئاً من قولك ، وترجع إلى الله عز وجل في ذلك ، وترضى بما قدر لك ، وتعلم أن ما تطالب من حق الله عز وجل من الحمد والثناء عوضاً من حمدهم ، وزوال ذمهم ، والطمع لما في أيديهم وأنهم مع ذلك لم يقدروا أن يوصلوا إليك ما لم يُقدّر لك ،

ولا يحمدوك بما لا يلقى الله عز وجل لك في قلوبهم قانع بعلم الله عز وجل وحده وبحمده . غير
مكترث لذنوبهم فيما يحمده الله عز وجل . غير طالب منهم ثواباً ولا إكراماً . قانع بما تأمل من الله
عز وجل من الثواب في الدنيا والآخرة فانصحبهم . وخف ترك تحقيق ما تقول بالفعل . واحذر ثم
احذر ، واستعن بالله عز وجل وتوكل عليه . ولا قوة إلا بالله ومنه العصمة وعليه التكلاان .
ونسأله تمام نعمه علينا برحمته .

تم الكتاب بحمد الله ومنه ومشيبته وعونه . وصلى الله على محمد النبي الأمي وآله وسلم
تسليماً .

رحم الله من كتبه ومن قرأ فيه ، وعمل بما فيه ، وجميع المسلمين برحمة الله إنه هو الغفور
الرحيم ، وكان الفراغ^(١) منه يوم الخميس في ذى القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسة مائة .

الفهرس

الصفحة

٥ مقدمة المؤلف
٣٣ المقدمة
٣٧ باب الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها
٣٩ باب معرفة التقوى وما هي ؟
٤١ باب معرفة ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين يلى الله تعالى
٤٣ باب شرح التقوى
٤٥ باب فى تعريف المغتر نفسه وطول غرته
٤٧ باب فى أول ما يجب على العبد معرفته والفكر فيه
٤٨ باب فى محاسبة النفس فى مستقبل الأعمال
٥٥ باب الرعاية
٥٨ باب ما يبعث العبد على التوبة
٦١ باب ما ينال به خوف وعيد الله عز وجل
٦٣ باب ما يحل به المصر لإصراره ووصف ثقل الفكرة على القلب
٦٤ باب ما تخفف به الفكرة على القلب
٦٦ باب ما ينال به اجتماع الهم
٦٩ باب وصف منازل المصرين وبم يقوى العزم على التوبة وترك الإصرار
 باب ما يجب أن يلزم القلب عند معرفة النفس ومعرفة الخلال التى يكون عنها نقص
٧٥ العزم عن الطاعة والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة
٨٢ باب معرفة حقوق الله بأسبابها وعلاها وإرادتها وترتيبها فى القيام بها والرعاية لها
٨٤ باب رعاية حقوق الله تعالى عند الخطرات فى اعتقاد القلوب

الصفحة

باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله عز وجل في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب	
والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف	٨٧
باب شرح ما يتبدأ به من أداء الفروض وترتيبها في الأداء والرجوب	٩١
باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله تعالى	١٠٦
باب بيان منازل المصيرين المقيمين على الذنوب وذكر ما يبعثهم على التوبة ، وقطع	
التسويق	١٠٩
باب الاستعداد للموت وقصر الأمل	١١٣
باب ما يهيج على معرفة كراهية الموت وكرهه	١١٦

كتاب الرياء

باب في صفة الرياء وذكره	١٢٧
باب حض العاصي على الإخلاص في عمله	١٢٩
باب في شرح الرياء : ما هو؟ والدليل عليه	١٣١
باب معرفة أن الرياء على وجهين : أحدهما أعظم ، والآخر أهون ، وكلاهما	
رياء	١٣٤
باب هيجان الرياء والدواعي إليه	١٣٧
باب وصف خوف المذمة والطمع لما في أيدي الناس	١٣٩
باب ما يكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع	١٤٢
باب ما يراءى به من العمل واللباس وغير ذلك	١٤٥
باب ما ينفي به الرياء	١٤٩
باب معرفة ما ينال به الحذر من الرياء	١٥٣
باب معرفة قوة الإخلاص على منازعة النفس عند العارض والتقي له	١٥٥
باب وصف الحذر من عدو الله إبليس	١٦١
باب الغلط في الحذر من العدو إبليس	١٦٤
باب منازل الرياء وأوقاته	١٦٦

الصفحة

١٦٩	باب وصف أعظم الرياء وأدناه
١٧٦	باب ما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها
١٨٠	باب علامة المرائي في نفسه
١٨١	باب ما يجب أن يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية
١٨٢	باب سرور العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه منه ويعد فراغه
١٨٦	باب ذم الرياء والعجب
١٨٨	باب ما يجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص فيه لله وما لا يجوز له منه
١٨٩	باب ما يجزى من النية عند ابتداء العمل ، والنية في العمل
	باب العبد يدخل العمل ، يريد الله عز وجل وحده ، ثم يجد من نفسه نشاطاً
١٩١	للزيادة ، وما تجزيه من النية في ذلك
١٩٢	باب وصف النية : ما هي ؟
١٩٤	باب معنى قوله : لا تمضرنى النية في العمل
	باب من يدخل في العمل لا يريد الله ، عز وجل ، بذلك ، ثم يندم ، كيف يكون
١٩٧	عمله بعد الندامة ؟
	باب في الرجل يدع بعض النوافل إشفافاً على الناس أن يعصوا الله عز وجل ،
٢٠٠	فيه
٢٠٢	باب إظهار العمل ليقتردى به
٢٠٤	باب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ليحضهم على ذلك ..
٢٠٧	باب عمل السر والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة
٢١٠	باب هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء ؟
٢١٣	باب ما يجوز للعبد من محبته لمحبة الناس له
٢١٥	باب ما يصح للعبد من غمه عندما يظهر للخلق من ذنوبه
٢١٦	باب في ستر المعاصي عن العباد وإن اطلع الله عليها
٢١٧	باب ما يستحب فيه الحياء وما يكره فيه
٢٢٠	باب من أين ينبغي للعبد أن يكره ذم المسلمين له ومن أين لا يكرهه ؟

الصفحة

- باب كيف يكون قلب الصادق عند كراهية المنزلة عند المخلوقين ، وجهه لإحمال
ذكره ؟ ٢٢٣
- باب استواء الحسد والذم في قلب العبد ، والفرق بين حبه لنفسه ولربه ،
عز وجل ٢٢٥
- باب في الرياء للوالدين كيرضيا ، وللعلماء ، ليستفيد به علما ٢٢٧
- باب الرجل يحضر القوم يصلون ، فتحضره نية للعمل وإن لم يكن يفعل ذلك في
خلوة ، أو ييكون فلا يجد البكاء ٢٢٨
- باب ما ينبغي به التصنع للمخلوقين في التصنع والحزن ٢٣٣
- باب ما قالوا في علامة صديق الخاشع لله عز وجل إذا رمقته أبصار العباد ٢٣٥
- باب الرجل يكون له صاحبان : أحدهما غني والآخر فقير ، فيكثر زيارة الغني وبرّه دون
الفقير ، كيف السلامة ، من ذلك له ، ومن أين فسادة ؟ ٢٣٦

كتاب الإخوان ومعرفة النفس

- باب في العبد يعزم على التوبة ، ثم يرجع ، وما الذي يقويه ويعينه على التقوى
ومخالفة الهوى والشهوة ٢٤١
- باب الرجل يخرج في الحاجة ، أو يجالس بعض إخوانه ممن يدعى أخوتهم في الله ،
عز وجل ، وهو يعلم أنه لا يسلم له دينه معهم ٢٤٤
- باب ما يستعان به على ترك لقاء الإخوان الذين يتخوف من لقائهم قلة السلامة
في الدين ٢٤٩

كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ، ودعائها إلى هواها

- باب التحذير من هوى النفس ٢٥٧
- باب بم يعرف سوء رغبة النفس ٢٥٩

كتاب العجب

٢٦٧ باب ما يؤدي إليه معرفة النفس وشرح العجب والإدلال بالعمل
٢٦٩ باب العجب بالدين
٢٧١ باب إضافة العمل إلى النفس
٢٧٤ باب الإدلال بالعمل
٢٧٦ باب العجب بالرأى الخطأ
٢٧٨ باب ما ينفي به العجب بأعمال الطاعة
٢٨٢ باب ما ينفي به العجب بالرأى الخطأ
٢٨٥ باب العجب بالدنيا والنفس
٢٨٨ باب العجب بالحسب
٢٩٢ باب العجب بكثرة العدد
٢٩٤ باب العجب بالمال

كتاب الكبر

٢٩٩ باب وصف الكبر وشعبه وشرح وجوهه
٣٠٨ باب الكبر عن العجب وتفسير الكبر بالعلم
٣١٣ باب ما يكون من الكبر عن الرياء وما يورث من الأعمال المذمومة
٣١٥ باب الكبر بالدنيا
٣١٧ باب نفي الكبر وتعريف العبد قدره
٣٢٤ باب التكبر بالعلم والعمل خاصة
٣٢٨ باب بم يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصديق ولا خدعة منها ؟
٣٣٢ باب ما يجب من التواضع للمطيعين والعاصين لينفي به العجب والكبر
٣٣٨ باب في بيان الكبر على أهل البدع وغيرهم من أهل الكفر والشرك

كتاب الغرة

الصفحة

٣٤٣	باب الغرة بالله ، عز وجل
٣٤٨	باب الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم
٣٤٩	باب التمييز بين الرجاء والغرة
٣٥٦	باب الغرة من أهل النسك وأصنافهم واختلافهم ، وغرة أهل العلم
٣٥٩	باب الغرة بالفقه
	باب الغرة بعلم العمال لله من علم الصديق والإخلاص ونقى الرياء والأخلاص المذمومة
٣٦٢	ووصف الخوف والرجاء والحب
٣٦٧	باب الغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد وغيره
٣٦٩	باب الغرة بالجلد وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان
٣٧٢	باب الغرة بالعبادة والعمل
٣٧٥	باب الغرة بالورع
٣٧٦	باب الغرة بالغزلة والفرار من الناس
٣٧٨	باب الغرة بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار
٣٧٩	باب الغرة بمن أمم التقوى وأحسن التفقد لظاهره وداخله
	باب الغرة بتقديم الغزوم بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل وبجانبه دناءة
٣٨١	الأخلاق
٣٨٢	باب الغرة بطول ستر الله تعالى وإمهاله للعبد

كتاب الحسد

٣٨٧	باب في ذكر الحسد ووصفه وتفسيره محرمه من مباحه
٣٩٣	باب من الحسد وليس بالحسد بعينه
٣٩٥	باب ما يكون من الحسد على الرياسة وحب المتزلة
٣٩٦	باب ما يكون من الحسد عن الحق والعداوة والبغضاء

٤٣١

الصفحة

- ٣٩٧ باب ما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا
- ٣٩٨ باب ما يكون من الحسد عن العجب
- ٤٠٦ باب متى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد ؟
- باب الرد على من قال : إن الحسد بالجوارح ، وأنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم
- ٤٠٧ ييده بفعل جرحه وبيان خلافه للعلم
- باب هل على الحسد مظلمة للمحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه له ؟ أو هو ذنب
- ٤٠٩ بينه وبين الله عز وجل ؟

كتاب تأديب المرید وسيرته وتحذيره

- ٤١٣ باب الفتنة بعد هدايته
- باب ما يخاف العبد على نفسه بعد قيامه لله عز وجل بحسن الرعاية في ظاهره
- ٤٢١ وباطنه

١٩٩٠ / ٢٣٦٧	رقم الإيداع
ISBN 977-62-2920-2	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ٤٣

طبع بمطبع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

هذا الكتاب ينبيء في مقدمة مؤلفات أبي عبد الله الحارث المحاسبي ، يتناول فيه رعاية الخلق لحقوق الله الخالق .
يبدأ الكتاب بالتقوى - تلك الصلة التي ينبغي أن تكون بين العبد وربه - ومنها يعطى أبواباً كثيرة متعلقة بالتقوى ومنزلة المتقين .
ثم يتناول بعد ذلك الرياء باعتباره دليلاً على النفاق وعدم الإخلاص لحقوق الله .

وبعد هذا يتحدث عن الإخوان ومعرفة النفس ، والكبر ووجوهه .
والغرة ، والحسد ، وتأديب المريد وسيرته وتحذيره ..
وهذه الموضوعات كلها تتعلق برعاية العبد لحقوق الله في السر والعلن .